فصول من سيرة الرسول

صلى الله عليه وسلم

ومباحث أخرى

الناشر : **الدار المصرية اللبنانية**
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع: ١٤٥٥٢ / ١٩٩٦
الترقيم الدولي: x - 322 - 270 - 977
تجهيزات فنية : او ـ تك
العنوان: ٤ ش بني كعب ـ متفرع من السودان
تليفون: ٣١٤٣٦٣٢
طبع: **المدني**
العنوان: ٦٨ ش العباسية
تليفون: ٤٨٢٧٨٥١
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى: شوال ١٤١٧ هـ ـ مارس ١٩٩٧م

فصول من سيرة الرسول

صلى الله عليه وسلم

ومباحث أخرى

کتابخانه تخصصی
تاریخ اسلام و ایران
۱۳۷۴

بقلم الكاتب الإسلامي الكبير
محمد فريد وجدى

جمعها وراجعها وقدم لها
الدكتور محمد رجب البيومى

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

بقلم الدكتور / محمد رجب البيومي

أسهمت الدار المصرية اللبنانية إسهاماً محموداً فى نشر مؤلفات العلامة الكبير الأستاذ محمد فريد وجدى، التى لم تُجمع من قبل فى كتب مستقلة، بل ظلت منتشرة فى أعداد المجلات منذ أكثر من نصف قرن، مما يجعل الرجوع إليها متعذرا لدى الكثيرين، مع أن هذه المقالات تمثل مرحلة الكمال العلمى التام لدى كاتبها الكبير، إذ كتب فصولها بعد أن تأكدت نظرته العملية الدقيقة لما يعانى من شرح المعضلات العويصة فى التعاليم الإسلامية بأسلوب مشـوق لايتعب القارىء، وتعبير محدّد لا يقذف به فى مهاوى الاستقراءات، وأذكر أنى حين نشرت ما كتبه الباحث الكبير عن السيرة المحمدية فى ضوء العلم والفلسفة، قلت فى مقدمة الكتاب[1].

«شاء المؤلف (بعد حديث السيرة النبوية)، أن يكتب بحوثاً متتالية قال إنه يختصها ببحث الروابط، التى جعلت من الأمة الإسلامية وليدا مستكمل الحلقات، صالحاً للبقاء على أحسن وجه، فكتب ما يقرب من بضعة وعشرين فصلاً فى تقرير مبادئ الإسلام، وإيضاح أثره فى إصلاح الكون وهدايته، وما دعا إليه من حوافظ قوية تحمى الإنسانية من الانهيار ولا نبالغ إذا قلنا إن هذه البحوث من خير ما كُتب عن رسالة الإسلام فى القديم والحديث. ولكنها

(١) السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة ص ٣٥ وما بعدها.

لاتتصل اتصالاً عضوياً متلاحماً بسيرة الرسول، ومن الخير أن تنشر فى كتاب مستقل يحمل عنوان (رسالة الإسلام)».

قلتُ ذلك فى مقدمة كتاب السيرة المحمدية، ثم أصدرت كتابين آخرين - عن الدار المصرية اللبنانية يحويان بحوثاً للأستاذ الكبير، غير ما أسلفت الحديث عنه فى هذه المقدّمة، فجاء فى خطاب كريم من أستاذ جليل ينزل منى منزلة المرشد الموّجه، يتساءل عن الفصول التى أشرت إليها فى المقدمة، ويقول إذا كان الأستاذ وجدى قد جعلها من صميم السيرة النبوية، إذ وضعها تحت هذا العنوان الكريم (السيرة المحمدية) وإن كانت لا تتصل بالسيرة التاريخية إلا من ناحية تقرير مبادئ الإسلام، وإذا كان الأستاذ قد حرص على نشر هذه الفصول فكيف تؤثر عليها غيرها فى دورة النشر العلمىّ. وهى من الأهمية بمكان كبير، قال الأستاذ ذلك فأعادنى إلى ما كنت نسيته من قبل، ورأيت أن أعجل بنشر هذه الفصول، وإن كانت فى مجموعها لا تشمل حيزًا يناسب الحلقات السابقة من كتب الأستاذ فى حجمها الكمّى، فقد رأيت أن أضيف إليها من مباحث الأستاذ ما يشبهها مما لم يسبق نشره من قبل، وأهم تلك المباحث ما نشره فى فصول جديدة تحت عنوان (الروح الإسلامية ومدى تأثيرها فى النفس البشرية) وفى فصول أخرى تحت عنوان (عناصر المدنية فى الديانة الإسلامية) لاتصالهما المباشر بالفصول الملحقة بالسيرة المحمدية، وذلك بما يتمشى مع الروح العامة لكتابات الأستاذ وجدى التى تطرأ فى كل كتبه، منذ حمل أمانة القلم، فهو من أصحاب الرسالات العلمية التى تحدد الاتجاهات الملتزمة فى كل حرف كتبه، كما لم أجد مانعاً من أن ألحق بالكتاب بعض الفصول الوجدية التى تنتمى إلى الجو العام لهذه الدراسة، فالقارئ هو الغانم على كل حال.

وقد تعودت أن أشفع هذه الكتب بدراسات تحليلية، لما هو مدوّن بها، وأرى بعد ما كتبت أن اتجاه الأستاذ وجدى قد وضح تماماً لقرائه، من أبناء الجيل

الحاضر، وأقول: الجيل الحاضر؛ لأن معاصريه الكبار كانوا يعرفونه تمام المعرفة، ومن يخالفه فى الرأى لا يخفى إعجابه بسلوكه العلمى، والتزامه الخلقى، ومن يشذ عن هذا المسلك يجد الدرس المخجل من ردّ الأستاذ فى سلوكه العفيف، رفقاً ولطفا، وتسامحاً وإغضاءً فيتعلّم منه كيف يكون الحوارُ، وأنعمْ به.

قلت: إن معاصرى الأستاذ محمد فريد وجدى يقدرونه حق قدره، ويعرفون مكانه السابق فى دنيا الفكر الإنسانى بعامة ، والإسلامى بخاصّة، فإذا أراد القارئ مثالاً لهذا التقدير فسيجد فى الفصل التالى نصاً شافياً، مما كتبه الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد عن الرجل عقب رحيله، ولن يقول العقاد فى مجال الثناء العاطر، غير ما يعتقد، والأستاذ محمد فريد وجدى بعد ذلك كلّه فى غنية عن التزكية، ولكن النفوس تطمئن بحديث صادق كتبه عملاق واثق، عن راحل نبيل.

(محمد رجب البيومى)

محمد فريد وجدى[1]

بقلم الكاتب الكبير الأستاذ

عباس محمود العقاد

هو فريد عصره غير مدافع !..

وتلك كلمة مألوفة طالت ألفتها حتى رثت وبليت وأصبحت حروفاً بغير معنى..

ولطالما قيلت عن عشرات من حملة الأقلام فى عصر واحد: كلهم فريد عصره، وكلهم واحد من جماعة تعد بالعشرات.. فلا معنى لها فى باب العدد ولا فى باب الصفات، ولاسيما صفات الرجحان والامتياز.

إلا أننا نقولها اليوم عن «محمد فريد وجدى» لنعيد إليها معناها الذى يصدق على الصفة حرفاً حرفاً، ولا ينحرف عنها كثيراً ولا قليلاً حتى فى لغة المجاز..

فقد عرفنا فى عصره طائفة غير قليلة من حملة الأقلام ورجال الحياة العامة، فلم نعرف أحداً منهم يماثله فى طابعه الذى تفرد به فى حياته الخاصة أو العامة، وفى خلقه أو تفكيره، وفى معيشته اليومية أو معيشته الروحية، وأوجز ما يقال عنه فى هذه الحالات جميعاً أنه لم يخلق فى عصره من يتقارب المثل الأعلى والواقع المشهود فى سيرته كما يتقاربان فى سيرة هذا الرجل «الفريد».

---

(١) من كتاب (رجال عرفتهم) ص ١٤٧.

نعم : الفريد حتى فى لغة الجناس، لأن اسمه فريد. . والفريد حتى فى عزلته، لأنه كان فى عزلة النساك والرهبان، عليمًا غاية العلم بالتحليل والتحريم(*). .

بدأ حياته الفكرية على مبدأ لم يخالفه قط فى أيام رخاء ولا فى أيام عسرة، فقصر طعامه على النبات وانفرد بهذا الطعام بين أهل بيته، واجتنب الولائم التى يدعى فيها إلى طعام غير طعامه.

وأخذ نفسه بسمت الأولين من عباد الله الصالحين، فتورع عن كل بدعة من بدع الضلالة أو الجهالة ينكرها الدين، وجهر باستنكاره لهذه البدع حين صمت الصياحون من الناطقين.

ذكرنا فى حديث الخديو والبكرى - فى غير هذا الفصل - قصة الطرق الصوفية يوم توديع المحمل بميدان المنشية وخلاصتها أن السيد محمد توفيق البكرى كان محنقاً على الخديو فى بعض السنين فمنع أصحاب الطرق من الخروج لموكب المحمل تحية للأمير فى ميدان الاحتفال، فخلا الميدان إلا من الموظفين المدعوين. . وغضب الأمير لأنه فهم من ذلك أنه زراية بالموكب الذى تعود أن يشهده العام بعد العام، فانتهر السيد «توفيق» وقال له بصوت مسموع على ملأ من رجال الدولة: أنت قليل الأدب. . ! وغضب السيد توفيق فانصرف من الاحتفال وهو يقول للأمير بصوت مسموع كذلك بين الحاضرين : لست أنا قليل الأدب. . إننى وزير مثلك، وآبائى وأجدادى لهم الفضل على آبائك وأجدادك. . »

ولم تأخذ صحيفة واحدة بناصر السيد البكرى فى هذا الموقف، لأن الصحف الإسلامية لا تغضب الأمير من أجل شيخ الصوفية، ولأن الصحف غير الإسلامية لم تشأ أن تتعرض لمسألة من مسائل الدين. .

(*) إشارة إلى بيت المتنبى فى وصف الأسد:

فى وحدة الرهبان إلا أنه لا يعرف التحريم والتحليلا

إلا صحيفة «الدستور» التى كان يصدرها فريد، فإنها أخذت بناصر البكرى وهو من غير المقبولين عند صاحبها لاختلافهما فى المسلك والسيرة، ولكن صاحب الدستور نظر إلى شىء واحد فى هذا الخلاف، وهو أن مظاهر الطرق الصوفية بدعة لا يستحسنها، وأن الأمير لم يكن على حق فى غضبه على شيخ الطرق لمنع حضورها.

وتتم هذه الخصلة الفريدة فى صاحب الدستور اليوم التالى ليوم خروج المحمل.. فقد اطلع البكرى على الصحيفة فأرسل إلى صاحبها بمبلغ من المال كانت فى أشد الحاجة إليه، فلم يقبل منه «فريد وجدى» غير قيمة الاشتراك لعام واحد، ثم رد إليه البقية قبل أن ينتصف النهار.

ولقد كانت أزمة الصحيفة أثراً من آثار «المبدأ» الذى لا ينحرف عنه الرجل قيد شعرة، وهو الجهر بالرأى ولو خالف القوة والكثرة وخالف أحب الناس إليه، وقد كان من رأيه عند تأليف الحزب الوطنى أن يكون تبليغ تأليفه والاحتجاج على الاحتلال عاماً غير مقصور على الدولة البريطانية، فلم يقبل مصطفى كامل مقترحه ولم يسكت فريد وجدى عن تأييد رأيه، فانصرف قراء اللواء عن قراءة الدستور ولم يكن للدستور قراء من الشيع السياسية الأخرى، فكسدت الصحيفة وعجزت عن النهوض بتكاليفها ولم يقبل صاحبها أن يعوض الخسارة بالمعونة المعروضة عليه من الجهات السياسية التى لا يوافقها.

ومن المعونات التى عرضت عليه فى أحرج أيام الأزمة معونة كبيرة من جماعة «تركيا الفتاة» يبذلونها للدستور مشاهرة ليكون لساناً عربياً لحركتهم الدستورية، ولكن على شريطة واحدة: وهى أن يرفع من صدر الصحيفة كلمة «لسان حال الجامعة الإسلامية».. فرفض الرجل هذه المعونة، ورفض أن يجعل صحيفته لساناً للحزب إلا بشروطه التى يرتضيها، ولو وافق الحزب على بقائها لساناً للجامعة الإسلامية...

وفى الوقت الذى كانت هذه المعونات تعرض عليه من شتى الجوانب -

ومنها جانب الحاشية الخديوية - كان الرجل يتحامل على نفسه وعلى القليل من موارد مؤلفاته لينفق عليها بعد تصغير صفحاتها واختصار أعدادها، فلما استنفد كل ما قدر على إنفاقه فى هذا السبيل أعلن تعطيلها وهو مدين لتاجر الورق وموظفى التحرير والإدارة بمقدار غير يسير.. فأبت عليه نزاهة النفس أن يؤخر مليماً واحداً لصاحب دين، واتفق مع تاجر الورق على استخلاص دينه من مؤلفاته بثمن يقل أحيانا عن عشر ثمنها فى المكتبات ومنها على ما نذكر معجمه المسمى بكنز العلوم واللغة وثمنه مائة وعشرون قرشاً، فاتفق على حسبانه بثلاثة عشر قرشاً، واشترط على التاجر أن يشترى النسخ التى تصرف للموظفين بما بقى لهم من متأخر الأجور والمرتبات، وحضر بنفسه تسليم النسخ واستلام الأثمان.

هذا هو الرجل الفريد فى نزاهة نفسه واستقامة خلقه وحفاظه على مبدئه ورأيه..

وهو كذلك - أو أكثر من ذلك - انفراداً بين كتاب عصره بجهوده فى مؤلفاته، فلا نعرف أحداً منهم توفر وحده على تأليف «دائرة معارف» كاملة، ولا على التأليف فى تفسير القرآن وفى معجمات اللغة والعلم، ولا على الجمع بين الدراسات الدينية والقصص الخيالية، ولا على الاستقلال وحده بإصدار صحيفة يومية، ولم يكن معه من المحررين غير كاتب هذه السطور، ولو استطاع وحده أن يؤدى أعمال التحرير خارج المكتب، ومنها الأحاديث وأخبار الدواوين، لاستقل وحده بالإدارة والتحرير.

وأشرف ما يكون صاحب المبدأ إذا كان استقلاله برأيه لا يأبى عليه أن يعرف لغيره حقهم فى الاستقلال بما يرون.

وقد كنت يوم اشتغلت بتحرير الدستور كاتباً ناشئاً، خامل الذكر، ليس لى بحق الشهرة أن يكون لى رأى مستقل مسموع، ولكنى كنت أخالفه فى بعض آرائه بل فى بعض مبادئه السياسية وبعض معتقداته عما وراء المادة وتحضير

الأرواح، وأشهر ما كان من ذلك حول موقف الحزب الوطنى من سعد زغلول، فلم يمنعنى ذلك أن أنشر فى الدستور ما يخالف هذا الموقف، وأن أحادث سعد زغلول حديثاً ينفى كل ما يعزوه إليه كتاب اللواء.. وقد صارحته غاية الصراحة فيما كان يعتقده من تحضير الأرواح وصارحنى غاية الصراحة فى أمر المتشابهات، من العقائد والأحكام فلا أذكر أننى لمحت منه عند أشد المخالفة نظرة غير نظرته حيث تقترب الأفكار والآراء.

***

ومما انفرد به فى صناعة الكتابة أنه كان يكتب منفرداً كما يكتب بين جمع من الزوار والعمال، وأن سرعة قلمه بالكتابة لم تكن دون سرعة لسانه بالكلام، وأنه كان سريع النظم للشعر كما كان سريع النسج للنثر البليغ، وإن لم يكن يشتغل بنظم الشعر فى غير موضعه من قصص الخيال..

ومن شعره فى هذه القصص الخيالية قوله:

رُمت المخاوف والمخاطر ... فرويت ما لم يرو شاعر
وجمعت ما بين البدا ... وة والحضارة والمظاهر
وشهدت ما لو قلته ... عدوه من عبث الخواطر
وخرجت من ذا كله ... بحقيقة تغنى المكابر
هى أن هذا الناس قد ... سحرتهم فتن سواحر
ظنوا السعادة فى التأ ... نق والتظرف والتفاخر
وإقامة الدور الشوا ... هق والعلالى والمقاصر
والجرى أعقاب اللذا ... ئذ والتورط فى الكبائر
بين افتتان بالقشو ... ر ووقفة حول الظواهر

أما السعادة فهى فى | أن تفتق الحجب السواتر
وتحصل السر الذى | شقت لمطلبه المرائر
وتنال من معناك ما | حُرِمَتْه همات قواصر
أن ترتقى بالروح حيـ | ـث الحق عالى القدر سافر
هذى السعادة كلها | فاظفر بها إن كنت ظافر

وله شعر فى هذه القصص يقول فيه عن المدنية :

ضل أهل الألمعيه | فى علاج المدنية
هى من أقدم عهد | عضلة العلم القويه
هى للجثمان غنم | وهى للروح بليه
والذى قر عليه الرأ | ى من أهل الرويه
أنها شر ضرور | ى لخير البشريه

ولو كانت طواعية النظم للنظام آية الملكة الشعرية لكان فريد وجدى فى طليعة الشعراء المطبوعين، ولكن سهولة نظمه كسهولة نثره كلتاهما دليل على بساطة فى الطبع، سلمت من العقد المركبة، وتقابلت فيها الأعماق والظواهر بغير حجاب من خفايا النيات وعوج الأهواء.. فلا تشق عليه سلاسة التعبير ولا سلاسة التفكير.

ومن صراحة خلقه وإيمانه باستقلال الرأى عنده وعند غيره، أنه كان يستمع إلى رأيى فى شعره فلا يغضبه ولا يهمه أن يكون له حظ من الشعر أكبر من حظه، وقد قلت له مرة: حسبك من الشعر ما يقنع قلب المتصوف ولسانه فقال: والله إنه لخير كثير، ومن لنا ببعض هذا النصيب؟

روى العالم اللغوى الشيخ عبد القادر المغربى، وهو من تلاميذ السيد جمال الدين الأفغانى، أن السيد عرض عليه الزواج فقال: إن جمال الدين وهو متزوج رب أسرة وصاحب بيت يأوى إليه بين أهله وبنيه صورة من صور الخيال أغرب من صورة الشيخ عليش وهو يسعى إلى الأزبكية ليجلس إلى حانة من حاناتها ويصفق بيديه يستدعى «الجرسون» ليأمره بسؤال من حوله عما يطلبونه من مشارب الحانات.

أقول إننى قد رأيت بعينى فى الواقع ما هو أغرب من هاتين الصورتين. وهو منظر «محمد فريد وجدى» يتمشى فى قلب الأزبكية بين المتاجر والحانات وهى لا تدرى من هذا الذى يغيب فى أطوائها بين هذا الزحام، ولعله هو أيضا لا يدرى أن هذه هى الأزبكية إلا كما يدرى الطيف فى الصور المتحركة أين يضعه المخرجون بين مشاهد الأفلام.

فقد كان السير على الأقدام من رياضات الرجل قبيل الأصيل كل نهار، وكان يمضى فى رياضته حيث ساقته قدماه، تارة إلى منازه الخلاء وتارة أخرى إلى حى السكة الجديدة، وحينا إلى قصر النيل وحينا إلى شارع جلال أو عماد الدين، ولا يحس من يراه فى مكان من هذه الأمكنة، وهو ينظر إلى ملامح وجهه، أنه يفرق بين مكان منها ومكان سواه، كأنه - لانطوائه على نفسه - يتمشى فى عالم السريرة ولا يتمشى فى عالم العيان.

وكنت أراه أحياناً فى طريقى ولا أعرف من هو بين غمار الناس، على علمى ببعض آثاره وسماعى ببعض أخباره، ومنها فى قفشات الأدباء «أولاد البلد» أنه يعيش فيما وراء المادة.. فى عطفة من عطفات عالم الروح..

فلما رأيته لأول مرة بعد إعلانه عن إنشاء صحيفة الدستور أسفت لما فاتنى من الشعور بتلك الأعجوبة التى كنت أشهدها كما يشهدها غيرى من عابرى الطريق، ولا يشعرون بها..

«ما وراء المادة» كله ينتقل إلى حى الأزبكية فى ضوء النهار؟!..

إننى لأشعر اليوم أنه منظر عجب غاية العجب: منظر أعجب من جمال الدين رب الأسرة والدار، أو منظر الشيخ عليش جليس القهوة والبار..

وقد صحبته فى رياضة من هذه الرياضات أول يوم لقيته فيه، فعلمت حقاً أنه كان يغشى تلك الأماكن وكأنه لا يغشاها، لأنه يستطيع أن يمضى فى عزلة عما حوله كما يستطيع أن يجلس إلى مكتبه ليكتب ويفكر ويناجى سريرته ولا يدرى من يخاطبهم ويخاطبونه.. إنه بعيد عنهم وإنهم بعيدون عنه، فى عالم آخر من وراء المادة.. إذا شاء أولاد البلد الظرفاء.

وكنت قد عرفته من كتاباته زمناً قبل أن أعرفه رأى العين، ولكننى بعد أن صاحبته فى مكتب الدستور من يوم إنشائه إلى يوم تعطيله - إلا فترات من الزمن لا تحسب - أرانى أستطيع أن أقول إننى كنت أعرفه من كتاباته كذلك وأنا معه فى دار واحدة، لأنه كان يعمل فى مسكنه بالدار ولا ينتقل إلى مكتبه إلا للقاء طارىء من الزوار، أو للاجتماع بلجنة من لجان الصحيفة لمراجعة أحوال الإدارة والتحرير والتوزيع، وكان يعفينى من اطلاعه على ما أكتب قبل إرساله إلى المطبعة، فربما مضى الأسبوع ولم ألقه إلا إذا طرأ من شؤون الصحيفة ما يدعو إلى مشورته أو تبليغه عنه ليتصرف فيه بما يراه.

قرأت إعلانه عن طلب محرر للصحيفة، فكتبت إليه أخبره بأننى أرشح نفسى للعمل فى الصحافة لأول مرة.. فجاءنى الرد منه بعد يوم أو يومين يسألنى أن ألقاه بدار مطبعة الواعظ لصاحبها الكاتب المعروف - يومئذ - محمود سلامة، وكنت أقرأ مقالاته النقدية ويعجبنى منه ما يعجبنى من مدرسته كلها: وهى مدرسة عبد الله نديم وأحمد سمير، وكنت أعرف مكان مطبعة الواعظ لأننى فكرت زمناً فى إصدار صحيفة على مثالها وفى مثل حجمها، قبل أن أستقيل من وظيفتى الحكومية.

فلما ذهبت إلى الموعد - بالدقيقة - أخرج الساعة من جيبه ونظر فيها، وسكت هنيهة ثم سألنى عما اطلعت عليه من مؤلفاته التى أشرت إليها فى

الخطاب، ثم اختار صحيفة من الصحف التى كانت على مكتب صاحب الواعظ وقال لى: هل قرأت هذا؟ فنظرت فى الصحيفة فعلمت أنه يشير إلى مقال عن رحلة لكاتب المقال فى العاصمة الفرنسية، كنت قد اطلعت عليه قبل ذلك. فرددت الصحيفة إليه وأنا أقول: إننى لم أذهب إلى باريس، ولكن موضع العجب عندى أن الكاتب لم يطرق منها غير الحى اللاتينى ولم يعرف فى الحى اللاتينى غير معارض الخلاعة والمجون، فهل هذه هى باريس؟ فضحك صاحبنا ضحكة تنم على كل ما فى طوية نفسه من براءة طيبة كبراءة الطفولة، وقال: هذه هى باريس كلها إذا كانت القاهرة كلها هى ما تراه الساعة.. هل لك فى رحلة قصيرة نقضى بها رياضة اليوم؟..

وسرت معه حيث سار، فلاح لى أنه كان كأنما يسير معى ولا يوجهنى إلى مكان مقصود بعينه، أو كأننى كنت أوجهه كما كان يوجهنى على السواء..

وقال لى فى صراحة لا تكلف فيها، أنه عرض علىَّ مقال الصحيفة عن رحلة باريس امتحاناً لرأيى بعد أن أغناه أسلوب خطابى عن امتحانى فى الكتابة، وبعد أن أغناه حضورى إلى الموعد - بالدقيقة - عن امتحان نظامى فى العمل.. فلى أن أعتبر نفسى محرراً بصحيفة الدستور منذ تلك اللحظة، ولى أن أسأله عما أشاء عن نظام العمل المطلوب.

ولم أسأله عن شيء من ذلك، ولكنه هو قد مضى يسهب فى بيان مقصده من إنشاء الصحيفة وبيان خطتها فى السياسة والوطنية.. ثم مضت الأيام بعد الأيام فى هذا العمل المشترك بينى وبينه لا يعاوننا فيه أحد غير أخيه - أحمد - الطالب بكلية الحقوق، وغير آحاد من زملائه الطلبة ومن وكلاء الصحيفة فى الأقاليم، ولم ينقطع عملى فى الدستور غير بضعة أسابيع تركت الصحيفة فيها لخلاف وقع بينى وبين أخيه، لاعتراضه على بعض آرائى فى السياسة الحزبية، والحق أنه اعتراض لم يكن فيه ما يسوء لولا أننى استكثرته من الأخ الأصغر وهو يعلم أن أخاه الأكبر لا يبدى على ما أكتب مثل هذا الاعتراض فيما يخالفه أو يناقضه من الآراء السياسية.

ولم ألق محمد فريد وجدى بعد تعطيل الدستور غير مرات معدودات، وكنت قد برحت القاهرة إلى أسوان ثم عدت إلى القاهرة للعلاج من وعكة قطعتنى عن العمل بضعة أشهر.

وفى حديث من أحاديث الرياضة على الأقدام كان لقائى الأول له بعد عودتى إلى القاهرة، فإننى عرفت مسكنه بعد انتقاله إليه من مسكنه بدار الصحيفة، فقصدت إليه على أثر رياضة فى الخلاء وبيدى كتاب من كتب الفلسفة الاجتماعية، فقال لى وقد نظر فى الكتاب ولمح على وجهى أعراض السقم: وفى مثل هذا الكتاب تقرأ وأنت ترتاض للاستشفاء؟..

وأذكر أننى فاتحته باعتقادى قصر العمر وقلة الجدوى من الاستشفاء، فابتسم ابتسامته الأبوية، وفتح الصفحة الأولى من الكتاب وهو يقول لى: اكتب هنا.. ثم أملى على كلاماً فحواه أننى سأعود إلى هذه الأسطر وأنا شيخ معمر، لكى أعرف أننى كنت على خطأ كبير حين قدرت لنفسى نهاية العمر القصير..

رحم الله ذلك القلب الطهور، وذلك الروح الكريم، وذلك الخلق الفريد..

إن يكن اليوم لا يُذكر حقَّ ذكراه فما هو بالخمول ولا هو بالقصور عن حق الخلود، ولكنه يعيش فى عزلة من دنيا التاريخ، كما عاش أيامه فى عزلة من دنيا الحياة.

عباس محمود العقاد

من تاريخ محمد فريد وجدي(1)

بقلم الدكتور / محمد رجب البيومي

قضى الأستاذ وجدى حياته الخصيبة مجاهداً بقلمه، لم يترك حومة الكفاح يوماً واحداً، إذ كان يقف موقف الذائد عن القيم الإسلامية فى عصر هبّت فيه زعازع الشكوك من كل ناحية، فلا يرى إلاّ متهجّماً ينتقص عن جهل أو ضغن، ولابدّ من حزم عاجل فى إدحاض الباطل، لذلك كان امتشاق القلم رسالة وجدى التى وقف عليها حياته دون سأم أو كلال.

ونحن نعهد لدى كثير من أبطال المعارك حمية مشتّطة تدفعها إلى الجدال بغير التى هى أحسن، وكثيراً ما وجد الأستاذ وجدى من هؤلاء - وفيهم من لا يصل إلى مرتبة تلاميذه - من يركب رأسه معانداً، ثم يظن السِّباب طريق الفلج، فينضح بما تفيض به نفسه من نقيصة، وكان الرجل يسمع ويرى ما يسوء ويؤلم متغاضياً، متخطّيا كل بذاء ليبحث عن شُبهة يدحضها، أو اعوجاج يقومه، بل إنك لتعجب أشدّ العجب حين تجده يقابل بالبشاشة والمحبّة خصمه، وكأنهما صديقان فى مجلس سمر، لا أن أحدهما ظالم مُسرف ينضح بالسباب.

لقد فكّرت كثيراً فى مثالية هذا الصابر المحتسب، إذا كانت فى رأيى شذوذاً عبقرياً فيما نعهد من المعارك، ونرى من الجدال، حتى رجعت بها إلى طبيعة هذه النفس الراضية التى جُبِلَت على السماحة الإنسانية حتى التصقت بها

(1) من كتاب (النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين) جـ1 ص98.

التصاقا لا انفصام به، ووراء ذلك دراسة وجدى العميقة لعلمى النفس والاجتماع، إذ رأى من أحوال الهبوط ومهاوى السقوط للنفس الإنسانية ما أخذ يبّرر معه كل شطط وجموح، ودارس النفس البشرية إذا كان نقي الفطرة سمح السّريرة فإنه يقف موقف الرائى لذوى النزق المتسلّط لا موقف الشامت المتربِّص، وهكذا كان محمد فريد وجدى فى معارضته خصومه، يتلّقى الصخر ليقذف بالزّهر وعند الله جزاؤه الأوفى.

على أن طبيعة موقفه النضالى عن دين يشمل تعاليم الحياة، ويسيطر عليها فى كل اتجاه قد فرضت عليه أن يعمق اطّلاعه، ويوسّع دائرة ثقافته بحيث تشمل علوم العصر ومعارفه الكونية والإنسانية فوق تعمقها الرصين فى أبواب الثقافة الإسلامية ومناحى التشريع الحكيم، لأن الرجل يحارب فى كل ميدان، ويقف أمام كل اتجاه يشذّ فلا بدّ من ذخيرة سريعة الحَسْم قوية السلاح.

لقد وقف - فى معركة الترجمة لمعانى القرآن - أمام نفر من المتعمّقين فى النصوص الفقهية من قارئى الحواشى ودارسى الأصول، وفى أيديهم أسلحتهم المهيئة من النصوص والقواعد والتفريعات، وكان الظن بهم أن يكونوا فى هذا المضمار أطول منه يداً، وأعمق نظراً، لأن الموضوع موضوعهم والميدان ميدانهم، ولكن الرجل المناضل قد أخذ للأمر عدّته، فقرأ وأمعن، وواجه النصوص بالنصوص، وعارض الأقوال بالأقوال، ثم فلج بالحجّة الدامغة، وجهر بالرأى الساطع وسجّل ذلك فى كتاب علمى يحمل طابع الاستدلال المتعمّق والنظر البصير! والمسألة بعدُ ليست فى حاجة إلى تعداد أوجه الرأى إذا خلصت الضمائر وصدقت النيات، لأن ترجمة المعانى غير ترجمة النصّ، ولم يقل أحد بجواز ترجمة النص حتى يشتعل الخلاف.

كما وقف - فى معركة الشعر الجاهلى - أمام التراث الأدبى بأكمله يراجع قصائده، ويدرس أعلامه، ويحلّل نصوصه، ثم يجابه المتخصّصين فى هذا الحقل مجابهة النظير وكأن الرجل قد خلص لدراسة الأدب وحده، فهو يميّز

الصريح من المنحول، ويحلّل دوافع الانتحال، ويوضح خصائص الأدب الأصيل، ويرسم الصورة الدقيقة للطبيعة الجاهلية بخاصة والعربية بعامة، فى عفّة لفظ واستقامة دليل، مع التسليم بما يراه صادقاً من كلام الخصم إذا وضح اتجاهه، وصحّ مرماه.

وفى معركة تحرير المرأة كان كفئاً كريماً لقاسم أمين، فجاء كتابه عن المرأة المسلمة صادق الدلالة على عمق ثقافته الاجتماعية وبصره باختلاف المنازع بين الشرق والغرب، وإلمامه بما تخوّف منه أساطين المشرعين فى أوروبا من انحطاط مستوى المرأة الإنسانى، حين تمتهن فى حمل الأثقال، وإدارة أدوات الوقود فى المصانع والمناجم، وقد صحّ ما تنبأ به الأستاذ، وأيّدته الشواهد المعاصرة، وكأنه كان ينظر إلى الغيب من ستر دقيق، والعجيب: أن بعض الذين ضاقوا بكتاب «المرأة المسلمة» قد شوّهوا وجهه السافر، فافتروا على الرجل بأنه ينادى بحرمان المرأة واستعبادها، ويحارب تعليمها وثقافتها، مع أن الكتاب قد طبع مرّتين، وليس به غير ما يشرف المرأة، ويصون كرامتها، وينمى ملكاتها العقلية والاجتماعية فى ظلال التعاليم الإسلامية!.

ولو لم يكن وجدى مثالى النظرة لضاق بهؤلاء الذين يحرّفون الكَلِم عن مواضعه، ويتفننون فى السِّباب والشتائم ولكنه يردّ عليهم من جديد لُيرِيهم فقط أنهم لم يقرؤوا الكتاب ولا يصفهم بما يستحقّون إذا افتروا الكذب، وخلقوا الأراجيف.

فإذا تحدّثنا عن معارك وجدى مع الطبيعيين، وأنصار نظرية النشوء فى الشرق والغرب، فإننا لا نكاد نجد مثيلاً للرجل في إحاطته بموضوعه، إذ كانت هذه النظرية فتنة العصر فى الشرق، بعد أن ظلت فتنة عصرها فى الغرب زمناً طويلاً حتى انجلت الكشوف العلمية والبراهين العقلية عمّا يعصف بها كرماد فى مهب الريح.

ومن الحظّ الحَسَن: أن وجدى قد جمع أكثر ما كُتب بصدد ذلك فى مؤلفيه: «الإسلام فى عصر العلم» و«على أطلال المذهب المادّى» ، وكانت مجلة «الحياة» التى أصدرها الأستاذ فى شبابه ميداناً لهذه البحوث، ثم واصل الجهد بعد احتجاب مجلته، فأخذ يُولى الصّحف اليومية والمجلاّت الأسبوعية بسيل دافق من نقده، وكم صمد لأُناس بهرتهم الزخارف، فأخذوا يترجمون ما لا يعقِلون، دون أن يسأم تكرار القول أو تضايقه حماقة الادّعاء.

أما دفاعه عن العقيدة الإسلامية فى أصولها المقرّرة: فقد ألجأه مضطراً إلى مناوأة من يناقشونه فى مسائل التثليث والصّلب والفداء، والرجل فى أعماقه يودّ أن يفرغ لتوضيح النظرات الإسلامية وحدها دون شغب طائفى يعدّد جبهات القول دون مبّرر، ولكنه يرى الهجوم يتوالى على العقيدة الإسلامية، ممّن يزنونها بالعقائد المخالفة، دون أن يعدلوا فى القول، ويزيدون فيفترون على الله كذباً بما يلصقونه بالقرآن من أقوال يتكلّف لها التأويل، والسكوت على ذلك كله مما لا يطيقه مجاهد أمين، كالأستاذ فريد وجدى، فأدلى بدلوه فى الدلاء متعرضاً لسفاهة السافهين، وكان قُصاراه مع لجاجتهم الشائنة أن يقول كما قال الله : ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾(1)!.

إن دراسة المعارك الوجدية فى شتى اتجاهاتها الفكرية تتطلّب من يتخصّص لتحليلها من الدارسين، لأن هذه الوقفات الرائعة فى تاريخ الفكر المعاصر، جديرة بالاحتذاء من ناحيتين لا من ناحية، إذ أن سموها الخلقى وبراءتها المثالية من شوائب التعريض والغمز، مما تجعل لها قيمة خاصة فوق قيمتها العلمية. وقد كان الأستاذ وجدى من عشّاق النزاهة الفكرية، إلى درجة لا مثيل لها فيما نشهد ونسمع، حتى أن هذه النزاهة الرائعة كانت إحدى عوامل خسارته المادية فى دنيا الصحافة!. وهى خسارة لا تقع على الرجل وحده، بل

---

(1) آل عمران : ٧١.

تقع على كل من يشرئب لحماية المُثُل الراقية من المتطلّعين، ومن حديثها ما نعلمه عن إفلاس جريدة «الدستور اليومية» التى أنشأها الرجل لتنطق بمبادىء الحزب الوطنى، إذ كان أحد أعضائه البارزين، كما كان موضع التقدير من زعيمه الكبير مصطفى كامل رحمه الله، وبين الرجلين من المراسلات ما ينطق برعاية كلٍّ منها لصاحبه واجتبائه إياه.

وقد حدث أن عارض وجدى بعض ما ارتآه أعضاء الحزب من اتجاهات فى السياسة معارضة نزيهة، وكان يظن أن انتماءه السياسى لهذا الحزب الكبير لايحول دون نقده حين يتّسع مجال النقد، فجهر بما يعتقد فى أدب وذوق، ولكن شباب الحزب وأكثرهم من ذوى العجلة المتسرّعة قد ناوؤا الرجل، وحرّصوا على إهمال جريدته حتى كسد سوقها واضطر الأستاذ للدفاع عن رأيه حين قال : «إنى لا أنتبذ الدستور مكاناً بعيداً عن الاحزاب إلاّ ليكون واسطة اتحاد واتفاق بينها، ووافقًا موقف المراقب لأعمالها، حتى لا تحرم الأمة من جريدة غير متحزّبة فتضيع الحقائق وتنطمس المعالم، ولا يكون للطرفين وسط أما أنا فواحد من أعضاء الحزب الوطنى، أعترف بأن مبادئ هذا الحزب هى المبادئ الصحيحة، التى يجب على كل مصرى أن يأتم بها، ويتخذها له دستوراً، لكن هل يغيب عن حضرة الأخ أن كونى من الحزب الوطنى معترفًا بزعامة مصطفى باشا كامل لا يمنع أن أنتقد خطبته، وأن أبين للشبيبة موقع الخطأ والصواب على ما يقتضيه واجب الصحافة! هل تمنع الإنجليزى إنجليزيته عن الانتقاد على خطبة ملكه أو زعيم حزبه؟. إذًا ما فائدة الجرائد؟ وما معنى التناصح والتعاون فى الخدمة والمساعدة فى تقويم الآراء؟.. وما فائدة إصدار جريدة الدستور؟ وفى مصر جرائد لا تحصى، وأنا فى غنى عن الكسب من جهته إذا كنت لا أملك حرية الانتقاد فيما أعتقده واجباً ضرورياً».

هذه الحرية المثالية لدى الكاتب الكبير كانت تزداد أجمل ازدياد بالموعظة الحسنة، والمجادلة بالتى هى أحسن، وأذكر أن الزعيم مصطفى كامل رحمه الله كان لا يرى رأى وجدى فى هذا الرفق الليّن، إذا اتجه به إلى خصوم الإسلام

ومناوئيه فقد رد فريد رحمه الله على اللورد كرومر رداً مهذّباً حين هاجم الدين الإسلامى فى تقريره الأخير، وشفع نقضه الصريح بالحجج العلمية الحاسمة فى أربعة فصول هامّة، فسحت لها جريدة «اللواء» موضع الصدر البارز بين المقالات، ودفعت الزعيم الشاب إلى رؤية وجدى ومحادثته، ولا نرى أفضل من أن ننقل عن الأستاذ وجدى ما دار بينه وبين الزعيم الكبير بصدد هذا الموضوع حين قال[1]:

«جلس هو على مكتبه وجلست بجانبه، وانتبذ القوم الذين معنا مكاناً من الحُجرة، وأخذوا فى شأنهم، فطفق صاحبي يكلّمنى فى أمر الردّ، ويُظهر لى أنه مسرور جداً من مبادرتي بنصرة الدين وكَبْتِ خصومه الملحدين، وأطنب فى ذلك ما شاء، ثم قال لى: هذا كله حسن، ولكنى أرى فى مقدمتك ليناً فى اللهجة، لا يصحّ أن تكون عليه مقدّمة ردّ مطاعن على الإسلام وجّهها إليه رجل من غير أبنائه لا هم له إلا جرح عواطف المسلمين وتسوئ سمعتهم.

فقال له أليس إلانة القول مع قوة الحجة خير من الشدّة التى ربما نفّرته من قراءة البحث كله فيفوتنى الغرض من كتابته، وهذا فرعون موسى الذى افتأت على الله، وادّعى الألوهية قد أمر الله موسى عندما أرسله إليه أن يقول له قولا ليّنا لعلّه يتذكّر أو يخشى، وأمرنا الله بذلك نصاً فقال: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[2]. وما الذى يضيرنى لو ألنت له المقدمة استدراجا حتى إذا تورّط معى فى البحث وأنست روحه منّى قصد الحقيقة اطمأن إلى الموضوع وأشربه قلبه.

فقال: كلا إنك لم تلن له القول فقط، بل عذرته فيما قال أيضاً، وقلت: إن فى المسلمين من يقول مثل مقالة كرومر افتتاناً بالعلم الأوروبى، وكفى

---

(١) نشر هذا القول بجريدة الدستور، عدد ١٦، فبراير سنة ١٩٠٨، وقد نقلته عن الكتاب القيم الذى أصدره الدكتور البحاثة طه الحاجرى عن فريد وجدى، ص ١٤٧، ١٤٨، وهو أول تاريخ دقيق لفترة من حياة الرجل العظيم.

(٢) النحل: ١٢٥.

بجملتك هذه مبرئاً فى نظر أهل دولته. ولا يبعد عليه أن يقول فى تقرير السنة المقبلة فى تبرئة نفسه: إنه معذور فيما ذهب إليه، بدليل ما كتبه فلان فى جريدة «اللواء» ويسرد عبارتك بالنص، فتكون قد أعطيته أكبر سلاح يدافع عن نفسه.

فقلت له: كل هذا ممكن، ولكنى لا أنظر إلى هذه الاحتمالات ما دام موضوعى الذى أبحث فيه دينى، ورب الدّين يقول: ألينوا القول للمخالفين ولا تخاشنوهم عند دعوتهم إلى الإيمان.

قال: يا أخى نحن فى موضع يجب أن نبث فى الأمة روح الحميّة، والعبرة بالكتابة المؤثرة، وهذه فرصة من أجمل الفرص لذلك، لا أن نقابلها وهى فى هذا الغليان الوجدانى بما يكسر نفوسها ويطمئن من إشراقها»

أسهبت فى نقل هذا الحوار، ليعلم القارىء مُثُل الأستاذ وجدى وقيمه التى تسيطر على جهاده القلمى، وهى مُثُل كان من المحتمل أن تتعرّض لما يزعزعها بعض الشىء فى نفسه، ولكن إيمانه الراسخ بجدواها اليقينية وثمرتها المبتغاة قد مكّن لها من نفسه رغم ما ينوشها من الهزّات.

وفى ضوء هذه المُثُل كان الكاتب الكبير يقابل السيئة بالحسنة فى بشاشة وإقبال، لقد بذل عُصارة فكره، وبدّد هدوء نفسه، وجمع أشتات قوّته، سنوات طوالاً ليُخرج «دائرة المعارف» فى عشرة أجزاء ضخام، كان يتوقع بعدها أن يجد التقدير المُنصِف والتشجيع الهادف، ولكنه وجد الدكتور: محمد حسين هيكل يكتب فى «جريدة السياسة» (٨/ ٤/ ١٩٢٥) فصلاً طويلاً ينتقص عمل الرجل، ويقلل من شأنه، ويقول في نهايته: «إن الاضطراب بين الإهمال والإسهاب والإيجاز يرجع إلى أسباب ليس انفراد السيد فريد وجدى بالبحث أهمها، إنما أهمها أن ليس للمؤلف نهج ولا خطة، ولو كانت ثمة خطّة، واتّبعت لما كانت هذه العيوب واضحة، ونحسب أن هذا يرجع إلى نوع تربية السيد فريد وجدى العلمية، فهو كثير الاطّلاع والمراجعة لكنه فى اطّلاعه ومراجعته لا يصدر عن أساس ذاتى خاصّ»

أجل، وجد الأستاذ فريد وجدى ذلك، وأكثر من ذلك من الدكتور: محمد حسين هيكل، فهل منعه هذا التحامل الظالم أن يسكت عن كلمة الحق فيه، حين أصدر كتابه الشهير: (حياة محمد).

لو كان المنقود شخصاً غير فريد لأغضى وتهاون متذكّراً ما أسلف هيكل له من جحود، ولكن الأستاذ المثالى محمد فريد وجدى يكتب مقالاً فى تقريظ الكتاب الرائع ـ من وجهه نظر ذاك العصر، وفى الكلام نظر ـ يقول فيه[1]:

«فإذا تصفّح القارئ الكتاب رأى نفسه حيال بحوث مستفيضة تتجلى فيها ألمعيّة الدكتور هيكل تجلياً باهرا، تضطره بسحر بيانها أن يقتفى أثرها فى أدوار هذا التاريخ الحافل بالعظائم، فتمر به صفحات أملاها الإيمان الراسخ، والفهم الثاقب والغوص البعيد الغور، مما لانبالغ إذا قلنا: إن هذه الصفحات من حسنات هذا العصر فى البيان والعمق، ولا نشطّ إذا حكمنا بأنها من الطرائف التى كتب لها الخلود».

إن اصطناع الصخب المفرقع والرنين المدوّى فى النقد العلمى قد يشفى لجاجة بعض من يحسبون أنفسهم حُماة السّرح وفرسان الميدان، ولكن هذا الصخب فى واقع أمره يضائل من أدلتهم المقنعة، ويرسل غيومًا تطمس معالم الحق لدى المنقودين، وإن تجربة الأستاذ فى التزام السكينة، واحترام المعارض مهما اتّسعت الشقّة بينه وبين مخالفه لتجربة جديرة بالالتزام، إذ عادت بأطيب الثمار على الحقيقة قبل أن تعود بالرضا المُقنِع على الناقد والمنقود.

أذكر أن إسماعيل أحمد أدهم ـ وله فى الإلحاد وجهه الصريح ـ قد كتب مؤلَفاً تحت عنوان: «لماذا أنا مُلحد» حشاه بما يهرف به الطبيعيون من لغط حول المادة، وبُطلان السبب الأول، والصدفة والاحتمال الفرضى مما هو معروف لدى أمثاله، إذ أطالوا الخوض فيه إطالة لا تميل إلى اعتدال، وقد ظنّ الدكتور أدهم أنه بكتابه قد ألزم مُخالفيه الحجّة وجاء بأنصع الدليل، ولكن الأستاذ فريد

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد السادس، ص ١٣٦.

وجدى ـ والميدان ميدانه ـ قد نسف الكتاب نسفاً بمنطقه الدقيق فى بحث علمى مُركز نشره بالمجلد الثامن من مجلة الأزهر، حيث أشبع القول إشباعاً تكشف به عوار هؤلاء المندفعين!.

وقد قرأت الكتاب والردّ عليه منذ زمن بعيد، ثم أُتيح لى أن أصادق الكاتب المجيد الأستاذ صدّيق شيبوب ـ رحمه الله ـ وكان صديقاً لأدهم، فذكر لى أن الدكتور أدهم جاءه ذات يوم ومعه مجلة الأزهر وهو يقول: لقد أدهشنى الأستاذ وجدى بمسلكه النقدى وأدبه الحوارى، حتى أوقعنى فى حيرة بينى وبين نفسى!، لقد التمس لى العذر حين بحث عن أسباب هذا الإلحاد فى تربيتى العائلية، بين أم مسيحية وأُختين تُكذبان الإنجيل ثم كرّ على أدلّتى بأسلحة علمية لا تعرف المهاترة!، فأنا حائرة ماذا أقول فيه؟

وإذا صدقتنى الذاكرة فإن الأستاذ الشاعر: حسن كامل الصيرفى قد نقل لى فحوى ما تقدّم عن صديقه أدهم أيضاً.

ألا يرى معى القارئ بعد ذلك أن موضوعية وجدى وبُعده عن الإسفاف النقدى أقوم السُّبُل وأجدرها بالاحتذاء لدى المنصفين؟.

إن لصاحب دائرة المعارف فضله الكبير على الثقافة المعاصرة، ومقامه الجهير فى الذّود عن الإسلام، وما أظن أن مقالنا عنه يَفِى بصُبَابَةٍ من حقّه وإنه لَحقٌ جليل.

د. محمد رجب البيومى

کتابخانه تخصصی تاریخ اسلام و ایران
١٣٧٤

القسم الأول

فصول من السيرة المحمدية [١]

(١) نشرت فصول هذا القسم بعنوان (السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة)، وقد وضع المؤلف عناوين فرعية لبعض هذه الفصول أثبتناها كما هى، وما جاء خلواً من العنوان الفرعى قد تخيرنا له من العناوين ما يناسب

أعمال النبى صلى الله عليه وسلم
وآثاره الخالدة

نبغ فى العالم رجال خدموا فيه أممهم والإنسانية فى الدين والعلم والسياسة والصناعة وغيرها خدمات جليلة خلّدت ذكراهم بين الناس، ولكن ليس فيهم واحد يبلغ شأو محمد ﷺ فى جلالة ما أداه لقومه وللإنسانية من أعمال، وما خلفه لهما من آثار.

يقوم رجل واحد مجرداً من جميع وسائل الإغراء والتسويل، فى جماعة من أعصى جماعات البشر على الانقياد، وأبغضها للتآلف والاتحاد، فيؤلف منها أمة محكمة الأواصر، مبرمة الأواخىّ، فى بيئة كل ما فيها ينازعها البقاء: أرضها ، وسماؤها، وأهلها، وحالتها الاقتصادية، فتقاوم كل هذه العوامل المحللة، وتثبت على ما كانت عليه راسخة الوطائد، راسية القواعد، حتى تتصدع على صخرتها قوى تلك القوارع، ثم تنهض لتشغل مكان الزعامة من أمم العالم، وتبلغ هذه المنزلة فى جميع ضروب النشاط الاجتماعى والعلمى والعملى، ويبقى سلطانها ممتد الرواق عليها قرونًا متوالية، ولا تزال حتى بعد أدوار شتى من الضعف والذبول، تحاول أن تسترد مكانتها الأولى، بما أُودع فيها من ضروب المنازعات الأدبية والمادية، وما طُبعت عليه من عوامل التطور والتجدد؛ قلنا يقوم رجل واحد فيضع أساس مثل هذا العمل الجلل، يجب أن يعتبر أمة واحدة، وأن يعطَى أجل وصف يمكن أن يحمله إنسان فى هذا العالم، وأجل وصف هو رسول من قيّم الوجود للناس كافة.

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد الخامس عشر سنة ١٣٦٣ هـ ، ص ١٣٠.

هذه الناحية هى الناحية المادية التى لايمكن نكرانها، ولا التقليل من قيمتها، حتى فى نظر أشد خصوم الإسلام تعنتا. أما الناحية الأدبية من عمل محمد، وهى جملة ما أتى به من تعاليم، وما أصّله من أصول، وما أحاطها به من حوافظ، وما متعها به من مناعات، فمما لا سبيل إلى بيان جلالته إلا فى فصول متوالية، ليمكن أن تختبر بجميع ضروب الآلات الدراسية، والتحليلات العلمية، مما سنقوم به إن شاء الله فى هذه المجلة.

* * *

ترك رسول الله ﷺ الأمة التى ألفها، على أكمل وأحكم ما تكون عليه أمة، من متانة الربُط، واستحكام العرى، وتوثق الصلات، وابتليت بأشد دواعى التفرق من ساعة وفاة النبى ﷺ، حين اختلف المهاجرون والأنصار فى تعيين خليفة له، فخرجت منها أتم مما دخلت وحدة، وأشد ائتلافا.

ذلك أنه لما انتشر خبر وفاة رسول الله اجتمع كبار الأنصار وهم أهل المدينة، وأخذوا يتشاورون فى تعيين أمير منهم يتولى أمور المسلمين، ويدبر شؤونهم، فأسرع إليهم المهاجرون، وهم أهل مكة تحت رئاسة أبى بكر وعمر، وتداولوا مع الأنصار الكلام فيما بينهم، وكانت رغبة المهاجرين متجهة إلى تعيين خليفة لرسول الله منهم، وخالفهم أهل المدينة، وأدلى كل من الفريقين بحججه على صواب مذهبه، ثم انتهى الأمر باقتناع الأنصار بحجة المهاجرين، وبايعوا بالخلافة أبا بكر.

هذه الحادثة لا يجوز أن تغفل دون أن تعطَى حقها من التأمل والتقدير. ذلك أنه كان بين أهل مكة وأهل المدينة منافسة يرجع تاريخها إلى عدة أجيال، وكانت بين الجماعات حروب تركت آثاراً عميقة فى النفوس؛ ثم جاء الإسلام وخذل أهل مكة دعوته؛ وجدُّوا فى إحباطها، فاضطر النبى أن يلجأ فى نصرتها إلى أهل المدينة، فلبوه مشمرين، وطلبوا إليه أن يهاجر إليهم مع أصحابه، ففعل وفعلوا، فقابلهم المدنيون مرحبين، وأنزلوهم منزلة الكرامة، حتى

شاطروهم أموالهم، وبذلوا أنفسهم فى سبيل نصرة الإسلام، واضعين بين يدى رسول الله كل ما يملكون، ومازالوا يوالون الدعوة بالجهاد والبذل حتى تم لها الظهور، وكان رسول الله ﷺ يصرح فى كثير من الأحوال بأنه راض عن الأنصار، ومقدر لهم جلالة ما يعملون، وجاء ذكرهم فى القرآن أيضا مشفوعاً بثناء عظيم.

ولو تأملنا فى كل هذا حق التأمل، وقدرناه بمعايير الطبيعة البشرية، تجلى لنا أن خضوع المدنيين (فى مدينتهم) لحكومة يرأسها (مكى)، يدل على انقلاب ذريع طرأ على النفسية العربية، وتبدل كبير حدث فى عقليتها. ومتى أضفنا إلى ذلك أن هذا الانقلاب والتبدل حدثا فى عشر سنين، زاد تعجب المتأمل، وبخاصة لو كان ممن لهم إلمام بالعلوم النفسية والاجتماعية، وكاد أن يشك فى صحته، لولا أنه من الحقائق المقررة تاريخيا.

ولا يمكن أن يغيب عن ذاكرة الذين ألموا بتواريخ الانقلابات العالمية، ما كان بين المدن ذات السلطان المادى فى الأمة الواحدة من التنافس على التفرد بالزعامة؛ فقد نافست لاسيديمونيا عاصمة جمهورية لاكونيا، مدينة أثينا عاصمة قسم أتيكا، وكلاهما من بلاد اليونان، على السيطرة على الأمة اليونانية قاطبة، وحدثت بينهما حروب كثيرة انتهت بانتصار لاسيديمونيا، وكان ذلك سببا لضعف القسمين معا، ووقوعهما تحت السيطرة الرومانية.

ومسألة السيادة على الأمة العربية بين مكة والمدينة كانت جديرة بأن تكون مثلاً يضرب فى تاريخ المنافسات المسلحة، ولكنها انتهت على ما رأيت من الاتفاق، كما يحدث بين أخوين شقيقين من النزاع، وينتهى على أكمل مايكون من التفاهم .

هذه الحادثة وحدها تشعر بأن النبى ﷺ ترك الأمة الإسلامية وهى من قوة الترابط، وتوثق التماسك، بحيث لا توجد أمة فى ذلك العهد تشبهها فيه، إلا إذا كانت بعيدة العهد فى المدنية، وعلى جانب عظيم من الآداب الاجتماعية.

وأعجب من كل ما مر، وأدل على أن الوحدة الاجتماعية قد بلغت إلى أبعد شأو يمكن أن تصل إليه فى الأمة الإسلامية، أن المكيين تولوا الحكم على العرب كافة، وعلى الأنصار أيضاً فى مدينتهم، ولم يعودوا إلى مكة ليقيموا فيها حكومتهم، بجوار الحرم الذى يحج إليه المسلمون. وهذا يشعر بأن الإسلام قد أحدث فى عقول جماعته انقلاباً بطلت معه جميع الاعتبارات القومية، والشكليات التقليدية، فكما خفتت عندهم النعرة القبيلية، تلاشت فيهم كل العادات الوراثية، وانصرفوا إلى أمر واحد، وهو أن يقيموا الدين الجديد، وأن يقوموا علي صراطه من التجرد من جميع ما كانوا عليه، كأنهم صُهروا وصُبوا فى قالبه صبا جديداً.

وإلا فكيف تعلل كل هذه الانتقالات المادية والأدبية، وكل منها لا تستقر فى الأمم إلا بعد مرور أجيال عليها لتتمرس بها، وتنطبع بطابعها؟ فلا علم النفس ولا علم الاجتماع يستطيع أن يدرك لهذه الانقلابات الذريعة عللاً معقولة؛ خاصة بالنسبة لأمة أمية ، وصْفها المميز التمسك بعاداتها وتقاليدها الموروثة، وعدم التحول عنها قيد أنملة.

يقول معترض: ألم تر أن أكثر القبائل العربية ارتدت عن الإسلام بعد وفاة النبىﷺ، وما عادت إليه إلا والرماح مشرعة إلى صدورها، والسيوف مصلتة على أعناقها؟

أقول: لست عن هؤلاء أتكلم، ولكنى أتكلم عن الأمة التى رباها رسول الله تربية روحية وهو بين ظهرانيها، وجعلها نواة للأمة الإسلامية المستقبلة، أما رأيتها تغلبت على هؤلاء المرتدين، وقمعت القبائل التى خرجت على الإسلام وردتها إلى حوزته؟

هذه الأمة التى خلفت النبى ﷺ فى مبادئه، هى التى فتحت العالم للإسلام، ونشرت كلمته بين الأنام، وحافظت على أصوله ما استطاعت، حتى أقامت لهذا الدين دولة لم تَنْبَغ لأمة قبلها ولا بعدها إلى هذا اليوم.

فوجه الإعجاز فى قيام الأمة الإسلامية على هذا النحو من التماسك والترابط، حتى تعجز أقوى عوامل التفريق عن فصم عراها، هى فى حد ذاتها من الأمور التى تقضى بالحيرة فى تعليلها تعليلاً علمياً، لأن الترابط الاجتماعى يقتضى رابطة، وليست كل رابطة تصلح لكل جماعة فى كل زمن وفى كل الأحوال، فما كنه هذه الرابطة التى لمت شعث هذه الأمة التى طبعت على البداوة، تحت تأثير علل قاهرة طبيعة البيئة التى نشأت فيها، وضرورة انتقال جماعاتها من بقعة إلى أخرى، طلبا للكلأ الضرورى لماشيتها، حتى إن من لجأ إليها من بنى إسرائيل هربًا من الاضطهادات الدينية، اضطروا لأن ينقسموا إلى قبائل: كبنى قريظة وبنى قينقاع ويهود خيبر... إلخ.

ولقد كان العرب يعيشون على الحالة القبيلية حتى فى داخل المدن القليلة، التى كانوا اتخذوها مباءات لهم، كمكة ويثرب والطائف؛ فلم يكن لهذه المدن حاكم عام يحكم جميع من فيها، ولكن كانت كل قبيلة تسكنها مستقلة فى أموره، كأنها فى وسط الصحراء؛ حتى أن سكان يثرب (المدينة) كان بين القبيلتين اللتين تسكنانها حروب طاحنة، استمرت مستعرة قبل الإسلام عشرات من السنين .

* * *

قلنا إن الأنصار والمهاجرين بايعوا أبا بكر على خلافة النبى ﷺ، ومن العجيب العاجب أنها طريقة دستورية وُفقوا إليها بحكم التعاليم التى كانوا عليها، وهى لا تفترق عن طريقة التصويت العصرية، وفيها اعتراف ضمنى بسلطان الأمة، التى هى حرة فى إسناد حكومتها إلى من تشاء ومن طريق التوكيل.

ومن المحير للعقل أن الشرط الرئيسى لمسئولية الحاكم أمام الأمة، قد توافر فى هذه الحكومة بتقيده بأن يحكم بكتاب الله وسنة رسوله، وهل هما شىء غير الأصول والقواعد الواردة فيهما، مما يضمن المساواة والإنصاف لجميع آحاد الأمة؟ وهل هذا شىء غير ما يسمى الآن بالدستور.

وقد أعلن أبى بكر على رءوس الأشهاد فى أول خطبة له بأنه لو حاد عن الكتاب والسنة فلا طاعة له على أحد، وقد استعملت الأمة حقها هذا على عهد الخليفة الثالث فعزلته وأقامت غيره، وهل هذا شيء غير الاعتراف بسلطان الأمة؟

فمن أعجب الأمور أن تتجلى الحكومة الدستورية كاملة فى أول هيئة إسلامية تتألف على أصول الكتاب والسنة، مما يشعر بأنهما يؤلفان قالباً واحدًا لا يخرج منه إلا كل مثل أعلى؛ وبهذا أصبحت الأمة الإسلامية أول أمة دستورية ظهرت على سطح الأرض، فإن لم تكن استوفت جميع مظاهرها الشكلية، فإنها أتت بلباب الديموقراطية الصحيحة، وعملت بها وصارت لها القُدمة فيها.

وإنا لنرجو أن نوفق فى المقالات التالية إلى دراسة كنه الروابط، التى جعلت من الأمة الإسلامية وليداً مستكمل الخلقة صالحاً للبقاء على أكمل وجه، وحاصلاً بالقوة على جميع بواعث التطور والارتقاء.

الترابط القوى بين المسلمين

شرعنا فى دراسة أعمال خاتم المرسلين محمد ﷺ، وأبنّا فى المقال السابق ما كان عليه المجتمع الذى خلفه من استحصاد الروابط واستحكام الأواخىّ، بحيث لم تكف أقوى المحللات التى تلقته وليدا أن تفصم له عروة، أو تنقض له وشيجة، وقد أكبرنا هذا الأمر، وعددناه من أعجب الظواهر الاجتماعية، ولم نغفل ما تحلى به، وظهر أثره فى أدوار حياته، من حوافظ كالئة، ومناعات وافية، وعوامل للتطور مواتية، مما سمح له أن يمثل فى تاريخ الإنسانية أكبر دور مثلته جماعة على الأرض.

واليوم نحاول أن نفهم سر هذا الترابط الاجتماعى الخارق للعادة، وبلوغه أقصى ما يتصور أن يصل إليه فى سنين تعد على الأصابع، وهو من المحاولات العلمية، كما بينا ذلك مفصلاً، ولا يتأتى لنا إدراك هذا السر إلا بالبحث فى أنواع العوامل التى تربط آحاد الجماعات بعضهم ببعض، والمقارنة بينهما وبين العوامل التى جمعت بين آحاد الأمة الإسلامية الأولى، لعلنا نجد فى ذلك ما يفيد علم الاجتماع، أو على القليل ما يفيد المسلمين المعاصرين، وهم أحق من سواهم بالاستفادة من هذه البحوث.

المعروف فى علم الاجتماع أن الإنسان من الكائنات التى لا تعيش إلا مجتمعة، وفى العالم الحيوانى من ذلك أمثلة كثيرة، كالنمل والنحل وغيرها، والعامل الوحيد الموجب للاجتماع هو تيسير العيش، وحفظ الذات من معاطب الانفراد. وقد قامت الجماعات الحيوانية والإنسانية على هذه الحال بالإلمام

---

(١) مجلة الأزهر، السنة الخامسة عشرة سنة ١٣٦٣هـ ص ١٧٧.

الإلهى. ونظراً لأن الإنسان قد وُهب عقلاً يتدبر به الأمور، وينظر به فى كل ما يحيط به، فإنه وسّع من روابط الاجتماع حتى جعلها تشمل المصالح المادية والمعنوية المشتركة، فقامت بإزاء الجماعات الفطرية الصغيرة التى تدعى بالقبائل، جماعات تدعى بالأمم أو الشعوب، تحميها روابط أعم من تيسير العيش وحفظ الذات، كوحدة اللغة، والجنس، مما لم تكن وصلت إليه الأمة العربية مع وحدة جنس قبائلها، ووحدة لهجاتها إلى حين البعثة المحمدية، حتى لم يقم فيها داعية إليه، ولأن طبيعة البيئة العربية تأباه.

فلما بعث محمد ﷺ أوجد فى عالم الروابط الاجتماعية تطوراً لم يعهد من قبل، ولم يتوقعه أحد. ذلك أنه أقام المجتمع الذى دعا إليه على الأصول الأدبية، والمبادىء العالمية، لا على سبيل العيش، ولا على حفظ الذات. وهذا النحو فى تأليف الاجتماعات لا يعتبر تجديداً فحسب، ولكن يعتبر تطوراً جديداً بكرامة الإنسانية، ومناسباً لما يلازمها من الميول التى تمتاز بها عن الحيوانية، وتجعل للبشرية مكاناً خاصاً بين العوالم الطبيعية.

ذلك أن الرابطة الاجتماعية الساذجة التى لا تتعدى التعاون على طلب العيش، وحفظ الذات من العطب، إن كانت قد ولّدت لذويها عاطفة احترام حقوق الغير، والتعاون معهم على تحمل تكاليف الحياة، فذلك كان فى دائرة المجتمع الذى يعيشون فيه، وهم مضطرون إلى ذلك لينالوا مقابلاً له من العائشين معهم. ولكن هذه العاطفة لا تردهم عن أية جريمة يمكنهم ارتكابها لهضم حقوق أفراد الجماعات الأخرى، بل هم يعدون العدوان عليهم، والإساءة إليهم، من المفاخر التى يتمدحون بها، ويملأون بها أفواههم تفاخراً وتباهياً.

لا أنكر أن هذه الرابطة الساذجة قد تلطفت إلى حد كبير، بما حدث بين الأمم فى مدى العصور المتوالية من التبادل التجارى والثقافى والصناعى، وبما نجم من سهولة الانتقال من صقع إلى صقع؛ فصدرت نظم وقوانين تضمن حقوق الأجانب، وتحض على مساواتهم بالمواطنين فى المعاملات ما داموا فى

بلادهم. ولكن هذا التلطف لم يحدث إلا متأخراً. فعلى عهد الامبراطورية الرومانية كان الأجنبى لا يستطيع الوجود فى أملاك تلك الإمبراطورية إلا إذا كان تحت حماية أحد الرومانيين الأقحاح، وإلا تعرض هو وماله للضياع، بل كان الفقير لا يستطيع العيش إلا إذا كان تحت حماية أحد الوجهاء.

ولكن رابطة الاجتماع الإسلامى تجاوزت كل المجالات الأرضية، وحلقت فى أفق من السموّ لم يجعل بينها وبين أرقى الروابط الاجتماعية نسباً، وكان ذلك موافقاً لمنطق التطورات، لأن النبى ﷺ لم يرسل لينشئ مجتمعاً جديداً، ولكن ليدعو إلى إصلاح عالمى بعيد الأثر، يعيد به إلى الدين الحق سلطانه على القلوب والعقول، ويدعو الناس كافة إلى النظر، فيما يدينون به من عقائد زائغة:

(١) ليستعملوا عقولهم فى دحضها أو تقويمها.

(٢) وفيما يخضعون له من عادات وتقاليد بقيت من أبعد عهود الجاهلية، وتحت سُتَر مموّهة من الأباطيل، ليرفعوا عن عواتقهم نيرها، ويلقوا عن ظهورهم آصارها.

(٣) وفى أمر من انتحلوا لأنفسهم حقوق الزعامات الروحية ليساووهم بالكافة.

(٤) وفى موقف الذين عادوا العلم، وأعدّوا الأذهان بذلك لقبول كل ما يلقونه إليها من الأضاليل، ليردوهم عن غيّهم ويعيدوا للعلم حق القول الفصل ليقوم بمهمته من التفرقة بين الحق والباطل.

(٥) وفى حال أولئك الذين اتخذوا الأمم خولاً، وقادوهم لقهر الجماعات البشرية، وسلب أموالها، وإفناء آحادها، ليسقطوهم ويفهموا الناس أنهم لم يخلقوا ليتناحروا، ولكن ليتآلفوا.

(٦) وفى مذهب أولئك الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، وذهب كل فريق منهم إلى ناحية، واضعين تأويلاً ينابذ أهله به سائر المذاهب، ليضطروهم أن يفيقوا من غرورهم ويعلموا أن دين الله واحد، وأنه لا يخرج عما فطرت

النفوس عليه، وجُبلت على الأخذ به، لتماشيه مع العلم الضرورى الذى طبعت القلوب على قبوله، دون ملاحة ولا مماراة.

(٧) وفى ضلالة فرقوا بين الناس بسبب ألوان جلودهم، أو عجمة لغاتهم، أو بسبب تفاوتهم فى حطام الدنيا، فرتبوهم على درجات شتّى، وفرقوا بينهم على نسبة ذلك فى الحقوق الاجتماعية، ليرغموهم على أن ليس لأبيض على أسود، ولا لعربى على أعجمى، ولا لغنى على فقير فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح.

دخل من دخل فى الإسلام وقلبه مشبع بهذه المبادىء الإصلاحية لأكبر الشئون الحيوية، مما لم تحدّث أمة به نفسها فى جيل من أجيال البشر قبل الإسلام، فتآلف لهم من ذلك وجود معنوى عالى القدر، جليل الشأن، ورأى كل فرد منهم إلى جانبه رجالاً تعاهدوا على تحقيقه، ورفع علمه بين الخلق؛ فنشأت بين هؤلاء الآحاد رابطة سماوية المصدر، لا يجدون لأنفسهم حيالها وجوداً إلا بها، ولا حياة إلا فيها، ولا لذة إلا فى رفع علمها عالياً بين البشر.

إن الذين قبلوا هذا الدين عن اقتناع، تشبعت قلوبهم بهذه الأصول العليا. وأعدوا أنفسهم للاضطلاع بمهامّها، ولم يقبلوه لمجرد أن يعدوا أتباعها، والذين يُعدّون أنفسهم للاضطلاع بهذه المهام العالية لايكون ترابطهم من النوع الذى يعرف عادة بين أفراد الجماعات، لتحصيل العيش وحفظ الذات فحسب، ولكن لإحداث إصلاح لم يخطر على بال البشر، وهى مهمة يقل معها أن تقول إنها توجد ترابطاً بين آحاد الآخذين بها، ولكن يجب أن يقال إنها توحد بينهم وحدة لا تقبل الانفصام، تجعلهم كأعضاء البدن الواحد لا غنى لبعضها عن البعض الآخر. فإذا كنا عجبنا من شدة تماسك أفراد المجتمع الإسلامى، ومن استعصائه على أقوى المحللات الاجتماعية، ومن سهولة تذليله للعقبات التى تعترضه. ومن تغلب الفئات القليلة منه على الجماعات الكثيفة، فإن هذا كله يصبح بعد هذا البيان سهل الفهم، معقول التعليل.

ذلك لأن الفرد الذى يبهر عقله جلال هذه المبادىء، ويستولى على قلبه جمال هذه الأصول، ينبعث لتحقيقها لا بقوة العقيدة الدينية وحدها، ولكن بقوة كل غرائزه الإنسانية أيضاً، فإن للإنسانية غرائز طبيعية تناسب مكانة الإنسان العقلية، ثاوية فى صميم فؤاده، فإن لم يكن جميع أفراد النوع البشرى سواء فيها لنقص فى تربيتهم، أو لتأخر فى درجات تطورهم، فإنها تظهر جلية فى نوعهم موزعة على أفراده. وقد اجتمعت فى الإسلام عوامل أدبية تثير هذه الغرائز، وتبلغ بها أقصى سلطانها، فالآخذون بهذا الدين عن اقتناع، كما حدث لرجال من أهل مكة وآخرين يزيدون عنهم عدداً من أهل المدينة، وصبروا على أشد ضروب الاضطهاد والإيذاء فى سبيله، وصهروا فى معالجة أدوار ضعفه وقوّته، اكتسبوا من قوة الإرادة، وشدة الشكيمة، وفضائل الصبر والثبات والتضحية درجات وصلت إلى حدودها البعيدة.

فإذا تآلف مجتمع من أمثال هؤلاء الرجال فإنهم لا يفكرون إلا فى غرض واحد، وهو نشر ما كلفوا بنشره لمصلحة الحق، ومصلحة المصدقين به، والمعرضين عنه أيضاً؛ وتصبح كل وجهتهم عالمية لا قومية، لا يفكرون قط فى الانحلال لأنهم يكونون قد فنوا فى المبادئ والأصول التى اقتنعوا بها، واعتقدوا أن العمل على نشرها، والموت فى سبيلها هو الحياة الصحيحة. فمثل هؤلاء لايصح أن نعجب من استعصاء جماعتهم على الانحلال وليدة، وقد سُلطت عليها محللات كثيرة، بل العجب أن لا ينجحوا فى بث دعوتهم؛ وتثبيت ملتهم. ولست بمبالغ أن قلت إن الفرد الواحد من مثل هذه الجماعة تزيد قيمته على ألوف من غيرها.

أتريد دليلاً على القول أبلغ مما فعله هذا المجتمع القليل العدد بعد وفاة محمد ﷺ؟ أرسل أبو بكر ألوفاً قليلة منه على قيصر القسطنطينية فاستولى منه على الشام، وأتم الفتح خليفته عمر، وفى الوقت نفسه أرسل الفاروق ألوفاً أخرى منه على كسرى، ففتح فارس برمتها، وبعث بطائفة أخرى على مصر فأدخلها فى طاعة الخلافة الإسلامية. وقد لاقت هذه الألوف القليلة من هذه الجماعة

مئات الألوف من خيرة الجنود الرومانية والفارسية فدحرتها، وفرقتها شذر مذر، فأضافت بذلك لدولتها فى مدى عشرين سنة ملكاً بعيد المدى، لم يكن يدور بخلد أحد أن إيجاده من الممكنات فى مثل تلك المدة، ولا للأمة العربية نفسها فى قرون عديدة.

أليس من مدهشات الأمور أن تتصدى الجماعة الإسلامية للدولتين اللتين كانتا تتنازعان السلطان على الأرض دون منازع لهما، فتقتطع من إحداهما قطرين عظيمين: الشام ومصر، وتثل عرش الأخرى وتضيفها إلى دولتها؟!

هذه حادثة يصعب تصورها لولا أنها من الحقائق التاريخية.

وأدخل من هذا العجب، أن تحكم هذه الجماعة هذه الممالك بعدل وإنسانية لم تكن تحلم به فى عصر حكوماتها الوطنية، حتى أن الفرس لما أدهشتهم هذه السيرة درسوا الديانة الإسلامية فعشقتها عقولهم وقلوبهم، ودخلوا فيها فكانوا خير عناصرها علماً وحكمة، وحفل تاريخهم فى عهدهم الإسلامى بالخدم الجليلة لهذا الدين، حتى عُدوا من أقوى أسباب ثباته واستمراره وبلوغه الغايات البعيدة التى بلغها فى العلم والحكمة والفنون الجميلة.

تمهيد لدراسة الأصول القرآنية(١)

سردنا فى مقالنا السابق العوامل التى أثرت فى المسلمين الأولين، فأوجدت بينهم رابطة قاومت أقوى المحللات للرُّبُط الاجتماعية، وشفعنا ذلك بقولنا: إن أمر تلك الرابطة لم ينحصر فى أنها أخوّة دينية كالتى توجد بين الآخذين بدين واحد، ولكنها جاوزتها بما استمدته من القرآن من قوى أدبية هى غاية فى السموّ، أثرت فيما استكن فى نفسية متبعيه من الغرائز الشريفة التى ميزت النوع الإنسانى عن العالم الحيوانى، وأعدته لبلوغ غايات بعيدة من الوجود المناسب لسموّها، فتألفت من مجموع ذلك وحدة اجتماعية لا تقبل الانفصام والتحلل.

هذا ما قلناه فى المقال السابق، وفى هذا المقال نبين قيمة تلك القوى الأدبية المستكنة فى نفسية النوع الإنسانى، والأصول القرآنية التى أثارتها من مكامنها، وجعلت من جماعة المسلمين الأولين جماعة فاقت جميع الجماعات البشرية فى تلك الناحية، فتمكنت من توطيد مركزها بين الأمم التى سبقتها فى الوجود، واستطاعت أن تخضع بعضها لحكمها، وأن تترك لبعضها بقية من الملك فى حالة عجز عن مناوئتها، أو معاكستها فى تأدية مهمتها؛ والكلام فى بيان كل هذا يحتاج لشئ من التوسع، وما دام هذا التوسع لا محيد عنه لبيان قيمة المهمة التى عهد بها قيم الوجود إلى محمد ﷺ، فلا بد من القيام به، لا سيما من المعلومات البسيكولوجية والاجتماعية ما يحتاج أن يعرف كل باحث فى هذه المسائل.

(١) مجلة الأزهر - السنة الخامسة عشرة سنة ١٣٦٣ هـ ، ص ٢٢٥.

الغرائز النفسية المميزة للفطرة الإنسانية عن الفطرة الحيوانية

لفطرة الإنسان غرائز تتجرد منها فطرة الحيوان، هى التى لاتنى فى دفعه إلى الارتقاء، وحفزه إلى التكمل فى العلم والعمل والمدنية؛ تحت قيادة قواه الإدراكية التى لا يمكن حدها بحد.

فالإنسان يشعر فى قرارة نفسه بجمال الفضيلة، وقبح الرذيلة؛ فيحب السخاء ويعظم الأسخياء؛ ويشعر بسمو العفة؛ ويكبر الأعفاء؛ ويدرك جلالة الحق، ويجل من يعتقد أنهم أهله؛ ويستقبح الاعتداء، ويكره المعتدين ويستنكر الغدر، ويشنأ الغادرين؛ ويمج الباطل، ويبغض من يتخيل أنهم أشياعه... إلخ.

فهذه الغرائز هى التى تدفعه الى التطور، وتأخذ بطبعه إلى الارتقاء، ولولاها، لبقى فى مستوى الجماعات الهامجة، ولم يخط خطوة فى سبيل التكمل.

يقول أصحاب الفلسفة المادية: إن الإنسان يحب الصفات الشريفة، لا لأنه مفطور على الشعور بها، ولكن حاجة الاجتماع تضطره إليها حرصاً على سلامة المجتمع؛ فإذا غدر فرد من مجتمع بفرد آخر، أو سبه أو ضربه أو سلبه أو قتله، اضطرت القوة الوازعة فى الجماعة إلى أن تعاقبه على ما أتى من العدوان على عشيره؛ وإلا أخذ كل فرد فى الدفاع عن نفسه، فانفرط عقد الجماعة، وتفرقوا أيدى سبَا، فلا يستطيعون الحياة. فلذلك أُلهم الأفراد أن يقبلوا الجزاء صاغرين، وأن يظلوا مجتمعين.

وبتوالى القرون على هذه الحالة انطبعت فى النفوس، واندمجت فى الضمائر، وظن أهلها أنها فطرة فطرت عليها إنسانيتهم، وما هى بفطرة كما رأيت، ولكنها حاجة اجتماعية توالت عليها الوراثات، حتى ظُن أنها طبيعة للنفس البشرية، وهى أجنبية عنها كما تبينت. بدليل أن آحاد جماعةلا يجدون حرجاً من التخلق بأضداد هذه الصفات فى معاملة آحاد الجماعات الأخرى؛ فإذا كانت فطرية فيهم لما كالوا للناس بكيلين، ولما تخلقوا بخلقين متضادين.

هذا رأى الفلسفة المادية فى الغرائز الشريفة للفطرة البشرية، ورداً عليهم

نقول: إذا لم تكن هذه الغرائز فطرية، لما حاول مصلحو الأمم تعميمها بين الناس كافة، ولما قبل الناس هذا التعميم وعدوه من متممات إنسانيتهم، ولما انعقد حول هذا التعميم رأى إجماعى من جميع فلاسفة العالم من لدن نشأة الفلسفة إلى اليوم.

فإن قالوا إن هذا التعميم تدفع إليه الحاجة لإيجاد تعارف عام بين الأمم، لتيسير المبادلات بين الجماعات، بعد أن وصلت إلى دور لا تستطيع فيه أن تعيش منعزلة فى بيئاتها المحددة.

قلنا إذا كانت الجماعات خلقت لترقى، وتضطر إلى تعميم الفضائل بين الناس، فمعنى ذلك أن الإنسان قد أُعِد لبلوغ هذه الدرجة، ومُنح القدرة على تطوير أخلاقه، وتوسيع مدى قابليته إلى أبعد ما تصل إليه. وماذا ترجو بعد أن تسلم بهذا الإعداد، وهذه القدرة، أن تدحض من مواهبه النفسية؟

فلنجار المعترضين فى مضمارهم، ولنذهب إلى أقصى حد من التحليل لمواهب الفطرة الإنسانية، ونسألهم أليس فى الإنسان تمييز فطرى بين القبيح والحسن من الأشياء المادية، والأمور المعنوية؟

لا أظنهم يستطيعون إنكار ذلك، لأن العامل الأساسى فى ترقيه فى الأعمال، وتساميه فى الصفات، وفى تدرجه فى معارج الكمال، وتاريخه من أول وجوده إلى اليوم يشهد بذلك شهادة لا تقبل النقض: كائن قذف به إلى عالم المادة ليعيش بين كائناتها، فلم يقف عند حد حاجاته الجسدية، ولكنه تعداها بقدم ثابتة إلى وجود أدبى، مضحياً فى سبيله بكثير من شهواته وإفراطاته، ومقيداً نفسه بضروب شتى من تحديد رغباته، فهل كان يفعل ذلك لو لم يكن مدفوعاً إليه بقوى أدبية ثاوية فى سويداء قلبه، ومحفوزاً بمُثُل عليا كامنة فى صميم نفسه؟

وكيف يعقل أن يكون الباعث الحيوى الذى يدفع بالإنسان إلى توفير مُتَعه المادية، هو الذى يدفعه إلى ما يباينه من الخضوع للأديان، وفيها من ضروب

القيود والتضحيات ما ينافى التوسع فى المطالب والرغبات، وقد دل التاريخ أن أمماً برمتها أبيدت دفاعاً عن أديانها، ولا أذكر ملايين الأفراد الذين عفّوا عن الماديات مرضاة لعاطفتهم الدينية. فهل كان يمكن أن يكون ذلك لولا أن فى الإنسان غرائز من طبيعة غير مادية، تجعله يؤثرها على الحياة نفسها، وهل يعقل أن تكون هذه العاطفة التى تجلت فى تاريخ الإنسانية كلها، من مولدات الحاجة المادية التى يعلل بها الماديون جميع تطورات الإنسانية، وانتقالاتها المادية والأدبية إلى اليوم؟

القوى الأدبية المستكنة فى نفسية النوع الإنسانى:

تجهد الفلسفة المادية نفسها منذ زمان بعيد فى أن الإنسان والحيوان سواء فى جميع القوى النفسية، وإنما التفاوت بينهما فى الكم فحسب، فهى فى الإنسان أبعد مدى، وأوسع مجالاً، فى حدود حاجاتها المادية، فإن تعدته إلى مطالب روحية، فذلك يكون فيها من آثار الجهل؛ ومتى استنارت بمشكاة العلم أدركت أنها تقوم منه على وهم فأقلعت عنه، ووجدت وجهتها فى طريق التقدم المادى.

وهذا من أصحاب الفلسفة المادية يدل على قصر نظر شديد، وعدم إحاطة بأحوال الجماعات البشرية معيب، فإن الإنسان كما خلق مدنياً بالطبع، جبل على التدين كذلك. وإلا بماذا تفسر شيوع الدين فى الجماعات البشرية، إلى حد لم تصادف فى تاريخها من أقدم عهودها إلى اليوم، قبيلة أو أمة ليس لها دين تقدسه وتطمئن إليه. ويرى من يتتبع حياة هذه الجماعات أنه كان للدين عليها الفضل كله - حين لم يكن لديها علم تعول عليه - فى تهذيب طباعها، وترقية آدابها، وصرفها تدريجيًا عن الصفات الوحشية إلى صفات أقرب إلى العدل والرحمة والفضيلة. ولا أذهب بك بعيدًا فلأضرب لك مثلاً بما كانت عليه القبائل العربية قبل البعثة المحمدية ثم ما آلت إليه بعدها.

إنها كانت تقتل أولادها خشية الفقر، وتئد بناتها تحاميًا من العار، ولا ترى للضعفاء حقاً، فكان الرقيق لا يفترق عن البهيمة، وكانت المرأة لا ترتفع قيمة

عن أمتعة الدار، تعيش ذليلة محتقرة، وغير معترف لها بأدنى حق، وتورث بعد موت زوجها كما تورث الأنعام. وكان الحكم عندهم للسيف لا للقانون، وكان العلم لا يؤبه له، وكان التفاضل بينهم بالأنساب وبالاستكثار من حطام الدنيا، وكانت معيشتهم مبنية على التناهب، وكان التقتيل لديهم سنة شائعة، فلا تنقطع غارات بعضهم على بعض طرفة عين.

فلما جاءهم الإسلام لمَّ شعثهم، وألف بينهم، وهذب نفوسهم، وحول قواهم إلى وجهة صالحة لحياة طيبة، فلم يمض عليهم ردح من الزمن حتى بلغوا أوجاً من المدنية والعلم والحكمة لم يزل مضرب الأمثال إلى عهدنا هذا، ولو لم يجئهم الإسلام لكانوا بقوا على ما كانوا عليه إلى اليوم.

وقل مثل هذا فى أثر الديانة الإسرائيلية تحت قيادة موسى وخلفائه، وأثر الديانة النصرانية تحت زعامة عيسى وأتباعه، وجميع ما سبقهما من الديانات، حتى ما قبل أن يدون التاريخ. فلا ينكر أثر الأديان فى تطوير الجماعات إلا من حصر نظره فى دائرة ضيقة، ولم يدرس حالات الجماعات الإنسانية فى أدوارها الأولى.

وقد قال العلماء: الطبيعة لا تسرف، فإذا كان الدين كما يقول الماديون من مولدات الجهالة، لما كان عاماً إلى هذا الحد؛ ولو لم يكن له مستقر من النفسية الإنسانية، لما دانت له النفوس هذه الدينونة المطلقة؛ ولو كان ثمرة الجهل لما كان له هذا الأثر الكبير فى الأمم.

نعم إن الجماعات المتدينة لا تخلو من غباوات وجهالات، ولكنها ليست من آثار الدين، ولكن من آثار الجاهلية التى لا يزالون عليها.

فإذا أجاد الباحث النظر، اتضح له أنه لولا الأديان لطال على الجماعات الإنسانية أمد جاهليتها حتى يجيئها العلم، ولما تميزت الرذائل عن الفضائل، كما لم تتميز عند ملحدى هذا العهد، فإنهم يقولون إن كل هذه المسميات أمور اعتبارية، لا تستند على شىء غير ضرورات الاجتماع، وحاجات النظام. فإذا

كان الأمر كذلك فلم لم تؤثر تلك الضرورات والحاجات فى الأمة العربية، وقد عاشت آلافاً من السنين على ما كانت عليه قبل زمن البعثة المحمدية؟

يقول معترض: وهل كانت الديانة الإسلامية إلا وليدة تلك الضرورات الاجتماعية؟

نقول: إذا كان الأمر كذلك، فلمَ يجئ الإصلاح الذى هو وليد الضرورة، على شكل دين، ولم يجئ على صورته الحقيقية؟

إذا قلتم: كان ذلك لأن الدين أعلق بالنفوس، وأفعل فى الألباب، من أى شكل آخر من أشكال الدعايات.

قلنا فكيف يكون للدين هذا السلطان على النفوس، إن لم يكن مستنداً إلى قوة أدبية فطرية فى الإنسان؟ وهذا هو الذى نريد أن ندلل عليه، ولا يمكن أن يجد الخصم مخلصًا من هذا الإلزام، ولو تذرع بجميع ضروب المحاولات الخطابية.

وبعد:

فهذه مقدمات لابد منها لبيان جلالة العمل الذى قام به النبى ﷺ، وسمو الأصول القرآنية، وانطباقها على الغرائز العليا للنفسية البشرية. وهو عمل روحانى جليل الشأن حدث على مرأى ومسمع من الناس أجمعين، لقوم كانوا أعصى الناس عليه، وفى بيئة لم تكن لتحدثه لمنافاتها لكل ما يمت بسبب إليه.

وسنمضى فى تفصيل ذلك فى المقالات الآتية، لأن هذا الموضوع الجلل مما لا تسعه مقالة ولا مقالتان؛ وإنما نلح فى التوسع فيه، لأنه المعجزة الخالدة لخاتم المرسلين من جهة، ولأنه يبين حقيقة الإسلام، ويكشف عن مهمته العالمية من جهة أخرى.

ولنا منه غرض لا محيد عنه مع هذا كله، وهو أن يكون نبراساً لكل آخذ بهذا الدين، يستطيع أن يستهدى به فى فهم مقاصد الكتاب الكريم، وإدراك

مراميه البعيدة، وبلوغ أقصى ما يرمى إليه من المثل العليا للأخلاق السامية، والآداب الكاملة، والمدنية الفاضلة.

فإنه مما يؤسف له أن كثيراً من المسلمين أصبحوا يقتصرون على سماع آيات من القرآن فى المساجد والمآتم، وقد أنزل ليقرأوه ويتدبروا آياته، ويأخذوا أنفسهم ببيناته.

نعم إن من الناس من اتخذه ورداً يومياً، ولكنه يقرأه دون تدبر، ودون أن يستأنس فى تلاوته بما يقفه على معانيه. وهذا كله من أصول العلل التى قضت على المسلمين أن يتدبروه، ويجروا على عاداتهم دونه.

ولو كان الإسلام ديناً كالأديان، لما آلتنا هذه الحال إلى هذا الحد، ولقلنا إن هذه سنة الناس الغالبة حيال أديانهم؛ ولكن للإسلام صفة مميزة ليست لغيره، وهو أنه شرع لإحداث إصلاح عام بين البشر، وكلف أهله بأن يكونوا مثلاً عليا لذلك الإصلاح، فكيف يعتذر المقصرون عن القيام بهذه المهمة، وقد أصبحوا هم أنفسهم حجة على دينهم؛ إذا لم يكفهم أن لايعملوا منه بما عهد إليهم، بل صدوا عن سبيله بما آثروه عليه من بدعهم وعاداتهم؟

على أن الذى أرجوه من وراء الاستمرار على التنقيب عن أسرار هذا الدين، وكشفها على رءوس الأشهاد، أن تتنبه فى المقصرين عاطفة الجمال المعنوى، فيثوبوا إلى رشدهم، ويقدروا قدر التبعة الملقاة على عواتقهم، فيهتدوا بهديه ويكونوا مثلاً عليا لغيرهم، كما كان أواليهم مثلاً عليا لمعاصريهم، فرفعوا للإسلام علماً فى كل بلد حلوه وفى كل جماعة وجدوا بين ظهرانيها، فانتشر الإسلام فى أمم لمحض إكبارها لسيرة أهله، مما لا يتأتى لأنشط دعوة فى العالم أن توجده، ولو دامت قروناً متوالية، فتخطى الإسلام حدود بلاد العرب إلى أقصى الأصقاع فى سنين معدودة مما لم تحدثه دعوة فى الأرض.

دحض العقائد الوثنية(١)

نحن فى محاولتنا تفسير تأثير الأصول القرآنية فى النفسية الإنسانية إلى أقصى الحدود الممكنة، اضطررنا أن نعقد فصلاً فى بيان الغرائز النفسية المميزة للفطرة الإنسانية عن الفطرة الحيوانية، وفصلاً آخر فى التدليل على وجود قوى أدبية مستكنة فى نفسية النوع الإنسانى تميل بفطرتها إلى الحقائق أبلغ ميل، إذا قدمت إليها غير مغشاة بالأهواء المختلفة، وقد وعدنا أن نبين جزئيات هذا الموضوع، لأننا نطمع من ورائه أن يكون له من النتائج العلمية بعض ما كان لها على نفوس أوائلنا، وفى ذلك من كشف خصوصيات هذا الدين ما يتفق وحاجة أهل هذا العصر من الوجهة العلمية المتماشية مع أسمى المدركات الفلسفية، فنقول:

أول ما تصدى القرآن له من إصلاح الشخصية الإنسانية، تطهيرها من العقائد الوثنية، وهى أشد الأمور الاعتقادية استعصاء على المعالجة، لأنها وراثية من ناحية، ومن أنسب المدركات للشعوب بسبب ضعف ثقافتها العلمية من ناحية أخرى، ومما يدلك على شدة تمسك الشعوب بالوثنية ما قوبل به النبى ﷺ من العرب، حين دعاهم إلى ترك أوثانهم، وإفراد الله وحده بالألوهية، فقد حكى الكتاب الكريم عنهم أنهم قالوا:

«وعجبوا أن جاءهم منذر منهم، وقال الكافرون هذا ساحر كذاب. أجعل الآلهة إلها واحدا، إن هذا لشئ عجاب. وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم، إن هذا لشئ يراد. ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق»(٢).

(١) مجلة الأزهر ـ السنة الخامسة عشرة سنة ١٣٦٣هـ، ص ٢٧٣.
(٢) ص: ٣، ٤، ٥، ٦

وقالوا أيضا كما رواه عنهم الكتاب الكريم:

﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾[1].

فأنت ترى أنهم استنكروا ذلك إلى حد أن اعتبروه متناهياً فى العجب، ووصفوا الداعى إليه بالشعوذة والاختلاق والجنون، وليس فوق هذا جمود على ما كانوا عليه، واستعصاء على كل ما عداه.

فإن وعيت هذا ورأيت أن النبى ﷺ قد أنجح فى إزالة هذه الوثنية المستحكمة، وأحل محلها عقيدة التوحيد على أكمل ما تكون عليه من التنزيه، ليس فى أفراد معدودين، ولكن فى أمة برمتها، حِرت فى تعليل ذلك كله، لأنه عمل لم يسبق له شبيه فى تاريخ البشر؛ وربما تبادر إلى ذهنك أن بعض خصوم الإسلام عللوه بالإجبار وبالقوة، وفاتهم أن الإجبار لا يعقل إلا بواسطة أشياع يكون عددهم أكثر من عدد الخصوم، وعليه فلا يزال موجب الحيرة موجوداً، ولا يزال العقل يطالبنا بتعليل حصول النبى على هذه الكثرة المتغلبة فى أمة كانت من الرسوخ فى عقيدتها إلى الحد الذى ذكرنا.

ونحن توفيةً لما وعدنا به فى مقالنا السابق، نبين لك الأسلوب القرآنى فى التغلب على النفسية الإنسانية، من ناحية ما طبعت عليه من الخصائص الأدبية العليا، بقدر ما تصل إليه قدرتنا التحليلية، وما يبلغ إليه فهمنا، تجلية لهذا الأسلوب المعجز، فنقول:

أول ما دعا النبى ﷺ إلى الإسلام جعل دعوته سرية، ليحصل على العدد القليل ممن صفت نفوسهم من ذاك السواد الأعظم، واستعدوا لقبول دعوة من هذا النوع بغير تردد، ولا تخلو أمة من أمثالهم فى عهد من عهودها؛ فآمن به سراً بضع عشرات من الرجال والنساء. فلما بلغ ذلك قريشاً أخذت فى اضطهادهم، حتى اضطرت جماعة منهم للهجرة إلى بلاد الحبشة، وصبر الآخرون على الضر، ولم تبق لسرية الدعوة حكمة، فأمر الله رسوله أن يعلنها

(١) الصافات : ٣٦

بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(١).

وتولى الحق سبحانه وتعالى هذا الأمر، فأوحى إلى رسوله من الآيات ما لو تأمل فيه عليم بالنفس ومظان تأثرها، وبالخصائص الأدبية في الإنسان، ووسائل تنبيهها، وبطبائع البيئات المختلفة وعوامل تكييفها للشخصية الإنسانية، يدهش إذا تأمل فيها تحت ضوء الأصول البسيكولوجية الحديثة من موافقتها، للحالة التى كان عليها العرب الأولون فى تلك البيئة البعيدة عن العمران والمعرفة.

إن الإنسان فى حالته الساذجة يكون أسير حاجاته المادية، فيلتاث إلى حد بعيد بالأخلاق الحيوانية، وينصرف عن مواهبه الأدبية انصرافاً كبيراً، إما لعدم وجدان الوقت للتأثر بها، أو لعدم إمكان العمل بها فى وسط هذه العاصفة من المطالب الحيوية، فإذا دعوته ليستمع إليك، لم يستجب دعوتك، يأساً من إمكان تغيير ما هو عليه من السيرة التى لا مناص له من القيام عليها، واكتفاءً بما جمد عليه من وثنية ساذجة تناسب عقله المقطوع عن مدده العلمى.

فأمثال هؤلاء الأقوام لا ينبه شعورهم إلا ألوان من الزجر البالغ أقصى حدود الشدة، مع مزجه بشئ من أخبار الجماعات التى يعرفون نزراً من تاريخها، وبيان أنهم لمُ يهلكوا ويُعفً على آثارهم، إلا بسبب استعصائهم على رسلهم، وتكذيبهم ما أرسلوا به إليهم من ربهم، وتحقير ما هم عليه من الأباطيل، وإضافة شئ إليه من مظاهر قدرة الله وباهر حكمته فى خلقه، وتذكيرهم بما سيلاقونه فى حياتهم الآخرة من العذاب المهين، فى عبارات أخّاذة بالقلوب، جذابة للعقول، ولعل أجمع الآيات لهذه الوسائل البيانية كلها هى قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا

---

(١) المائدة : ٦٧

لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا
قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ
فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ
فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ
وَهُم بِالْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[1]، إلى قوله تعالى:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ
الرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ
مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا
بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ
عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا
ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا
كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ
اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ
وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا
اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ
تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ
اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ
فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا
فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ

(١) فصلت: من ١ إلى ٥

إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ
لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا
يَجْحَدُونَ ﴾[1].

«وقال الذين كفروا (أى يقولون يوم ذلك يوم القيامة) ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والأنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين».

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ
أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ
أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ
وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ
دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[2]

وقد أصحب الحق سبحانه هذه الزواجر بالعلل، التى أوجبت على الكافرين أن يستحبوا العمى على الهدى، وهى:

(١) تقليدهم الأعمى لآبائهم الأولين. فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[3]

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾.[4]

---

(١) فصلت: من ١٣الى ٢٨.
(٢) فصلت: من ٢٨ الى ٣٣
(٣) البقرة: ١٧٠
(٤) الصافات: ٦٩, ٧٠.

(٢) عدم استخدامهم العقل فى التفرقة بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[(١)].

وقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[(٢)].

(٣) عدم طلبهم الدليل فى أمور الدين ، قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[(٣)]

وقال ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[(٤)]....

(٤) أخذهم بما تهوى أنفسهم، قال تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾[(٥)].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[(٦)].

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾[(٧)].

(٥) اتباعهم الظنون والأوهام، قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[(٨)].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (أى يكذبون)﴾[(٩)].

(٦) عدم تثبتهم مما يروى إليهم، وتصديقه دون تحقيق، قال تعالى:

---

(١) البقرة : ١٧١.
(٢) الفرقان: ٤٤
(٣) المؤمنون : ١١٧
(٤) البقرة: ١١١.
(٥) الروم: ٢٩
(٦) ص: ٢٦
(٧) محمد: ١٦
(٨) يونس: ٣٦.
(٩) الأنعام: ١١٦

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾(١).

فهذه الوصايا التى تعتبر فى حقيقتها (الدستور العلمى) نفسه الذى لم يولد فى أوروبا إلا فى القرن السابع عشر، أثّرت فى نفسية الجاهلين أكبر تأثير، لا سيما وقد جلاها الحق فى ألوان شتى من البيان، وضروب منوعة من الأمثال والأخبار، فحببت إليهم أن يخلعوا كل ما حملوه من الآصار الاعتقادية، والأوزار التقليدية، وأن يستسلموا إلى النبى ﷺ ليعلمهم مما يفيض الحق عليه من العلم المستند إلى الحقائق الوجودية.

فكان أول ما علمهم النبى ﷺ أن يؤمنوا بالله وحده ولا يتخذوا معه شركاء، وأن يجلوه عن التشبيه والتجسيد، وعن كل صفات المخلوقين، وأن يعترفوا بالعجز عن تصويره وتكييفه، وأن يفكروا في مخلوقاته، ولا يفكروا في ذاته، لأن العقل أعجز من أن يحوم حول هذه المدارك التى لم تبلغها الملائكة أنفسهم. قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾(٤)، فأجابوه خاضعين

ولما كان أمر تنزيه الخالق من الخطورة بمكان رأينا أن نتوسع فى بيانه قليلا، لأنه من أعظم ما يمتاز به الإسلام، فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «إن الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار، وأن الملأ الأعلى ليطلبونه كما تطلبونه أنتم». وهذا كما لا يخفى تنزيه لخالق الكون ليس بعده مذهب، لم تصل إليه أرقى الفلسفات إلى عهد الإسلام، ولم تبلغه العقول

(١) إبراهيم: ٢٧.
(٢) الشورى : ١١
(٣) الأنعام : ١٠٣
(٤) طه: ١١٠.

بعده إلا بقرون كثيرة ؛ فنشوؤه فى جزيرة العرب فى ذلك العهد البعيد، يعتبر معجزة للنبى ﷺ .

وقد صدرت من المسلمين أقوال تدل على فهمهم هذا التنزيه المطلق على وجهه الأكمل، فقد عزى إلى أبى بكر أنه قال: «العجز عن درك الإدراك إدراك»، ومعناه أن تحققك من العجز عن الوصول إلى إدراك الخالق، هو فى الحقيقة إدراك لا جهل، أى علم بأنه لا يمكن إدراكه.

وأوجز الأصوليون الإسلاميون هذا الموضوع العالى بقولهم: «كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك».

هذا الموقف الفلسفى العالى لم يكن ثمرة تفكير من المسلمين الأولين، ولكن نزولاً منهم على حكم الكتاب والسنة النبوية، وهل بعد قوله ﷺ: «تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله فتهلكوا»، وجه لمسلم فى تناول ذات الله بالبحث، وهل بعد الإنذار بالهلاك زجر؟

وبعد؛ فهل كنت تتوهم أن يبلغ هؤلاء الجاهليون الوثنيون من العرب إلى هذا الشأو البعيد من التنزيه الصحيح، الذى يعتبر أرقى ما يمكن أن تصل إليه العقلية الإنسانية، إن لم يكن فى غرائز البشرية ما يدفعهم إلى قبول الحق متى اتضح وضوحاً تاماً، وجُلى تجلية حكيمة، وأن فى طبيعة النفس الإنسانية مذخوراً أدبياً رفيعاً يرتاح للأخذ بأرفع التعاليم، وأعلاها قدراً؟

وهل كان يمكن أن ينقلب هؤلاء الجاهليون هذا المنقلب المدهش من مدارك همجية إلى أرقى المدارك الفلسفية، لو لم يكن القرآن قد بلغ الغاية القصوى من التأثير فى النفوس، ووصل إلى أبعد ما يدركه الفكر من الاستيلاءعلى العقول؟

إننا من هذا الأمر حيال آية من آيات الله الكبرى، يستطيع كل إنسان تحقيقها والتأكد منها إلى يوم القيامة، تشهد لمحمد ﷺ بالرسالة، ولكتابه بالسمو الذى لا يُبلغ مداه، ولا يمكن لغيره أن يتحداه.

تقييم الشخصية الإسلامية(1)

ذكرنا فى الفصل السابق أن أول ما تصدى له القرآن الكريم من إصلاح الشخصية الإنسانية، هو تطهيرها من العقائد الوثنية، وهذا فى نظر العقل والعلم من الحكمة بالمكان الأرفع، لأن الوثنية تجمع من عيوب العقلية ما لا تجمعه عقيدة أخرى، فهى لا تناقض المنطق والفطرة السليمة فحسب، ولكنها تعد الذهن لقبول كل الأوهام التى يمكن تصورها، لأنها باعتبارها وليدة الجهل والوهم، تفتح باب النفس على مصراعيه للخيالات والضلالات، فيكون الحائل المنيع دون هذا التيار من الخرافات هو سد هذا الباب سدا محكماً، وتطهير النفس من جميع ما تراكم عليها بسببها من أقذاء الأباطيل، ثم إيتاؤها بالحقائق السليمة من الشوائب وهو عين ما صنعه الإسلام، وكان أول ما لقن جماعته العقائد الصحيحة مع جميع حوافظها على أكمل ما يمكن أن تكون كما بينا ذلك فى فصلنا السابق.

ولكن الشخصية الإنسانية لا يتم إصلاحها بمجرد إصلاح عقيدتها الدينية، فإن لها تعلقات شتى بشئون الحياة الروحية والجثمانية، فإن لم تقوَّم من هذه الناحية، فتعتدل على أسلوب سَوىّ فى الاشتغال بها، فسدت وانحطت، وسلك صاحبها السبل الملتوية الملائمة لها، واندفع فى الحيوانية إلى مكان سحيق.

لذلك عنى الإسلام بتقويم تلك الشخصية تقويماً يحميها من الاندفاعات الطائشة، فى كل ضرب من ضروب المحاولات الحيوية، حتى لا تبتعد بصاحبها عن الغاية التى قُدرت للإنسانية.

(1) مجلة الأزهر ـ السنه الخامسة عشرة سنة ١٣٦٣ هـ، ص ٣٢١

ولما كان الإنسان لا يتكلف أن يخضع للمقومات الأدبية، إلا إذا اعتقد أنه قد قُدر له سمو يجب أن يصل إليه، وأن له ميزة يجب أن يقوم بحقها، ليحصل على جميع لوازمها، كشف الإسلام له أمراً لم يُكشف لمن سبقه من العالمين، وهو أن الله خلق الإنسان ليكون خليفته على الأرض، يحيى مواتها، ويستخدم مواردها، ويذهب فى الإبداع بها والترقى فيها إلى أبعد الحدود، ويمثل فيها صفات الخالق من الرحمة والعدل والتعمير، وليوصلها إلى أعلى ما هى أهل له بالقوة،

فقال تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[1].

فأى سمو يتخيله الإنسان على سطح هذه الأرض أكبر من أن يستودعه الخالق أمانة أكبرت السموات العلا، والأرض والجبال الشم أن تحملها، وخشيت تبعتها؟ لاشك عندنا فى أن هذه الأمانة هى أن يكون خليفة لله على الأرض. فأى حافز يحفزه على القيام بحق هذه المرتبة أقوى من علمه بهذا الشرف الذاتى؟

لا جرم أن هذا الأسلوب الإلهى فى رفع القوى المعنوية فى النفس الإنسانية، لا يعقل أن يعدله أسلوب آخر، مما نراه فى كتب التربية النفسية حتى فى هذا العصر، الذى عنى أهله برفع مستوى الإنسانية عما هو عليه، ليضطلع أفرادها بما تستدعيه منهم واجباتهم الاجتماعية والعمرانية.

الفرق بيّن لكل ذى عقل وعينين، ألم تر أن أمة كانت فى غدها على أحط ما يمكن أن تكون عليه جماعة، من عقائد وثنية، وعادات وحشية، وشذوذات أدبية ومادية، تطورت فى سنين معدودة إلى أمة تدين بأرفع العقائد التنزيهية، وتلتف حول أسمى الأصول الاجتماعية، وتجعل روابطها الآداب العالية، والأصول السامية، وتحرى الحق والعدل والرحمة والمساواة، بدل الحاجات

---

(١) الأحزاب: ٧٢

المادية، والمطامح الهوائية؛ وتنال خلافة الله فى الأرض، فى كل ناحية من نواحى الكمالات الصورية والمعنوية، حتى صار يقصدها من سبقها فى الحضارة بألوف السنين، يلتمسون منها أن تتفضل عليهم بما فُتح عليها من أنوار العلم، وأصول الحكمة، وأسرار الطبيعة؟

هذا انتقال لم يعهد له شبيه فى تاريخ الخليقة، وليس له من سبب إلا هذا الأسلوب الإلهى فى تربية النفوس، وعلاج القلوب، وضبط الأهواء، وقهر سلطان الشهوات، وقمع ضراوة الحيوانية، ومحق الهمزات الشيطانية، وتوجيه الميول الشريفة المنزوية فى أحناء الصدور، وثنايا القلوب إلى أشرف المحاولات الأدبية، وأقوم النزعات الخلقية.

وقد ذكر الله فى كتابه الكريم أنه منح الإنسان هذه الخلافة، وحلاّه بجميع الخصائص التى تجعله جديراً بها، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا (أي ما هو مستعد له من العلم والحكمة والإبداع) ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

فكان هذا الإفضاء للمسلمين بأمر هذه الخلافة، وما خُولوه من شرفها وجلالتها أكبر حافز لهم على تطلب ضروب الكمالات، وعلى العزوف عن صنوف النقائص والخساسات؛ ناهيك بمن يعتقدون أنهم من سمو الفطرة،

---

(١) البقرة : من ٣٠ إلى ٣٤

وعلو الجبلة، بحيث تسجد لهم الملائكة؛ أن هؤلاء لا يفكرون إلا فى بلوغ هذه المنزلة لأنفسهم ومجتمعهم، ولا يعُدون الذين يأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، ثقلاء متطفلين، ولكن هداة مرشدين، يشكرونهم على ما تبرعوا به من أوقاتهم فى سبيل تنبيههم إلى تدارك أنفسهم، قبل أن تَرِين آثامهم على قلوبهم فلا يعودون يرعوون.

هل بالغ الإسلام فى الإفضاء بهذا السر العظيم للإنسانية؟ لا والله، فقد أثبت العلم التجريبى الصحيح فى القرنين الأخيرين، أن القلب الإنسانى مستقر لشخصية ذات خصائص علوية، وأنها قابلة للتطور إلى غاية لا يتصورها العقل، بحيث لا تُعد شخصيته الظاهرة إذا قيست بها الأشياء لا يؤبه له، ما دام قد استوعبته الحاجات البدنية، والشهوات البهيمية.

وهذا العود من العلم الرسمى إلى الإشادة بالشخصية الباطنية للإنسان، يرجع الفضل فيه إلى علماء جريئين، توصلوا إلى تجلية هذه الشخصية الباطنية، بمحو الشخصية العادية بواسطة إيقاع الإنسان فى نوم صناعى، مع محافظته على خاصة التكلم؛ فتبين لهم أنه يرى ويسمع ويحس بغير الأعضاء الجثمانية المخصصة لذلك، وأن إدراكه لا يقف عند الحدود التى تنتهى إليها قدرة تلك الأعضاء فيرى ما يخطر ببال المحيطين به والبعيدين عنه، ويقرأ ما فى جيوبهم وحقائبهم من المخطوطات، وما فى باطن خزائنهم من المؤلفات، ويرسل إلى البعيدين عنهم من أصدقائهم، والمجربين أمثالهم، فيأتيهم فى مثل لمح البصر بما يعملونه داخل حجراتهم؛ فإذا سئلوا تليفونياً أجابوا بصدقه فيما أخبرهم به. لا تصده المسافات الشاسعة عن الانتقال إليها بروحه، ولاتحجب الأستار عنه ما يراد منه الإخبار به. فإذا أوقظ هذا النائم وسئل عما حدث له، أجاب بأنه لم يعلم عنه شيئاً. فإذا أُنيم مرة أخرى وسئل عما حدث فى نومته الأولى، أخبر عنه تفصيلاً ولو كان بين الدفعتين سنون كثيرة، مما دل المجربين على أن الشخصية الباطنة للإنسان هى شخصيته الحقيقية، وإنما حجبها عنه ما توسط بينهما من الجسيم.

فاستنتج العلماء الذين وقفوا على هذه المعلومات التجريبية، وقد بلغوا عددًا فى نحو مئة سنة يقدَّر بالألوف الكثيرة، أن للإنسان روحاً مستقلة عن الجسد، بدليل ظهورها بهذا المظهر الرائع وهو نائم، وبأنها موطن الإدراك والعقل دون المخ، لأنها تأتى كل ماتأتيه وهو تحت تأثير النوم حيث عمل المخ، ولأن ما نظهر به يفوق قدرته بما لا سبيل إلى إنكاره.

واستنتجوا منه أيضا أن الروح مستقلة عن الجسد استقلالاً مطلقاً، بدليل أنها تنتقل روحيًا، وتأتى بالمعلومات من أقصى الأرض، فلو كانت الروح مجموعة وظائف حثمانه، أو هى دمه أو أعصابه كما يقولون، لما استطاعت أن تأتى بشىء خارج محيط تلك الأعضاء؛ واستقلال الروح يؤيد عقيدة بقائها بعد فساد جسدها وتحلله.

فكل هذه الثمرات العلمية التجريبية صدَّقت الدين أكمل تصديق، وأصبح لا مناص لكل ظهير له من أن يدرس هذه التجارب دراسة علمية، ويستند إليها فى تدريس العقائد، وإلا بقى الشاك على شكه، وكثر عدد الشاكين يوماً بعد يوم، بالدعاية القوية التى يقوم بها الماديون، ويصادف المتدينون منهم أمرا إدًّا.

إن الذى دعانا لأن نستطرد لهذا كله، أن المقام اقتضاه، وأن الأمانة الإلهية التى ينوه بها الحق سبحانه وتعالي لا يستطاع إدخالها فى عقول المعاصرين إلا على هذا الوجه، فإذا كان أوائلنا اكتفوا بما قاله عنها الشرع، فإن معاصرينا الذين أُشربوا تعاليم العلم العصرى لا يستطيعون أن يحنوا الرءوس إجلالاً لهذا الأمر إلا إذا سنده العلم، العلم التجريبى على مقتضى دستوره القويم.

فتأمل فى الحكمة الإسلامية، وبُعد مداها فى تربية النفوس، وترقية القلوب وحمل أمة برمتها على القيام بحق خلافتها، والاضطلاع بأعبائها بين الأمم، حتى كانت المثل الحى على صحتها، وحتى جنت من ثمراتها ما لم تجن أمة من سمو المبادئ، وأصالة الأصول، وكرامة الوجود، وزعامة العالم أجمع فى جميع مجالات النشاط العقلى والعلمى والفنى فى الأرض، بعد أن كانت

مضرب الأمثال فى الانحلال الاجتماعى والأدبى، وزادت على ذلك مساماة الجماعات البشرية فى كل شىء حتى من أشياء الحياة الأرضية.

نعم إن الكلام فى سمو الفطرة الإنسانية قديم، وإن الفلاسفة اليونانيين وفى مقدمتهم سقراط وأفلاطون، يُحفظ عنهم كلام جليل فى هذا الباب، ولكنهم عجزوا جميعاً، وعجز كل من جاء بعدهم إلى يومنا هذا، أن يؤلفوا عليه أمة تقوم على سمته، وتبلغ بالجرى على صراطه ما يجعله حقيقة للناس أجمعين.

نعم قالوا فى هذا السمو الشىء الكثير لا على أسلوب القرآن، ولا على أن يكوّن أمة برمتها، ولا ليكون برنامجاً اجتماعياً لدولة عالمية، كما فعل الإسلام. فالإسلام وحده هو الذى استطاع أن يجمع قلوب أمة برمتها على هذه الحقيقة العظمى، أقول العظمى لأنه لا يوجد أعظم منها فى تقويم حياة الإنسان، وإيصاله إلى ذروة الكمال الصورى والمعنوى.

إن الدين صرح على رءوس الأشهاد بأن الإنسان أفضل من الملائكة، وبزّ جميع الفلسفات قديمها وحديثها فى رفع الإنسانية إلى هذه المرتبة، هو الدين الذى تصدى لقيادتها إلى هذه الغاية، وقد بلغتها؛ والآن يهم الناس أجمع أن يقفوا على أسلوبه الذى استخدمه للوصول بهم إليها، دون أن يكون سلوكها إليها جانياً على حياتها المادية، كقوة عالمية انتدبت لإصلاح الجماعات البشرية، لتبلغها الغايات القصوى من المثل العليا للحياتين معاً.

آيات باهرة للإسلام (١)
فى تخليص العلم من الرجعية لتكميل الشخصية الإنسانية

لو يرمى الإسلام إلى إصلاح الإنسانية من ناحيتها الدينية فحسب، كما هو حال كثير من الأديان، لسهلت مهمته؛ ولكنه يعتبر الحياة الإنسانية من جهتها المادية والروحية كُلاً لا يتجزأ، وشُرع ليكون إصلاحاً عاماً لهاتين الجهتين معاً.

وليس يخفى على ذى بصيرة صعوبة تقويم الشخصية الإنسانية، وهى فى مزدحم الشئون الحيوية، ومضطرب الأمور التعاملية، بحيث تنزل منها على حكم المثل العليا التى تتطلبها الإنسانية الكاملة، وتستدعيها المدنية الفاضلة، مع المحافظة على كيان الاجتماع، وعلى العوامل التى تدفعه للتطور، وعدم المساس بالبواعث النفسية التى تستمد وجودها من غريزتى حفظ الذات واستدامة النوع، وغير ذلك من الدوافع التى لها جذور عميقة فى الحياة الحيوانية والنباتية اللتين يستعير منهما الإنسان جثمانه المادى ومعظم اتجاهاته الحيوية، باعتبار أنه واحد من آحاد الأسرة الأرضية.

ليس مَثل الإسلام كمثل سائر الأديان فى هذه الناحية، فإن هذه الأديان شرعت لأمم استكملت شرائط الاجتماع الظاهرة والخفية؛ ولكن الإسلام أرسل إلى قبائل لا عهد لها باجتماع عام، واستهدف إنشاء أمة عالمية تقوم على المبادئ والأصول، لا على محض حفظ الذات وتنازع البقاء، وهذا مما يجعل عمله أكثر كلفة، وأشد مشقة.

---

(١) مجلة الأزهر ـ السنة الخامسة عشرة سنة ١٣٦٣ هـ، ص ٣٧٧

وقد سبق لنا أن بينا خطورة هذا العمل وفذاذته فى تاريخ البشرية، ولسنا نود أن نردد ما قلناه فى مقالات سبقت عن وجوه الإعجاز فى القيام به، وتأديته إلى الغايات المرادة منه.

نريد الآن أن نبين الأصول التى وضعها الإسلام خاصة بتقويم الشخصية الإنسانية فى هذا المعترك الهائل بين المطالب الجسدية والشئون الروحية، وفى معمعان تنازع البقاء مع الجماعات الأرضية، ونشير إلى الحوافظ التى حاط الإسلام تلك الأصول بها، فنقول:

لما كانت الشخصية الإنسانية لا يقوّمها ولا يرقيها شىء غير العلم، وجَّه الإسلام عنايته إليه توجيهاً خاصاً، فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(١).

وقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢)، وسجل على الذين لا يعلمون حكما لا يرضاه ذو إدراك لنفسه.

فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣).

وشدَّد النبى ﷺ فى وجوب طلب العلم فقال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، ولم يطالب أحداً بالسفر إلى أقصى الأرض لطلب شىء غير العلم فقال: «أطلب العلم ولو بالصين».

وشرَّف الإسلام على لسان رسوله العلمَ فقال: «أفضل العبادة العلم» وقال: «نظر الرجل فى العلم ساعة خير له من عبادة ستين سنة»، وقال: «خذ الحكمة ولو من مشرك». وقال: كن عالمًا أو متعلمًا ولا تكن الثالثة فتهلك»، والثالثة هى أن يكون لا عالمًا ولا متعلمًا؛ فهل تظن أن تعليماً من التعاليم الإنسانية بلغ هذا المبلغ من التحضيض على طلب العلم؟

---

(١) طه : ١١٤

(٢) الزمر : ٩

(٣) الروم : ٥٩

ومراد الإسلام ورسول الإسلام من العلم المعارف المحققة؟ لا الظنون والأوهام الملفقة، قال تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾(١).

المراد بالقول الثابت المؤيد بالحجة، والمستند إلى الدليل، فلا يجوز الإيمان بشيء إلا ببرهان:

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(٢).

فإذا سئلوا عن معتقداتهم يوم الحساب لم يتلعثموا فى الجواب، كما هو شأن المقلدين الذين لم ينظروا فيما يلقى إليهم نظر نقد وتمحيص. وليس فيما يرى الرائى بعد هذا مرمى فى وجوب تمحيص العلم وتجريده من الأوهام والأهواء.

ولما كان لا سبيل إلى ترقية الشخصية الإنسانية إلا بالعلم كما ذكرنا، فقد جعله الإسلام أساساً للدين كما رأيت، ثم حاطه من الحوافظ بما يضمن خلوصه من الأهواء والأوهام فى جميع أدواره.

ولما كان من أخص صفات المتدينين المحافظة والحرفية، وكان العلم لا ينمو ولا يتطور إلا فى جو من النظر الحر، والاستقلال عن جميع الاعتبارات الاعتقادية، فقد حاطه الإسلام بحوافظ تحميه شرى الجمود والرجعية، ومضى العلم فى الأمة الإسلامية حراً طليقًا من جميع القيود، مما لم ير له مثيل فى أمة من أمم العالم، ويكاد لا يصدّق ذلك من لا إلمام له بتاريخ العلم فى الإسلام على التحو الذى سنورده.

أما المحافظة فهى من أخص صفات المتدينين، لأن صيانة الوحى من عبث الظنون، وتلاعب الأهواء، يستدعى ذلك، فهم يرثون مبدأ المحافظة كابراً عن كابر ويفخرون بها، ولكن العلم يصاب منها بكارثة لا يلبث معها أن يجمد، ويصبح رجعيا حيال التطورات التى يكون بلغها فى البيئات الحرة.

فإذا كنا نفخر بأننا الأمة الوحيدة التى حافظت على الوحى سليماً من كل دخيل بشرى، فلسنا نستطيع أن نفخر بأننا حافظنا على العلم الذى حذقه آباؤنا

---

(١) إبراهيم: ٢٧.

(٢) البقرة: ١١١.

فى القرن الرابع من حياة الإسلام، لأنه تطور فى ألف سنة بعدها تطوراً يكاد لا يبُقى بينه وبين العلم فى ذلك العهد شبهاً.

شُرع الإسلام فى الأمة التى ألفها وكانت مجردة من العلم بمعناه الحرفى، فحثها على النظر فى الكون قائلاً: ﴿ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(1).

ثم قدح فى الدين لا تؤثر فيهم آيات الكون، ولا تبعثهم على التفكير فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(2).

وحض الناس على إيقاظ غريزة التأمل، فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(3)، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾(4)﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(5)، وأكثر من تكرار هذا التحضيض، ثم سرد على تاليه من عجائب المخلوقات النباتية والحيوانية والأجرام السماوية ما يصعب حصره.

ومما يجب أن يؤثر عن الإسلام مما لم يشاركه فيه دين آخر، أنه حصر الخشية الكاملة من الله فى العلماء الذين يتدارسون آياته الكونية، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(6).

لعمرى هذه إشادة كبيرة بالعلم الكونى اختص به الإسلام؛ لأنه الدين

---

(1) يونس : ١٠١.

(2) يوسف : ١٠٥.

(3) البقرة : ٤٤ ، ٧٦.

(4) الانعام : ٥٠.

(5) الاعراف : ١٧١.

(6) فاطر: ٢٧، ٢٨.

الأخير الذى ستمر به الدهور وهو قائم، حتى لا يقف أهله فى سبيله ويمنعوه من أن ينمو ويتطور؛ وكيف يمنعون من التطور عاملاً يحصل لأهله من الإيمان ما يفضلونه به سائر المؤمنين؟

لم يكتف الإسلام بهذا كله، فقرر أصولاً تمنع الجمود العقلى، وتحمى من التحجر الفكرى، منها أنه حرم على أهله التقليد لكائن من كان، لأن التقليد كما يكون فى حق يكون فى باطل، وطالب كل إنسان بإقامة الأدلة على ما يؤمن به من العقائد، حتى قرر الأصوليون بناءً على هذا أن إيمان المقلد غير جائز. وهذا أصل لا يوجد له نظير فيما بين أيدينا من الأديان الأخرى. والمقصود منه إزالة الحصانة العلمية عن كل رأى مهما كان مصدره، ووجوب مطالبة صاحبة بالدليل، وهو الشرط الأساسى فى كل تثبت.

وقد احترم أئمة المسلمين هذا الأصل بما لم يؤثر مثله عن أية أمة أخرى من الأمم التى بلغت شأواً بعيداً فى التحضر. فكان أبو حنيفة يقول: هذا رأى أبى حنيفة، وهوأحسن ما قدرنا عليه فمن جاءنا بأحسن منه فهو أولى بالصواب.

وكان مالك يقول: انظروا فى كل ما أقول، فما من أحد إلا ويؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذه الروضة، يعنى النبى ﷺ، فيما هو وحى. أما فيما هو رأى فقد قبل النبى رأى غيره.

وقال جميع الأئمة مثل هذا،وهو معلوم فى الإسلام لايختلف فيه اثنان.

ومن تلك الأصول فتحه باب الاجتهاد فى الدين إلى يوم القيامة، وليس بعد هذا إكبار لشأن الحقيقة، واعتراف بكرامة العقول، واحترام لمبدأ تخالف الآراء .

ومنها، وهو أكبرها شأناً، تقرير الإسلام على لسان النبى ﷺ أن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها. أليس معنى هذا أن الناس فى كل نحو مائة سنة تتحول أحوالهم، وترقى عقولهم، وتتلطف أخلاقهم؛ أو يحدث التبدل فى عكس كل ذلك، وتتطلب الأحوال الجديدة نظرات جديدة فى الدين، تستدعيها الأحوال الطارئة؟ وإذا كان المسلم يجب عليه

أن يسيغ ذلك فى الدين، أفليس يسيغه فى العلم الكونى الذى هو مستمر التحول من مجهول إلى معلوم ، ومن غامض إلى واضح، كما يدل عليه تاريخه الطويل فى مدى ألوف السنين؟

ومن العجب العاجب أن العلم الذى اصطدم بالدين فى أوروبا أكثر من ألف سنة، فكانت بينهما منازعات انتهت بتأسيس محاكم دعوها محاكم التفتيش، كان من أثرها تضحية أكثر من ثلاثمائة ألف عالم فى سبعة قرون (من سنة ١٠٨٣ إلى سنة ١٨٢٠) لم يبل بمثل هذا العداء لدى المسلمين بفضل القرآن، فأقبل المسلمون على العلم كما أقبلوا على الدين، لأن الإسلام كما رأيت آخى بينهما إخاءً لا تنفصم له عروة، وكانوا كراماً متسامحين معه إلى حد أنهم قرروا فى أصولهم صرف الألفاظ التى تأتى مناقضة لمقرراته عن ظاهرها، لتتفق مدلولاتها معها، فقبلوا كل ما ثبت من تلك المقررات ثبوتًا قاطعًا ككروية الأرض وحركتها حول الشمس وغير ذلك. ولكنهم ما فعلوا ذلك استخفافاً بالدين، ولكن عملاً بتعاليمه؛ فإنه نص على أن أساس الإسلام ما يثبت من أحكام العقل ومقررات العلم، ولايخفى أن الألفاظ يعتريها من ناحية الفنون البلاغية المجاز والاستعارة، ،وحالات أخرى تجعل التأويل ضرورة لابد منه، فقد ورد فى الكتاب الكريم ما يوهم أن لله وجهاً وسمعاً وبصراً ومكاناً. . .إلخ. والتنزيه الذى قرره القرآن ينافى ذلك كله، فكانت الحاجة إلى التأويل لا محيد عنها. من هنا أصبح التأويل أصلاً من أصول فهم القرآن على حقيقته، فطبقوه على المسائل العقلية والعلمية مما يكون فى القرآن ما يناقضها فى الظاهر.

هذا التسامح الذى يعتبر آية لعظمة الإسلام، كان سببًا فى قبول المسلمين لجميع مقررات العلم، وكان ذلك لمصلحة تكميل شخصيتهم الإنسانية، وقد برهن تاريخهم أنهم وصلوا من كمالها إلى المكان الأرفع، كما سيتبين كل ذلك فى فصولنا التالية.

سبق الإسلام (١)

الإسلام سبق الزمان فقرر لأهله من الأصول ما لم يكونوا وصلوا إليه بتطورهم ومنها ما لم يصل إليه العالم كله إلا بعد قرون كثيرة

ذكرنا فى الفصل السابق أن الإسلام جعل للعلم المكان الأول فى سبيل محاولته إصلاح الشخصية الإنسانية.

ولكن لما كان العلم بطىء التطور، وخاصة بالنسبة للجماعات الأمية، وكان لا بد للجماعة الإسلامية أن تحيا حياة اجتماعية صحيحة، وأن تستفيد من كل ما يلازمها من تطورات مادية وأدبية، لأجل أن تصلح لتأدية المهمة العالمية التى ندبها الحق لها . .

ولما كانت هذه الحياة وتطوراتها تحتاج لآماد طويلة تمضى فى التعلم والاحتكاك بالأمم، آتاها الحق طفرة من طريق الوحى، بأمهات الأصول الأدبية التى تحتاج لها أمة نُدبت لإحداث انتقال بعيد الشأو فى المجتمع الإنسانى بأسره ، وسمى تلك الأصول بالحكمة، ودعاها للأخذ بها كما دعاها للأخذ بالعقائد، وبثها فى القرآن لتتلى بكرة وعشيا فى الصلوات الخمس والتعبد بالتلاوة، فتمتزج بكيان الأمة، وتصبح الأمة مطبوعة عليها. وقد تكررت فى الكتاب الكريم الإشارة إلى الحكمة ، وإكبار شأنها، تشويقاً للناس إلى الأخذ بها، فقال تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(٢).

---

(١) مجلة الأزهر المجلد الخامس عشرسنة ١٣٦٣ ص ٤٢٤.

(٢) البقرة: ٢٦٩.

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

وفى آية أخرى: ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾[2].

وفى الكتاب الإلهى مزيد من هذا فنكتفى بما أوردناه، موجهين نظر القارىء إلى أن الله جعل الحكمة تدليلاً على صحة العقائد، وتوسيعًا لمجال التفكير، وحماية للعقول إذا تشعبت أمامها السبل، وخفيت عنها معالم الحقائق. فهذه الحكمة ليست بفلسفة، ولكنها دستور لكل فلسفة ولكل علم ولكل دين، وهى التى حمت المسلمين من الخوض فى البحث عن أصل المادة وفى كيفية خلق السموات والأرض، وغير ذلك من البحوث الفجة التى غصت بها الفلسفة اليونانية، وأصدرت فيها آراء أشبه بأحاديث العجائز، وقد صدف المسلمون عن كل ذلك اتباعاً للحكمة القرآنية وهى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾[3]، ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ﴾[4].

معدين أنفسهم لقبول كل ما يأتيهم من العلم الثابت، الذى يسمح لهم بأن يقيموا الدليل على صحته.

ولسنا نستطيع هنا أن نلم بجميع أصول الحكمة المثبوتة فى الكتاب الكريم، فنكتفي بآصل أصولها ونعقب كلا منها بما جلب إلى المسلمين من خير، وما دفع عنهم من شر، وما أقامهم عليه من شرعة للتطور، بحيث وصلوا فى مدى زمن قصير دهش له العالم أجمع، من الاتساع فى السلطان، والتبسط فى المعارف والعدالة فى الحكم، والسمو فى الأخلاق، إلى ما لم يحدث مثله ولا قريب منه لأمة من أمم العالم. قال تعالى:

(١) ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾[5].

---

(١) الجمعة : ٢.
(٢) البقرة : ١٥١.
(٣) الإسراء : ٣٦.
(٤) النجم : ٢٨.
(٥) النساء: ١٢٥.

أى ومن احسن ديناً ممن أخلص نفسه لله، وطهرها من الأضاليل والأوهام، حتى صارت على الفطرة التى فطر الله الناس عليها، أى خالية من جميع العقائد الوراثية، والتقاليد الجاهلية، متمتعة بكل خصائصها العقلية، خالصة من جميع التقاليد التى تقيد حريتها واستقلالها. وهذه الحالة هى الدين الحق كما قال تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

(٢) ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾[2] أى يكذبون.

ومؤدى هذه الآية أن الناس لا يتبعون فيما يعتقدون إلا الظن، والظن تصور لا يستند إلى دليل، ويؤدى صاحبه بنظر قصير، أو بقياس فاسد، إلى وهم باطل، وهو لايفيد ما يفيده الحق الذى عليه مدار الإيمان الصحيح، المنتج لأعظم الآثار فى النفس، ولأكبر النتائج فى الخارج، بل الأخذ بالظن يوقع فى الضلال، وليس وراء الضلال، إلا سوء المنقلب.

(٣) ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾[3].

يقول الحق سبحانه إن المتبوعين فى الحياة الدنيا يتبرأون من تابعيهم يوم القيامة، ويرى كلاهما العذاب الذى ينتظره وتنقطع بينهم العلاقات، وبذلك قضى الإسلام على التقليد إلا بدليل قاطع، وحجة ناهضة، وترك المجال مفتوحاً أمام الآخذين به للنظر المستقل، وللبحث الحر.

(٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[4].

بهذه الآية الكريمة أعلن الإسلام المساواة بين الناس كافة، لا فرق بين أبيض

(١) الروم: ٣٠.
(٢) الأنعام: ١١٦
(٣) البقرة: ١٦٦
(٤) الحجرات: ١٣

وأسود، ولا بين عربى وأعجمى، فلم يجعل للقوميات ولا للجنسيات ولا للغات، دخلاً فى التفرقة بين الناس فى الحقوق الطبيعية. وهذا أول ما تقرر من نوعه بين البشر.

وقرر الإسلام بهذه الآية أيضاً وجوب التعارف بين الجماعات البشرية، لتقوم بين الأمم كافة زمالة فى الحياة، تؤديهم إلى التعاون الواجب وجوده بين جماعات كُتب عليها أن تبلغ غايات واحدة.

هذا الأصل يغير وجهة نظر الآخذ به، فلا يعتبر الشعوب خصوماً له يجب عليه إبادتهم، ولا مزاحمين ينبغى له أن يسد عليهم طريق الحياة، ويميل على الدوام ويعمل لإيجاد روح التعاون بينه وبينهم. وهذا ما فعله المسلمون الأولون؛ فقد فتحوا بلاد شعوب كثيرة، وامتزجوا بها وبادلوها المرافق، وأعانوها واستعانوا بها. ولم يؤثر عنهم أنهم استباحوا أموالها، أو استذلوا آحادها، فكان أثر ذلك أن دخل فى دينهم دون دعوة منظمة ولا إجبار، نحو مائة مليون إنسان فى قرن واحد، وهو ما لم يسمع به فى أى عهد من عهود البشر.

والمدهش أن دعوةً للمساواة والتعارف بين الشعوب من هذا النوع لم تسمع بين الناس قبل مجىء الإسلام ولا بعده حتى القرن التاسع عشر.

(٥) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾[1].

أى يأمركم بارئكم بالعدل بين جميع الخلق، لا فرق بين مسلم وغير مسلم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[2] ومعناه لا يحملنكم بغضكم لقوم على أن لا تعدلوا فيهم؛ ثم أمر بالإحسان إليهم بدليل قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[3].

والبر أقصى درجات الإحسان، من بر والده أى رفق به، وتحرى مما به.

---

(١) النحل: ٩٠

(٢) المائدة : ٨

(٣) الممتحنة : ٨

(٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾(١).

وليس بعد هذه الدرجة من العدالة أوج ترجو أن تعرج إليه أمـة، ولا يعقل أن تنال هذه المرتبة مـن العدالة إلا إذا بلغت الأمة أبعد شأو فـى تقدير الحقوق الإنسانية.

(٧) ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾(٢).

وفى آية: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾(٣).

وفى آية أخرى غيرهما: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ (أى فى تأثيرها)، ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(٤).

يتبين من هذه الآيات أن الإسلام لا يبيح العقاب إلا على قدر الاعتداء مع اتقاء الله فيه، فقد صرح بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(٥).

وفى الآيه الثانية ترخيص لمقابلة الاعتداء بمثله، ولكنه نوه فيها بفضيلة العفو، فمن عفا قاصدا بعفوه الإصلاح فله أجر عظيم. وفى الآيه الثالثة زجر شديد عن الاعتداء.

(٨) ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(٦).

ومن الاعتداء قتل الجرحى والمستسلمين، وخدم المحاربين، وإهانة المأسورين،

(١) النساء: ١٣٥.
(٢) البقرة: ١٩٤.
(٣) الشورى: ٤٠
(٤) فصلت: ٣٤
(٥) المائدة: ٨٧.
(٦) االبقرة: ١٩٠.

وإحراق مزروعات المقاتلين وهدم منازلهم، والفتك بأبنائهم ونسائهم ومرضاهم وشيوخهم ورجال دينهم. وهذه كلها آداب حربية لم تصل إليها بعض الأمم إلا فى العهد الأخير.

(٩) ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾(١).

هذه الآيه تفتح باب السلام العالمى على مصراعيه، وتتلاءم والنزعة العصرية فى وضع أصول مقررة لإبطال الحرب، فإذا حدث هذا لا يجد الساعون إليه من الدول الإسلامية غير التأيد بأمر من دينهم، لو اطلع عليه من هم بسبيل إقرار السلام العالمى لدهشوا أن يكون بين الموروثات الدينية أمر من هذا النوع. ولا أدرى إلى أى حد يصل دهش الذين كانوا لا يزالون يعتقدون ما اتهم به الإسلام من أنه دين حرب لايهدأ لأهله بال إلا بشنها على الأمم دون حساب.

(١٠) ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾(٢).

أى ليست إرادة الله تساير أمانى قوم وأحلامهم، ولكنها تنفذ على الكافة، دون محاباة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾(٣).

وهذا إيذان خطير من الحق سبحانه وتعالى، فإن أصحاب الأديان يتخيلون أن لهم دالة على الله فيما بينهم، يتجاوز معها عن صغيرات انحرافاتهم؛ فصرح للمسلمين بما لا يحتمل التأويل بأن الأمر ليس بأمانيهم ولا بأمانى أهل الكتاب من قبلهم، فإن العدل لابد بالغ حده فى معاملتهم.

(١١) ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾(٤).

---

(١) الأنفال : ٦١.

(٢) النساء : ١٢٣.

(٣) سورة الزلزلة: ٧ ، ٨.

(٤) الأحزاب: ٦٢.

كان الفلاسفة قبل الإسلام وبعده بعدة قرون، يجهلون أن للاجتماع سنناً لايمكن تعديها وأن لكل أمة أجلاً لا يمكن تجاوزه، كما قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[1].

فالأمم عند أهل القرآن تولد وتشب وتهرم ثم تتلاشى، وهو ما نص عليه علم الاجتماع. ولهذه المعرفة أثر في توجيه الجماعات وقيادتها، وتحرى أسباب نهوضها وشبيبتها، ولما كان الفرد لا يحب أن يهزم فيموت، فإذا انتابته أعراض مرضية خشي أن تفضي به إلى الموت، فاستثار كوامن قواه دفعاً لتلك الأعراض، واتبع وسائل البقاء ليحتفظ بوجوده أطول مدة مستطاعة، فكذلك الأمم متى ألمت بهذا الناموس كرهت أن تلم بها أعراض من أعراض الاجتماع خشية أن تفضي بها إلى المصير المحتوم للأمم، فأسرعت للتخلص منها بالوسائل الممكنة.

نكتفي في هذا العدد بهذه الأصول ونتابع نشر بقيتها في الأعداد المقبلة إن شاء الله.

(١) الأعراف: ٣٤.

الأصول القرآنية

تابع فصل الأصول القرآنية التي أقامت الدولة الإسلامية(١) ووضعت أساس الأمة العالمية

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ١٧ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(٢).

هذا الأصل كان له أثر كبير فى سرعة ترقى المسلمين، فإنه بإباحته لهم، بل بتحضيضهم على الاستماع لكل قول والأخذ بأحسنه، جعلهم معرضين لعوامل التطور المختلفة دون حائل من عقيدة أو تقليد أو وراثة.

ذلك أنهم لما اختلطوا بالأمم لنشر الدعوة التى كلفوا بها، وتبادلوا القول مع المدعين، فأنصتوا إلى كل ما وجه إليهم، لا إنصات الجامدين المتشددين، ولكن إنصات الباحثين المستطلعين، الذين أمروا أن يتلقفوا الحكمة أنّى وجدت، عملاً بأمر كتابهم، وبوصاة رسولهم، فى قوله ﷺ: «خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت»؛ فتبين لهم نقصهم فى كثير من الشئون العلمية والعملية، فاندفعوا لتداركه اندفاعاً لم يؤثر عن أمة من الأمم قبلهم، فاستعانوا عليها بالعارفين بها من غير ملتهم، وأحلوهم محل الكرامة لعلمهم وفضلهم، وأغدقوا عليهم من برّهم ورفدهم، ما حمل كل ذى علم أو صناعة أن يتقدم إليهم، وأن يخلص لهم، فراجت سوق العلوم والفنون، وارتقت فى

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد الخامس عشر ١٩٦٣ ص ٤٧١.
(٢) الزمر: ١٧، ١٨.

بيئة هذا النشاط الثقافى الحر درجات المعارف المختلفة، بعد أن كان أهلها يوصمون بالزندقة، وتوصد فى وجوههم أبواب الارتزاق.

وكان الخلفاء يتلمسون أهل العلم فى الآفاق، ويستحضرونهم مكرمين وفادتهم، مغدقين، عليهم من الأموال ما لم يروا له مثيلاً فى عهد دولتهم، ولم يكف المسلمين أخذ ما وقفوا عليه حاضراً بين أيديهم، بل عمدوا إلى المكتبات الزاخرة بالمؤلفات، فاستخرجوا كل ما كان فيها من ذخائر العلوم والفلسفة لكبار المؤلفين، واتخذوا ترجمة لها من آحاد تلك الأمم، لنقلها إلى العربية. وقد قبل المسلمون كل ذلك مرتاحين إليه، لأن الغرض كان العلم النافع، وقد اتبعوا أحسنه كما حثهم عليه الكتاب؛ فكان منهم الأئمة الكبار فى جميع فروعه، وآلت إلى المسلمين الزعامة العلمية فى العلم كله قروناً متوالية، وقد اعترف الأوربيون أنهم نقلوا عنهم العلوم إلى بلادهم، فحدث عنها ماسموه بعهد البعث La Renaissance الذى كانت مدته القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وكانت مادته ما لفت المسلمون أنظارهم إليه من كتب العلماء القدامى، وما قاموا بترجمته إلى العربية من معارفهم.

(١٣) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[١].

كشف الإسلام لأهله بهذه الآية عن سر عظيم من أسرار البسكولوجيا العالية، فى عبارة تعتبر غاية فى التأثير على النفس، وهو أن للقلوب عمى تصاب به، لا يعتبر بجانبه عمى الأبصار شيئاً، لأنه يحجب عن الإنسان إكبر مايهم، وهو النور العلمى الذى، يقوّم به حياته الصحيحة. أما عمى الأبصار فيحجب عنه النور المادى الذى يريه الكائنات المحسوسة، وليس احتجابها عنه بشىء إلى جانب ما يحجبه عمى القلب نحو مائة وخمس وعشرين مرة، فى الوان من التعبير هى أبلغ ما يُقصد به التأثير فى النفس الإنسانية.

(١) الحج: ٤٦.

وقد علل الكتاب إعراض الكافرين عن الدعوة إلى الحق، بمرض يعترى القلوب يمنعها عن التأثر به، فقال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾(2).

ومن أبلغ ألوان التعبير فى هذا الموطن نفيه القلوب عن الكافرين، فقال تعالى:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾(3).

ووصفه قلوبهم بالهواء، فقال تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾(4).

ونفيه عن قلوبهم الفهم، فقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(5).

كل هذا التلوين البديع لفت المسلمين إلى قلوبهم، فعنوا بصحتها أشد من عنايتهم بصحة أجسادهم، وزادهم النبى ﷺ مضياً فى العناية، بما وصاهم به من حكمه العالية كقوله: «إن الله لاينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم». وقال: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب».

هذه العناية بالقلب من ضروريات الأمم التى يُعدها الخالق لخلافته فى

(1) البقرة: ١٠.
(2) التوبة: ١٢٤، ١٢٥.
(3) ق: ٣٧.
(4) ابراهيم: ٤٣.
(5) الأعراف: ١٧٩.

الأرض، وامتداد سلطانها على الأمم والجماعات فيها فالأمم التى لا قلوب لآحادها بالمعنى المراد هنا، قد تعيش وتقوم لها مدنية، ولكنها تعيش لذاتها، وتكسب كراهة جيرانها، وتستجلب الأحداث على نفسها، بما ترتكبه من غشمرة وغطرسة على كل من يرتبط بها، ويكون أكبر تعويلها على الأسلحة فى استبقاء وجودها، ولا تكون أهلاً لبسط سلطانها الأدبى على جيرانها، لتستحق بذلك خلافة الله فى الأرض، أى زعامة الأمم فيها، وهو ما يعبر عنه باللسان السياسى Hegémonie كما كانت الحال بالنسبة لمصر والصين والهند وأثينا ومملكة فارس فى العالم القديم، لأن هذا السلطان الأدبى لا تكفى فيه القوة الحربية، ولا البسطة العلمية، فلابد من روح أدبية راقية، تؤثر فى العقول والقلوب معاً. فجاء الإسلام حاصلاً على هاتين البسطتين على أكمل الأحوال. فكان الذين يخشون بأس أصحابه من ناحية يتنسمون منه روحاً عالية تمثل لهم الرحمة والعدالة والسماحة من ناحية أخرى؛ فدانت لهم الجسوم والأرواح معاً، وهذا كل ما ينبغى أن ما تكون عليه الأمم العالمية، التى يبعث قيم الوجود بها فى الأرض حين يطغى سلطان المادة على العقول، وتدلهم غياهب الأهواء فى النفوس، وتتداعى أركان الفضيلة فى القلوب، فيصون الحق بها دعائم العمران البشرى أن تميد. وقد أدى الإسلام للعالم من هذه الناحية مهمة نالت الجماعات البشرية منها حصصاً بقدر ما تحتاج إليه، ولا يزال الإسلام قائمًا بمهمته العالمية ولم يمنعه ما أصاب أهله من فتور أن يؤثر بقوته الذاتية من وجوه غير مباشرة ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾[1].

أريد بعد هذا كله أن أقول إن العناية التى وجهها الإسلام إلى إصلاح القلوب هى التى أخذت بيد أهله الأولين إلى بلوغ الغايات التى بلغوا إليها، وستأخذ بيد أخلافهم إلى استرداد مكانتهم بين الجماعات البشرية.

---

(١) ص: ٨٨.

(١٤) ﴿ يُفْتَنُونَ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا ﴾(١)، أى وهم لا يمتحنون؟

المعنى أتوهّم الناس أنه يكفيهم أن يقولوا آمنا، فيُعتبروا من شيعة الحق من قبل أن يمتحنوا، فيظهر أنهم صادقون؟ وقد صارحهم الحق بنوع هذا الامتحان، فقال تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾(٣)

وقد صرح الله تعالى بأن يبلو المؤمنين بالخير وبالشر أيضاً، فقال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾(٤).

أقام الإسلام أتباعه بهذا الأصل العظيم على الصراط الطبيعى للتطور، وهو الاصطراع بينهم وبين الحوادث على النحو الذى عليه الخلق أجمعون، لا على النحو الذى يتخيله أهل الأديان، من أن الله يحابيهم فيعفيهم من الجهاد الشاق الطويل للحوادث، ومن المراس العنيف المضنى للكوارث، فصرح الله لهم بأن سنته فى تربية خلقه فى هذا العالم الأرضى لا تتغير:

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾(٥).

(١) العنكبوت : ٢.
(٢) آل عمران : ١٨٦ .
(٣) البقرة : ١٥٥، ١٥٦ .
(٤) الأنبياء : ٣٥.
(٥) النساء : ١٢٣ .

ولذلك قرن الإيمان فى وصاياه بالعمل؛ وبهذا وقر فى نفوس المسلمين أن الإيمان بالحقائق الإلهية إنما هو عمل قلبى ثمرته إقامة صاحبه على الصراط الأقوم من الأخلاق والآداب، وأنه يبث فى روعه روح الإقدام على الأمور العظام، والصبر على الخطوب الجسام، والمضى قُدماً إلى الغايات الشريفة، لايلويه عنها ما يصادفه من العقبات؛ وأنه لا يعقبه من العمل المستمر، والدؤوب المعنت، ولا من كل ما يلابس هذه الجهود من الانخداع والإخفاق.

وقد صرح النبى ﷺ أن للإيمان بالحقائق الأهلية واجبات لا بد من أدائها، ومشقات لا محيص من معاناتها، فقال: «أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل» أى ثم الأفضل فالأفضل.

ولو كان الله معفياً أحداً من مكاره الحياة، لأعفى رسوله ﷺ، وقد رأيت من سيرته أنه كان لا ينعم بالحياة المادية، وكان وقته كله وقفاً على واجباته الرسولية، حتى روى أنه حدث ذات ليلة ما يوجب الذعر لأهل المدينة من أصوات وصيحات أزعجت النائمين، فظنها الناس غارة، ففزع كل من سمعها إلى سلاحه وحصانه وانطلقوا صوبها، فوجدوا رسول الله ﷺ على حصانه بغير سرج، وقد تبين مصدر الذعر وقفل راجعاً، فلما رآهم تبسم وقال: لن تراعوا لن تراعوا. فعجبوا من أنه كان أسبقهم إلى المخاطرة بنفسه وحده فى الليل الدامس.

وفيما نأتى به من الآيات الآتيه دلائل ناصعة على ما نقوله؛ قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

(1) التوبة : ٣٨، ٣٩.

نزلت هاتان الآيتان وعدة آيات بعدهما حين دعا النبى ﷺ المؤمنين لقتال الرومانين، فظهر عليهم شىء من التثاقل، استهوالاً لمقاتلة دولة عظيمة تعد جيوشها بمئات الألوف، مسلحة أكمل تسليح. فنزلت هذه الآية تنذرهم بأنهم إن لم يقوموا بالمهمة العالمية التى ندبوا إليها عذبهم الله عذابا أليما، واستبدل بهم قوماً غيرهم للاضطلاع بهذه المهمة التى تقتضى أقصى ما تملكه النفس البشرية من التضحية. فخضع المسلمون لأمره، وألفوا جيشاً قوامه ثلاثون ألفاً سار به النبى ﷺ حتى بلغ حدود الشام، فلم يحرك الرومانيون ساكناً، فأمر جنوده بالرجوع، وقد ابتلوا ابتلاءً شديداً، ومحصوا تمحيصاً بالغاً.

هذا الابتلاء فى معترك الأهوال، وصبر المسلمين الأولين على كل ما نالهم فيه من كوارث وكروب، واقتناعهم بأن الله لا يحابى أحداً لأى اعتبار كان، وأن مجرد الإيمان بالقلب لا يغنى عن العمل، وأن أولى الناس بالتضحية وبذل الوسع هم المؤمنون بأن ما عند الله باق وكل ما عداه فهو فان، كل هذا جعل من المسلمين الأولين أداة صالحة للقيام بالأعباء العالمية التى اختارتهم لها الإرادة الإلهية، فبلغوا فى سنين معدودة ما لم يبلغه سواهم فى قرون، وصاروا آية ناطقة على أن التعاليم التى كانت توحى إليهم، وتقيمهم على الصراط الذى قاموا عليه، كانت تعاليم إلهية رفعتهم من حضيض الجاهلية، إلى حالة أفادوا بها العالم إفادة لم يُتحها قيّم الوجود لأمة أخرى.

(١٥) ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(١).

هذا الأصل كشف للمسلمين عن سر عظيم من أسرار الاجتماع البشرى، وهو التضامن، فالأمم وقد خلقت لتعيش مجتمعة، يؤثر ما يصيب بعضها من قصور أو انحراف فى البعض الآخر، لأنهم فى الواقع يؤلفون جسماً واحدا. فيكون من الجهل والحماقة أن يعيش فرد فى مجتمع وهو غير مبال بما يصيبهم

(١) الأنفال: ٢٥

كأنه مستقل عنهم. فالإعواز الذى يصيب الطبقة الفقيرة مثلاً، والجهالة التى تقع فيها، وسوء الآداب التى تتردى فى حمأتها، كما يصيبها بالمتاعب ويجعل حياتها مرة، أو يدهورها إلى حالة همجية حيوانية، يصيب بقية طبقاتها أثر من تلك الحالة تقض مضاجعها، وتنغص عيشها، بل قد تأتى على سمعتها، أو تعدو على وحدتها.

بهذا الأصل أصبح كل مسلم فى العالم الإسلامى الأول يهتم بما يصيب مجتمعه من الانحراف بعض طبقاته، فأعمل فكره فى إصلاحه، وصارح به إخوانه ليعملوا على تداركه من وجوهه المشروعة، ومتى شاع أمره بينهم أصبح مسألة عامة يهتم بها المجتمع كله جسدًا واحداً.

أما الذين يخيل إليهم أنهم يستطيعون أن يعيشوا ناعمين لاهين، وفى جسم مجتمعهم صدوع لم ترأب، وفى سيرتهم اعوجاج لم يعالج، فإنهم يكونون فى ضلال مبين.

هذا الأصل الكريم جعل من كل مسلم مراقباً على من تضمه وإياهم رابطة الاجتماع، إن رأى فيهم عوجاً سعى فى تعديله بكل ما أوتى من وسع. فمجتمع يكون هذا تكوينه تكون مناعته حيال الأمراض الاجتماعية من القوة بمكان. والمعروف علميا فى عهدنا هذا أن أوامر الحكومات لا تنفذ على الوجه المطلوب ما لم تجد الحكومة من الشعب معيناً عليها.

من الأصول القرآنية *

تابع فصل الأصول القرآنية التى أقامت الدولة الإسلامية

(١٦) ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾(١).

من الأوهام الشائعة بين أهل الأديان، أن للقرابات والاتصالات فائدة فى الحياة الآخرة، كما لها فى الحياة الدنيا؛ وتناسوا أن فائدتها فى هذه الحياة تقوم على جهالة الناس واستنامتهم إلى الأوهام الموروثة، ولا يوجد هذا المؤثر فى الحياة الآخرة فيستحيل الناس إلى أعمالهم إن خيراً فخير وأن شراً فشر.

وقد امتد الوهم بالناس إلى تخيل أن المقامات الروحية قد تورث كما تورث المقتنيات المادية، فيقام الابن مقام أبيه فى مهمته الدينية ولو كان غير أهل لها. وقد مُنى الشرق والغرب بهذه الغفلة قروناً طويلة قبل مجىء الإسلام، واستمر بعده إلى اليوم، إلا فى البيئات التى غمرتها أنوار العلم.

قد نشأ عن هذه العلة أن أسندت الأمور إلى غير أهلها، وتحولت عن وجهاتها الروحية إلى حيث تستغل جهالة الجاهلين، وأوهام السذج والمغفلين؛ فجاء الإسلام ماحقاً هذه الآفة الجاهلية، فقرر أن ليس للإنسان إلا ما قدمه من عمل، لا ما ورثه عن أبيه من لقب، وأن عمله هذا سوف يراه يوم الدين، ويجزى عليه الجزاء الذى يستحقه، وقد جاء النبى ﷺ فقوى فى النفوس أثر هذه الآية فقال لابنته فاطمة، وهى أحب الناس إليه: «اعملى يا فاطمة فإنى

* مجلة الأزهر، المجلد السادس عشر سنة ١٣٦٤ هـ، ص ٨

(١) النجم: ٣٩، ٤٠، ٤١

لا أغنى عنك من الله شيئاً». فإذا كان رسول الله نفسه لا يغنى عن ابنته شيئاً، فهل يعقل أن يغنى فى أمته غيره عن أحد شيئاً؟

وقد قرن الحق جل وعلا الإيمان بالعمل فى نحو ثلاثمائة آية من القرآن الكريم، وليس بعد هذا مذهب فى التحضيض على وجوب العمل، وعدم الاكتفاء من الدين أو من العلم بالكلام، وهو الداء الدوى الذى يصيب المتدينين عندما يخيل إليهم أن الله يسخر لهم قوى الكون لا لشىء سوى أنهم مؤمنون، وينسون أو يتناسون أن هذا الامتياز لم يعطه المرسلون أنفسهم، فقد خاضوا غمرات الأعمال، وابتُلوا أحياناً بالفشل بسبب أخطاء صدرت من أتباعهم.

هذه الآيات اختلطت معانيها العالية، بروح الأمة الإسلامية الأولى، فأكسبتها رجولة في سيرتها لم نر لها مثيلاً فى غيرها من الأمم، ظهرت آثارها بعد وفاه النبى ﷺ عند اختيار خليفة له فلم يسندوها لواحد من أهل قرابته، وقد كان منهم من يصلح لها، وأسندوها إلى أبى بكر ولم يروا فى ذلك بأساً؛ ولما حضرته الوفاة نصح لهم أبو بكر أن يسندوها إلى عمر، فأطاعوه ولم يؤانسوا فى ذلك مانعاً؛ ولما توفى عمر واجتمع أهل الشورى انتخبوا لها عثمان. حدث كل ذلك فى نحو ربع قرن ولم يضطرب له حبل الأمور، ولا انشقت منه عصا الجماعة؛ ثم أفضت الإمامة إلى على بن أبى طالب فكان رابع الأئمة الراشدين، رضى الله عنهم أجمعين.

(١٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(١).

أى اصبروا على البأساء والضراء، ومماينالكم من عنت الحياة، وتقلبات الحوادث، ولا تتثبطوا عن متابعة الثبات مهما التوت عليكم الأمور، وتكادتكم النوازل، وصابروا أعداءكم، أى غالبوهم فى الصبر، وباروهم فيه، فإن الله مع الصابرين.

---

(١) آل عمران : ٢٠٠

كررت فضيلة الصبر فى الكتاب نحو تسعين مرة فى ضروب عدة من الألوان البيانية، وفى مناسبات شتى من المآزم الاجتماعية، والمواقف الحيوية، فقال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾[1].

أى إن ذلك مما عزمه الله، أى قطعه وأوجبه عليك من الأمور. وقال تعالى آمراً رسوله بالصبر: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[2].

فى هذا إيذان بأن الصبر من أركان الدعوة إلى الإصلاح، وأنه شرط فى نجاح الأعمال بحيث لا تقوم دونه. وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾[3].

أمر الله المؤمنين وقد أحيط بهم وجدّ بهم الجد، وثارت عليهم أعاصير الحوادث، بأن يستعينوا بالصبر والصلاة؛ فأما الصبر وهو الثبات، فهو مظهر الإرادة التى لا تتزعزع، والإرادة فى ذاتها قوة معنوية ذات أثر فعال فى إنجاح المطالب. بل قال الذين يبحثون فى أسرار النفس البشرية أن للإرادة إشعاعاً يؤثر تأثير سائر القوى خارج محيط الشخص المريد فيحقق له ما يرمى إليه؛ والصلاة اتصال بقيوم الوجود واستمداد منه ما يعينه من القوى فى تذليل العقبات. فهذه الآية من أرفع ما يوصى به الموصون من وسائل النجاح فى الأمور المشروعة. والمسلمون بما نجحوا فيه من مشروعاتهم الكبيرة، على قلة عددهم، أدل دليل على ما لهذا الأسلوب الإلهى من التأثير فى العالم المادى. وقد قال كبار القادة ممن مارسوا الحروب الطاحنة: إن الشجاعة صبر ساعة، فانظر إلى أى حد يبلغ تأثير الصبر، وإلى أى مدى يعتد به الذين يغالبون الأحداث والعوائق؟

---

(١) لقمان : ١٧.

(٢) الأحقاف : ٣٥.

(٣) البقرة : ٤٥.

(١٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾(١).

أى إن الذين قالوا ربنا الله، القادر الذى لا حد لقدرته، الآمر بكل خير، والناهى عن كل شر؛ ثم استقاموا على الطريقة التى رسمها فى كتابه، تتنزل عليهم الملائكة، وهى تلك الكائنات العلوية التى تتولى الصالحين بالهداية الربانية، وتثبت فى قلوبهم روح الصبر على المكاره، والثبات فى مواطن الشدائد، وتنزع من قلوبهم الخوف واليأس من العناية الالهية، وتبشرهم بما ينتظرهم فى حياتهم الأخروية من مكانات الرفعة، ومقامات الكرامة.

إن هذه الآية أثرت فى قلوب المسلمين الأولين من ناحية الاستقامة على الطريق التى رسمها الكتاب الكريم أبلغ تأثير، فحملتهم على تحرى محابٍّ الله، ومكارهه لا تحرى المأمور بالخير فحسب، بل تحرى من يتلمسون الاتصال بالملأ الأعلى الذى وعُدوا به، وهو مطلب كل نفس بشرية، تشعر بأنها اضطلعت بأعباء مهمة إصلاحية، ودُفع بها فى مزدحم الشؤن العالمية. فقد كانت الجماعة من جماعاتهم إذا أصيبت بفشل عارض، تحرى قادتها ماعسى إن يكونوا قد أهملوه من الوصايا الإلهية أو التعاليم النبوية، فاستدركوه. إلى هذا الحد وصل بهم العمل بأوامر الله وتجنب نواهيه. فلا غرو أن تتنزل عليهم روح ربانية تمدهم بالشجاعة والتضحية، وتمهد لهم العقبات المستعصية، وتهيىء لهم أسباب الغلب والنجاح.

(١٩) ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(٢).

أى ولايحملنكم بغضكم لقوم بسبب أن صدوكم عن الطواف بالمسجد الحرام

---

(١) فصلت : ٣٠.

(٢) المائدة : ٢.

أن تعتدوا عليهم ، وتتجاوزوا حدود العدل فيهم، ولا يشدن بعضكم أزر بعض على ارتكاب الآثام، ولكن على الإحسان إلى الناس، وعلى خشية الله بالوقوف عند حدوده، فإن الله عقابه شديد العقاب فاحذروه.

هذه الآية مثال من المُثُل العليا للأخلاق الإسلامية الماثلة فى الكتاب الكريم، فإن قيّم الوجود الذى أراد أن يجعل الأمة الإسلامية أمة عالمية، لم يدعها تجرى فى علاقاتها بالأفراد والجماعات على السنن البشرية التى تأخذ بها الأمم، ومنها النكاية بأعدائها، والنيل منهم، شفاء لصدرها مما جنوه عليها من تعطيل مناسكها، وتأجيل شعائرها، وما سبق ذلك من الإغارات المتوالية عليها، وتأليب الجماعات ضدها، وإسرافها فى اضطهاد ضعفائها. وقد جرت الشعوب أن تشدد النكير على أعدائها من هذا القبيل نكاية بهم، ولكن الخالق جل وعز الذى يريد أن يجعل من الأمة الإسلامية أمة عالمية، قضى أن لا تجرى على هذه السنة من العادات الشائعة بين الشعوب، فوضعت لذلك حدا من السمو الخلقى هو غاية ما يمكن بلوغه متى وصلت الإنسانية إلى صميم اللباب من العدالة الصحيحة.

(١٩) ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(١).

هذا إيعاز من الله تعالى للذين يدخرون الأموال ولا ينفقونها فى سبيل الله، بعذاب أليم. وسبيل الله هو الطريق المؤدى إلى كل صلاح وإصلاح للأفراد وللجماعات. ولما كان أقوى ركن فى الاجتماع هو الحاجات المعاشية والاجتماعية، وكانت توفية تلك الحاجات قائمة على المال، كان المسئولون المباشرون عن هذا الركن هم المتعاملين بالدرهم والدينار. ولما كان المال يجتذب المال بما يؤتيه صاحبه من الوسائل لتصيده من هنا وهناك، كان العهدة على الذين يجمعونه تحت أيديهم ولاينفقونه فى سبيل إقامة بنية الاجتماع يستحقون عند الله أشد العذاب.

---

(١) التوبة : ٣٤.

ولما كان أخذ هذه الآية على ظاهرها يؤدى إلى تحريم ادخار المال، وحرمان المجتمع من طبقة الأغنياء، وهى طبقة لا بد من وجودها لإقامة المشرورعات العظيمة، وتحلية المجتمع بالمؤسسات الاقتصادية التى يشتغل فيها ملايين العمال من ذوى المهن الضرورية للاجتماع، بادر النبى ﷺ إلى شرح هذه الآية بقوله: «ما أديت زكاته فليس بكنز»، وعليه فليس ما يمنع فى الإسلام أن يكون بين أهله أمثال روكفلر وكارنجى والبارون هيرش وفورد ممن تعد رءوس أموالهم بمئات الملايين من الجنيهات، على شرط أن يؤدوا ما على رءوس الأموال هذه من زكاة. وقد قدرها الفقهاء بجنيهين ونصف فى كل مائة جنيه. فيكون ما يجب أن تدفعه الأمة المصرية إذا قدرت ثروتها بألفى مليون جنيه الآن، بخمسين مليون جنيه. وهذا القدر تنفقه الدولة فى الوجوه التى قررها الشارع لمصلحة المجتمع.

هذا الركن معدود من الأركان الخمسة للإسلام لمكانه الرفيع من بنية الاجتماع وقد تبين بعد ما دارت على الأمم الأدوار، أن نظام الجماعة يتوقف على نظامها الاقتصادى، وخاصة فيما يتصل بالطبقة المحرومة من المال. وقد انتهينا إلى القرن العشرين ولا نزال نرى أن النظام الاقتصادى هو الشغل الشاغل للأمم المتمدنة، ومن العجيب أن الإسلام حل هذا الإشكال بتقرير الزكاة حلاً لا يدع سبيلاً للمذاهب الاقتصادية المتطرفة للطعن فيه. فإنها بدلاً من جعل الثروات ملكاً شائعاً للآحاد، وهدم كل ما اتفق العالم على الاعتداد به من الوراثة والملكية الخاصة، فرضت على مجموع مال الأمة ضريبة سنوية واجبة الأداء قدرت باثنين ونصف فى المئة، وهو حل لا نشك فى أن العالم كله سيضطر للأخذ به، تفادياً من الانقلابات الذريعة التى يقتضيها الأخذ بغيرها من المذاهب الاقتصادية.

من الأصول القرآنية [1]

تابع فصل الأصول القرآنية التي أقامت الدولة الإسلامية

(٢٠) ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[2].

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[3].

إن معقد حياة الشعوب روابطها الاجتماعية، وهى توجد عادة طبيعية متى كان لا حياة للجماعة دونها، وقد وُجدت حتى عند الحيوانات العجم التى تعيش مجتمعة؛ ولكن رابطة الجماعة الإسلامية لم تكن من نوع الروابط الطبيعية، فهى لم توجدها الحاجة للحياة الحيوانية، وأوجدها النزوع لحياة أرقى يكون الترابط فيها غير قائم على الحاجات الجسدانية ولكن على الحقائق العلوية، والأصول الأولية؛ وهى حالة يؤدى إليها تطور عظيم فى نفسية جماعة من النوع البشرى يرون أن رابطتهم الاجتماعية يجب أن تكون قائمة على ما يتوقون الوصول إليه من المكانات الروحية، والمدارك الأدبية، لا على مجرد الحاجات المادية والمطالب الأرضية.

---

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد السادس عشر ١٣٦٤هـ، .ص ٥٤.

(٢) آل عمران: ١٠٣.

(٣) آل عمران : ١٠٥.

وقد علم قراؤنا أن رابطة جماعة المسلمين هى من النوع الأول، فقد نشأت نشوءاً من بين جميع الروابط التى كانت موجودة على عهدها، على الأصول الخلقية، والمبادىء الأدبية؛ فإلى الاعتصام بهذه الرابطة يدعو الإسلام بنيه فى الآيات التى نسردها، وقد استعار لها كلمة الحبل من حيث أن التمسك به يكون سبباً للنجاة؛ ولم يقل لهم اعتصموا بقوتكم الحربية، ولا بنعرتكم الحماسية، مذكرًا إياهم بفضل هذا الدين عليهم، وهو أنهم كانوا أعداء فألف بينهم، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها.

ثم قال لهم: ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات، أى الأصول الواضحات التى لا يعقل الخلاف عليها. قال المفسرون: المنهى عن الخلاف فيه هنا الأصول لا الفروع، بدليل أن صحابة رسول الله أنفسهم لم يتورعوا عن الخلاف فى الفروع، وقد جاء فى السنة تحضيض على النظر والسريان فى سرائر المسائل وتفهمها على أتم الوجوه، فقال النبى ﷺ «من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد» وهذا أبلغ ما عرف من الحث على البلوغ بالبحث التحليلى أقصى حدوده. وليس من شك فى أن هذا يولد الخلافات كما حدث فى جميع أدوار هذه الأمة فى فروع المسائل، كما يحصل فى كل أمة حية. فيكون النهى عن الخلاف قاصراً على الأصول التى لا يجوز الخلاف فيها إلا مكابرة أو عناداً.

(٢١) ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(١).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾(٢).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾(٣).

---

(١) القصص : ٨٣.
(٢) يونس : ٨١.
(٣) القصص : ٧٧..

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾(١).

قام الإسلام على مبدأ الإصلاح، إصلاح العقول بلفتها إلى أعلام الكون؛ وعدم الخبط فيما لا تعلم؛ وعلى إصلاح القلوب بتخليصها من العقائد الموروثة، وإقامتها على الفطرة الصحيحة؛ وعلى إصلاح المعيشة بحضها على استخراج كنوز الأرض، وتسخير قوى الطبيعة؛ وعلى إصلاح المجتمع بإقامته على أساس العدل والمساواة، وتخليصه من جراثيم المنكرات الخلقية، وعلى إصلاح الإنسانية قاطبةً باتباع المثل العليا فى معاملتها فى كل مناسبة توجب الاحتكاك بها.

وهذا القسم الأخير من البرنامج الإصلاحى لم يدخل فى حساب أية أمة من الأمم التى سبقت الإسلام؛ إذ كانت الأمم الأجنبية تعامل بسياسة العسف والمجافاة؛ فكانت الحروب التى يشنها بعض الشعوب على بعض تجرى على سنة التناحر والتفانى، لا غرض منها لكل من الطرفين إلا تجريد الآخر من جميع وسائل وجوده، غير رام إلى غرض آخر من الأغراض الإنسانية. ولكن لما كان الإسلام ديناً عالمياً بحكم طبيعته، كان أهله ينظرون إلى الأمم الأجنبية نظرة عطف وتودد، فإذا دعت الضرورة لشبوب حرب بينهم وبين إحدى الجماعات القائمة، أمروا أن يباشروها مشبعين بروح التسامح رامين من وراء ذلك إلى غرض أسمى، وأولى بالإنسانية، وهو تحقيق التعارف الذى نص عليه كتابهم فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(٢).

والإسلام وضع أول نظام دولى وُجد فى العالم يسوى بين الغالب والمغلوب فى الحقوق الطبيعية، بعد أن تضع الحرب أوزارها؛ وأول دستور حربى يحرم

---

(١) محمد : ٢٢ ، ٢٣.

(٢) الحجرات : ١٣.

على ذويه قتل النساء والولدان والهزمى والزمنى ورجال الدين، ويزيد فى سماحته فيعم بعطفه حتى خدم المحاربين.

والإسلام أول اجتماع بشرى يؤثر عنه من أخبار المحاسنة للمحاربين مالا يوجد له نظير فى أى مجتمع آخر إلى اليوم. فقد نهى النبى ﷺ عن تتبع المهزومين، وعن الإجهاز على المجروحين، وعن إرهاق الأسرى بالمتاعب، بل أمر أن يحسن إليهم، فكان الجنود الإسلاميون قياماً بهذه الوصايا النبوية، يكتفون بأكل الثمر ويؤثرون أسراهم بالخبز على أنفسهم.

ونهى الإسلام عن هدم مساكن المحاربين، وعن إحراق زروعهم، واعتبر ذلك كله من الفساد فى الأرض، ونهى عن ذلك فى عشرات من آيات الكتاب الكريم، فى عبارات تعتبر غاية فى التأثير فى النفس.

على هذا قام المسلمون، ففتحوا الممالك والأمصار، وأخضعوا الأمم و الشعوب فاتخذوا لأنفسهم ملكاً لا تغيب عنه الشمس، لم يشيدوه على ظبا السيوف وأسلات الرماح، ولكن على العدل والإنصاف والتسامح، فاعتبروا كما يقول الاستاذ الكبير (جوستاف لوبون) فى كتابه تاريخ العرب: أرحم الفاتحين على الإطلاق.

والعالم اليوم بعد ما مضى عليه بعد ظهور الإسلام نحو أربعة عشر قرناً يرى أن حياة الإنسانية تستدعى وضع حد لهذه الحروب، ودخول العالم كله فى وحدة عامة، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾(١).

(٢٢) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾(٢).

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾(٣).

---

(١) الأنفال : ٦١.
(٢) يونس : ١٣.
(٣) الأنبياء : ١١.

القرآن الكريم حافل بذم الظلم والتشهير به، ويذكر الأمم التى بادت بتأثيره حتى صارت كأن لم تغن بالأمس؛ وقد تنوعت هذه الآيات، وتجلت فى ضروب شتى من البيان، بحيث لا يستطيع الإنسان إذا تلاها فرادى أو مجتمعة، أن يتخلص من وقعها فى نفسه. و المسلمون فى حاجة ماسة إلى هذا البيان البعيد الغور فى التأثير، لأنهم دعوا ليؤسسوا الأمة العالمية النموذجية فى الأرض، فإن لم تكن من العدالة بحيث تمثل المثل الأعلى لها، لم تصلح لأداء مهمتها، ولم تبلغ الشأو الواجب أن تبلغه وهى بهذا الوصف.

كان الأقدمون يعرفون معنى العدل و معنى الظلم ولكنهم ما كانوا يعرفون حدود كل منهما، فكانت تلك الحدود متداخلة، شأنهما فى ذلك أكثر جميع المعانى المجردة إذ ذاك.

ذكر القرآن الكريم العدل الإلهى وقرر، على سبيل التمثيل، أن له ميزاناً لا تفلت منه الذرة، فقال تعالي: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1].

بل ذكر لنا الكتاب أن العدل والظلم قد يتعديان المحسوسات إلى المعنويات، وبناء عليه يحاسب الله على خطرات الأوهام وهواجس الأحلام لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾[2].

وقوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[3].

لهذا السبب لم تبلغ المدنيات اليونانية والرومانية مبلغ الإسلام فى تقدير العدل والظلم، وما ابتنى عليهما من أحكام، ويظهر ذلك فى معاملتهما للشعوب، فإن الشعب اليونانى فرَّق بين من ينتسب إلى أصل يونانى، وبين من لم يمت إليه بسبب، فجعل للأولين جميع الحقوق الوطنية وخولهم حق

(١) الزلزلة : ٧، ٨.

(٢) البقرة : ٢٨٤.

(٣) الحجرات : ١٢.

السيادة على الآخرين، وجاراه فى ذلك الشعب الرومانى مضيفاً إلى ذلك شيئاً من الغلو، فلم يفرق بين من هو من أصل رومانى وبين من هو غيره فحسب، بل فرق بين الخاصة والعامة أيضاً فجعل للأولين الزعامة والقيادة والحماية، وفرض على الآخرين الخضوع والانقياد والطاعة.

فإذا قارنت بين آثار هاتين الأمتين ، وآثار الإسلام وجدت بوناً بعيدا،وخلافاً شديداً ينطق بأن اليونانيين والرومانيين لم يصلوا من لباب العدالة إلى مثل ما وصل إليه الإسلام، بل ولا إلى قريب منه. وإلا فأين ما قرره الإسلام بأن لا اختلاف الأجناس ولا الألوان ولا اللغات بضائرة أصحابها أمام العدالة شيئاً، مما قررته شرائع تينك الأمتين من أن كل تلك الخلافات موانع طبيعية عن تطبيق مبدأ المساواة؟

فبينما كنت ترى أصحاب الجنسيات المختلفة وذى الألسنة والألوان المتباينة، يلون مهام الدولة، وزعامة الدين والعلم لدى المسلمين حتى كان من مقدميهم أرقاء سود كثيرون لم تصادف قط فى تاريخ هاتين الأمتين حادثة واحدة من هذا القبيل تمثل العدل الإلهى المطلق على طوال ما مكنوا فى الأرض.

وقد أشار الكتاب الكريم إلى الأثر البالغ الذى يحدثه الظلم فى الجماعات، وحذر الآخذين به من غوائله، مشفعاً ذلك بأن الله ينشىء فى مكان الأمة الهالكة أمة أخرى تحل محلها، وتضطلع بما كانت تضطلع به من أعباء الاجتماع، وكرر لهم ذلك فى مناسبات شتى ليحرصوا على ما ائتمنوا عليه من المهام العالمية، ويستبقوا وجودهم فى مكانتهم الأدبية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾[1].

(1) محمد: ٣٨.

الحكمة الإسلامية[1]

(الحكمة) التى حلى الإسلام بها أتباعه وقاية لهم من الزيغ عن سبيل الحق

بينا فى بضعة الفصول التى تقدمت الأصول التى أقام الإسلام جماعته عليها وقد تبين منها للقارىء العلل الحقيقية للقوة الخارقة للعادة للبنية الإسلامية، فاستطاعت جماعته أن تقوم وسط المحللات التى كانت مسلطة عليها من كل جانب، وأن تحدث فى العالم حدثاً ضخماً غير الخريطة الأرضية، وأوجد روحاً من الإصلاح الاجتماعى العام، شعرت به كل أمة حتى أبعدها عن المجال الذى صدرت منه.

هذه حركة يجب أن لا تغرب عن بال أحد، لأنها المعجزة الخالدة لهذا الدين، والحكمة من إنزاله؛ ولأن مبادىء هذا الدين ومراميه البعيدة لم تبلغ بعد غاياتها العالمية: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[2].

وقد حلى الإسلام ذويه مع ما بيناه من التوجيهات الإلهية، التى تأدت إلى أكمل حالات الوجود، (بحكمة)، أي بمذهب عقلى، يقيهم شر التورط فى فلسفات عميقة تؤدي إلي ضلالات بعيدة، وتدلهم على المحال والممكن من مواضيع النظر والاستنتاج والاستدلال، حتى لايصرفوا قواهم العقلية فى أعقاب مطالب ليس وراءها فائدة عملية لهم، بله ما تجلبه عليهم من كثرة القيل والقال، والصرف عن سبيل الحياة الصحيحة.

وقد كان من آثار هذه الحكمة عليهم أن أشاحوا بوجوههم عن الفلسفة

---

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد السادس عشر، سنة ١٣٦٤هـ، ص ٩٧.

(٢) فصلت: ٥٣

اليونانية الكلامية، وتأثموا من الاشتغال بها، ولم يشجعوا من تطرف منهم للأخذ عنها، واكتفوا هم باقتباس الناحية العملية من تراث الأوائل، كعلوم الطبيعة والكيمياء والرياضيات والطب والفلك، فكان لهم فيها جولات بعيدة أدتهم إلى ثمرات لاتزال موضع إعجاب العلماء إلى اليوم، بنى عليها الأوربيون رقيهم المادى الذى أوصلهم إلى ماهم عليه.

اتهم كثير من فلاسفة أوروبا المسلمين بأنهم لم يشجعوا الفلسفة اليونانية ولم يأبهوا لها، بل عادوها وعاكسوها، يتذرعون بذلك إلى اتهامهم بقصر النظر، ويخيل للذين يزاولون الفلسفة من المسلمين أن هذه التهم تشين آباءهم الأولين، فيجهدون أنفسهم فى التدليل على أنهم اشتغلوا بالفلسفة اليونانية، ويستشهدون بأقوال رجال يعدون على الأصابع، ويرددون أسماءهم فى كل كلام لهم عن الفلسفة، دفعاً لتهمة عدم اشتغال المسلمين بالفلسفة اليونانية، وبالصد عنها.

ويغيب عنهم أنهم مهما أسرفوا فى التدليل على اشتغال المسلمين بالفلسفة اليونانية فلن يستطيعوا أن يثبتوا أنهم قابلوا تلك الفلسفة بصدر رحب، وأنهم لم يتهموا أشياعها بالزيغ عن الدين.

والذى نريد أن نثبته هنا بالأدلة القاطعة، أن المسلمين ما كانوا ليقفوا من الفلسفة اليونانية هذا الموقف العدائى، إلا لأنه كانت لهم فلسفة أرقى منها بما لا يقدر؛ هى (الحكمة) التى أوتوها فى كتابهم السماوى؛ وهذا التفوق البالغ هو الذى نريد أن نبينه هنا بالأدلة القاطعة، وهذا هو السبيل الذى كان يجب أن تقابل به تهمة الفلاسفة الأوروبيين للمسلمين فى مناوأتهم للفلسفة اليونانية. إذا كنا فعلنا ذلك كنا أثبتنا للمسلمين عذراً معقولاً فى موقفهم من تلك الفلسفة، وكشفنا لهم عن ناحية من الإسلام توجب الإعجاب والدهش معاً، من احتواء كتابنا على أصول فلسفية، لم يظهر لها وجود إلا فى العصور الأخيرة.

ونحن عارضون على القراء الأصول الأولية التى اشتغلت بها الفلسفة

اليونانية نحو خمسة وعشرين قرناً، وشغلت بها العالم طوال تلك الآماد، ثم ظهر بطلانها في العهد الأخير، وآب الناس إلى ما قررته الحكمة الإسلامية قبل نحو أربعة عشر قرنًا؛ أي في عهد كانت فيه الفلسفة اليونانية في أوجها الأعلى.

اشتغلت الفلسفة اليونانية قبل كل شيء كأساس لبنائها، بمسألة الوجود المحسوس، وعلة نشوئه وبمسألة الكائنات وحدوثها، وبمسألة الروح ومصدرها ومصيرها، وبمسألة الإنسانية وآدابها إلخ، وكان اعتمادها في كل هذا على الفكر والتأمل، وناهيك بقصورهما في عهد الطفولة البشرية، ودائرة المجاهيل الكونية، فجاءت الفلسفة مناسبة لهذه الحالة من القصور لا محالة، ولاعاب على أهلها من هذه الناحية، لو كانوا أدركوا عجزهم عن الوصول للحقائق، واعترفوا به، ولم يتعصب كل فريق منهم لرأيه ويعتبره حقاً مطلقاً. وأنّى لهم هذه الحكمة العالية التي هي من حظ النضج العلمي، والرشد الفلسفي؟ فمن النضج العلمي التفرقة بما يمكن العقل البشري الوصول إليه، وما لا يمكن الوصول إليه، وما يجب أن يكون عليه أسلوب البحث الذي يؤمن معه الخطأ، وقد كان أسلوبهم المنطق، وهو أداة لا يجوز استعمالها في غير المعقولات، أما في الكونيات فلا يجوز استعمالها إلا حيث تكون المسلمات مقطوعًا بصحتها، صحة لا يتطرق إليها الشك، وأين هذا مما تخوض فيه الفلسفة من قدم المادة أو حدوثها، ومن بساطتها أو تركبها، ومن القوى العالمية وحدودها، ومن ومن إلى ما يحصى من المجهولات الكونية؟

إذا كان الأمر كذلك فيكون الاشتغال بالفلسفة في ناحيتها النظرية، وخاصة في دور طفولتها، إضاعة للوقت وصرفاً للجهود فيما لا يفيد؛ أما في ناحيتها العلمية العملية وكانت الفلسفة عند اليونانيين تطلق على الناحيتين، فإن ذلك أمر لا يجوز إغفاله وقد بذل المسلمون جهداً جاهداً في الاشتغال به، فاقتبسوا من كل الجماعات التي احتكوا بها ما كان لديها من وسائل عملية، وثمرات تجارب مادية، في كل مجال من المجلات الطبيعية؛ فأخذوا عنها ما انتهوا إليه من الحقائق الفلكية، والطبيعية، والكيمائية، والطبية، والرياضية، وعنوا بها

عناية فائقة حتى سبقوا بها أهلها، وقاموا بتدريسها فى جامعاتهم ومعاهدهم، وأصبحوا أئمتها الأعلام مدى قرون متوالية، كما نقلنا ذلك عن مؤرخى الفرنجة فى هذه المجلة فى مناسبات جمة.

يقول قائل: إن الأمم التى يكمل تركيبها الاجتماعى، وتتجه نحو الترقى الأدبى لا يمكن أن تستغنى عن الفلسفة، ولوصح ذلك لا ستغنت عنها أوروبا الثرية بمعارفها الطبيعية اليقينية.

نقول هذا صحيح، وقد كان للمسلمين فلسفة هى المشار إليها فى كل كتبهم بكلمة (الحكمة)، وهى أرقى من الفلسفة اليونانية بما لا يقدر، وتتفق والفلسفة الوضعية التى هى أرقى وأصدق من جميع الفلسفات العصرية فى أصولها الأولية.

أما وقد انتهينا إلى هذا الحد فيحسن بنا أن نذلل على أن الحكمة القرآنية أرقى من الفلسفة اليونانية، وأنه لهذا السبب لم ير المسلمون أن يستبدلوا بها أية فلسفة بشرية.

من أصول الحكمة الإسلامية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾(1).

أى لا تتبع كل ما يقال لك مما ليس لديك عنه علم يقينى، لأن الإنسان يسأل يوم الحساب عما تلقاه سمعه وأدركه بصره ووعاه قلبه من المدركات غير المحققة، التى قد تجر إلى معتقدات ضالة، إو جهالات ضارة، وقد أمر الإسلام أهله بمطالبة كل صاحب قول بالدليل عليه، لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(2).

وكشف عن السبب فى هذا التدقيق الشديد بقوله: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾(3).

فشرط الحكمة الإسلامية، أن لا يأخذ الإنسان بالمقررات الظنية، قبل أن

(1) الإسراء: ٣٦.

(2) البقرة: ١١١.

(3) النجم: ٢٨.

تثبت ثبوتاً لايتطرق إليه الشك، وهى فى هذا الأصل الأولى توافق الفلسفة الوضعية positivisme، وهى أحدث الفلسفات نشوءاً، وأعمها سلطاناً على العقول؛ فقد تعبت الإنسانية من الفلسفات الظنية، وأنفت أن تنقض فى كل جيل ما أبرمته ودانت له فى الجيل الذى قبله؛ فضلاً عن أنه كثيراً ما أدت الظنيات إلى بناء أحكام خيالية، وطوحت بأهلها إلى مناح شتى من الخلافات، وفتحت لهم باحات المجادلات الكلامية على غير طائل؛ بل ضاعت معها كرامة الفلسفة التى لها فى قلوب البشر مكانة رفيعة. فالفيلسوف لا يشينه أن يقول إذا سئل عن مجهول: لا أدرى ولكن يشينه أن يخبط فى المجهولات خبط العشواء، وأن يتلمس لكل معلول علة ظنية تتكشف بعد أمد قصير عن جهل فاضح، وقصور شائن.

هذا رأى الفلسفة الوضعية التى أساسها الدليل المحسوس، الذى لاينقض فى أى عهد من العهود المستقبلة، وهو بعينه أساس الحكمة الإسلامية.

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾(1).

ماذا كانت الفلسفة على عهد نزول الإسلام؟ كانت حشواً رثاً من أقاويل فلاسفة اليونان فى قدم المادة وكيفية تطورها، وفى القوى العالمية وآثارها فى الكائنات، وفى الأجرام السماوية وحركتها... إلخ. كل هذه المعارف كانت مبنية على خيالات لا حقيقة لها، سيتضح مما ننقله عنها أنها كانت غائرة الأصول فى السذاجة العقلية.

أراد الفيلسوف (طاليس) المولود سنة (٦٣٦) أو (٦٣٩) قبل الميلاد، بعد أن زعم أن المادة أزلية لا أول لوجودها، أن يوضح على أية حال كانت موجودة، فقال إن المادة الأولية هى الماء فبتكاثفه وجدت الأرض، وبتمدده وجد الهواء والنار. وأنت تعلم اليوم مبلغ هذا القول من البعد عن الحقيقة، وإلى أى حد عو عريق فى السذاجة والجهل. فالماء مؤلف من عنصرين غازيين أحدهما دعى

---

(1) إبراهيم: ٢٧.

أوكسجين والآخر دعى أيدروجين، ولو تكلمت وسائلنا المحللة لأمكن تحليل كل من الأكسجين والأيدروجين إلى عناصر ألطف منهما.

ولو كانت الحالة وقفت عند هذه الحد لقلنا جهل يعذر فيه أهله، أو كما يقال اليوم رأى افترض مؤقتاً حتى يثبت غيره، ولكن تتابع الفلاسفة بعده وارتأى كل منهم رأياً خاصاً به، كأن المسألة كانت تسابقاً فى التخيلات، وتبارياً فى الظنيات.

فجاء الفيلسوف (انا كزماندر) المولود سنة (٦١٠) قبل الميلاد فنقض رأى سلفه وقال: ليس الماء هو المادة الأولية، ولكن أصل كل شىء هى اللانهاية المطلقة، أى الحالة غير المحدودة التى يخرج منها ويعود إليها كل كائن مقوداً بحركة أزلية. وكان يرى أن الكواكب آلهة سماوية، تدبر أمر الكون وتصرفه كما تشاء وهذا كلام متغلغل فى عالم الخيال؛ فإن اللانهاية الخالية من الموجودات لا يعقل أن تولد شيئا من الأشياء. ومن أين جاءه أن تلك الأجرام السماوية آلهة علوية، وقد علمت اليوم أنها إن كانت نجومًا فهى أجرام فى حالة احتراق مثلها كمثل الشمس؛ وإن كانت كواكب فهى أجرام أرضية تكتسبها من لألاء الشموس التى تكتنفها فى تلك اللانهاية.

ما قبل الحكمة الإسلامية(١)

تابع (الحكمة) التي حلي الإسلام بها أتباعه وقاية لهم من الزيغ عن سبيل الحق.

إن متتبعى فلسفة (أنا كزيماندر) المار ذكره، يقولون بأنه كان يقرر بأن تلك اللانهاية الوجودية لم تكن خالية، بل كانت تشتمل على أصل المادة من أزل الآزال، على حالة من اللطافة لا يدركها العقل، وأنها كانت مالئة للكون كله، ومنها حدث كل كائن قال: «وإن هذه المادة الأولى تشتمل على كل شىء وتدبر كل شىء».

وهذا القول بعيد عن التحقيق، ولايمكن تصوره، فإن المادة لو كان لها أصل أزلى لكان هذا الكون نفسه على ما هو عليه أزلياً مثله، إلا إذا افترض أن لأصل المادة إرادة وحكمة واختياراً، فتوجد الكائنات أو لا توجدها. وكبير على العقل أن يتصور أن لأصل المادة مثل هذه الإرادة. وما دام أنا كزيماندر لايكبر عليه أن يثبت للمادة إرادة وحكمة واختياراً، فما الذى منعه أن يثبت هذه الصفات لخالق واجب الوجود، منزه عن كل نقص، أوجد الوجود بإرادته وعلمه وحكمته، وحلاه بكل ما يقومه ويطوره من القوي والقابليات.

لاشك فى أنه أراد بما ذهب إليه، أن يثبت أن الكون ليس فى حاجة إلى موجد خارج عنه، فأسند الخصوصيات الإلهية لذات المادة، رغبة منه فى أن يعقل ما يقول؛ ولكنه أوجد إشكالات فلسفية وعلمية يستحيل أن يوجد لها حل. وهى اليوم أشد ما تكون بعداً عن العقول. فهل كان من فائدة المسلمين

---

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد السادس عشر، سنة ١٣٦٤هـ، ص ١٤٥

الأولين الذين دُعوا لنشر الدين العام فى الأرض، أن يشتغلوا بمثل هذه السفاسف؟

ثم نبغ بعده الفيلسوف أنا كزيمانيس، ونظر فى فلسفة أنا كزيماندر، سلفه، فآنس أن نظريته تعجز عن تعليل إيجاد الحياة، لأن المادة الأولية التى افترض أنها أزلية، ساكنة. وأعمل فكره فعثر على ما يكفى فى نظره أن يولد الحياة، وهو الهواء، تصيد هذه النظرية من رؤيته أن دوام الحياة متوقف على دوام التنفس، فاستنتج من ذلك أن أصل الوجود يجب أن يكون هو الهواء. فإنه ما دامت الحياة تتوقف عليه فلابد من أن يكون هو أصل الحياة. قال فالهواء غير منظور والروح غير منظورة، والهواء يتحرك والروح كذلك، فربما يكون هو روح الإنسان وروح كل حى.

ثم قال: ليس الهواء روح الإنسان فحسب، ولكنه روح العالم كله، أي إنه مادته الأولى، وقوته الأولى، وهو لايزال يتحرك ويتغير من مادة إلى مادة ومن صورة إلى صورة، فإذا رق استحال إلى نار، وإذا تكثف استحال إلى غيم وإلى ماء وتراب وحجر. وإذا رق فوق رقته أوجد الحرارة، وإذا تكثف أحدث البرد. وهذه الأرض ليست فى ذاتها إلا هواءً متكثفاً. والأجرام السماوية، على رأيه، أجزاء تطايرت من الأرض، ولسرعة حركتها رقت فتولدت فيها الحرارة والنار!

نشأت بعد هذه السلسلة من الفلاسفة الفلسفة التي أسسها فيثاغورس، وهو فيلسوف يوناني يشك في وجوده وقيل إنه مات سنة ٥٤٠ق.م. وكان شغله هو وتلاميذه الرياضيات والفلك والموسيقي. ومما أثر عنهم قولهم: « جوهر كل شيء في العدد» أو «كل شيء عدد». وآراؤهم في أصل الكون والكائنات غير واضحة ولا يعول عليها أحد.

ثم ظهرت المدرسة الألياوية في الفلسفة بواسطة الفيلسوف اكزينوفانوس من يونان أسيا الوسطى، وكان وجودها سنة(٥٤٠) قبل الميلاد.

يعرف عن هذا الفيلسوف أنه ثار على العقائد، وقال: «إن كل تصور للخالق عند المتدينين محول عن الإنسان، أى مصنوع على صورة الإنسان».

ومن فلسفته أنه توجد عوالم لا نهاية لها، ولكنه لم يعتبر الكواكب الظاهرة لنا فى السماء من العوالم، وزعم أنها تصعدات نارية من الأرض!

من مشهورى هذه المدرسة بارمينيدس، المولود سنة ٥٢٠ قبل الميلاد، وكان ينكر وجود العدم ووجود الفراغ،وكان يقول إن وجود شىء من لا شىء أمر محال، وكان يقول: «إن الشىء الذى يفكر فينا والكون الكلى شىءواحد» ومعنى هذا أن فلسفة هذه المدرسة كانت تقول بوحدة الوجود؛ أى إن الخالق موجود فى كل شىء، وأن كل شىء هو الخالق نفسه.

ولايخفى على ذى عقل اليوم أن مثل هذا القول يؤدى إلى مشاكل فلسفية لا تقبل الحل، وإن الذين يبتلون بمثل هذه الفلسفة لايزالون يتجادلون حتى تقوم الساعة، ولا يصلون منها إلى شىء يثلج عليه الصدر، ناهيك أنه لا يوجد اليوم من يشتغل بهذه المسائل.

كان لاكزينوفانوس المتقدم ذكره تلميذ اسمه هراكليت، ناقض تعاليم أستاذه وكانت فلسفته غامضة إلى حد أن لا تفهم. كان أسلافه يعتبرون كينونة الأشياء، أما هو فكان لا يعنى إلا بصيرورتها. فكان يقول: إن الأشياء على الدوام فى حالة مصير، تظهر وتزول، ولكنها غير كائنة فى وقت ما.

وكان أسلافه يعتبرون العناصر المؤلفة للموجودات ثلاثة: الماء والهواء والمادة. أما هو فكان يعتبرها أربعة بزيادة النار عليها، وكان يعدها أهم من الثلاثة الأولى.

وقد أثر عنه قوله: «إن العالم لم يصنعه إله ولا بشر، وإنما هو كان موجوداً وهو كائن اليوم وسيكون على الدوام، ناراً دائمة تشتعل وتخمد إلى حد ما، فهو لعبة يلهو بها جوبيتير مع نفسه»، وجوبيتير هذا أبو الآلهة عند اليونانيين.

وورح الإنسان فى نظر هيراكليت نار مقتبسة من النار الأزلية.

وكان يقول: إننا نظن أننا نرى أشياء ثابتة، والحال أنها فى حالة التغير والمصير، فمعارفنا إذاً ناقصة وفارغة، والحياة نفسها باطلة ولا غاية لها.

ومذهبه جملة يتلخص فى هذه العبارة، وهى: «إن مبدأ الكائنات النار، فما تكاثف منها وتحجر فهو الأرض، وما تحلل من الأرض بوساطة النار صار ماء، وما تحلل من الماء بحرارتها صار هواء. فالنار هى أول كل كائن، ويليها فى الوجود الأرض ويجىء بعدها الماء ثم الهواء. فالنار هى الأصل وإليها المآب، فمنها التكوين وإليها الفساد».

ونحن نرى أن فلسفة كهذه الفلسفة لا يجوز أن يشتغل بها عاقل، فكيف بأمة كُلفت بأن تطلب دليلاً على كل دعوى، أمة يقول لها كتابها: ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

ثم نبغ أمبيدوكل سنة ٤٥٠ قبل الميلاد فوفق بين كينونة الألياويين، وبين صيرورة هيراكليت، وذلك بأن اعتبر الصيرورة تجديداً لما كان، وبذلك تصير ضرباً من ضروب الكينونة. وهو الذى نسب إليه القول بالعناصرالأربعة التى اعتبرت أصولاً للتكوين قروناً كثيرة، حتى ظهر الكميائى لافوازييه فنقض ذلك باكتشافه الأوكسجين فى أواخر القرن الثامن عشر.

وقد اعتبر أرسطو أول من قال بالعناصر الأربعة خطأ.

وأمبيدوكل مثل سلفه هيراكليت يعتبر العالم أزلياً أى غير مخلوف.

وكيفية تفسيره للكون هو أن جميع العناصر الكونية كانت متجمعة بعامل الألفة كرة واحدة، وكانت هذه الكرة فى أول أمرها ساكنة، ثم حدث التنافر بينها، وحل فيها الانقسام فتجاذبت وتدافعت ومن ذلك التجاذب والتدافع وجد العالم.

وبعد أن تكوَّن العالم على هذا الوجه، تكونت الأرض والعالم العضوى

---

(١) الكهف: ٥١.

رويداً رويداً، نشأ الأكمل من الأنقص، وربما حدثت فى أثناء ذلك التكون صور غير منتظمة لا تصلح للبقاء على ما هى عليه، فتخلصت من هذه الموانع ونالت تركيباً أصلح للبقاء.

وكان يعتقد بتحول المادة، فقد كان يقول إن العناصر التى يتألف منها الإنسان ربما كانت قد مرت بجميع المركبات التى قبله.

وهذه الآراء كلها لا تخرج عن الظنون، فليست مستقرة على أساس من العلم، والشغل بها لا يؤدى إلى حقيقة يصلح عليها المجتمع ولا الفرد، فلم يشتغل بها المسلمون وعافوها كما عافوا كل قول ملقى على عواهنه بإيعاز من حكمتهم.

ثم ظهر الفيلسوف (لوسيب) أو لوسيبوس، وقد رجح مؤرخو الفلسفة أنه قد يكون أول من قال بالجواهر الفردة، وذلك أنه قال بوجود فراغ مطلق تسبح فيه منذ الأزل دقائق صلبة لاتدركها الحواس، متساوية الحجوم ولا عدد لها. وهذه الأجزاء لا تقبل الانقسام إلى أصغر منها فهى على أقصى حد من الصغر الذى لا صغر بعده، وهى التى تتألف من تجمعاتها الكائنات المادية من أول التراب والحصباء إلى الكواكب إلى الإنسان.

كان للوسيب تلميذ اسمه ديموكريت شهر هذا المذهب وعممه، وشبه الجواهر الفردة بالغبار الموجود فى الهواء ولا يدرك إلا إذا نظر إليه سابحاً فى الأشعة الشمسية. قال وجميع الكائنات العالمية تتألف من اتحاداتها المختلفة، وإنما تختلف هذه الكائنات باختلاف هذه الجواهر الفردة فى الجرم والصورة والوضع. وهى إذا تراكمت لتوليد الكائنات تكون منفصلة بعضها عن بعض بمسافات فارغة أكبر منها؛ وهى متمتعة بحركتين حركة دائرية وحركة مستقيمة.

وقال إن عدد العوالم لا نهاية له وتكوّن العوالم وتلاشيها حاصلان فى الكون الآن كما كانا حاصلين فى القدم.

أما الروح الإنسانية فهى مركبة أيضاً من هذه الجواهر الفردة، ولكنها كروية، وفى منتهى اللطافة، تشبه جوهر النار، وهى التى تولد حرارة الجسد ولكل جسد روح وحرارة معينة. وهذه الروح لا تنفك تطلب الانفصال عن الجسم، إلا أنها لا تستطيع ذلك لوجود التنفس، فإذا بطل هذا التنفس حدث الانفصال ومات الجثمان.

وقال: والآلهة كذلك ليسوا سوى جواهر فردة متجمعة، والفرق بينها و بين الإنسان أن جواهرها أقوى وأكثر حياة من جواهر الإنسان.

وقال: إن الروح البشرية ليست خالدة لأنها مؤلفة من جواهر محترقة، فإذا حصل الموت انحلت هذه الجواهر، وصارت جواهر للنار.

وهو من كبار الذين قالوا بأن ليس يعقل حدوث شىء من لا شىء، وإنه لايعقل أن يتلاشى أى شىء.

والمسلمون اضطروا أن يرفضوا الاشتغال بهذه الأقوال الفارغة؛ لأن الحكمة التى كانوا يدينون بها كانت تنهاهم أن يأخذوا شيئاً من العلم دون دليل، وأين الدليل من قول ديموكريت الذى بيناه هنا، وهو يتعلق بأول الأشياء ومبدئها، فكان إحجامهم خير ما يجب أن يفعله عاقل حيال نظريات كلامية لا فائدة وراءها إلا إضاعة الوقت سدى.

فلسفة أفلاطون وأرسطو[1]

مقارنة بالإسلام

تابع (الحكمة) التي حلي بها الإسلام أتباعه وقايةً لهم من الزيغ عن سبيل الحق

ظهر بعد الفيلسوف ديموكريت الفلاسفة السوفسطائيون، وكان أساس مذهبهم التشكيك بكل ما هو معلوم وما سيعلم، وتمادوا حتى أنكروا الخالق. فأحدهم وهو بروتاغوراس (٤٤٠ ق.م) قال: «إنه لا يستطاع أن يحكم هل الآلهة موجودون أم غير موجودين»، فاتهمه الآتينيون بالكفر وطردوه.

ثم تجارأ من بعده فصاروا يشككون الناس جهاراً فى آلهتهم، وينكرون وجود الخير المطلق، ويقررون أن العدل والظلم أمور اعتبارية، وأن اللذة هى السعادة الحقيقية.

ثم ظهر اريستيب فوضع علماً جديداً فى الأخلاق، أسسه على اللذة الجسدية التى اعتبرها غاية السعادة الإنسانية.

كان هذا الفيلسوف خاتمة الفلاسفة اليونانيين الذين رموا إلى تعليل الوجود بغير خالق أوجده من العدم. وبعدهم خلا الجو للفلسفة العقلية، التى أساسها الإيمان بالخالق، وقد وضع أساسها الفلاسفة الثلاثة سقراط وأفلاطون وأرسطو.

---

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد السادس عشر ١٣٦٤هـ، ص ٢٠٣.

فأما سقراط فلا نطيل الكلام عنه لأنه لم يكتب فلسفته، ولكنه أودعها تلميذه أفلاطون فنقلها عنه، وشرحها وزاد فيها، وعم صيته الآفاق.

فلسفة أفلاطون:

قرر أفلاطون أن للعالم إلهاً هو الخير المحض والعقل والروح، ويساويه فى الوجود الأزلى المادة والمُثُل التى صدرت على صورها جميع الكائنات العالمية. هذه المادة الأزلية كانت خليطاً مشوشاً، فأراد الله خلق الكون فأنشأه مطابقاً لتلك المُثُل الأزلية على قدر الإمكان، لأنه لما كانت المادة غيركاملة، فقد التاثت بنقائص شتى، وبميول شريرة فى الكائنات الحية.

وإنما نشأ الكون من مشاركة المادة للمُثل من طريق الانكسار، كما تتولد الألوان من انكسار الضوء.

أما النفس الإنسانية، فهى جزء من النفس الإلهية الكلية، حلت بالجسم فنسيت مصدرها وحُجبت عنها صفاتها من السمو والمعرفة. ولها ثلاث قوى: النفس العاقلة ومقرها الرأس، والنفس العصبية ومركزها القلب، والنفس الشهوانية وموضعها البطن.

والمعرفة عند أفلاطون هى تذكر للماضى، لأنها قبل أن تصبح النفس جزئية فى الإنسان كانت محيطة بجميع المعارف وهى متصلة بأصلها، لا يغيب عنها شىء فى الأرض ولا فى السماء.

هذه هى الأصول الأولية لفلسفة أفلاطون، فلما عرضت على الأمة التى أمرت أن لا تأخذ علماً إلا بدليل، طلبت الأدلة على هذه الأصول فلم تجدها، بل وجدت شكوكاً اعترضتها دونها، واستشكالات عويصة تمثلت حيالها. فكيف يعقل أن يكون بجانب الخالق الأزلى واجب الوجود، مادة أزلية متصفة بجميع صفات النقص، وعارية عن كل مقوم ذاتى، وإلى جانبهما مثُل أزلية أيضاً، صُورت الكائنات على صورتها ؟

إن الأمة الإسلامية التى أوتيت (الحكمة) وأمرت أن لا تأخذ إلا بالأقوال الثابتة، رفضت أن تأخذ بهذه الخيالات؛ وقد اعتُبرت هذه الفلسفة خيالية فعلاً وضرب بها المثل فى ذلك عند الفلاسفة المتأخرين فإذا قالوا هذه نظريات أفلاطونية أو مناقشات أفلاطونية، عنوا بذلك أنها خيالية محضة. أفلا يكون للمسلمين واسع العذر فى عدم الاشتغال بها وفى تطلب ما هو أثبت منها؟

وإنى فى هذا الموطن أرى أن أوجه نظر القراء لأمر جدير بالتأمل فى سمو الحكمة الإسلامية وشدة تأثيرها فى عقول أتباعها. إن هذه الفلسفة الأفلاطونية سحرت جميع الأمم السابقة، وتطورت معهم فى صور شتى، جميعها خيالية مثلها، حتى انتهت إلى عصر النضج العقلى فى الثلاثة القرون الأخيرة، فأحيلت إلى حقيقتها، أفلا تعجب بعد هذا من المناعة المدهشة التى حلت بها «الحكمة الإسلامية» أهلها، فلم يؤثر سحر هذه الفلسفة عليهم كما أثر فى سواهم قروناً طويلة؟

قد يقول قائل هنا إن هذا التأبى منهم لم يكن مصدره أنفة عقلية عن قبول الخيالات، ولكنه كان جموداً دينياً منعهم من الاستفادة بالفلسفة اليونانية. نقول يجوز أن يطوف هذا الظن ببعض القلوب لو لم يكن عند المسلمين أصول مقررة، تمنعهم من الأخذ بالخيالات مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾(٣).

كل هذا يدل على أن إباء المسلمين عن قبول هذه الفلسفات كان عن علم بأن

(١) البقرة: ١١١.
(٢) الانعام: ١٤٣.
(٣) النجم: ٢٨.

كل ما يكون مصدره الظن يكون خيالاً، وكل خيال ينقض بمثله، وأنهم ليسوا من الخيال فى شىء، وأنه ليس بعد الحق إلا الضلال.

وإنى ألفت الذين يدّعون بأن امتناع المسلمين عن الأبْه بالفلسفة كان صادرًا عن جمود دينى، إلى أنهم لم يمتنعوا عن أخذ العلم الثابت عن أية أمة من الأمم، فأخذوه عن اليونان والرومان والسريان وغيرهم وألفوا بينه وجعلوه علماً عربياً قاموا بنشره فى كل بلد احتلوه من بلاد العالم، واعتبروا أئمته فى الأرض. فأين مكان الجمود الدينى هنا من رؤوس تلك الأمة، وقد بزّت العالمين فى كل محاولة من المحاولات العلمية والمدنية؟

فلسفة أرسطو:

أرسطو هذا كان تلميذاً لأفلاطون مدة عشرين سنة، ولما توفى أستاذه سنة (٣٤٧) قبل الميلاد استقل بنفسه وأنشأ مدرسة يدرس فيها فلسفته.

كان يُظن أن أرسطو يبنى على فلسفة أستاذه أفلاطون فيعلى بناء صرحها، ولكنه تحول عنها إلى فلسفة جديدة حتى قال نقدة الفلسفة: كأن أرسطو لم يخلق إلا لنقد فلسفة أستاذه.

ونحن نقول ما دامت المسألة خيالية باحتة، لا تستند لأى دليل مادى، فكل من يؤانس فى نفسه خيالاً قوياً، يستطيع أن يؤسس فلسفة جديدة، ولكنا لاننسى مع قولنا هذا أن هذه الخيالات كانت نزوعاً من أصحابها لبلوغ الحقيقة، وأن منها ما يشعر بسعة عقول واضعيها، ولكنا لانجوّز أن ينخدع أحد بها فيجعلها شغله الشاغل، ويتعصب لها كما فعل الأقدمون غروراً منهم بها. فسَقياً للأمة الوحيدة التى لم تنخدع بها، وهى الأمة الإسلامية، وظلت حريصة على المذهب التثبتى الذى بثته فيها (الحكمة) التى جاءت فى قرآنها.

نحن الآن حيال فلسفة أرسطو واضع علم المنطق، وإنه لعقل واسع الآفاق،بعيد مدي النظر، استحق صاحبه أن يطلق عليه (اجوست كومت) قوله: «إنه لا شبيه له».

كان أرسطو كأفلاطون تلميذاً لسقراط، فلما مات هذا وخلفه على مدرسته أفلاطون، تلمذ له أرسطو عشرين سنة. فلما مات أسس له مدرسة خاصة على أرض هيكل (ابولون) ودرّس بها مذهباً جديدا عارض فيه أستاذه أفلاطون. توفى سنة(٣٢٢) قبل الميلاد.

كان أرسطو يقول كأستاذه أفلاطون (بأزلية) المادة، فالله لم يخلق هذه المادة فى رأيه ولكنه نظمها فقط!

وكان أستاذه يقول بوجود مُثُل أزلية أيضاً كوّن الخالق الكائنات على صورها، ولكن أرسطو رفض هذا القول واكتفى عن المثل (بالصورة). وقال إن غرض الفلسفة العلم بالموجودات، وهذه الموجودات تتغير، والتغير لا يكون إلا بحركة، والحركة تستلزم محركاً.

قال: والحركة الطبيعية أبدية ولا بد لكل متحرك من محرك ، وكل محرك لا بد له قوة تحركه وهلم جرا، حتى ينتهى الأمر إلى محرك لا يتحرك بغيره، فهو جوهر وفعل معاً. فهذا المحرك الثابت هو الله تعالى مصدر الحركة الأبدية التى تتم بطريق الانجذاب نحو العقل الكلى والشوق إليه. وبناءً عليه ينجذب عالما الأرواح والأجسام نحو الله بدافع ذاتى.

وقد قلل أرسطو من قدر الألوهية فزعم أن الإله مشغول عن العالم بمشاهدة ذاته وبالتمتع بسعادته العظمى.

وقد وضع أرسطو علم ما وراء الطبيعة ودعاه علم العلل الأولية. ومما قاله فى كتابه المشهور الذى أسماه (ألقوسمولوجيا):

«إن العالم قسمان سماوى وأرضى. أما السماوى فمتمتع بحركة دائرية صادرة عن الله تعالى مباشرة، والنجوم (أزلية) خالدة، وهى مكونة من الأثير، ولذلك لا تقبل الفساد. وإن سماء النجوم الثوابت هى مقر الكون والحياة الكاملة والنظام الثابت. وهذه النجوم كائنات لا يعتريها الهرم، حية حياة سعيدة، ودائبة على العمل دون كلال، وهى أقرب للألوهية من الإنسان.. إلخ».

ولايخفى على القارىء أن كل هذه الاقوال لا يمكن أخذها على علاتها، فمن الذى يستطيع أن يعقل أن المادة أزلية، وأن النجوم كذلك أزلية لا يعتريها الهرم، وأنها حية حياة سعيدة، وهى أقرب للألوهية من الإنسان ؟

وفى الجملة أليست هذه الفلسفة من ثمرات القوة المتخيلة فى الإنسان، فهل من بأس على أمة تستعصى على الأخذ بالخيالات، أن تشترط أن تؤتى بالدليل عليها؟ فإن عجز أصحابها عنه طرحت بها إلى عالم الأوهام ، وأقبلت هى على ما ينفعها من علم ثابت، وحقيقة راهنة؟ أليس أصحاب الفلسفة العصرية على هذه الشاكلة الأخيرة، يرفضون كل ما لا يقوم عليه دليل محسوس، أو ما فى مستواه؟

هذا الموقف من المسلمين كان ثمرة (الحكمة) التى أوتوها، وقد اتفقت هذه الحكمة وفلسفة العصر الحاضر من هذه الناحية، فكانت أسبق منها إلى مبدأ التثبت بنحو ثلاثة عشر قرناً؛ وإذا ساغ لنا أن نقسم المعجزات القرآنية إلى كونية ونفسية وشرعية.الخ، فلم لا يسوغ لنا أن نسمى هذه بمعجزته الفلسفية؟

الحكمة الإسلامية ماثلة في صورة مذهب(1)

قلنا فيما تقدم إن امتناع المسلمين عن الاشتغال بالفلسفة اليونانية لم يكن صادراً عن جمود دينى، بدليل أنهم اشتغلوا بالعلوم الطبيعية الثابتة واقتبسوها أنى وجدوها عند الأمم التى احتكوا بها، حتى أصبحوا فى قرنين حملة أعلامها فى العالم أجمع؛ ولكنهم أبوا الاشتغال بالفلسفات المختلفة، لأنه كانت لديهم فلسفة أرقى منها كانت ماثلة فى (الحكمة) التى نوه بها كتابهم فى آيات كثيرة، فقال تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(2).

وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾(3).

والآن وقد فرغنا من عرض أصول أشهر الفلاسفة اليونانيين، ووقفنا القراء على أرفع ما لديهم منها، رأينا أن نأتى بأصول الحكمة القرآنية ماثلة فى صورة مذهب، لتسهل مقارنتها بسواها، ليتبين القارىء بدليل محسوس سموها المطلق على كل ما عداها، وعلى أنها هى الفلسفة التى كتب لها الخلود، بعد دثور جميع المذاهب البشرية.

أصل الوجود فى الحكمة الإسلامية:

رأى قراؤنا أن أصل الوجود فى فلسفة أفلاطون إله أزلى، يساويه فى الوجود الأزلى مادة مشوشة، ومُثُل للكائنات أزلية أيضاً، فخلق الإله الخلق على

(1) مجلة الأزهر ـ المجلد السادس عشر ١٣٦٤هـ، .ص ٢٤١.
(2) البقرة : ٢٦٩.
(3) البقرة : ٢٣١.

صورة تلك المثل، فنشأت كل الموجودات الأرضية والسماوية على ما هو عليه فى العالم المادى.

وقد وافقه تلميذه أرسطو على ذلك وخالفه فى المثل، فأبدلها بالصورة، وهو خلاف لفظى محاط بمبررات خيالية لا قيمة لها.

أما ما قررته الحكمة الإسلامية، فهو أن أصل الوجود إله متصف بجميع الكمالات على وجه الإطلاق، ولا يساويه فى أزليته شيء، فأراد أن يكون الوجود، فكان على مقتضى علمه وتدبيره. ولما كان العقل البشرى، وخاصة قبل دور النضج العلمى، يحاول أن يدرك ماهية ذلك الإله، وقد ابتنى على هذه الشهوة العقلية حصول اختلاف كبير بين الأمم قديماً وحديثاً، وقعوا بسببه فى التشبيه والتجسيد، احتاطت الحكمة الإسلامية لذلك فقررت أن العقل البشرى لا يستطيع أن يدرك كنه الخالق مهما بلغ من النضج، وحصّل من المعرفة، فقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ﴾[1].

وقال النبى ﷺ: «إن الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار، وإن الملأ الأعلى ليطلبونه كما تطلبونه أنتم»، أى أن الكائنات العلوية المجردة عن المادة، لتطلب معرفته كما تطلبونها أنتم، فهم وأنتم سواء فى الجهل بكنهه.

فالمتأمل فى هذا الأصل الأولى للفلسفة، والأصل الأولى للحكمة الإسلامية، يجد الفرق شاسعاً بينهما، فالأولى جعلت معتمدها العقل الحواسى المحدود، فقررت ما قررته فى دائرته، والثانية وجدت أن هذه الحدود لا تتسع لشمول ما ليس فى مقدورها إدراكه، فردعت العقل عن الحوم حول هذه المدارك فى غير تعطيل، فكانت أحكم وأجدر بالخلود منها. وهذا بدهى لا يحتاج إلى دليل.

رأى أفلاطون وأرسطو أن تعليل الوجود دون افتراض وجود خالق مما لا يقبله العقل، فقررا وجوده، ولكنهما نظرا فى الوجود فوجدا فيه مادة مؤلفة من عناصر كثيفة، وهذه العناصر مهما لطفت ولتكن غازية، مؤلفة من ذرات صلبة فعزّ عليهما بمقتضى العقل الحواسى أن يحكما بأنها نشأت من الخالق اللطيف المنزّه عن المادية؛ فلما ضاقت حيلتهما زعما بأن المادة لابد أن تكون أزلية مثل

---

(١) طه : ١١٠

الخالق. ثم لما أحرجهما أن الكائنات ذات أشكال متعددة، وأنه مما لايعقل أن الخالق شكلها بيده وهو منزّه عن الجسمية، وجد أفلاطون مخرجاً من ذلك باختراع المثل، جمع مثال، وجاراه تلميذه أرسطو فأبدل لفظ المثل بكلمة الصورة. فيرى القارىء من كل هذا أن طابع العقل الحواسى ظاهر فى جميع هذه الأقوال. وغاب عنهما أن العقل الذى شايعاه إلى هذا الحد لا يسيغ وجود مادة مشوشة بلا موجد.

فإن قلت ألم يقررا وجود خالق دون موجد، فكيف يعز عليهما افتراض وجود مادة دون موجد كذلك؟

قلنا يوجد فرق كبير بين الأمرين، فإن الوجود فى تناسق أجزائه، وتكافل كائناته، وما يشاهد فيها من الإبداع والإحكام، يضطر العقل إلى القول بضرورة وجود حكمة عالية دبرته هذا التدبير المحكم، ولكن العقل لا يجد مسوغاً لافتراض وجود مادة مشوشة دون موجد أوجدها من العدم، ولا وجود قوالب أو صور أزلية لكائناتها.

ولو كان أفلاطون وأرسطو موجودين فى هذا العصر، ورأيا بالتجربة أن المادة مهما كانت صلبة تنحل إلى قوة، لما اضطرا لافتراض وجودها مساوية للخالق فى الأزلية، ولقالا بوجود الخالق وحده، ولم يضطرا كذلك لافتراض وجود المُثُل والصور أزلياً، لأنه ما دام قد ثبت أن المادة لا وجود لها إلا بسبب سرعة الحركة فى القوة، فإرادة الخالق تكفى فى تعليل حدوثها وتشكلها.

والذى نلاحظه ويلاحظه كل ناظر فى الفلسفة اليونانية وغيرها، أنها تقرر المسائل الكونية الكبرى بلهجة التأكيد والجزم، وتعتبر تخالفها وجوهَ نزاع شديد بينها وبين غيرها، كأن واضعيها حضروا خلق العالم فهم يصدُرون عن مشاهدات عيانية.

والحكمة الإسلامية تخالفهم فى ذلك، وتقرر أن أمر بدء الخليقة فوق متناول العلم، وتبكت الذين يتطفلون على هذا الأمر الجلل الذى إن كتب له أن يُكشف فلا يكون ذلك إلا بعد أن يبلغ العلم حده الأقصى. قال تعالى:

﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾(١).

الروح الإنسانية في الحكمة الإسلامية:

قال أفلاطون: النفس الإنسانية قوة كانت موجودة قبل أن تظهر فى العالم المحسوس، وكانت متمتعة بالإلمام بجميع المعارف، ولكنها لما تتصل بالجسد تنسى جميع ما تعلمه، ولاتحصل عليه إلا يسيراً يسيّرا بالتعلم، والاحتكاك بالأمور الحيوية، وإعمال العقل والفكر. فالتعلم فى نظره هو التذكر، والموت هو الرجوع إلى الحالة التى كانت عليها الروح قبل دخولها فى الجسد، وهى إما أن ترجع إلى نعيم أو عذاب على حسب ما قدمت من عمل.

نقول: هذه نظرية لا يمكن التسليم بها إلا من طريق الإيمان المجرد من الدليل العلمى. فكيف كانت الروح موجودة قبل أن يوجد جسدها؟ وكيف كانت متجلية بجميع المعارف؟ ولماذا تفقد هذه المعارف لما تحل بالجسد؟ هل للجسد المؤلف من ذرات العالم السفلى قوة على طمس إشراقات العالم العلوى؟

إن أفلاطون لما شارف مسألة الروح، بدل أن يرجح وجودها، ويقول عن أصلها وخصائصها لا أدرى، ساق كل هذه الأقوال عنها بغير دليل.

أما أرسطو فقال:

الإنسان ككل الموجودات مركب من مادة وصورة، فالجسم هو المادة والنفس هى الصورة التى يتشكل بها الجسم ويحيا،ولذلك لاتنفصل عن الجسم لأنها قوته الفعالة!

والنفوس فى نظره ثلاثة: نفس نباتية وهى مادة الحياة، ونفس إحساسية ومن صفاتها الإدراك والتخيل والتشهى والميول الغريزية، وهى مشركة بين الحيوان والإنسان، ونفس مفكرة عاقلة وهى خاصة بالإنسان تصدر عنها أعماله العقلية، وهذه النفس التى تخلد.

---

(١) الكهف : ٥١.

المادة والصورة عند أرسطو أزليان وأبديان، وهو أمر غير معقول كما قدمنا، وأشد منه بعداً عن العقل تقريره بأن الصورة هى نفس الإنسان، فلو مكث الإنسان ألف سنة يعرض لهذه النظرية، ويحاول أن يفهمها على وجه مرض، لما آل أمره إلى شيء غير إضاعة وقته سدى. وقد أضاع قوم أوقاتهم فى مثل هذه الأمور شرحاً وتلخيصاً ودفاعاً، ومضوا ومضت معهم هذه الفلسفة! أفليس الذين امتنعوا بادىء ذى بدء عن الاشتغال بها قد وفقوا إلى الصواب؟

أما الحكمة الإسلامية فتقرر أن للإنسان روحاً من إبداعيات الخالق، هى مصدر حركاته الجسدية، وأعماله الحيوية، وأحكامه العقلية، وهى خالدة فى عالم وراء هذا العالم فى حالة تناسب ما عملته فى حياتها الدنيا.

ولما كان أمر الروح الإنسانية قد شغل الناس كافة فى كل زمان ومكان، فقد سأل بعض المسلمين رسول الله عنها، وقيل سألوه بإيعاز من أهل الكتاب، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾(١)؛ أى إنها من إبداعياته، ثم صرح لهم بأن حالتهم العلمية لا تسمح بأن يكاشفوا فى هذا الأمر الجلل بأكثر من هذا. فانظر كيف حفظت الحكمة الإسلامية للعلم حقه فى كشف هذه المساتير، وكان لم يبلغ بعد أوجه الأعلى فيتولى ذلك، وطالبت الآخذين بها بأن يطلبوه ليهديهم إلى القول الفصل فى كل ما يرجون معرفته من حقائق علوية وكونية.

فقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾(٣).

---

(١) الإسراء : ٨٥
(٢) طه : ١١٤
(٣) فصلت : ٥٣

فالحكمة الإسلامية بهذا النص الصريح أساسها العلم الثابت المحقق، لا الظن والفكر المجرد، كما هو شأن الفلسفة اليونانية وغيرها، وهذا طراز جديد من الحكمة لم يتطور إلى شكل فلسفة إلا فى القرن التاسع عشر تحت اسم الفلسفة الوضعية Positivisme.

نعم إن الحكمة الإسلامية أقرت العقائد الأساسية للديانات، وهى وجود الملائكة والنفس والوحى والنبوة والحياة الأخرى والثواب والعقاب، وفيها كما لا يخفى ما لا يستطاع أن يقام عليه دليل علمى من الطراز الذى تتطلبه الحكمة الإسلامية؛ وعذرها فى ذلك أن هذه العقائد تشترك فيها الأديان كافة، وتدين لها من طريق الإيمان الموروث، وأن دليلها العلمى موكول إلى المستقبل حين تتمرد العقول على الأدلة الوجدانية، وتتطلب الحجج الحسية؛ وحينذاك يتولى قيّم الوجود إقناعها بما يفتحه عليها من الدلائل، كما حدث فى هذا العصر من ثبوت وجود الروح والوحى والحياة الآخرة بالأدلة العلمية، مما ألممنا به فى مقالاتنا الكثيرة فى هذه المجلة تحت عنوان معترك الفلسفتين.

والذى ينظر فى هذا الأمر بإنصاف يجد أن ما جرت عليه الحكمة الإسلامية هو أفضل ما يمكن أن يكون. فما دام إجماع العالم كان منعقداً على صحة هذه العقائد الرئيسية، فيكون مما لا ضرورة له إثارة شكوك لاوجود لها إلا فى رءوس تكاد تكون معدودة. ومع ذلك فلم تهمل أمرها الحكمة الإسلامية، فآتتها بما هى أهل له من الأدلة العقلية.

فآتت الذين كانوا ينكرون وجود الخالق بأدلة عقلية. فقال تعالى: ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾(٢).

وجاءت للذين كانوا ينكرون البعث بقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا

(١) إبراهيم : ١٠
(٢) الطور : ٣٥

وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ (أى فسيحركونها تعجبا وسخرية) رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴾[1].

ووافت الذين كانوا ينكرون الوحى وقربته إلى عقولهم بمثل انتزعته من عالم الحيوانات لا يمكن نكرانه، وهو فى قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2].

فإذا كان وحى الخالق إلى الحيوانات ظاهراً محسوساً، فوحيه إلى النوع الإنسانى أولى وخاصة قبل بلوغه سن الرشد.

وقد أقامت الحكمة نفسها حارسة على هذه العقائد حتى لاتتسرب من ناحيتها أية فوضى إلى العقلية الحازمة للمسلمين، فنهت عن كل تأويل لها تدعو إليه شهوة تأملية، أو مغالاة دينية، مما دعا الأمم فى عصور التاريخ إلى الخروج بسببها إلى باحات الخيالات، والاغراق فيها باسم الدين. وكان السياج الفولاذى الذى وضعته الحكمة الإسلامية ضد هذه النزعة الضارة إكثارها من التنبيه بعدم إفساد تلك العقائد بالتأويلات، ولايصرفها إلى أكثر مما تؤدى إليه من المعانى.

وقد نزلت آية بسبب التأويل فى قوله تعالى فى حق عيسى عليه السلام: ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾[3].

---

(١) الإسراء: ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١.

(٢) النحل: ٦٨ ، ٦٩.

(٣) النساء: ١٧١.

تصور مذهب الحكمة الإسلامية أوضح تمثيل، وهى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى (اى محتملات لا يتضح معناها) قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(١).

وقد اختص الإسلام بأصل لم تكلف به أمة من قبل، باعتبار أنه دين آخر الزمان حيث تسود دولة العلم، ويعلو سلطان الدليل، وتتشبع النفوس بمبدأ استقلال الضمائر، وهذا الأصل من الحكمة الإسلامية هو أن كل مسلم مكلف بإقامة الدليل على ما يعتقده على قدر استطاعته، وأن الإيمان التقليدى غير مقبول.

بهذا الأصل أوجدت الحكمة الإسلامية فى قلوب أهلها مناعة ضد تسرب الدعايات إليها، لأنه بينما يعتمد أصحاب تلك الدعايات على عاطفة الإيمان فى المدعوين، يتطلب المسلمون منهم الدليل، وأين هو مما يدعون؟

---

(١) آل عمران: ٧.

(مذهب الحكمة الإسلامية)[1]
في الحياة والأخلاق

لاننكر أن الفلسفة اليونانية ثرية فى الأصول المرقية للحياة البشرية، وفيما يرفع مستوى الإنسانية عن الحيوانية، ولكنها لم تبلغ شأو الحكمة الإسلامية فى ذلك، ولم تصل إلى بعض ما وصلت إليه تلك الحكمة من تطوير الشعب الذى نشأت بين ظهرانيه، وشعوب كثيرة أخرى اتصلت به، ولا تزال تعمل فى نفوس الأفراد والجماعات إلى اليوم.

ذلك لأن الفلسفة اليونانية اعتمدت على مجرد قوى التفكير والنظر؛ والدائرون فى تيار هذه القوى عدد محصور من كل أمة، ولكن الحكمة الإسلامية اعتمدت على الفطرة الإنسانية، وهى واحدة فى الناس أجمع، وجعلت قوى التفكير والنظر خادمة لها، ومعينة عليها.

الحكمة الإسلامية لم تتخذ لها مدرسة كمدرسة أفلاطون أو مدرسة أرسطو، ولم تلتزم ما التزمه أهل الفلسفة من الحدود العلمية، ولكنها نشرت نفسها فى الجو الطلق الذى لا يحد بحد، وهى ليست بحاجة إلى التدليل عليها، بأكثر من الإشارة إليها.

طالبت العالم بإقامة فطرة الله مجردة من كل ما عداها، حتى المقررات العلمية، وحتى المعتقدات الدينية والآداب النفسية والاجتماعية.

ذلك لأنها أهدى هاد للإنسان إلى الحق الذى ليس فوقه مرتقى، وإلى المثل العليا التى ليس وراءها مذهب، وإنما يفسد الإنسان ثمرات الفطرة فيه، بما

(١) مجلة الأزهر، المجلد السادس عشر ١٣٦٤هـ، ص ٢٨٩.

يتولاها به من الشرح والتأويل والقياس والتشبيه، ولم يزل بها حتى يجعلها ممثلة لدرجة ثقافته التي هو عليها، فيقع في الوثنية، وفي الرجعية، ولا يزال يضطرب فيما يورط نفسه فيه من ذلك حتى يصل إلى ما وصل إليه الفلاسفة الماديون، وهو أن الدين عدو العلم، وأنه والعقل نقيضان لا يجتمعان.

ولو كان الأمر اقتصر على الدين، لقلنا إن للدين رباً يحميه، ولكن تيار الفلسفة لم يزل يجرف أمام العقلية الإنسانية الحدود، حتى اجتاز بها منطقة الآداب النفسية المقررة، والاعتبارات الاجتماعية المتفق عليها؛ فأنكرت كل ماأثبته مؤسسوها الأولون من أصول العقائد وأسس الأخلاق، وقواعد الآداب، مدعية أن كل ما جاء به الفلاسفة الأولون إنما حداهم إليه قلة مادتهم العلمية، وقصر نظرهم في الشئون الاجتماعية. فأنت ترى أن آخر الفلسفة ينقض أولها، وممثليها من الناحيتين يدعون أنهم هم الواصلون، وأن من عداهم هم الجامدون المقطوعون.

ولكن الحكمة الإسلامية التي اعتمدت على الفطرة لم تنته إلى هذا المصير، لأن الفطرة تعلو على جميع الاعتبارات، ولا تتأثر باختلاف التعاليم، فإذا تجردت من كل ما لابسها من أهواء وأوهام وتعاليم، كانت أهدى للإنسان في ظلمات الحياة، ومشتبكات السبل، من أقوم التعاليم الإنسانية، وأكثرها تأثيراً في النفوس.

فما هو الوازع الذي يشعر به الإنسان من إلمامه بقول أفلاطون: للنفس قوى ثلاث: النفس العاقلة ومقرها الرأس، والنفس الغضبية أو السبعية وموطنها القلب، والنفس الشهوانية أو البهيمية، ومركزها البطن. الخ؛ أو من حفظه نظرية أرسطو، ومؤداها: أن النفوس ثلاثة: نفس نباتية وهي مادة الحياة، ونفس إحساسية وما يتعلق بها من إدراك وتذكر وتخيل وشهوات وميول وعواطف، وهي مشتركة بين الحيوان والإنسان، ونفس مفكرة عاقلة وهي خاصة بالإنسان؛ قلنا ما هو الوازع الذي يشعر به الإنسان من إلمامه بهذين القولين، فيكفه عن الإغراق في الشهوات، ويأخذ بيده لاكتساب الكمالات؟

ولكن السبيل الذى سلكته الحكمة الإسلامية باعتمادها على تجريد الفطرة الإنسانية مما ران عليها من أعراض الحياة الأرضية، قد دل بشدة تأثيره فى النفوس، وقوة تحكمه فى الميول على أنه الطريق السوى لتخليص النوع البشرى من بقايا الصفات الحيوانية، والغرائز البهيمية، وإثارة القوة العظيمة المختزنة فى روحه لدفعه إلى التقدم، واجتياز ما يصادفه من عقبات.

والذى يتأمل فيما عالجت به الحكمة الإسلامية الفطرة البشرية، يدهش من هذه العناية الفائقة التى لم يعرها الفلاسفة، متقدموهم ومتأخروهم بعض هذه العناية حتى أنه قرر أن الدين هو هذه الفطرة نفسها.

ونحن قبل أن نسترسل فى هذا الباب نرى أن تأتى بكلمة تمهيدية لتجلية أمر الفطرة:

إن الخالق سبحانه خلق الأنواع الحيوانية، وبث فى كل نوع منها الميول الضرورية لحياته، والمناعات اللازمة لبقائه، والأخلاق المناسبة لسعادته؛ وقد فطره على كل ذلك من يوم وجوده على أكمل الحالات، حتى لو قطعت حيواناً صغيراً عن أبويه، وتوليته بالتربية كما يُفعل بالهررة والكلاب، لنشأ على ما كان عليه أوائله. والإنسان وهو أكرم الخليقة وسيدها لايُعقل أن يكون الخالق قد حرمه من الأخلاق والميول الفطرية التى تصلحه، وتوصله إلى غاياته البعيدة من أوسع الطرق وآمنها.

ولكن لابتناء أمر الإنسان على التفكير والنظر والاستدلال، وقد خلق متحلياً بهذه القوى، وكتب له أن يصل بها إلى الأوج الأعلى، فقد وُجد على الأرض ساذجاً فاقداً لكل ما يقوّمه، إلا ما تهديه إليه الحاجات الجسدية من تلمس المأكل والمشرب والمأوى. وهو فى تلك الحالة إن عسف أو عتا أو تجاوز الحدود فى كل ما يفعل، فلا يقال إنه يفعل ذلك لأنه مطبوع على نحائز وحشية، ولكن يجب أن يقال إنه يأتى تلك الوحشيات مدفوعاً بما يشعر به من آلام الحاجة، وبما هو عليه من الذهول فى مضطرب الحياة. أما ما طُبع عليه من

سجايا الخير، وعوامل الارتقاء فكل ذلك كامن فى جبلته ينتظر العوامل التى تثيره وتبرزه، وتجعله بحيث يستخدمه فى الانتقال إلى مراتب أخرى من العظمة الإنسانية.

والآن نقول: إننا بقولنا فى مقدمة هذه المقالة إن الإسلام عوّل على الفطرة، أردنا بها هذه الفطرة السليمة المودعة فى صميم الإنسان، والتى تظهر لديه رويداً رويداً، فتقوّم من عوجه وتوصله إلى أرقى درجات الكمال.

وقد عنى الإسلام بتجريد الفطرة عناية فائقة، فإنه قبل كل شىء قرر أن الدين الحق هو الفطرة الإنسانية خالصة من كل شائبة بشرية، فقال تعالى:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (اى مائلا عن العقائد الزائغة) فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(1).

وشرح النبى ﷺ هذه الحالة فقال هى أن يكون الإنسان من صفاء الذهن من كل صورة على مثل الحالة التى يكون عليها الطفل الناعم ساعة ميلاده، وإليك نص قوله: ﴿ **كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه** ﴾.

أى إنهما هما اللذان يؤتيانه بالصور الذهنية على مافيها من منافاة الحقائق فيتلقاها عنهم.

وقد تفرد الإسلام بتجريد الفطرة الإنسانية إلى حد أنه اعتبرها أرقى غايات التدين، فهو يقصد إلى أن ما فى هذه الفطرة من الشعور الطبيعى العالى بعظمة الوجود، وما يؤديه ذلك إليه من الإخبات للقدرة التى أبدعته، وما وراء ذلك مما غرس فى تلك الفطرة من استحسان الحسن واستقباح القبيح، والإحساس بالعدل الطبيعى المطلق، وبوجوه الفضائل على إطلاقها، كل هذا مغروس فى

---

(1) الروم: ٣٠.

جبلته، وجدير بأن يؤديه إلى أرقى ما يمكن أن يبلغه الدين الحق من المراتب العالية من الناحيتين الأدبية والمادية، إذا جرده من التعاليم التى يتلقاها من أبويه.

هذا إيمان عظيم بسمو الفطرة الإنسانية وبأنها مبثوث فيها كل خير وسمو قُدر للإنسانية أن تصل إليه لو تركت وشأنها تتطور على مقتضى السنن الطبيعية. ولكن هيهات! فإن الناس يلقنون أبناءهم كل ما هم عليه من عقائد ووساوس وأوهام، ويدربونهم على كل ما نشأوا عليه من عادات ووجهات نظر واستنتاج واستدلال، حتى وقع الناس فى أشد الخلاف، وعقولهم واحدة، وفطرهم متشابهة، مما يدل على أن البلاء جاءهم من ناحية التعاليم سواء أكانت دينية أم فلسفية.

قد يقول قائل: إذا كانت الفطرة خير هاد للإنسان إلى أقوم سبل الحياة، فهلا نشأت أمة واحدة على هذه السنة، فكانت مثلاً لغيرها فى العالمين؟

نقول: كيف يكون ذلك دون أن يدرك الناس هذا الاكتشاف الخطير ويدونوه على صورة مذهب؟ وقد أراد الله أن تكون الحكمة الإسلامية هى أول من يكتشفه ويشيعه فى الناس، ويجرون على سنته، فيجنون منه مالا كان يتصور حدوثه من الانتقالات الأدبية فى أمة كانت تعتبر أبعد الأمم عن التطور، فتصبح به مثلا أعلى فى كل مظهر من مظاهر السمو الأدبى.

والتعويل على مقتضى الفطرة مبدأ نشأ حديثاً فى التربية والتعليم والفلسفة والطب والتشريع، فكانت له نتائج باهرة فى هذه الشئون، وقد سبق إليه الإسلام بأكثر من ألف سنة.

عولت الحكمة الإسلامية على الفطرة، وأمرت بإقامتها للتفرقة بين الحق والباطل، وبين الحسن والقبيح وبين النافع والضار، وبين ما يؤدى إلى التطور ومايؤدى إلى الجمود. ولكن كيف يتم لها ذلك وتلك الفطرة التى فطر الله

الإنسانية عليها، وعلق نجاتها على إقامتها، قد كسفتها العادات الوراثية، والتقاليد الجاهلية الخرافية، حتى جعلتها كأن لم تكن؟

لا جرم أن العمل على تخليص الفطرة السليمة من كل هذه الأعراض، يعتبر من الأعمال البعيدة الغور فى تقويم النفسية الإنسانية، وهو يمثل أكبر المعجزات الخالدة للإسلام، ويفسر ما كثر تردده فى الكتاب، من الدعوة للنظر والاعتبار فى الكون والكونيات، ومن إيراد الأضداد والمقارنة بينها، ومن ذكر أيام الأمم، ومن ضرب الأمثال، ومن تحقير الأوهام والأهواء والتشهير بالظنون والخيالات الخ؛ مما يكشط عن الفطرة ما ران عليها من هذه الأقذاء، ويعد الذوق لتقدير الأشياء ويهيىء العقل للنظر الصحيح فى مختلف الآراء، ويرفع ما سدل على عاطفة حب الجمال المعنوى من الأستار؛ فهذا كله عمل يقل فيه أن تصفه بالجلال، ولايسمح الإنسان لنفسه أن يقارنه بغيره ولو من بعيد، إذ لا يوجد له فى تاريخ الجماعات مثيل. فبينما لم تستطع أكبر مذاهب الفلسفة اليونانية، أن تنشىء جيلاً من اليونانيين يرتقون عن الوثنية إلى ملة أقرب إلى المقررات الفلسفية منها، أعدّ الإسلام بأسلوبه الذى قررناه، أمة كانت أبعد الأمم استعصاء على الإصلاح، لأن تلعب دوراً فى العالم لم يتسن مثله لأمة قبلها ولا بعدها، أليس هذا يدل بمثال محسوس على سمو الحكمة الإسلامية، فى إصلاح النفوس على جميع المذاهب الفلسفية.

مذهب الحكمة الإسلامية(١)

في روابط الاجتماع

الاجتماع كالبناء، وإنما الفرق بينهما أن الأول تحتاج لبناته إلى ملاط تتماسك به، وأن الثانى يستدعى وجود روابط أدبية تؤلف بين آحاده.

وقد وجدت هذه الروابط الاجتماعية فى أول أدوار الاجتماع على حالة من السذاجة تناسب الحالة العقلية والنفسية للجماعة. وكان من أكبر الدواعى إليها الحاجة المعاشية تحصيلاً للقوت، ودفاعاً عن الحوزة ضد الحيوانات المفترسة، وصد المغيرين عليها من الجماعات المجاورة. وكان المجتمعون كلما ارتقوا فى الشعور وفى المعرفة زادت الروابط التى بينهم تلطفا وتركبا، حتى بلغت الإنسانية شأواً قصياً من المدنية. من هنا نشأت حاجة ماسة إلى وجود علماء الاجتماع ليتعرفوا سلامة هذه الروابط واعتلالها، وليدرأوا أسباب تفككها وأسباب توثقها، حرصاً على بنية الاجتماع من الانحلال.

ولما نشأ الإسلام وجد أمماً متمدنة كالفرس والرومان مترابطة ترابطاً قوياً سمح لها بالحياة مستقلة، وبالقيام بالفتوحات لاستعباد الأمم.

على أن هذه الروابط لم تكن قائمة على الحقوق الطبيعية للأفراد والجماعات، فكانت كل أمة تعتقد أنها أرقى من سواها وأحق بالبقاء وبالسيادة من سائرها، وكانت تثور بينها منازعات ترتكب فيها أشد المنكرات بالمغلوبين من تقتيل أسراهم، والتمثيل بهم؛ ومن نهب ممتلكاتهم وهدم مدنهم، وتجريدهم من جميع الحقوق المدنية، ووضعهم والحيوانات فى مستوى واحد.

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد السادس عشر ١٣٦٤هـ ،ص ٣٣٧.

ولم تتجرد الفلسفة اليونانية من مثل هذا العسف، فكان يرى فلاسفتهم أن الجنس اليونانى أرقى الأجناس البشرية، وأن الحقوق المدنية لا يصح أن يتساوى فيها الأفراد، بل زاد أرسطو فارتأى أن يحرم الصناع والزراع والعبيد من الحقوق المدنية لحقارة ما يقومون به من الخدم فى نظره.

والظاهر أن الفلسفة اليونانية لم تعن العناية الكافية بمسألة الرُّبُط الاجتماعية على خطرها، فخبط فيها فلاسفتهم؛ ولم يسلم من هذا الخبط أفلاطون نفسه، فارتأى فى كتابه (الجمهورية) وجوب حذف حق الملكية الفردية، وحذف الأسرة أيضاً، فجعل المقتنيات والنساء فى جمهوريته مشاعة بين الكافة، وناط تربية الأولاد بالحكومة كما ناط بها توزيع الأموال إلخ.

فى وسط هذه الربط الاجتماعية المشوشة، ظهر الإسلام فأدهش العالم أجمع بقوة تماسك آحاده، وتغلبه على قلة أتباعه على جماعات تفوقهم عُدداً وعَدداً، ولم يفطنوا إلى أن هذا التغلب كان بسبب شدة التماسك الذى أكسبهم إياها سمو رابطتهم الاجتماعية على جميع الروابط المعروفة.

ولقد أثبت العلم أن روابط الاجتماع نفسها تتنازع الحياة كما تتنازعها الأحياء، فلايقدّرالنصروالبقاء إلا للأكمل منها، ويتلاشى الضعيف الملتاث منها بالأدواء، حتى لا يبقى منها إلا الأصلح المحقق لناموس الارتقاء.

لم يبق أمامنا إلا ما نفسر به سبب مناعة المجتمع الإسلامى، واستعصائه على جميع المحللات التى صادفها فى اصطدامه بالمجتمعات العالمية، وتغلبه عليها. وهذا التفسير هو أن الروابط الإسلامية بين الآحاد كانت أرقى من جميع روابط الجماعات التى نازعتها الحياة ، وأن تلك الروابط كانت تستمد وجودها من أعلى المبادىء الاجتماعية، التى جاءت بها الحكمة الإسلامية.

فالتنازع بين المسلمين وبين تلك الجماعات كان فى حقيقته تنازعاً بين القوىء الادبية لكل منهما، تحقيقاً لناموس الانتخاب الطبيعى الذى نتيجته أن يكون الفوز للأصلح، كما جاء فى الكتاب الكريم: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(١).

---

(١) الأنبياء : ١٠٥.

أدهش الناس جميعاً أن تقوم أمة فى أبعد بقاع الأرض عن العمران فتلقى بنفسها فى معمعان المزاحمات الاجتماعية، وتجول فى الأرض جولات تحصل بها سيادة العالم كله، ولم يتم لها هذا جميعه إلا بعد أن احتكت، وهى فى أول أدوار الاجتماع، بأمم عريقة فيه، وانتزعت منها السؤدد والسلطان.

أدهش الناس هذا فأخذ نقدة التاريخ يعللونه بضروب من العلل؛ فمنهم من زعم أن هذه النهضة غير المتوقعة تنحصر فى أن الإسلام أغرى ذويه بأن من يمت منهم شهيداً فى الحرب يرث الجنة؛ ومنهم من تخيل أن العلة كانت فى تفكك روابط الأمم المعاصرة للمسلمين، ومنها أمتا الفرس والرومان؛ ويغيب عنهم كلهم أن هذا التبسط فى الفتوحات كان يلازمه أرتقاء يناسبه فى جميع المعارف البشرية، ومختلف الصنائع والفنون، ويسايره توسع فى العمران، واستبحار فى المدينة الفاضلة؛ وكل هذا يبين أن ليست الأسباب المتقدمة هى التى جعلت الإسلام ينتشر فى بقاع الأرض، ويعم هذه الأمم القوية الروابط، ويحتل من نفوسها مكانة سامية لم تصل إليها أمة أخرى، حتى أن الأمة الفارسية قبلت الإسلام مختارة على ضؤولة الجزية التى ضربت عليها، وعلى عدم العدوان عليها باسم الدين، مما لم يتجرد منه الأوروبيون حين فتحوا القارة الأمريكية فى السنين الأخيرة للقرن الخامس عشر، أى بعد الإسلام بنحو ثمانية قرون.

ودليلنا على فساد هذه التعليلات أن الدوافع على هذه النهضة لو كانت هى المغريات على الجهاد وحدها، لكان قصارى أمر المجتمع الإسلامى الأول أن يبلغ مداه فى التوسع، ثم يتراجع ويمحى أثره ككل نهضة حربية فى الأرض، وليس تاريخ التوسعات الحربية لبختنصر البابلى والإسكندر المقدونى، وجنكيز خان المغولى، وتيمورلنك من أحفاده، ونابليون الفرنسى، مما يغرب عن الأذهان.

نعم إن الرومانيين قاموا بما يقرب من الفتوحات الإسلامية، حتى دانت لهم

معظم الممالك، ولكن كان ذلك فى خلال ثمانية قرون، لا فى ثمانين سنة، كما حدث للمسلمين بواسطة الإسلام؛ ومع هذا الفارق العظيم أيضاً، وهو أن الفتوح الرومانية كانت تمثل العسف بجميع مظاهره، فكانت الشعوب والأمم تعامل معاملة الأرقاء. ولكن الفتوح الإسلامية كانت خيراً وبركة على المقهورين، وكان مبدأ المساواة مراعى بين الكافة إلى أقصى حدوده، وأخص معانيه. حتى كان المقهور يخاصم قاهره مهما كان عظيماً إلى القاضى المسلم فيقتص له منه، غير معتد بشىء من تخالف العقائد، ولا تباين الدرجات.

وأما ما يتخيله معللو توسع المسلمين فى الفتوحات من أن السبب كان تفكك روابط الأمم الكبرى على عهدهم الأول، فغير معقول أصلاً، فإن الدولتين اللتين كانتا تسودان العالم إذ ذاك، وهما دولتا الفرس والرومان، كانتا فيما بينهما فى منازعات شديدة مستمرة، وكانتا حاصلتين على مقوماتهما الاجتماعية كاملة، وإن كانتا فى حالة تدهور أدبى نسبى. فكانتا تشتبكان فى حروب بينهما، ولم تقو إحداهما على التغلب نهائيا على الأخرى، وكان لكل منهما جيوش جرارة، وقادة محنكون، ونظام قائم، فكانت تغلب إحدهما الأخرى تارة، وتنهزم تارة أخرى، ولكن إحداهما لم يظهر عليها أثر الانحلال الاجتماعى فى جميع هذا المعارك. ولما ظهر الإسلام وأدته الشئون الاجتماعية للدخول معهما فى حرب، قامت كل منهما بالدفاع عن نفسها جهد المستطاع، وكانت نتيجة ذلك أن انحلت إحداهما وهى فارس، ودخلت الإسلام مختارة، وانحسرت الأخرى عن ممالك مصر والشام وشمال إفريقيا، واضطرت لدفع الجزية للمسلمين، وهى دولة الرومان، وبقيت قائمة على نظامها إلى القرن السادس عشر، حتى أتم حلها الترك العثمانيون فى منتصف القرن الخامس عشر باحتلالهم القسطنطينية.

لم يبق أمامنا إلا تعليل واحد يمكن أن نفسر به مناعة المجتمع الإسلامى واستعصاءه على جميع المحللات التى صادفها فى اصطدامه بالمجتمعات العالمية، وتغلبه عليها.

هذا التعليل هو أن الروابط الإسلامية بين الآحاد، وبينهم وبين الجماعات التى تدين لهم، كانت تستمد وجودها من أعلى المبادىء الاجتماعية التى جاءت بها لهم الحكمة الإسلامية. فالتنازع بين الجماعة الإسلامية على قلة عددها، وبين الجماعات العالمية، كان فى حقيقته تنازعاً بين القوى الأدبية لكل منهما، تحقيقاً لناموس الانتخاب الطبيعى الذى مؤداه فوز الأصلح للبقاء.

كانت الروابط الاجتماعية للأمم مبنية على مبدأ التعاون فى الكفاح لتحصيل مقومات الحياة، ولو من طريق تجريد الأمم المجاورة من مقوماتها، والتغلب عليها وتسخيرها لمطالبها، والأخذ بطريقة العسف فى معاملتها، وكان أساس هذه الروابط الجنس واللون واللغة.

ولكن الروابط الإسلامية تأسست على أصول أدبية هى أرفع ما يصل إليه العقل من العدل المطلق، وهى:

(أولها) المساواة بين جميع الخلق: «لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو عمل صالح، فكلكم لآدم وآدم من تراب».

(ثانيها) أن التفاضل لا يبتنى على الفوارق الجنسية ولا الجسدية، ولا التفاوت فى الثروة، ولكن على الكمالات النفسية: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(1).

(ثالثها) أن القبائل والشعوب خلقت على الأرض لتتعارف جميعها وتتعاون، لا لتتناكر وتتناحر: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾(2).

(رابعها) تسويد العدل فى جميع المواقف ولو على النفس والأقربين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾(3).

---

(1) الحجرات: ١٣.
(2) الحجرات: ١٣.
(3) النساء : ١٣٥.

(خامسها) العمل على إعلاء كلمة الله فى الأرض، وهى الحق المطلق، والفضيلة الصحيحة.

هذه روابط جامعة تصلح لأن تجمع بين الأمم كافة، وتمحو ما بينها من أحقاد وثارات فى ظل أكمل الأصول، وأسمى المبادىء وهى نفسها دستور السلام العالمى الذى تنشده الأمم اليوم.

ولست فى حاجة أن أبين لك أن المجتمع الذى تكون راوبطه هذه الأصول والمبادىء، يتغلب على المجتمعات التى تنازعه الوجود، لأن الروح التى تسيطر على آحاده تستمد وجودها من غرائزهم المادية والروحية مجتمعة، لا من غريزة حفظ الذات فحسب.

هذا هو التعليل المعقول لنشوء المجتمع الإسلامى، وتغلبه على الجماعات الكبرى، وحلوله محلها فى الزعامة العامة فى الأرض.

وبعد فقل لى بربك: أمة لديها مثل هذه الثروة الحكمية، ماذا يرجى أن تأخذ عن الفلاسفة، وقد رأيت أماثلهم لا يقيمون لمبدأى الأخاء والمساواة العالميين وزناً، ومكانهما من صميم الحياة الإنسانية ما تعلم؟

الحكمة الإسلامية وما وراء الطبيعة[1]

قذف بالإنسان من عالم الغيب إلى عالم الطبيعة، وهو لو كان مثل الحيوان محدود القوى العقلية، ومقدراً عليه أن يعيش قانعا بما يقيم أوده من الحاجات المادية ثم يموت، لما كلف نفسه أن يبحث فى غير ما يجعل حياته حافلة بالمتع الجسدية ولاجاش بقلبه نزوع إلى الطموح لما وراء ذلك من الشؤون العلوية؛ فما ظنك به وقد اشتغل بها من يوم وجوده على الأرض، كما استدل على ذلك من علم الحفريات (الباليونتولوجيا) وجعله شغله الشاغل، وقدمه على كل ما عداه من شؤونه المادية، بل ضحاها له واعتبر ذلك أخص ما يجب عليه فى حياته الدنيوية.

فلتوفية هذه الحاجة النفسية فى الإنسان، شرعت له الأديان، فأذعن لها كل الإذعان، ولكنه لشدة تهيامه بكشف ما حجب عنه من الأسرار، لم يقف من تخيلاته عند حد، فأطلق لها العنان، فطوحت به إلى خزعبلات بحيث أصبح ما كانت تدين له أرقى أمم القدامى، أقاصيص بدهية البطلان.

ولما جاءت الفلسفة اليونانية، ورأت أن ما انتشر من العقائد لا يتناسب وكرامة العقول، رمت في دورها الأول، أي فى القرن السادس قبل المسيح، إلى تصحيح خطأ رجال الدين فجاءت بتعليلات فى نشوء الكون وقيامه تعتبر من السذاجة بمكان وضيع. وقد بينا ذلك فى مقالات لنا سبقت فى هذا الباب.

ولما جاء العصر الثاني للفلسفة في القرن الرابع قبل المسيح، وامتاز بظهور أفلاطون وأرسطو، وحاولا جهد الطاقة أن يضعا فلسفتهما على قرار مكين، لم

(١) مجلة الأزهر ـ السنة السادسة عشرة، ١٣٦٤هـ ، ص٣٣٩.

يوفقا إلي ذلك أيضاً، وجاءا بآراء بسطناها فى مقالاتنا السابقة على الخالق والروح والوجود والموجودات لا تحتمل النقد.

نعم إنهما قالا بوجود خالق حكيم، ولكنهما أشركا معه فى الوجود المادة ومثلها أو وصورها، على أنها أزلية فى درجة أزلية الخالق نفسه، وهذا مما تنفيه بداهة.

وقد جاءت القنبلة الذرية فنفت قدم المادة عملياً، فأصبح تأثيرها فى المذهب المادى أشد بما لايقدر من تأثيرها فى أعداء الديموقراطية فى الحرب الأخيرة، فتحطم بتأثير حل تماسك قوى الذرة كل قول بأزلية المادة، ولم يبق فى الوجود كله غير القوة وخلا الكون لتدبير قدرة أزلية تخلق ما نسميه مادة، وتؤلف بها من الكائنات الجامدة والحية ما نشاهده وندهش من تنوعه فى عالمنا الأرضى، وما لا نشاهده ولا نتخيله من الموجودات فى عوالم أخرى لا نهاية لها.

هنا يظهر خطأ الفلسفة اليونانية، وكل فلسفة سبقتها أو تلتها، فى ذهابها فى فهم المادة الفهم الذى نقضه العلم الطبيعى حديثاً نقضاً عملياً، وفى هذا الوقت نفسه تجلت الحكمة الإسلامية تجلياً باهراً بمذهبها فى وجود الخليقة، وببعدها عن اتباع الظنون والأوهام.

مذهب الحكمة الإسلامية فيما بعد الطبيعة

الطبيعة فى عرف العلماء المشتغلين بالنظر فى الوجود، هى مجموع الكائنات أى العالم كله معتبراً وحدة تدبرها قوى واحدة، ونواميس عامة تعمل فى أكبر الموجودات كما تعمل فى أصغرها، لايفلت من تدبيرها أصغر ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

فلما جاء الإنسان ودفعته قواه العقلية إلى تفهم ما يحيط به، اضطر إلى افتراض وجود مدبر فوق الطبيعة، وهنا أطلق العنان لأهوائه وأوهامه، وأتى بما لا يقبله عقل، ولا يمكن أن يسنده دليل، مما يناسب الدركة التى هو فيها من الجهل.

فلما نشأت الفلسفات فى الصين والهند ومصر وبابل وغيرها، كان مما شغل بال قادتها البحث فى أصل الوجود وقوام الموجودات، فكان ما حصلوه مناسباً

لدرجة معارفهم، وليس القارىء فى حاجة بعد هذا لأن نذكر له أن أساس تلك البحوث كان الخيال المحض.

وعقبتها الفلسفة اليونانية فى نحو القرن السادس قبل المسيح، فحدت من شططها كثيراً، وكانت العقول قد ارتقت بارتقاء العلوم، فجرت فى التحسس من علم ما وراء الطبيعة على ما سمحت لها به قواها التصورية فى حدود معارفها الكونية، ولكنها لم تنج من الوقوع فى مزاعم هى أقرب إلى الخيالات الوهمية، منها إلى التقريرات الفلسفية، فذهب أشهرهم وهوأفلاطون إلى القول بوجود الأصل المادى ومُثُل الموجودات أزلياً مع الخالق على حد سُوى.

ولم يعف تلميذه أرسطو واضع علم ما وراء الطبيعة، عن مجال التخيلات أيضاً، فقال كما قال أستاذه بأن المادة الجامدة كانت موجودة من الأزل، ولكنه أبدل كلمة المثل بالصور.

وقال أرسطو أيضاً فى كتابه (الميتافيزيقا) أى علم ما بعد الطبيعة.

العالم قسمان سماوى وأرضى، أما السماوى فمتمتع بحركة دائرية صادرة عن الله مباشرة، والنجوم أزلية خالدة!، وهى مكونة من الأثير، ولذلك لا تقبل الفساد!

«وسماء النجوم الثوابت هى مقر الكون والحياة الكاملة والنظام الثابت. وهذه النجوم كائنات لايعتريها الهرم، حية حياة سعيدة، ودائبة على العمل دون كلال، وهى أقرب للألوهية من الأنسان»!

وأرسطو لايعترف بأن الخالق متولى الخليقة بالتدبير والتوجيه، وقد خالف فى ذلك أستاذه أفلاطون الذى كان يقول بأن الله وإن كان لم يخلق المادة فإنه اعتنى بها ودبرها!

هذه أوجه الفلسفات التى أثرت عن الأقدمين فى مسألة ما بعد الطبيعة، وهى

كما يرى القارىء مفككة متناقضة ولا تحتمل النقد، ناهيك أنه لم يبق لها فى اليوم من ممثل فى أية بقعة من بقاع الأرض.

* * *

أما الحكمة الإسلامية فقد قررت أن للكون خالقاً متصفاً بجميع صفات الكمال، ولكن العقل البشرى لا يستطيع معرفة كنهه، كما جاء فى الكتاب الكريم: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾(١).

أبدع الوجود من عدم، ومنح جميع الكائنات كل ما به قوامها وبقاؤها، كما قال فى كتابه: ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾(٢).

والإسلام يتفق مع جميع البشر فى هذه العقيدة، ويزيد عنهم فى إبلاغ تنزيه الخالق إلى أقصى حدوده، تفادياً مما وقعت فيه الأمم كافة من إضافة مدركات وهمية إلى هذه العقيدة. وقد وضع المسلمون قاعدة حاسمة لضمان بقاء هذا التنزيه، فقالوا: «كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك»؛ وليس بعد هذا رادع للشهوات العقلية عن الطموح إلى الكلام عن الذات الإلهية.

وقرر الإسلام أن للإنسان روحاً نسبها الخالق تشريفاً لها إلى نفسه، فقال: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾(٣).

وأنها تخلد بعد الموت فى عالم فوق هذا العالم يثاب فيه الإنسان على ما عمل من خير، ويعاقب على ما اجترح من سوء؛ وأن الله خلق ملائكة وهم أرواح مجردة عن المادة يصرفهم فيما يشاء من الشؤون؛ وإنه اتخذ رسلاً من البشر إلى الناس وأوحى إليهم كتباً ليهدوهم إلى أقوم سبل الحياة.

فهذه العقائد انعقد عليها إجماع البشر كافة فى كل زمان ومكان، ولكن الذى امتازت به الحكمة الإسلامية، هو ردع النفوس عن تناول هذه المقررات

---

(١) طه: ١١٠.

(٢) طه: ٥٠.

(٣) الحجر: ٢٩.

بالشروح والتأويلات، اعتماداً منها على أن العقل العادى، الذى يستمد معارفه من المحسوسات لا يستطيع أن يخوض فيها ويسلم من الخبط، كما حدث للفلسفة إذ تناولتها على هذا الوجه فأتت فيها بما لا يسيغه عقل فضلاً عن أن يقام عليه دليل.

ولما كانت الفطرة الإنسانية لا تستطيع أن تقف جامدة حيال أمور يهمها فهمها والتوسع فيها، أكثر مما يهمها أى شيء آخر، صرحت لها الحكمة الإسلامية بأن هذه الشؤون العلوية لا تخضع لسلطان العقل العادى، لأنها تتعلق بما فوق الطبيعة، ولا يمكن الوصول إليها وتحقيقها إلا باستخدام الحواس الباطنة، والاتصال بواسطتها بالأرواح المجردة، واستمداد تلك المعارف منها. ولم تشترط لبلوغ هذه الغاية ما يشترطه غيرها من ضرورة الانقطاع عن العالم الخارجي وسكنى الصوامع، وتمضية الحياة فى الوحدة والتقشف، بل هى تنهى عن ذلك، ولا تتقاضى السالك فى هذه الطريق إلا شيئاً واحداً، وهو الاستقامة والعمل بوصايا الشريعة من دوام طلب العلم، والتثبت فيه، وتحرى الحق فى كل قول وعمل، والأخذ بالأحسن من كل شيء، وتطهير القلب من كل نزغة شيطانية، ونزعة حيوانية وشهوة جاهلية، وإدامة النظر والتأمل فى مجريات الحياة؛ واستشراق النور من خلال الحوادث الوجودية، والإدمان على السير فى هذه الطريق دون تعجل للثمرات، ولاتهور فى المجاهدة، ولاتنطع فى المحاسبة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾(1). فهو لا يشترط فى الاتصال بالملائكة غير الاستقامة على الطريق؛ ومتى اتصل بهذه الأرواح المجردة، وهذا الاتصال على درجات شتى، انفتح أمامه طريق المعرفة، وشعر بعمل حواسه الباطنة، واتحد عقله العادى بعقله الباطن، وشعر بحقيقة الحياة، وتجلت له عظمتها، وتبينت له حكمة تكاليفها الروحية، وتبعاتها الدنيوية، وتخلص من دواعى الحيوانية،

---

(1) فصلت: ٣٠.

وتراءت له غايات سامية تغريه على إدمان المجاهدة، ولا يزال يتنقل فى درجات الترقى حتى يبلغ شأواً لم يدر فى خلد أشد الناس تفاؤلا بمصير الإنسانية.

وقد وعدت الحكمة الإسلامية ذويها بحصولهم على ثمرات جهادهم معجلة لامؤجلة، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(١).

هذه سبيل الحكمة الإسلامية فى شؤون ما وراء الطبيعة، وفى أسلوب التحقق منها، وهى سبيل ترضى أشد الناس طماعية فى وجدان الدليل عليها. ولما كان الدليل عليها لا يمكن أن يكون كلامياً، بل أن يكون شهودياً محسوساً، فقد آتتك به فيما نهجته لك من تكاليف. ومع هذا فقد تنبأت عن مجىء عهد تنجلى فيه هذه الحقائق بحيث لا يستطيع أحد أن يتجاهلها، فقال تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ﴾(٢).

وصرح بما سيحققه العلم من صحة تلك الشئون العلوية حين يرتقى الإنسان فى سلم المعرفة، فتكون لديه بواسطة العلم نفسه، أدلة محسوسة عليها، كما هى الحال فى زماننا هذا فى مجال العلوم النفسية، وقد اعترفت بها جامعات كبيرة مثل كمبردج واكسفورد ويورك وغيرها، فقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾(٣).

وهو ما عبر عنه أشهر علماء العالم الاستاذ (كاميل فلامريون) فقال فى كتابه (المجهول): «إن لدينا الآن من الأدلة على وجود العالم الروحانى مثل ما لدينا منها على وجود العالم المادى».

---

(١) العنكبوت: ٦٩.
(٢) الأنبياء: ٣٧.
(٣) فصلت: ٥٣.

نظرة علي كل ما تقدم[1]

أتينا فى السيرة المحمدية على كل مايجب أن يعرفه طالبها، وعلى كل ما ينبغى أن يصحبها من بحوث علمية وآراء فلسفية؛ وقد بقى علينا النظر فى تصرف أصحاب النبى ﷺ، لا لنسجل لهم مبلغ احترامهم لتعاليم رسولهم فحسب، ولكن للاستدلال عملياً أيضاً على صحة ما ذهبنا إليه من أن التعاليم الإسلامية هى خير التعاليم التى تبنى الأمم، وتضمن لها جميع الحوافظ التى تستبقى وجودها، وكل العوامل التى تدفعها للتطور. ومن ناحية أخرى فإن هذه الدراسة وإن كانت تستدعى منا الإلمام بتاريخ الأمة الإسلامية فى عهدها الأول - وليس هذا مما يتناوله عنوان بحثنا - فإنها مع ذلك من مكملاته، لأنها تدل على مبلغ نجاح النبى ﷺ فى بث المبادىء التى أرسل بها؛ وهذه ناحية يتفاوت فيها المصلحون، وتقاس بها قواهم الروحية، وتؤيد صحة صلتهم بالشؤون العلوية.

بعث النبى ﷺ إلى الناس كافة، وهى مهمة لم يدعها إنسان من قبله فى أية بقعة من بقاع الأرض، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[2].

فهل وفَّى محمد بهذه المهمة؟ وهل ما جاء به يصح أن تأخذ به الناس كافة؟

أما إنه وفَّى بهذه المهمة فهذا مما لا مشاحة فيه، فقد بعث وحيداً، لاأعوان

(١) مجلة الأزهر - السنة السادسة عشر، ١٣٦٤هـ، ص ٤١٧.
(٢) سبأ: ٢٨.

معه يشدون أزره، ولا مال لديه يستغوى به العامة، ولا سلطان له يستميل إليه به محبى الجاه والسؤدد، ولا أى عامل مادى من عوامل الإغراء والتسويل، فنجاحه فى دعوته يرجع إلى كفايته الشخصية لما ندب إليه، وإلى وفاء ما جاء به بحاجات النفوس، ومقومات الحياة. فإن آنست فيما آل أمر الصحابة إليه جماعة قوية الترابط، موحدة الوجهة والغاية، متجانسة الميول والعواطف، مطمئنة إلى ما انتهت إليه، ومستعدة لأن تبذل أنفسها وأموالها فى تأييد ماهى عليه، فإنما ترى فى الحقيقة أثراً مجسماً للدعوة الإسلامية، لم يشاركها فى تكوينه عامل من البيئة التى تعيش فيها، ولاباعث من حالة أدبية للإمم التى كانت تحيط بها، فهى صياغة الأصول الإسلامية جسداً وروحاً.

أقام محمد ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة بين ظهرانى أمته يدعوهم إلى الحق، ويقيمهم على صراطه، حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾(1).

وكان نزل عليه قبل ذلك قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾(2).

وقوله تقدس اسمه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(3).

ثم اختاره الله لجواره، فمضى تاركاً أمته وشأنها تتصرف فى شؤونها على ما رسمه كتابها، وسنة رسولها، حتى أنه لم يسم لها من يخلفه من كبار أصحابه.

---

(1) المائدة : ٣.

(2) آل عمران : ١٤٤.

(3) النور : ٥٥.

فاجأت قومه وفاته فأذهلتهم هنيهة، وكادت تفتنهم ولكن سرعان ما حفزتهم تعاليمه إلى العمل، فنهض أحدهم وهو أبو بكر، فرقى المنبر وخطبهم قائلا: «أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت»، ثم تلا قوله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(١).

فثاب إليهم صوابهم، وتركوا رسولهم مسجى فى حجرته، واجتمعوا تحت سقيفة أحدهم، وائتمروا فيما بينهم لتعيين من يخلفه، وهنالك تجلت هذه التعاليم فى أروع وجوهها، فما مضت غير ساعة تبادلوا فيها الآراء حتى انتهوا إلى رأى إجماعى بتعيين أبى بكر لخلافته، فكان هذا أجلى مظهر للوحدة الاجتماعية تتجلى على جماعة كانوا بالأمس أوزاعاً متعادين، يأكل بعضهم بعضاً. فإن قلنا لم يحدث ما يشبه هذا الحادث الجلل فى أية جماعة من جماعات العالم، فلسنا بمبالغين، وها هو تاريخ القبائل بين أيدينا، إن قلنا إن مثل هذه الوحدة لم تتم إلا فى قرون عديدة، ولاتتولد إلا تدريجياً تحت تأثير عوامل شتى.

ولما تمت بيعة أبى بكر قام فى الناس خطيباً، وقال:

«أيها الناس، قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن صدفت فقوموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى حتى آخذ له حقه، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى أخذ الحق منه إن شاء الله.

«لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل.

«أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم.

«قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله».

---

(١) آل عمران: ١٤٤.

نقول: المتأمل في هذه الخطبة، وهى أول ما طرق آذان المسلمين من ذى سلطان بعد وفاة النبى ﷺ، يرى فيها أصول الديموقراطية ماثلة لا ينقصها شيء، وأين الأمم من الديموقراطية؛ خاصة الأمة العربية، فى ذلك العهد؟ فأما رياسة الحكومة على النحو الذى حدث من الاجتماع والتشاور فيمن هو أحق برياستها، ثم مبايعة الناس إياه بعد انتخابه، فهو إيذان صريح بأن السلطان للأمة لا لتقاليد مقررة، ولا لأوضاع موروثة. وعدم تعيين النبى ﷺ من يخلفه، أيّد هذا الحق للجماعة أعظم تأييد.

وقول أبى بكر فى خطبته: «فإن أحسنت فأعينونى، وأن صدفت فقومونى»، إشعار واضح بأن للأمة حق الإشراف على الحكومة، فتعين المحسن وتؤيده، وتقوم المعوج أو تعزله.

وفى قوله: «أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم»، إعلان لا يقبل المماراة فى أن الحكومة الإسلامية ذات دستور مقرر، هو القرآن والسنة النبوية، قيد أبو بكر بالسير عليهما نفسه على رءوس الأشهاد، حتى أنه صرح بأن للأمة حق إقالة الحكومة إذا لم تقم بما يوجبه عليها الدستور. وهذه الالتزامات هى الأركان الثابتة للديموقراطية الصحيحة.

هذا المظهر الفذ الرائع لأول حكومة إسلامية تقوم على أنقاض جاهلية جهلاء، طفرة دون تطور تدريجى، يعتبر أمراً خارقاً للعادة، ليس له شبيه فى تاريخ الاجتماع البشرى، وحدوثه طفرة فى جماعة كانوا بالأمس القريب منقسمين إلى قبائل لا تجمع متفرقها رابطة من أى نوع كانت، يعد من الانقلابات الفجائية، التى تعجز عن إيجادها مجرد السنن الطبيعية، وتميل بالباحث إلى تطلّب عللها فى ذات التعاليم التى أوجبتها، وفى التربية الروحية التى قام بها من تولى أمر تلك الجماعة من أول تكونها.

فإذا قيل لا يستطيع أحد أن ينكر أن القرآن قد نص على أن تكون الحكومة (دستورية)، وأن يكون للأمة السلطان المطلق، وهى التى تهبه لمن تختاره من

خيرة رجالاتها، إلخ من أركان الديموقراطية، ولكنها لم تصنع الأداة الضرورية لتطبيق هذه الأصول، فلم تضع نظاماً للانتخابات البرلمانية لتمثيل إرادة الشعب، ولم تقرر تأليف وزارة توزع على أعضائها الأعباء الإدارية، إلى غير ذلك من لوازم هذا النظام الحكومى الراقى.

نقول إن هذا يرجع إلى قرب عهدها بالاجتماع وبالحكم، على أن الأمم الديموقراطية لم تتفق بعد، وقد مضى عليها فى الحكم الديمقراطى نحو مائة وخمسين سنة، على شكل هذه الأداة، فإن منها من لها مجلس نيابى واحد ومنها من لها مجلسان، ومنها من جعلت وزارتها مسئولة أمام مجلس نوابها، ومنها من جعلتها مسئولة أمام رئيس جمهوريتها، وغير ذلك من الخلافات التى لا معول عليها، ما دامت أركان الديموقراطية محترمة. إن الأمة الإسلامية لم تحرم فى عهد رسول الله ﷺ ولا فى عهد خلفائه من شكل تمثل فيه إرادة الأمة. فكان رسول الله يجمع المسلمين فى المسجد ويخطبهم فيما هو بسبيله، ويتقبل مشوراتهم ويعمل بها، حتى كان إذا تعارض رأيهم ورأيه أخذ برأيهم دون رأيه.

فهذا النوع من أخذ الآراء يكفى فى القيام بحق الديموقراطية، بل فيه تعميم الدعوة للأفراد كافة، لا للمنتخبين دون غيرهم، وكثيراً ما اتهمت الانتخابات حتى فى أرقى الأمم مدنية، فكان فى هذا الإطلاق لحضور أمور المسلمين العامة ضمان لكل فرد أن يبدى رأيه فى تلك الأمور لعدم انحصارها فى المنتخبين دون غيرهم كما هو الشأن اليوم.

ومما يوجب الدهش أن حق مثول النساء فى مجالس النواب، وهو ما يعده المعاصرون وصولاً إلى أرقى النظم الديموقراطية، ويظنونه من خصوصيات المدنية فى القرن العشرين، كان من وضع النبى ﷺ، إذ أمر أن لا يحرم النساء من شهود المناقشات فى الأمور العامة، فكن يحضرن مع الرجال فيها. ولم يرد عن النبى ﷺ أنه خولهن حق الحضور دون الاشتراك فى إبداء الآراء. بدليل أنه لما بدا لعمر بن الخطاب أمير المؤمنين أن يحدد مهور النساء لما آنس أن

بعضهم يسرف فى تقديرها، أمر بأن يُدعى الناس إلى المسجد لسماع أمر يهم الناس من الأمور العامة.

ولما حضر الناس وفيهم نساء خطبهم عمر فى أمر مغالاة بعض الناس فى تقدير المهور، ورأى أن يقتصر الناس على القدر الذى مهر به رسول الله ﷺ بناته.

فنهضت امرأة من الحاضرات وقالت: أوحى بعد رسول الله يا عمر؟ فسألها وما ذاك؟ فتلت قول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[1].

ففكر أمير المؤمنين قليلاً، ثم قال صدقت ورجع عن رأيه إلى رأيها.

إن هذا التوسع العظيم فى تقرير حقوق المرأة بحيث تصل إلى أبعد شأو وصل إليه فى العصر الراهن، جدير أن يحسب معجزة اجتماعية للإسلام تشهد بمصدره الإلهى؛ فإن القبائل التى كانت تعتبر المرأة غير جديرة بأن ترث زوجها، بل تورث كما تورث الأمتعة، لا يعقل أن تصل فى الاعتراف بحقوقها الطبيعية طفرة إلى ما وصلت إليه الأمم المتمدنة فى القرن العشرين.

فالأمة التى تصل إلى هذه الغاية القصية فى تقدير الحقوق الاجتماعية، وإحكام الروابط الأدبية، لا يستغرب أن تصل إلى مثل ما وصلت إليه الأمة الإسلامية من زعامة العالم الإنسانى قروناً متوالية، فلننظر فيما كانت عليه، وما آلت إليه تحت ضوء مجرياتها بعد وفاة رسول الله ﷺ؛ حتى نظفر بكشف بعض الأسرار التى أدت إلى هذا الانقلاب الخطير.

---

(١) النساء: ٢٠.

توفية التعاليم الإسلامية
بحاجات الناس كافة في كل زمان ومكان[1]

بعد أن قلنا فى مقالنا السابق إن التعاليم الإسلامية هى خير التعاليم التى تبنى الأمم وتضمن لها جميع الحوافظ التى تستبقى وجودها، وكل العوامل التى تدفعها للتطور، عدنا فتساءلنا: هل وفّى محمد ﷺ بهده المهمة؟ وهل ما جاء به يصح أن تأخذ به الأمم كافة فى كل زمان ومكان؟

نقول: أما أنه وفى بها للأمة العربية، فنعم. ألم تر أنها بعد أن كانت على الحالة القبيلية الساذجة ، منحلة العرى، مفككة الأوصال، لا وجهة لها ولاغاية فى الحياة، انتقلت فى سنين معدودة إلى أمة موحدة الوجهة والغاية، ذات مُثُل عليا أسمى ما يتطالّ إليه البشر من الكمال، وبلغت من سعة الملك فى مدى ثمانين سنة إلى أبعد مما بلغته دولة الرومان فى ثمانمائة عام، ومن بسطة العلم وجمال المدنية إلى أسمى مما وصلت إليه أمة قبلها حتى اعترفت لها الأمم بالزعامة العالمية.

بقى علينا الإجابة عن الشق الثانى من السؤال المتقدم، وهو: هل ما جاء به النبى ﷺ يصح أن تأخذ به الأمم كافة وفى كل زمان ومكان؟

الجواب: ولم لا؟ ألم يأخذ به الفرس بعد فتح أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب لبلادهم، فانتظمت به أحوالهم، وعزت به جماعتهم، وارتقت علومهم

(١) مجلة الأزهر السنة السابعة عشرة ١٣٦٥ هـ ، ص ١٢.

وآدابهم، وقاموا للإسلام بخدم أدبية وعلمية لا تزال الشعوب الإسلامية تذكرها لهم إلى اليوم؟

ودخل فى الإسلام بعدهم أتراك وصينيون وهنديون وسوريون ومصريون وغيرهم، فعاشوا فى بحبوحة هذا الدين فى يسر من أمورهم، ورغد من معيشتهم، وتميزوا عن بقية مواطنيهم ممن لم يلبوا دعوته بسمو آدابهم، وعلو أخلاقهم، حتى صار حالهم بما نقلهم الإسلام إليه من الارتقاء فى شؤونهم، مغرياً لمخالفيهم على الدخول فى الإسلام، فأقبلوا عليه أفواجاً، فإما انتهى الأمر بإسلام الجماعة كله، أو بعدد كبير منهم. وهذا لا يعقل أن يكون فى البلاد التى لاتدين للحكومة الإسلامية إلا إذا آنس الناس مظهراً رائعاً لمتبعى هذا الدين، وتأثيراً عظيماً لتعاليمه على العقول؛ فقد أصبح المسلمون فى الصين يبلغون نحو خمسين مليوناً، وقد وصلوا فى الهند كما دل عليه التعداد الأخير إلى نحو مائة مليون.

وهذا يدل على أن أصول الإسلام تتفق والحاجات الحيوية فى كل بيئة من بيئات الجماعات البشرية.

فإن قيل إذا صح هذا القول على الجماعات ذات الحياة الساذجة، كما كانت عليه الحال فى عهد ظهور الإسلام، فلا يصح فى هذا العهد الراهن، حيث تعقدت شئون الحياة، وتنوعت عوامل الاجتماع، وتداخلت مصالح الأمم، وارتقت المثل العليا للأخلاق، ونشأت دولة العلم فقضت على التقليد، وعلى مبدأ المحافظة على القديم فى كثير من العنف، ودفعت بالعقول إلى مناح من النظر المستقل عن جميع الاعتبارات، وإلى أساليب من التدليل الحسى لم يصل إليها القدامى من المهيمنين على الأصول، وهذه ثورة لا يسيغها أى دين، لأنها وضعت فى الميزان كل ما كان يدين به الناس ويعدونه فوق متناول البحث، فكيف يتغلب دين على كل هذه الانقلابات الأدبية، وتبقى له قيادة النفوس فى مثل هذه الحال؟ هذا ما يشتبه به المعترض على ماقررناه. ونحن نجيبه فنقول:

لعل المعترض علينا يدهش إذا نحن صرحنا له بأن كل هذه التطورات الأدبية التى نقلت العالم من حال إلى حال، وضع أصولها الإسلام، وأقام عليها صرحه الوطيد الأركان، وهى التى أحدث بها آيته الكبرى من الانقلاب الفجائى الذى أوجده فى جزيرة العرب فى سنين معدودة ثم انتقل منها إلى العالم كله، ولا يزال يتابع سيره فيه إلى اليوم.

إن ما يسميه المعترض علينا ثورة، وهو أكبر ثورة أدبية شهدها العالم الإنسانى فى الواقع، كان مظهرها المحسوس قيام الأمة الإسلامية، ونهوضها ذلك النهوض الرائع، وبلوغها إلى مكانة الزعامة العالمية، فى جميع نواحى النشاط الأدبى والمادى فى سرعة شبهها المؤرخان المشهوران أمان وكوتان Amann et coutan فى تاريخهما العام، بسرعة البرق. وليس بيان ذلك إجمالاً بالأمر الصعب.

فأول ما شرطه الإسلام على الداخلين فيه أن يقوموا على الفطرة التى فطر الله الناس عليها، وبينها بأنها الحالة التى يكون عليها الطفل ساعة ميلاده، فيتجردوا من كل عقيدة وراثية، وعادة تقليدية، وحالة نفسية، وأن ينظروا فى كل ما يلقى إليهم من التعاليم غير متأثرين بآراء آبائهم الأولين، ولا جامدين على ما وجدوا عليه قادتهم الأعلين، ولكن جارين على أسلوب المفكرين المستقلين، أحراراً من رق التقليد، مطلقين من قيود المجاراة مستشعرين مبدأ العهدة الشخصية (أى المسئولية الشخصية)، معتقدين أن ليس أحد يغنى عن أحد شيئاً، وأن الناس كلهم سواء فى الحقوق، مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، وأن التفاضل بينهم لا يقوم إلا على نسبة مزاياهم الذاتية من علم وأدب، لا على نسبة ما هم عليه من مال ونسب، وأن حكومتهم يجب أن تكون ديموقراطية دستورية، وقد بينا كل ذلك فيما سبق من الفصول فلانعود إليه، فهذه الأصول التى تخالف ما كان تواضع عليه الناس فى سالف الأزمان، تعتبر أكبر ثورة فى العالم، وقد جاء بها الإسلام كلها، وأقام جماعته عليها، وفتح بلاداً ونشرها فيها، وتعدتها إلى سواها شرقاً غرباً،

ففتحت أعيناً عميا، واسمعت آذاناً صمّا، وأنارت قلوباً غُلفاً وتخطت هذه الحركة آسيا وبلغت أفريقيا، ومنها اجتازت البحر إلى أوروبا فدخلتها من إسبانيا، وإيطاليا، وقصد بلاد المسلمين رجال من جميع الأجناس، أخذوا عنهم العلم، ووقفوا على أسرار قوتهم بالتمسك بهذه التعاليم، وعادوا إلى بلادهم بعقول أوسع مدى، وبقلوب أكثر قبولاً للتجديد مما كانت عليه.

وفى الآفاق أثرت فتوحات المسلمين، وما أسسوا من حكومات عادلة، وما عاملوا به المقهورين من المساواة والرحمة، فى بقاع واسعة من آسيا وأوروبا، وما نشروا فيها من علوم، وما أوجدوا بها من صنائع، وما أحدثوا من عمران، تأثيراً عظيماً حتى دخل منهم فى الإسلام ملايين كثيرة دون دعوة، ولم يضنوا عليهم بالعلم فتخرج منهم فى كل فرع من فروعه أئمة فى كل مجال من مجالات النشاط العقلى، فأحدث كل ذلك فى العالم حركة آلت بعد عدة قرون إلى بزوغ عهد النهوض، وقد أسموه بعهد البعث La Renaissance، وما زالوا جارين على متابعة نهضتهم حتى وصلوا إلى ما هم عليه اليوم.

فكيف يتوهم بعد هذا أن الإسلام قد لا يوافق جميع الأمم، خاصة فى كل زمان ومكان وهذه آثاره فى جميع بقاع الأرض؟

فإذا كان هذا شأن الإسلام فى أول أدواره، فكيف لا يكون ملائماً لجميع الأمم، ومفيداً لها فى كل زمان ومكان؟

فمهمة الإسلام والحالة هذه لم تقتصر على البلاد العربية فحسب، ولكن تعدتها كما ترى إلى البلاد الغربية، فصدقت تسميته بالدين العام، وصدق على النبى محمد ﷺ أنه رسول من الله إلى العالمين كافة.

ولما كان الأمر كذلك، وهو صريح فى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

(١) سبأ: ٢٨.

وجرى عليه العمل على عهد النبى ﷺ بإبلاغه بكتب خاصة إلى الحكومات التى كانت معروفة لدى المسلمين فى ذلك العهد، كان من واجب المسلمين بحكم هذا الأصل الاتصال بالناس كافة للقيام بما عهد إليهم من هذا الشأن الاجتماعى الجليل الخطر، البعيد الأثر.

ولما كانت الاتصالات الاجتماعية المؤثرة فى تلك العهود لا تكون إلا بواسطة الحروب، كان لابد من شبوبها بين الأمة الإسلامية الحديثة التكون، وبين جاراتها من الأمم القائمة. ولسنا نقول ذلك تبريراً لما وقع من الحروب الطاحنة بين المسلمين وجيرانهم، ولكن لأن تلك حقيقة علمية مقررة. فقد تبين لعلماء الاجتماع أن التحاك المسلح بين الأمم كان الوسيلة الفعالة فى انتقال عوامل النهوض وبواعث الارتقاء بين الأمم. فكانت الحروب حاجة ضرورية من حاجات العمران. فإذا كان المسلمون الأولون استخدموها فى الاتصال بالأمم، فإنهم، إنما فعلوا ذلك مضطرين بعوامل النشوء والارتقاء الطبيعيين اللذين كانا لا معدى لهما عنهما.

ربما يظن بعض الباحثين أن المسلمين الأولين لو كانوا عمدوا فى سبيل الاتصال بالأمم لتبليغهم الدعوة الإسلامية إلى إرسال الدعاة، وإلى نشر الرسائل إلخ، لأغناهم ذلك عن الزج بأنفسهم فى معمعان ذلك التناحر العام الذى كان سائداً فى تلك الأيام.

ونحن نرى أن هذا الظن غير مؤسس على أى مرجع يبرره. فالجماعات البشرية فى تلك العهود كانت من التعصب الأعمى بحيث لا تصغى إلى الدعاة، ولاتدخل معهم فى جدال فى المسألة الدينية، ألم يقل مشركو العرب كما رواه الكتاب الكريم عنهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[1].

وكان أيسر شيء لدى تلك الجماعات أن تقتل الدعاة وتتخلص من مضايقتهم.

---

(١) فصلت: ٢٦.

أما الرسائل فكانت لا تفيد أيضاً لسيادة الأمية إذا ذلك فى الأمم كافة. فلم يبق أمام أصحاب الدعوة غير استخدام الوسيلة المتفق عليها، وهى الدخول مع المدعوين فى حرب. وكان الأسلوب الذى اتخذه المسلمون بعد وفاة النبى ﷺ، أن يعبئوا جيشهم للقتال، ويبعثوا بسفرائهم إلى الأمة المراد تبليغها الدعوة ليعرضوا عليها الأخذ بواحد من ثلاثة أمور، وهى: إما دخولهما فى الإسلام، وفى هذه الحالة يصبحون إخوانا للمسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم؛ وإما أن يدفعوا جزية سنوية للمسلمين؛ وإما أن يحكموا بينهم السيف ليبت فى أمرهم.

بهذا الأسلوب الجديد تطورت الحرب من تناحر فى سبيل الحصول على ما بيد الغير من رزق على وجه مكشوف، إلى جهاد مسلح لنشر دين أصوله كلها ترمى إلى المصلحة العالمية. وهذا الفارق وإن كان لا يغير من حقيقة الحرب إلا أنه يلطف من أغراضها، ويجعلها إنسانية بحتة بعد أن كانت حيوانية محضة.

على هذا الوجه شرع المسلمون الأولون يفتحون الأرض للإسلام، وسيرى قراؤنا أنهم وفوا بجميع ما وعدوا به العالم من المساواة والعدل والرحمة، وأنهم رفعوا شأن كل أمة افتتحوا بلادها درجات عما كان عليه، ولم يرو عنهم أنهم غدروا بأمة، أو جردوها عن أموالها،أو ارتكبوا مع جماعة ما ارتكبته الأمم الفاتحة قبلها من الإذلال والاستعباد والسلب، فكان عهد خلافتها على الأرض عهد ائتلاف ومزاملة وتعاون، وسننوّه بأدلة ذلك فى مواطنها من هذا البحث إن شاء الله.

(النبوة حاجة روحية لا معدى للإنسانية عنها)(1)

لقد ارتكب الماديون شططاً بعيداً بادعائهم قيام الوجود المادى دون قدرة مدبرة له، وبزعمهم أن نواميس الطبيعة تكفى لتعليل كل ما هو عليه من نظام وإحكام، ومن تنوع وإبداع فى الكائنات، حتى الحية منها إلى أن تصل إلى الإنسان.

الشطط فى هذه المزاعم بعيد المدى بحيث يتعذر تصوره، ولولا أن العقل الإنسانى مهما سما فى معارج التكمل، لايزال على حالة توجب الأسف من النقص، لما لقى مثل هذا المذهب من رواج بين ظهرانى أمم بلغت شأواً بعيداً من الثقافة.

ظهرت المادية فى حضانة الفلسفة قبل أكثر من ألفى سنة، ولا سيما فى بلاد اليونان، وقد نقلنا أشهر مذاهبهم فى مواضعها من هذه السيرة وتبين منها القراء أنها بحكايات العجائز أشبه وما زال المذهب المادى يتجرد من حشوه الرث على نسبة تقدم العلم، إلى أن وصل إلى القرون الأخيرة على صورة دعوى مجردة عن الأدلة، أساسها استبعاد أن يكون فى الكون قوة خارجة عنه تدبره من عل؛ محتجاً بأن فيه من آثار التطورات التدريجية، والمحاولات الفاشلة، ومن الشرور والدوافع القوية إليها، ما لا يتفق وافتراض وجود تلك القوة المدبرة.

فلو عرضت لعقلك الكون على ما فيه من عوالم متماسكة ومترابطة؛ومن إبداعات محيرة للعقل فى دقتها وتناسقها، وذهابها فى الجمال والأناقة كل مذهب؛ ومن قيام المواد وما ركب منها على نظام هندسى، استنتج العقل من

(1) مجلة الأزهر السنة السابعة عشرة ، سنة ١٣٦٥هـ، ص ٣٢٩.

النظر إليه أسمى قوانينه الرياضية وأصوله الميكانيكية، وما سماه بالنواميس الطبيعية.

ثم لوعرضت لنظرك عالمى النباتات والحيوانات، وما تجلت فيه من الصور الرائعة، وما قامت عليه من التراكيب المعجزة، وما أُلهمت الأحياء الضعيفة والقوية من مقومات حياتها، وما أوتيته على ضعفها من الحيل والوسائل لتحصيل قوتها، وحفظ صغارها.

لو عرضت لعقلك ونظرك كل هذه العوالم والكائنات، لاحتقرت كل من يدعى أنها وجدت من طريق الاتفاق المحض، وأن القوة الطبيعية المجردة من العقل تستطيع أن توجدها على ما هى عليه من تباين فى الصور، وتنوع فى التراكيب، واختلاف فى القوى؛ خاصة إذا تدبرت فى أن جميع الكائنات الحية الضعيفة قد أُلهمت من وسائل حياتها، وذرائع وجودها ما عم جميع أفرادها، وكان سبباً فى حفظ ذواتها وأنواعها أجيالاً لاتحصى، وهو مما لا يمكن حصولها عليه بقواها الذاتية.

أليس فى هذا دليل محسوس على أن الخالق تولاها بالهداية، وبث فى روحها من العلم بالوسائل ما تحفظ به حياتها الفردية والنوعية؟ ولقد حاول أقطاب المادية أن يعللوا هذا الإلهام بأسباب طبيعية، ففشلوا، واعترف دارون نفسه فى كتاب الأنواع بأنها مسألة مستحيلة الحل.

وإذا أراد القارىء أن نستأنس ببعض آراء علماء الكون فى هذا الموضوع، نؤاتيه بما قاله العلامة (ادوار ميلين) المدرس بجامعة السربون، عند ذكره حياة الحشرة اكسيلوكوب:

«إن هذه الحيوانات التى تراها طائرة فى الربيع، تعيش منفردة وتموت بعد أن تبيض مباشرة، فلم ير صغارها أمهاتها ولا تعيش هى لترى أولادها، التى تكون على حالة ديدان لا أرجل لها، ولا تستطيع حماية نفسها من أية عادية، ولا الحصول على غذائها، ومع ذلك فحياتها تقتضى أن تبقى مدة من الزمان فى مسكن منفصل وهدوء تام وإلا هلكت.

«فترى الأم متى حان وفت بيضها، تعمد إلى قطعة من الخشب فتحفره فيها سرداباً طويلاً، فإذا أتمته على ما ينبغى، أخذت فى جلب ذخيرة تكفى صغيرها سنة، وتلك الذخيرة هى طلع الأزهار، وبعض الأوراق السكرية (ومن أدراها بذلك وهى لم ترها ولم تعرف ما يلزمها؟)، فتحشو ذلك الطلع فى قاع السرداب ثم تضع بيضة، وتأتى بنشارة الخشب فتكون منها عجينة تجعلها سقفاً على تلك البيضة. ثم تأتى بذخيرة جديدة فتضعها فوق ذلك السقف. ثم تضع بيضة أخرى وهلم جراً، فتبنى بيتها مكوناً من عدة طبقات، ثم تترك الكل وتموت.

ثم عقب هذا العالم الجليل هذا البيان بقوله:

«يجب أن يدهش الإنسان حين يرى حيال هذه المشاهدات الناطقة المتكررة رجالاً يدعون لك أن كل هذه العجائب الكونية ليست إلا نتائج الاتفاق (أى الصدفة)، أو بعبارة أخرى نتائج الخواص العامة للمادة؛ وأثر لتلك الطبيعة التى تكون مادة الخشب ومادة الأحجار، وأن إلهامات النمل مثل أسمى مدركات القوة المدركة الإنسانية، ليست إلا نتيجة عمل القوى الطبيعية والكيماوية التى بها يحصل تجمد الماء واحتراق الفحم وسقوط الأجسام. إن هذه الفروض الباطلة بل هذه الأضاليل العقلية، التى يسترونها باسم العلم المحسوس، قد دحضها العلم الصحيح دحضاً، فإن الطبيعى لا يستطيع أن يعتقدها أبداً. وإذا أطل الإنسان على وكر من أوكار بعض الحشرات الضعيفة، يسمع بكل جلاء ووضوح صوت العناية الإلهية ترشد مخلوقاتها إلى أصول أعمالها اليومية».

ألست ترى بعد الاطلاع على هذا التفصيل الدقيق من تاريخ حياة حشرات لم تر أمهاتها صغارها، ولم تر صغارها أمهاتها، أن الوحى الإلهى لها حقيقة تكاد تكون ملموسة؟ وإلا فمن أين لها هذه المعرفة بطبائع أجنتها فى داخل بيضاتها؛ ومن أين لها العلم بحاجاتها إلى كل هذه العناية؟

هذا مثل من عشرات ألوف من حياة الحشرات وغيرها، وهو يشهد بأن الخالق متوليها بالوحى؛ لاستبقاء وجود آحادها وأنواعها، ويشهد فى الوقت نفسه بحاجة العالم الحى إلى تدبير مدبر، وإلا باد بل لم يوجد أصلاً، لاستحالة وجوده معتمداً على نفسه.

أما العالم الإنسانى فقد نشأ مؤمناً بالوحى الإلهى، وأظهر مظهر لذلك أنه نشأ متديناً، فلم تشاهد فى أعمق ما وقعت عليه أعين العلماء الجيولوجيين من آثار العالم الإنسانى بقايا أمة كانت غير متدينة، ولم يوجد على سطح الأرض أمة أو جماعة مهما بلغت من دركات الانحطاط العقلى لا تدين بدين ما، ومن أخص لوازم الدين الاعتقاد باتصال المخلوق بالخالق على نحو ما.

وفى العهد الأخير للإنسانية، وقد أوغل العلم فى التسلط على تعقلها، استبعد كثير من الناظرين أن يكون لله رسل إلى الناس وقد آتاهم عقلاً يميزون به بين الحق والباطل، وغفلوا أن للإنسان حاجة روحية متأصلة فى نفسيته، وهى الاتصال بقيوم الوجود. فإن العالم مهما بلغت فتنته للعقول من الناحية العلمية والصناعية، فإن فيه من النقص وعوامل الفناء والوحشة وعدم الكفاية لإشباع مطامح النفس ومطامع العقل، ما يحول كبار القلوب عنه لتلمس عالم أرفع منه، يجد السمو الروحى الذى يشعر به الإنسان مسرحاً للتمتع فيه بحياة أعلى ووجود أسمى. فليس لهؤلاء المفكرين الممتازين، وعديدهم يزداد كل يوم، إلا أحد موقفين: إما اليأس وتكثير سواد المتشائمين، وإما الرجاء والبحث عن حقيقة الحياة الإنسانية مع الباحثين.

وقد وفق الله الأخيرين إلى نواح البحث فى الشخصية الإنسانية، فاهتدوا إلى حقائق لم يكونوا يحلمون بها، وعوالم لم يكونوا يتخيلون وجودها، أرتهم رأى العين أن ما كانوا يعتبرونه شبهات علمية، ماهى إلا جهالات بالحقائق الكونية.

فإنه فى القرن الثامن عشر، حيث أخذت الشكوك فى الدين بأكظام الباحثين، وتوالت البحوث العلمية لإثبات آلية الطبيعة وتجردها من كل ما يمت

إلى الروح بسبب، أكتشف عالم ألمانى هو الدكتور (مسمر) فى سنة ١٧٧٠ التنويم المغناطيسى، فأثبت بالعمل أن الإنسان ليس بمجرد أداة مادية، ولكنه مستودع لروح تخالف المادة من جميع الوجوه، وتتسلط عليها بعد أن تبطل عمل النواميس الطبيعية عنها، ودلل على وجود عقل باطن للإنسان أرفع من عقله العادى، متصل بعالم روحانى أسمى بما لا يقدر من العالم المادى.

نعم إن هذا الاكتشاف هال العلماء الجامدين، وثاروا عليه جاهدين، وظلوا يجادلونه قرناً كاملاً ولكنه تغلب بحقائقه الثابتة على كل خصومه، وحصل على اعتراف العلم به. فكان هذا الاكتشاف بمثابة كوة فتحها العلم إلى عالم الروح، مكنته من دراسة الشخصية الإنسانية الباطنية دراسة علمية محضة، كانت نتيجتها الإثبات بالدليل المحسوس أن الإنسان الحقيقى ليس محصوراً فى هذا الجسد الحيوانى، ومدى وجوده ليس قاصراً على ما حوله من الكائنات المادية، ولكنه ينطوى على قوة باطنية علوية متصلة اتصالاً مباشراً بالعالم الروحانى على درجات شتى، وأنه يستمد منها كل ما يشعر به فى نفسه من سمو، وكل ما يتوق إليه فى حياته من خلود.

إن هذا الاتصال الروحانى بين النفس البشرية وبين عالم ما وراء الطبيعة، وقد أصبح حقيقة علمية، يقرب إلى عقولنا مهما بلغت من الورع الفلسفى، أن قيّم الوجود يصطفى أرواحاً شديدة الاتصال بذلك العالم، فيوحى إليها ما يريد إبلاغه إلى خلقه مما يجب أن يأخذوا به من التعاليم الأدبية والاجتماعية، لتتألف منهم مجموعة مختارة تحدث من الانقلابات ما تكون الأسرة البشرية فى أشد الحاجة إليه.

وقد حدث ذلك فعلاً فى جميع أقطار العالم، حتى فى العهد الذى كان الناس فيه يجهل بعضهم وجود بعض، تفصلهم بحار مترامية الشواطىء، ومساوف لا يمكن قطعها بما لديهم من الوسائل؛ فوجدت ديانات لا حصر لها أخذ بها أهلها فى حياتهم المادية والأدبية، تختلف فى جزئياتها على قدر

اختلاف عقولهم وبيئاتهم، وتتفق في كلياتها، وهى الاعتقاد بخالق الوجود، وبوجود حياة بعد هذه الحياة يثاب فيها الإنسان أو يعاقب على ما قدم فى حياته الدنيا من خير أو شر.

أليس أكبر مظهر لهذا الأمر الجلل، أن يكون الناس إلى عهدنا هذا يدينون بأديان شتى أتى بكل دين منها رسول خاص، ذو تاريخ معروف وتعاليم محفوظة؟ إن هذا العموم يدل دلالة قاطعة، حتى مع جهل الأمم بعضها لبعض قبل هذا العهد، على أن النبوة كانت حاجة روحية عامة لجميع البشر، وإلا كانت اختلفت الأمم فى طروز تدينها؛ وهذا الاتفاق يوجب على الفلسفة دراسته دراسة جدية، ومحالة وجدان سببه فى النفسية الإنسانية. أما الاكتفاء بالقول بأن هؤلاء الأنبياء كانوا من الذين دفعهم حب التسلط على قلوب الناس إلى أن يدعوا أنهم وسطاء بينهم وبين الخالق، وأنهم يتلقون منه وحياً ليقيهم به على ماينفعهم فى دنياهم، فدعوى ركيكة لا يسيغها عقل ناضج، فإن المتلاعبين بالدين يكونون عادة من سفلة الناس فلا يلبثون أن ينكشف أمرهم وتلفظهم أممهم لفظ النواة.

وليس زعم الكثيرين من علماء الاجتماع اليوم، ومنهم المسيو جوستاف لوبون، أن جميع الأنبياء كانوا مصابين بالجنون، وأنهم بفضل ما كان يتراآى لهم من الخيالات ثبتوا على دعاويهم وأصروا عليها، فتغلبت إرادتهم على إرادات الجماهير، فأشد ركاكة من الشبهة المتقدمة، وقد برهنا على ذلك فى الفصل السابق.

وإذا أضفنا إلى هذا أن العالم العلمى فى شغل متواصل اليوم من دراسة الشخصية الإنسانية واتصالاتها النفسية بالعالم الروحانى، قرب للعقول فهم النبوة، وعُقِل اتصالها من أشرف نواحيها الباطنية بالكائنات العلوية، التى يتنزل عليها من علم الله ما تستطيع أن توصله لتلك الأرواح النبوية.

هذا تحليل علمى له أصل راسخ فى المعلومات العصرية التى أصبح لا يتمارى فيها إلا من يجهل وجودها، ولم يعن بالإلمام بها.

وقد اتفق أن بين يدى الساعة كتاب (إرادة الاعتقاد) للفيلسوف المشهور (وليم جيمس) مدرس البسيكولوجيا فى جامعة (هارفارد) بأمريكا، ترجمه إلى العربية حضرة الأستاذ الألمعى الدكتور محمود حب الله مدرس الفلسفة وعلم النفس بكلية أصول الدين، وتفضل بإهداء نسخة منه إلىَّ، فرأيت أنه يحسن بى أن استشهد به على صحة ما أقوله من أن البحوث الروحانية قد بلغت شأواً بعيداً من السلطان على عقول العلماء فى هذا العصر، فقد جاء فيه قول الأستاذ وليم جيمس:

«إنى أعتقد أن كل من يفطن إلى مثل هذه المسائل التى يعتز بها الروحيون؛ ويفكرون فيها على نحو علمى، فإنه يكون فى خير مركز يسمح له بخدمة الفلسفة، وإنه لفأل حسن أن نعلم أن كثيراً من العلماء فى مختلف الأقطار يتجهون الآن هذه الوجهة».

ثم أخذ يدحض قول بعضهم إن الجماعات التى تعنى بهده المسائل من أهل السذاجة فقال: «نظرة واحدة لأعضائها تكفى لدحض هذا الرأى. فالرئيس هو الأستاذ (سيجوك) المعروف بسبب أعماله الأخرى بأنه أكبر ناقد عنيف، وأنه أكثر العقول فى إنجلتره تشككاً. وأحد وكلائها هو النابه البصير أرثر بلفور، ونائبها الثانى هو ذلك البصير أيضا الأستاذ لنجلى. ومن أعضائها العاملين رجال مثل الأستاذ لودج العالم الإنجليزى فى الفلسفة الطبيعية، والأستاذ ريشيه العالم الفرنسى فى علم وظائف الأعضاء. ونجد بين أعضائها كثيراً من العلماء الذين حازوا شهرة عالمية بسبب مقدرتهم العلمية».

وبعد فهذا ختام السيرة المحمدية، فأرجو أن أكون وفيت فيها ببعض ما ينتظر منى، وأحمد الله على توفيقه إياى لبلوغ هذه الغاية، مستمداً منه القوة على المزيد، إنه ولى الصالحين.

القسم الثانى

الروح الإسلامية
ومدى تأثيرها فى النفس البشرية

الروح الإسلامية ومدي تأثيرها[1]
في النفس البشرية

- ١ -

لم تصدق نظرية الفيلسوف الفرنسى الكبير جان جاك روسو فى العقد الاجتماعى على أمة غير الأمة الإسلامية[2] فهى الأمة الوحيدة التى قامت على مبدأ التعاقد بين آحادها على احترام أصول إلهية مقررة، والعمل بدستور سماوى مدوّن. فكانت هذه الأمة لهذه العلة بنجوة عن كل ما تلتاث به الجماعات فى أول تكونها: من رعونات النفوس، وجمحات الغرائز، وسطوات الأهواء التى تصحب دائماً دور النشوء للجماعات البشرية، فنشأت فاضلة، وشبت فاضلة، واكتهلت فاضلة، ولم تزل روحها فتية فاضلة، على الرغم مما لحق بالجماعات الممثلة لها من الضعف بسبب انحرافهم عن صراطها لعللٍ عارضة ليس هذا محل بيانها.

نعم إن نظرية روسو لم تصدق إلا على الجماعة الإسلامية، وبيان ذلك أن الجماعات العربية على عهد البعثة المحمدية كانت مستقرة على الحالة القبيلية

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد السابع سنة ١٣٥٥ هـ، ص ١٤

(٢) كان من رأى الفيلسوف جان جاك روسو أن الجماعات البشرية لم تتكون إلا عقب تفاهم حدث بين آحادها على التآلف بينهم والحياة حياة مشتركة، تحت قيادة حكومة معترف بها من الكافة.

وقد راجت هذه النظرية فى القرن الثامن عشر، ولكنها لم تلبث أن سقطت لما ثبت من أن الجماعات تتألف محفوزة بعوامل قاهرة من البيئة ضرورات الحياة، ويكون تآلفها فى أوله ساذجاً، ثم يترقى بترقى مدارك آحادها، واقتضاء سلامتها العامة لزيادة الترابط، واكتمال التعاون بين جميع عناصرها.

القائمة لديهم منذ أول نشوئهم فى جزيرة العرب؛ وكانت هذه القبائل تتعادى وتتناحر، ثم تتصالح وتتصافى على نحو ما كانت عليه الأمم المتخالفة أجناساً ولغات وديانات.

وقد شوهد أن عدة قبائل كانت تعقد بينها خلفاً ضد مجموعة أخرى من القبائل،ولكن مع حفظ كل منها لاستقلاله الذاتى، وتقاليده الموروثة، كما كان يحصل بين الأمم المختلفة لدفع عدو مشترك، أو للإغارة على جماعات مجاورة، يتطلب التغلبُ عليها قوى متضافرة. ثم تنقلب الحال فيصبح أعضاء الحلف الواحد، أعضاءً فى حلف آخر ضد حلفائهم الأقدمين، كما كان يحصل ولا يزال يحصل بين الأمم المتباينة الأصول والمصالح.

وكانت وحدة البيئة لا تأثير لها فى إيجاد الوحدة الاجتماعية بينهم. ومن يطلع على تاريخ حروب العرب يجد من ذلك عشرات من الأمثلة، من أشهرها ما كان بين عبس وذبيان وبين الأوس والخزرج، وكانت الحروب تدوم بينهم عشرات من السنين. وكانت الحالة القبيلية متأصلة فيهم إلى حد أن خصوبة اليمن وخفض العيش فيها لم يلطف من هذه الحالة فيهم، فإنه لما تهدم سد مأرب باليمن واجتاح أرضها، واضطر كثير من أهلها أن يهاجروا منها، فعلوا ذلك وهم قبائل متميزة كالأزد وقضاعة وجرهم والأوس والخزوج وغسان وتنوخ إلخ.

ومن أقوى الأدلة على أن حالتهم الاجتماعية لم تكن ماسة إلى الوحدة، أنه لم يظهر فيهم فى كل أدوار تاريخهم الطويل داع يهيب بهم إليها، كما يكون ذلك بين يدى كل انقلاب يطرأ على بِنىَ الأمم.

دام الحال على هذا السمت حتى بعث الله محمدا ﷺ بالدين الحق يدعو الأمم عامة لا العرب خاصة للدخول فيه، فكان هو ومن أسرع للإيمان بما جاء به أول نواة لمجتمع يتألف على غير مثال سابق، مجتمع يقوم على الأصول الإنسانية الخالدة، والمبادئ الخلقية القيمة، والسمو الروحانى المطلق، غير معتد

بالجنسيات والقوميات، ولا باختلاف البيئات واللغات، راميًا إلى توحيد الإنسانية جمعاء فى دائرة الحق المحض، والكمال البحت، والمدنية الفاضلة.

هذا أول حادث من نوعه فى تاريخ البشر، فلم يطف بخيال فيلسوف أو مصلح فى أى عهد من العهود أن يدعو العالم كافة للدخول فى وحدة عامة، وبخاصة إن لم يكن قومه قد وصلوا من سلم الاجتماع إلى درجة أمة، حتى يعقل أن يحدّث واحد من آحادها نفسه أن يجمع البشرية جملة، وكان بحسبه أن يوحد الأمة التى هو فرد منها، فيخلد اسمه فى سجل أكبر المصلحين فى العالم كله.

فهذا النزوع من محمد ﷺ إلى الوحدة الإنسانية العامة، وهو فى أعرق بيئة فى الفرقة، دليل قاطع على أنه كان يردد صوت الوحى السماوى، ويستمد من معدن الحكمة الإلهية.

هذه الدعوة مجردةً كان مما لا يستحيل تعليلها لولا أنها اصطحبت بتعاليم ذات صبغة عالمية لم تَدُر بخَلد أقطاب الفلاسفة والمصلحين، ولم يتسنّ لأشهر العباقرة أن يتخيلوها تخيّلاً، بَلْهَ أن يأتوا بها بالبيان التفصيلى الذى جاءت على لسان خاتم النبيين ﷺ، وقد سردناها تباعاً فى بحث مهمة الدين الإسلامى فى هذه المجلة.

إن الباحث فى جوهر الإسلام يشعر أنه خيال خِضَمّ مُثْعَنْجَر متلاطم الأمواج إن وقف على ساحله تهيّبه، وإن خوّض فيه بعلم وحكمة لم يصل إلى ساحله، فيحار فى أى ضروب المعارف يلتقط، وإن جمع طائفة منها حار فى ترتيبها، لا لأنها تستعصى على الترتيب، ولكن لبعد أغراضها، ولطف مسالكها. فلذلك كان لابد للمعنىٍّ بها أن يقسم الكلام فيها إلى بحوث متعددة بقدر ما يرى فيها من الوجوه الممكنة.

إن مانشرناه فى هذه المجلة تحت عنوان (مهمة الدين الإسلامى فى العالم) وإن كان قد استوعب كثيراً من أصول الإسلام، إلا أنه لا يمكن أن يصور

جميع وجوه تلك التعاليم، ويستوعب كل مواطن تأثيرها، فى العقول والقلوب، ويكشف عن مكنون أسرارها، فلا مناص لنا من اللجأ إلى ماقررناه من وجوب إفراد بحث خاص لكل وجه من وجوه تلك التعاليم القيمة. وها نحن نشرع فى ذلك جاعلين هدفنا فى هذه المرة دراسة عناصر الروح الإسلامية ومدى تأثيرها فى النفس البشرية، فى أدوار الانقلابات الاجتماعية، فنقول:

نحن من قيام المجتمع الإسلامى وظهوره على سائر المجتمعات التى كانت معاصرة له حيال حادث جلل لم يجر على السنن المعروفة للعلم، لا فى أدوار وجوده، ولا فى عناصر كيانه، فهو بالأمور الخارقة للعادات أشبه. ونحن نبسط المسألة أولاً ثم نشرع فى معالجة تفهّمها وحلّها، توسّلاً إلى دراسة مانحن بصدده من عناصر الروح الإسلامية:

كانت الحالة الاجتماعية فى جزيرة العرب فى العهد الذى بُعث ﷺ فيه مستقرة على ما كانت عليه منذ قرون كثيرة. فأطرافها من الشمال والغرب والجنوب كانت مملوكة للرومانيين والفرس، والجزء الباقى منها، وهو المحصور بين هذه الحدود الثلاثة والبحر الأحمر، كان موزعاً بين مئات من القبائل، على حالة من الحياة البدوية مَرنوا عليها من لدن نشوئهم فيها. ولم يكن فى مجموعة من هذه المجموعات البشرية قلق ينم عن شعور بوجوب استبدال نظام اجتماعى جديد بهذا النظام الساذج العتيق. يدل على ذلك دلالة قاطعة عدم قيام دعوة صريحة إلى صلاح دينى أو اجتماعى من أى ضرب كان، ولا إلى بث مبدأ سياسى يقصد به إلغاء نير السيادة الأجنبية عن الحدود الثلاثة لجزيرة العرب. فبينا كان السكون تامًّا فى ذلك الركن من العالم إذا بصيحة تنبعث من صميمه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(١).

---

(١) الأعراف: ١٥٨

فلم يأبه بهذه النصيحة خارج البلاد العربية أحد لعلمهم أن هذه البقعة من الأرض ليست مثار خطر على أية دولة من دول العالم، وبخاصة على الدولتين اللتين كانتا قد توزعتا ممالكه كلها وانفردتا بالسلطان فيه. وزادهما اطمئناناً أن هذه الصيحة بعيدة عن البقاع التى دانت لحكمهما من جزيرة العرب.

ومن الذى كان يعقل أن تتخطى هذه الصيحة مئات القبائل التى تحول بين مكة وتلك البقاع وتنتشر منها إليهما وتصبح مثار خطر على كيانهما؟

قابل الناس هذه الصيحة بالإعراض، وقابل الملوك الكتب التى وصلتهم من صاحبها بالإهمال؛ ومنهم من رأى فى دعوته للإيمان غضا من كرامته فمزق الكتاب كل ممزق وذراه فى الهواء.

فما مضت بعد ذلك سنون تعد على الأصابع حتى شهد الناس أمرًا لم يكن يخطر ببال، ولا يطوف بخيال، رأو العرب ينصلتون من بلادهم شمالا وشرقا، وهم على حالة من الوحدة والترابط ونكران الذات لم تؤثر عن غيرهم، منتدبين لإِحداث أكبر الانقلابات العالمية التى لم تسجل فى تاريخ البشرية من لدن وجودها إلى ذلك العهد، فانتزعوا من الرومانيين سورية ومصر وجزر البحر الأبيض المتوسط، وضربوا الجزية على عاصمة عواصمهم القسطنطينية، وقضوا على دولة الفرس، وأوغلوا شرقاً حتى وصلوا إلى أسوار الصين، ولم يدعوها حتى فرضوا عليها إتاوة سنوية، ونزلوا إلى شبه جزيرة ايبريا فى غرب أوروبا فامتلكوا الأندلس بعد أن دان لهم شمال القارة الأفريقية، وما عادوا من جولتهم هذه حتى كان لهم ملك لا تغرب عنه الشمس، ولم ينبغِ لأُمَّةٍ كانت قبلهم أو جاءت بعدهم إلى يومنا هذا.

كل هذا كان فى نحو خمسين سنة، وهى طفرة لم تشاهد فى أية حركة اجتماعية ولا لأشهر الأمم الفاتحة للأرض، وهى الأمة الرومانية، فإنها لم تبلغ غاية توسعها إلا فى ثمانمائة سنة، ولم تصل إلى ما وصل إليه المسلمون فى تلك المدة.

والعجب العاجب فى هذا الأمر أن المسلمين استطاعوا بفضل العدل الذى عاملوا به مقهوريهم، والعطف الذى أظهروه نحوهم، والنظام الذى أداروا به ممتلكاتهم، أن يحفظوا وحدة هذه الامبراطورية التى لم تشهد الأرض مثلها، فلم تشق عصا الطاعة عليهم، ولم تحاول التفلت من سلطانهم، فكانت الطريقة المثلى التى عاملوا بها الأمم التى خضعت لهم أحفظ لها من جنودهم ومعداتهم.

ومما يجب لفت الأنظار إليه أن هذه الجماعة الإسلامية لم يبطرها ما نالته من تبسط فى الأرض، فأخذت تستغل هذه الأقطار لتعيش عالة عليها فى ترف وخفض وبذخ، كما فعلت جميع الأمم الفاتحة قبلهم ولكنها شرعت تنظم وجودها، وتضع أحكم القوانين لإراحة مقهوريها، وأخذ آحادها يبحثون عن حقائق العلوم من أغزر مناهلها، وعن أسرار الصناعات والفنون من أخفى مظانها، فلم يمض عليهم قرنان حتى جمعوا بين أطرافها، ومزجوا بين عناصرها، فأصبحوا حفظة كنوزها، وكَشَفَة رموزها، وصاروا للعالم كله أئمة فيها، فنشروها حيث وطئت أقدامهم، فكانت بسببهم نهضة عالمية تولدت منها العلوم والفنون التى ابتنى عليها صرح المدنية الحاضرة.

هذه كلها حقائق معترف بها لا يختلف فيها مؤرخان فى الأرض، حتى من الذين يتوركون على الإسلام ويحاولون الغض منه. فنحن والحالة هذه إزاء حادث عالمى خطير قامت به أمة تألفت على غير السنن المعروفة فى قيام الجماعات البشرية. وكما كان لكل مجتمع روح تقوّمه وتهيمن عليه، وتمده بما يحتاج إليه من العوامل والبواعث، وتهيئه للدخول فى الأطوار التى يقتضيها وجوده ككائن حىٍّ نام، كان لابد للباحث فى حقيقة الإسلام من أن يحلل الروح الإسلامية التى ألفت عناصر هذا المجتمع وتولته حتى قام بما قدر له أن يقوم به من الحوادث العالمية.

هذا هو موضوع بحثنا الجديد فى هذه المجلة سنقوم، إن شاء الله، بنشره فى مقالات متتابعة، كما نشرنا البحث الذى تقدمه، مستمدين من الله التوفيق، وهو يتولى المؤمنين.

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها(1) فى النفس البشرية

- ٢ -

مقابل هذه الروح من الشخصية الإنسانية

نحن بإطلاقنا كلمة روح على هذه المباحث إنما نسميها بما سمى به الحق سبحانه وتعالى تعاليمه ووصاياه التى أوحاها إلى رسوله ﷺ فى قوله جل شانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾(2)

قال المفسرون: وإنما سمى الله ما أوحاه إلى رسوله روحا لأن به حياة القلوب كما بالروح الإنسانية حياة الأجساد.

ولما كان الخالق الحكيم لا يكلف عباده إلا بما يستطيعون القيام عليه، وما كمن فى جبلتهم من القوى الحافزة إليه، فقد سمى الدين الجامع لجميع خصال الخير بدين الفطرة إيذانا بأنه موافق لها كل الموافقة.

---

(1) مجلة الأزهر المجلد السابع سنة ١٣٥٥ هـ ص ١١٣

(2) الشورى: ٥٢.

فالروح الإسلامية تعتمد على الفطرة الإنسانية، وتستمد منها سلطانها على العقول، وحجتها على الخلود. ولما كان هذا الموضوع يمسّ أساس الدين وعليه يتوقف استيلاؤه على النفوس، وبه تبلغ أدلة هذا الدين أقصى ما قدر لها من قوة، وجبت علينا زيادة بيان له فنقول:

خلق الله الإنسان مطبوعاً على نحائز تحفزه إلى الخير، وغرائز تدفعه من السمو إلى مدى لا يبلغ إليه العقل، ولا يصل إلى غايته خيال، ناهيك بكائن علّمه مبدعه الأسماء كلها وأسجد له ملائكته. فهذه إشارة إلى إنه بمكان من قبول الترقى بحيث يصل إلى مقاوم روحانية يفضل بها الكائنات العلوية. وهذا التقدير الإسلامى للإنسان قد انتهى إليه مذهب العلم المادى فى القرن العشرين. فكتب العلامة الكبير (شارل ريشيه)[1] مدرس الفيزيولوجيا فى كلية الطب الباريزية وأحد أعضاء المجمع العلمى الفرنسى، فى مقدمة كتبها لكتاب (الظواهر النفسية)[2] للدكتور ماكسويل، النائب العام فى حكومة الجمهورية الفرنسية، لطبعته الخامسة الصادرة فى سنة (١٩١٤) قال:

« إذا سألنا رجلاً متوحشاً، بل لو سألنا فلاحاً مصرياً أو قرويا روسيا عما يعلمه عن قوى الطبيعة، وجدناه لا يدرى منها عشر ما تسرده منها الكتب الأولية لهذا العلم فى سنة ١٩٠٣ (هى السنة التى كتب فيها هذه المقدمة). ويظهر لى أن علماء هذا العصر سيكونون حيال علماء القرون المقبلة فى مثل حال قروى اليوم إزاء أساتذة جامعة فرنسا» انتهى.

وقد دفع هذا التقدير الإسلامى للإنسان إلى اعتقاد المسلمين بأنه بما أودع صميمه من روح الله يعتبر به عالمًا وحده، بل ذهب بعضهم إلى القطع بأنه العالم الأكبر فقال شاعر:

أتزعم أنك شيء صغيـ ـر وفيك انطوى العالم الأكبر

وإذا كان اعتقاد المسلمين هو هذا، فأى كمال يرون الإنسان دونه، وأى مرتقى من السمو يظنون أنه لا يبلغه ويجوزه إلى حيث لا تصل الظنون والأوهام؟

---

(1) Charles Richet.

(2) Les phenomenes Psychiques, Dr Maxwell.

وما دام هذا مسلّمًا به فأى تكليف مهما كان شاقاً عنيفاً لا يستسهله الإنسان ليبلغ هذا الملك الذى لايبلى، وأى رياضة نفسية لا يتحملها ليصل إلى هذا المستوى الذى دونه كل مستوى؟

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ (أي التكاليف المناسبة لكرامة الإنسانية) عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[1]

أى كان ظلوماً لعدم القيام بأدائها جهلاً منه بثمراتها.

والنظر المجرد فى كل ما أدركه عقل الإنسان من أسرار العلوم، وما سخره من قوى الكون، وما تم على يديه من الصنائع والاختراعات، يدل من طريق محسوس على أن الفطرة الإنسانية ثرية فى القوى المعنوية، ثروة لا يمكن تقديرها بهذا العقل العادى فى أى دور من أدوار رُقيه، لأن ما حكم هذا العقل عليه بالاستحالة فى عصر من العصور، وصل إليه هذا العقل نفسه بعد عهد قريب أو بعيد. أما رأيت أن شيخ الفلاسفة الحسيين (أجوست كومت) أراد أن يضع حدوداً للممكن وغير الممكن، وعدّ من غير الممكن معرفة تركيب مادة الكواكب، فلم يمض على كتابه الذى قرر فيه هذا الرأى بضع سنين حتى اكتشف أحد المخترعين آلة السبكترسكوب المؤسسة على تحليل ألوان الأشعة الشمسية، فعرفت مادة الكواكب بطريقة محسوسة لا يمكن النزاع فيها؟

وإذا لم يكن الإنسان مفطوراً على بلوغ أقصى ما هو أهل له دفعة واحدة، فإنه مطبوع على أصول أولية يستطيع أن يقوم عليها، دون هاد يهديه إليها، وهى ما سمى بالمعارف الضرورية. فيستطيع أن يميز بها بين الحسن والقبيح، وبين النافع والضار، وبين الخير والشر، وغرز فيه من البواعث على التكمل ما يحفزه إلى العروج إلى أرفع مكانات الارتقاء.

ولما كان الغرض الأول من الدين الحق هو إيصال الإنسان إلى كماله، من طريق تنبيه غرائز التكمل الكامنة فى طبيعته، وإيقاظ عواطف السمو الثاوية فى

---

(١) الأحزاب: ٧٢.

روحه، فقد اتفق الدين الحق والفطرة الإنسانية كل الاتفاق، فإذا كان بينهما فارق فهو فى أن الفطرة قوى معنوية مبثوثة فى كيان الإنسان، والدين ترجمة طبق الأصل لهذه القوى. وقد ورد التنزيل مؤيداً هذه الحقيقة الفلسفية، فقال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1]

فاذا قلنا إن الإسلام دين عالمى عام يسع الخلق كلهم، وهو خالد خلود الحقائق الكلية، ساغ لنا ذلك، بل عدّ من باب تقرير الواقع، لأن الفطرة الإنسانية عالمية عامة، وغرائزها وميولها مستقرة خالدة، وكل ما وافق المثل العليا التى تتجه هذه الفطرة إلى تحقيقها فهو دينها الحق الذى لا تجد عنه معْدلاً. ولكن الأمر يحتاج إلى أدوار كثيرة من التطور تدخل فيها النفوس البشرية لتتهذب وتتخلص من رعوناتها الحيوانية، وتقوم على صراطها الذى نهجه الخالق لها، وتتعرف الأعلام التى نصبها فى الكون لتسترشد بها، وإلى هذا يشير الحق سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[2]

وكل دين لا يعتمد على الفطرة التى فطر الله الناس عليها فمحكوم عليه بالزوال متى وصلت عقول أهله إلى الرشد، ومتى ضعف فيهم تأثير التقليد الأعمى لآبائهم. وهذه النتيجة تعتبر طبيعية من كل وجه، لأن كل ما لاينطبق على العقل يضعف أثره على النفس على نسبة الاستنارة التى يصل إليها هذا العقل، وكل ما كان لا معتمد له غير داعية التقليد الأعمى يضمحل باضمحلال الداعية التى يقوم عليها بتقدم العلم والفلسفة، والعالم من هذه الناحية فى تطور مستمر، وإن شوهد أن سيره وئيد، فذلك لأن الأديان البشرية قد أصبحت عنصراً من عناصر القوميات، فهى باقية بفضل هذا الامتزاج، ولكن تطور أصول الاجتماع سينتهى بإخراج هذا العنصر من كيان القوميات، كما أخرجت

(١) الروم من: ٣٠
(٢) فصلت: ٥٣

عناصر أخرى أصبحت فيها عللاً للضعف، ولعل ما طرأ من هذا القبيل فى علاقات الأمم بالأديان من التراخى، يشير إلى أن سنة التمحيص تعمل على عزل كل ما هو باطل من كيان الأمم، ليتم التلاؤم بين ما وصلت إليه عقولها، وما يجب أن تكون عليه مقوماتها.

وكل هذه التفاعلات الأدبية والاجتماعية بين الأمم تعتبر فى الواقع تمشياً نحو مقتضيات الفطرة الإنسانية السليمة، وكل ما يعمل لمصلحة الفطرة هو فى الواقع، بناء على ما علمت، عمل لمصلحة الإسلام، وجهد مبذول لتعميم دولته فى الأرض، فالمستقبل للإسلام وإن جهل ذلك الجاهلون، أو تجاهله المتعصبون.

فانظر على أى أساس تقوم الروح الإسلامية من الطبيعة الإنسانية، وعلى أى الغرائز الفطرية تعتمد لتحقق مقاصدها العالمية؟ إن ديناً يقوم على مثل هذا الأساس المتين لا يعقل أن يبلغ منه الخصوم، فكل سهم يوجهه إليه منازع يرتد إليه فيصميه، وكل كيد يدبره له كائد يعود عليه فيرديه: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[1]

(١) التوبه: ٣٢.

الروح الإسلامية ومدي تأثيرها[1]
في النفس البشرية

- ٣ -

المقومات الروحية للذات الإنسانية

الإنسان جسد وروح، فهو بهذا الجسد المادى يندرج فى جملة الكائنات الأرضية وتسرى عليه نواميسها، وهو بروحه يتصل بالعالم الروحانى ويتناسب وكائناته العلوية، فى عالم أرفع من هذا العالم. وكما هو فى حاجة إلى مدد يستبقى به وجوده المادى من طريق التغذى والتنفس، كذلك هو فى حاجة إلى مدد نورانى يستديم به صلته بالعالم الروحانى. وكما أن الإنسان ينحل جثمانه ويزول بحرمانه من المدد المادى، كذلك هو يخرج عن إنسانيته ويتدلى إلى عالم الحيوانية إن حرم من المدد المناسب لروحه.

والإنسان مدفوع بغرائز طبيعية فيه إلى التكمل فى هاتين الناحيتين، فمحاولاته لحفظ ذاته دفعته للاجتماع على أمثاله، والتكافلُ الأدبى والمادى الناتج من هذا الاجتماع كشف له من مساتير الكون ومكنونات العلم ما مكنه من تسخير قوى طبيعية كان قد ألّهها فى أزمان جاهليته وعبدها. وهذا الترقى العلمى فتح له باب الإبداع الصناعى، فبلغ منه إلى مستوى ما كان يتخيل أن يبلغه، وهو يحاول أن يرتقى فيه إلى ما هو أرفع شأناً منه.

---

(١) مجلة الأزهر - المجلد السابع ١٣٥٥ هـ، ص ١٦٥

وأما محاولاته لاستبقاء الصلة بينه وبين العالم الروحانى فلم يقصر فيها الإنسان فى عهد من عهوده، فقد أثبت علم الاجتماع أنه كان يدين بدين حتى فى أقدم أدواره، بحيث لا يمكن أن تصادف جماعة من جماعاته الأولية محرومة من صلة روحانية.

نعم إن هذه الصلة كثيراً ما صادفت عقبات فى طريقها، تارة من طغيان سذاجة الجهالة عليها، وطورا من تدخل الوسطاء فيها، ولكن أشد ما أصيبت به كان من ناحية سطوة العلم المادى عليها، بإثارة الشبهات ضدها، رامياً بذلك إلى تجريد العقلية الإنسانية من آثار التعاليم الدينية، زعماً منه أنها بقية من بقايا الجاهلية، وأن العلم يقوم مقامها من ناحيته الفلسفية.

ولكن المدبر الحكيم تدارك الروح الإنسانية بأن كشف لها من عالم الروح، بطريق البحث العلمى، ما كان العلم يظنه من الخيالات الوهمية، فعاد للدين الخالص سلطانه الأول، ولكن مؤيداً فى هذه الدفعة بالعلم نفسه، فكان انتصاره آية من آيات الله فى خلقه، ومصداقاً لقوله: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[1].

ويحسن بنا فى هذا المقام أن نستشهد الفلسفة الأوروبية نفسها بعد حدوث هذا التطور العظيم فيها، فإليك:

قال الفيلسوف الفرنسى الكبير (إرنست رينان) فى كتابه (تاريخ الأديان)[2]:

«من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبه، وكل شىء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها، ومن الممكن أن يبطل استعمال القوة العقلية والعلم والفن، ولكن يستحيل أن ينمحى التدين أو يتلاشى، فسيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يرمى إلى حصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الترابية».

---

(١) المجادلة : ٢١

(2) Ernest Renan, Histoire des Religions.

وقال الفيلسوف الفرنسى النابه (أجوست سباتييه) فى كتابه (فلسفة الدين)[1]:

«لماذا أنا متدين»

«إنى لم أحرك شفتى بهذا السؤال مرة إلا وأرانى مسوقاً للإجابة عنه بهذا الجواب وهو: أنا متدين لأنى لا أستطيع أن أكون خلاف ذلك، لأن التدين لازم معنوى من لوازم ذاتى.

«يقولون ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج».

« فأقول لهم قد اعترضت على نفسى كثيراً بهذا الاعتراض عينه، ولكنى وجدته يعقد المسألة ولا يحلها. وأن ضرورة التدين أشاهدها بأكثر قوة فى الحياة الاجتماعية البشرية، فهى ليست أقل تشبثاً منى بأهداب الدين».

إلى أن قال:

«إذن فالدين باق وغير قابل للزوال، وهو فضلاً عن عدم نضوب ينبوعه بتمادى الزمن، نرى ذلك الينبوع يتزايد اتساعاً وعمقاً تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفى والتجارب الحيوية المؤلمة».

هذا لسان الفسلفة الأوروبية العصرية، ولابد لنا من التنبيه هنا على أنها إذا ذكرت الدين فإنما تقصد به الدين بمعناه المطلق، لا شكلاً متحجراً من أشكاله التى لا تدخل تحت حصر.

وقد تبين لنا مما تسجله الفلسفة على نفسها أن الدين باق لا تعدو عليه العوادى، لأنه لازم معنوى من لوازم الفطرة الإنسانية (فطرة الله التى فطر الناس عليها)، ولأن ينبوعه من غرائز النفس، لا يفتأ يزداد اتساعاً وعمقاً على مدى الأيام تحت تأثير الفكر الفلسفى والتجارب الحيوية.

(1) Auguste Sabatier, Philosophie de le la religion

ولكن الذى يراه الناقدون بأعينهم، أن الدين يلاقى من الناس عنتاً اليوم، فهم يتهافتون على الشهوات، ويطرحون وصاياه وتعاليمه ظهرياً، بل يتجاهرون بمنابذته، ومناهضة حفظته إلى أبعد الحدود الممكنة.

نعم: لا نكران لهذه الظواهر، ولكنها لا تنافى الحكم الفلسفى بأن الدين مطلوب الفطرة الإنسانية، وأنه يزداد سلطاناً وصولةً عليها يوماً بعد يوم. فلو سألت مستهتراً فى إباحته: هل تكره الدين؟ لأجابك بقوله: معاذ الله، ولكن أين هو؟ أنا أتوقعه جمالاً معنوياً باهراً، وروحاً علوياً فاتناً، يخلعنى بقوته القاهرة من خسة الشئون الأرضية خلعاً، وينقلنى ولو برهة إلى عالم الكمال الأقدس، لأشعر بلذة السمو على هذه المادة، والخلاص من نيرها. وإن صحبته عقائد فأريد أن تكون حقائق أولية مطلقة، لا تتناقض وما أحصله من ثمرات التفكير الحر، والنظر المستقل، وما يفتح على به من أسرار العلم، وما أكتشفه من مساتير الوجود، لأستطيع أن أمضى تحت نورها قدُماً إلى تحقيق أسمى أغراض الحياة الإنسانية، والوصول إلى أبعد غايات المدنية.

هذا ما تسمعه من كل مفكر فى هذا العصر، فإن ألفيته شاكاً، فليس هو بشاك فى سمو الدين الذى يتطلبه، وفى ضرورته له، ولكنه شاك فى وجوده، بل وفى إمكان وجوده على الأرض.

لسنا بسبيل الإفاضة فى هذه المواطن، ولا فى التوفيق بين مايبدو متناقضاً فى سيرة الإنسان المعاصر، وإنما نحن بسبيل التدليل على أن الذات الإنسانية فى حاجة ماسة إلى مقومات روحانية، تجعل الصلة بينها وبين عالم الروح مستمرة، باعتبار أن هذه الصلة من ضرورياتها الأولية، وإن أعتى العقول فى هذا العصر لتعترف بسلطان هذه الحاجة عليها، فهل الإسلام وهو خاتمة الوحى الإلهى هو المثل الأعلى الذى تتطلبه النفوس البشرية، وحاصل على المقومات الروحانية؟

قد تم لنا التدليل على كل ما مر من هذه المسائل إلا المسألة الأخيرة الخاصة بالإسلام، وإنها لموضوع هذه المقالة.

ألا يكون أوقع فى النفس، وأثلج للصدر، وأبعد عن الظنن، أن نستشهد بعالم أجنبى فى صحة نظرنا إلى الإسلام من هذه الناحية؟

نعم، فإليك:

كتب الأستاذ الجليل سِنِكْس فى المجلة الروحية التى تصدر بباريس(١) مقالات متتابعة عن الأديان، نقد كلاً منها نقداً صريحاً، فلما انتهى إلى الإسلام كتب عنه مقالاً قيما ختمه بقوله:

«الإسلام الخالص من كل التعاليم الخاصة بالشعوب الطفلة، ومن كل الشروح الضالة لأقوال النبى، يظهر لنا أنه أعلى ما يمكن أن يعرف من الصلات التى يجب أن توجد بين الإنسان وخالقه، وأكثرها انطباقاً على الطبيعة والمنطق».

هذه أصح وأعدل شهادة قالها عالم عارف بالنفسية الإنسانية، فإن الإسلام الخالص يمثل أرفع صلة يمكن أن توجد بين الإنسان وقيوم السموات والأرض، بعد سحق جميع القواطع بينها وبينه، بحيث يكون معها متعرضاً لإشراقاته دون حجاب من عقيدة تقليدية، أو حالة نفسية وراثية. فقال الله تعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (أى مائلاً عن العقائد الباطلة)، فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢).

وقد شرح النبى ﷺ هذه الفطرة فقال: «كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه». أى إن المراد بإقامة دين الفطرة أن يكون

---

(١) Se`nex, IsRevue Spirite

(٢) الروم: ٣٠.

الإنسان على الحالة التى ولدته أمه عليها، خالصاً من كل صورة ذهنية، ومن كل شائبة نفسية.

فالإسلام تحت ضوء هذه النصوص الصريحة يقتضيك أن تبرأ إلى الله قبل الدخول فيه من علمك وحولك وموروثاتك، ومما علمت، وما تخيلت، وما أملت، مسلماً نفسك إليه، مجرداً روحك له، تاركاً العلوم ومعاضلها، والفلسفة ومسائلها، والعادات وتناقضها، والأديان وتخالفها، والأمم وتناحرها، والأهواء ومواطنها، والوجود المادى وما فيه، ثم تتوجه بقلب خالص من الشوائب، وضمير خال من الأدناس، ونفس صافية من الرعونات، إلى قيوم السموات والأرض، فاراً إليه من الأغيار، لاجئاً إليه من دعوى الأنانية والاستقلال، معتصماً به من التلونات البشرية، راغباً إليه أن يهديك لمراشده فى هذه الحياة وما بعد هذه الحياة.

هذا ما يقتضيه منك الإسلام أول ما تدخل فيه، فلو نظرت فيه نظراً علمياً لرأيت أنه المطلب الذى رمت إليه جهود جميع الفلاسفة والمصلحين، وسائر فرق الصوفية الأولين والمحدثين، وعجزت مجتمعة عن تدعيمه هذا التدعيم العلمى العملى على الفطرة الإنسانية، وعن إقامته أصلاً أوليًا للدين، وتعميمه بين الناس أجمعين.

فلو اعتبرت كل ما كان يتواصى به العباقرة والعلماء من أصول التمحيص، وقواعد التحليل، لإقامة الدستور العلمى على قرار ثابت ركين، وما كان يتناقله المتصوفون من أسرار تصفية النفس من الأغيار، وتخلية القلب من جميع الآثار، للوصول إلى الحق من وراء كل ستار، لو اعتبرت كل هذا ونظرت إلى معنى الإسلام الذى قدمناه لم تعد تحار فى تعليل حدوث ذلك الأثر المدهش بواسطته من انتقال أمة برمتها من دور الجاهلية الجهلاء، إلى دور الحياة الصالحية التى بلغت بالسير عليها إلى الزعامة العالمية فى أقل من قرن من الزمان.

نعم: لم تعد العقول تحار فى تعليل الأثر العالمى الضخم للإسلام بعد ماتبين لها أن أساس الإسلام هو الإملاس من كل ماران على صفحة القلب من الأضاليل والأوهام، والوراثات والتقاليد، وتعريضه خالصًا نقياً للحق يطبع فيه

من صور الخلال الكريمة والأصول القويمة، والمبادىء السليمة، ما يجعله إنساناً جديداً متحلياً بكل القوى المعنوية التى ترفعه إلى المرتبة التى يستحقها على قدر استعداده جسداً وروحاً.

وهل نال الأفذاذ من كرام هذا النوع ما وصلوا إليه من المراتب الروحية العالية، إلا بواسطة ما هُدُوا إليه من هذه التخلية، فلما جاء الإسلام جعل هذه التخلية التى أفنى العباقرة قواهم فى الوصول إليها أساساً أوليا للدخول فيه. فإن تعجب من انقلاب وحوش الجاهلية الضارية إلى أتقياء زَهَدة، ومصلحين بررة، ومن تطور خُشُبها المسنّدة إلى هيم منهومين[1] يتصيدون كل علم، ويتلمسون كل حكمة، ويقتبسون كل فضيلة ويتطلبون كل خير؛ ويتحرون كل حق، ويكافحون كل باطل، حتى وصلوا إلى أعلى مايمكن أن تصل إليه أمة من جلال وعظمة وسيادة فى سنين معدودة. إن تعجب من هذا فإن أعجب منه أن يَغْبَى الباحثون عن هذا السر العظيم، وهو الشرط الأول للإسلام عند المسلمين.

فالإسلام بأخص معانيه يحقق لروح الإنسان حاجتها من المدد الروحانى، فإذا أقامه الآخذ به حق إقامته ولو لحظات فى صلواته، نال من الفيض الإلهى ما يأخذ بيده إلى مكانات الفاضلين، ومراتب الأفذاذ الممتازين، وليس بعد الحوادث برهان، ولا فوق العيان سلطان؟

---

(١) هيم أى عطاش جمع هائم. والمنهومين أى المصابين بالنهم، وهو بلوغ شهوة الطعام إلى اقصى حدودها.

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها[1]
فى النفس البشرية

- ٤ -

المقومات النفسية للفرد والجماعة

الروح والنفس لفظان مترادفان يدلان على شيء واحد، وهو النفحة الإلهية التى تحل بالجسم الحى وتظهر فيه بمظاهر الحركة والحس والتعقل والإرادة، ولكن الفلسفة فرقت بينهما تفرقة صناعية، فجعلت الروح خاصة بتلك النفحة الإلهية فى سمو جوهرها وصفائها من كدور الطبيعة المادية، وتنزهها عن التلونات العرضية؛ وجعلت النفس اسمًا للشخصية التى تنشأ من تعلق الروح بالجسد، حيث تكون فيها محجوبة به ولا تتصل بالوجود إلا من طريق حواسه الخمس. وفى هذه الحالة تكون تلك الشخصية التى تنشأ عنها ملتاثة بأقذاء الطبيعة المادية، تشبه من جميع الوجوه الشخصية الحيوانية[2] بل تكون بما تستمده من حيل العقل، أشد تطرفاً منها فى الشهوات البهيمية والميول الوحشية.

---

(١) مجلة الأزهر المجلد السابع سنة ١٣٥٥ هـ ص ٢٢٩.

(٢) ويقول أصحاب المباحث النفسية من علماء أوروبا إن الروح نفحة إلهية لا يدرك أحد كنهها، حالة فى جسم أثيرى يشبه جسد صاحبها. وهذا الجثمان اللطيف هو النفس وهو قابل للتطور تحت تأثير الروح، وهما معا ثاويان فى الجسد الإنسانى ولا ينفصلان عنه إلا عند الموت، فإذا أودع الجسد القبر استحال فيه إلى تراب، وصعدت الروح وظرفها الأثيرى لتعيش مع الأرواح فى عالم أرق من هذا العالم وتكابد فيه تطورات جديدة ترقى بها إلى آفاق اعلى.

وقد أعجز ترويض هذه النفس الهداة والمربين فى كل زمان ومكان، واستعصى علاجها حتى على العلم نفسه مع ما أوتيه من وسائل التأديب، وذرائع التأثير، وما كشفه فى سويدائها من مواطن الاقتناع، وعوامل الرُّعْوَى. فذهبت كل هذه المحاولات سدى، وبقيت النفس وهى فى أزهر البيئات مدنية، أشد ما تكون تهافتاً على ما يفسد كيانها، ويعطل إصلاحها، ضاربةً عرض الحائط بكل ما يقيم من أودها، ويرد من جماحها، حتى كأن العلم يزيدها كَلباً على السفاسف، وشغفاً بالخسائس.

لو كان كمال الإنسانية، حتى من الناحية المادية، يقوم والنفس على ماهى عليه من تمادٍ فى الغَىّ، وإمعان فى البغى، لكان لدعاة الأهواء عذر فى معاصاة حكمة الحكماء وأدب الفضلاء، ولكن الكمال الإنسانى، حتى من تلك الناحية، يتوقف بقدرٍ مًّا على الكمال النفسانى. ولذلك أجمع أهل العلم، حتى الملحدون منهم، على النعى على الإباحة، والتشنيع على أهلها.

فإذا قال معترض: إذا كان ما تقوله حقًّا فكيف بلغت الإنسانية إلى هذه الدرجة من الرقى المادى والأدبى، وكيف ينعم المتيمدنون بوجود حافل بالمتع الحسية والعقلية، على حين أن النفوس لا تزال ملتاثة بالصفات الحيوانية، ومستنة بسنة الجاهلية؟

نقول: إن الذين يضعون أصول هذا الرقى ويبنون صرحه، رجال أفذاذ ليسوا من ذوى النفوس المريضة الذين نذكرهم، فهم أفراد ممتازون وقفوا وجودهم على ترقية العلوم والفنون، وانصرفوا إليها حتى أصبحوا كأنهم أجانب عن مواطنيهم، وكان أكثرهم مرضى بأعصابهم وفى عزلة من الناس، كما هو حال العباقرة فى كل زمان ومكان، حتى قيل إن الاضطراب العصبى والعبقرية توأمان متلازمان. ومن دون هؤلاء طبقة وسطى تأخذ عنهم وتستفيد منهم، لم تستنفد الشهوات قواها المعنوية، وهى التى تقوم بنشر هذه الثمرات وتطبيقها على العمل.

فلو حذفت من العالم هذه الطبقة الممتازة من الناس ومن يليها ممن ذكرنا،

بقى الدهماء، الذين نعنيهم منصرفين إلى إشباع شهواتهم، وهؤلاء لو تركوا وشأنهم لما أوجدوا علمًا، ولا أحدثوا عملاً، ولبادوا كما يبيد العاطلون، أو لبقوا على ما عليه المتوحشون.

ولو تأملت فى أسباب تدهور المدنيات التى كانت قائمة فى الأرض لرأيتها تنحصر فى العقم الذى يصيب الجماعات عن توليد الأفذاذ الممتازين، ومن يليهم من الذين يأخذون عنهم، وفى خلو الجو لذوى النفوس الجامحة تجرى إلى حيث تدفعها إليه ميولها الخسيسة دون رادع يردعها، أو مدد صالح يمنع تحللها.

ألم تتصوح زهرة المدنية اليونانية وقد ملأت طباق الأرض، قبل نحو ألفين وخمسائمة سنة، علمًا وحكمةً؟ وبادت المدنية الرومانية التى خلفتها وكانت من قوة السلطان، وتوفر وسائل البقاء، بحيث كانت تلقب نفسها بالدولة الخالدة؟

لا ألفت نظرك لغير هاتين، فإن آثار مدنيتيهما لا تزال ماثلة أمام أعيننا، بل لاتزال أصولهما العلمية، ومبادئهما الفنية أصولاً ومبادىء للمدنية الراهنة. فانظر كيف لم تغن هذه الأصول والمبادىء عن ذويها شيئًا حين طغت نفوس أهلها، ولم تصادف شكيمة تردها عن غيها؟.

وأمامنا اليوم شكل من المدنية افتتن به الشرقيون، وعدّوه غاية ليس وراءها مذهب، واعتبره كثير منهم حجة على الذين لا يزالون منا يذكرون أمراض النفوس وعلاجها، والآداب والوسائل الموصلة لها، على حين أنهم يرون بأعينهم أن كثيراً من أهل تلك المدنية لا يبالون بأمثال هذه البحوث، ولا يقيمون لها وزناً. وهذه من أولئك نظرة خاطئة تصور لهم الأحوال على غير حقيقتها. ففى المدنية الراهنة كما كان فى كل مدنية رجال يحاولون تقويم أود النفوس، ويعملون على إصلاحها، ويبدون غاية التشاؤم من تماديها فى غيها، بل ينذرون بتلاشى هذه المدنية إن لم ترعو هذه النفوس عن بغيها.

قال العلامة الكبير كاميل فلامريون فى كتابه (تعرّف قدرة الله فى الطبيعة)[1]:

«لا يجوز لنا أن نخجل من الاعتراف بما انتهينا إليه من الانحطاط لأننا رضينا به وأصبحت عقولنا المتشبعة بالأثرة لاهم لها إلا أغراضها الذاتية. أليس

حظنا اليوم من الحياة قد استحال إلى جمع الثروة بلا مبالاة بوجوه جمعها، وإلى الحصول على المجد من طريق الغصب لا الكسب، وإلى الجمود وعدم الاهتمام بالدستور والواجبات؟

«إن من التناقض البين المؤلم للنفس أن نرى أن الرقى الباهر الذى حدث فى العلوم مما لا مثيل له فى التاريخ، وأن هذه الفتوحات المتوالية التى تمت للإنسان فى الطبيعة، بينما رفعت عقولنا إلى المدركات العالية، أهبطت إنسانيتنا إلى أخس الدركات؟ ومن المحزن أن نحس بأنه بينما نشعر بنماء قوتنا يوماً بعد يوم، تنطفىء حرارة قلوبنا، وتتصوح زهرة نفوسنا، بتأثير غلبة المطامع المادية، والشهوات الجسدية علينا» أ ، هـ.

وقال الأستاذ (فيرنس جيافرت) فى كتابه (الغمة الحاضرة)[٢]:

«إن التحاقد والتعادى يزدادان يوماً فيوماً فى نفوس أهل البأساء المحكوم عليهم بالفاقة المؤبدة. وإن جنون البذخ والكبر لينمو على قدر ذلك لدى أهل اليسار والترف. وهذا الإلحاد الآخذ فى النمو يسوق جماعاتنا بعاطفة حب المساواة إلى حالة ثورية دائمة. إلى أن قال:

«لقد رجونا أن نداوي مصائب النوع الإنساني بالكنوز المادية التي ألقيت بين أيدينا من منذ قرن من الزمان، كما تكاتف العلماء والمهندسون والصناع والميكانيكيون علي زيادة متع الحياة الدنيا زيادة عظيمة. ولكن لم يكن من ثمرة كل تلك المكتشفات إلا نشر حمى حب المال فى الطبقات السحيقة جداً.

«فأى قانون أدبى يكفى لكبح جماح أهوائنا وإدخالها إلى مجاريها الطبيعية المعتدلة؟ لقد نزح عنا الكمال المعنوى، ولم يبق فينا إلا خوف مبهم من شىء غير مدرك، لأن العقيدة بالله لايمكن زوالها من النفس، فترى الذين لا إحساس لهم يستفيدون من وراء ما وقعنا فيه من الظلمات، وترى العقول المستنيرة بالعلم المحرومة من الدين تعذرهم فى ارتكاب الجرائم. وبهذا فقد أصبحت الشهوات غير واقفة عند حد» انتهى.

---

(١)هذا الكتاب اسمه بالفرنسية (الله فى الطبيعة) وهو عبارة موجزة، الغرض منها تعرف قدرة الله فى الطبيعة:
(Dieu dans la nature, Par Camille Flammarion)

(٢) La tristesse contemporaine, par Fierens Geavert

إن الذى يتأمل فى هذين القولين اللذين سقناهما، ونستطيع أن نأتى على عشرات من مثلهما، يدلان على أن مسألة إصلاح النفسية البشرية لا تزال فى المقام الأول من عناية قادة العقول فى الأمم المتمدنة، وأن الإباحة الشهوانية لاتزال تعتبر العلة الرئيسية فى تدهور الجماعات وانحلالها. فما يظنه السطحيون من أن الكلام فى إصلاح النفوس خاص بالشرقيين، وأن الاشتغال به مظهر من مظاهر إخلادهم إلى القديم، ضلال محض لا يصح الإبقاء عليه، وبخاصة فى هذا العصر الذى فيه يخلط الناس بين الإباحة الحيوانية وبين الحرية.

ففساد النفوس، بناء على ما تقدم، هو مثار كل خطر على حياة الجماعات الإنسانية، ومصدر كل انقلاب يهدد كيانها بالانحلال والتلاشى.

هنا تظهر حكمة الإسلام فى جعل أساس الأمة العالمية التى دعا لتأليفها، إصلاح النفوس وتخليصها من أمراضها، وفى التحتيم بأن يكون هذا الأساس من السمو العلمى بحيث لا تقوى أية فلسفة على توهينه، بل بحيث يظهر كل دستور علمى ناقصاً إذا قيس به، مهما ارتقت المعارف، وقويت العقول، وبعدت غايات الفلسفة.

لقد أوصلت المدنية الأوروبية أهلها إلى غايات من الارتقاء الصناعى ما كان يحلم بها أعلى الخياليين كعبًا فى القرنين الماضيين، وهى على وَشْك أن تفتح للعقول آفاقاً جديدة من العلوم والفنون، ولكنها مع حصولها على هذه الدرجة تشكو الفاقة فى الناحية الأدبية، فيصيح مثل الفيلسوف (فيرنس جيافرت) بقوله: «أي قانون أدبي يكفي لكبح جماح أهوائنا وإدخالها إلى مجاريها الطبيعية المعتدلة ؟».

ويشكو زميله العلامة (كاميل فلامريون) قائلاً: «إن الفتوحات المتوالية التى تمت للإنسان فى الطبيعة بينما رفعت عقولنا إلى المدركات العالمية أهبطت إنسانيتنا إلى أخس الدركات»!

وقد أعلن جمهور كبير من الفلاسفة والاجتماعيين بأن ما هو حادث من التناقض بين العلم والعمل فى المدنية الحديثة، إنذار بقرب انحلالها، وفى انحلالها قيام عهد من الوحشية لا يعلم إلا الله مآل الإنسان فيه. لقد ارتكست

مدنيات كثيرة إلى وحشيات منكرة، فلعبت أدوات الفتك أشنع ما ينتظر أن تلعبه فى مثل هذه الأدوار، فلا ندرى إذا انقلبت هذه المدنية إلى وحشية أى دور تقوم به المهلكات الراهنة بين غازات سامة، وقنابل محرقة، وألغام ناسفة، وبنادق رشاشة تقذف فى الدقيقة ألف قذيفة فتحلق الصفوف المتراصة حلقاً.

وهنا أيضاً ظهرت خفة عقول الذين كانوا ينتقدون الإسلام قائلين إنه لم يصب فى جعل أساس الاجتماع فى أمته دينياً. وقد سحرت هذه الشبهة عقولاً من التى تعلمت على الطراز الغربى من أهل هذا الدين نفسه فجنحت إليها. فماذا يقولون الآن وهؤلاء أهل المدنية العالية لا يخشون على تحطم مدنيتهم إلا من قبل تجرد النفوس من قاعدة أدبية تردها عن غيها، وتدخلها إلى دائرة الاعتدال فى مطالبها المادية؟ وهل يتخيل وجود قوة فى الأرض تستطيع إيتاءها بهذه القاعدة الأدبية غير دين يقوم على دستور أقوى مما تقوم عليه معارفها الكونية، ومبادئها الفلسفية؟ وهل تجد فيما بين يديك من الأديان ما هو حاصل على هذه الميزة غير الإسلام، وعلى حال لا تدع لصاحب شك شبهة؟

كان بعض المتعلمين من المسلمين يقرءون قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾(1).

كانوا يقرءون هذه الآية ويتساءلون: ماللدين ولأصول الاجتماع، ومادخل القيام بأوامر الله من شئون الحياة الدنيوية؟ ولكنهم اليوم يرون بأعينهم أن المدنية الحاضرة على مابنيت عليه من علم وفن يخشى عقلاؤها من مجىء يوم تطغى فيه جاهلية النفوس على حكمة الحكماء فتصبح كأن لم تغن بالأمس.

ذلك لأن الاجتماع كما يحتاج فى قيامه إلى الشعور بالحاجة المعيشية الماسة إليه، كذلك يحتاج فى بقائه واستمراره قوياً متماسكًا إلى قوى أدبية تحفظ للنفوس مكانتها المعنوية، وتزيدها ارتقاءً فى خصائصها الذاتية.

---

(1) الطلاق : ٨، ٩

فإذا اقتضت أحوال الوجود، وتقلبات الحوادث، أن تمنى الجماعات ذات الأساس الدينى الحق، بتقهقر لا تقوى على تلافيه، فلا ترتكس من حالتها المدنية إلى حالة وحشية، فتقع فى التناحر الذى لا يتفق وكرامة الإنسانية، ولكن يعتريها فتور قد ينقلب إلى جمود، ولكنك تجدها وهى فى تَّهور من تدهورها، لا تمنى بالصفات لوحشٍ، ولا تحطم بيدها ما شيدته من صروح المدنية. ولكن تصبر على مامنيت به مع تلمس المخرج منه، ولا تزال تتحسس منه حتى تجده، فتعود سيرتها الأولى.

هذه حكمة الإسلام فى جعل أساس الاجتماع سلامة النفوس من أمراضها، ليكون قيامه رحمة للإنسانية ولها، بدل أن يكون وبالاً عليهما. ولذلك كان أثر قيام الاجتماع الإسلامى خيراً وبركة على جميع شعوب الأرض، خلافاً لقيام غيره من الجماعات، فقد كانت تنساح فى الأرض فتثخن فى الأمم قتلاً، وتوسعها نهباً، وتجوس خلال الديار فتأتى عليها حرقاً وهدماً، فتدعها قاعاً صفصفاً، عادة ذلك من علامات بطولتها، غير مبالية بما يكتبه التاريخ من سيرتها، غير مؤمنة بأن ثمرة عدوانها عدوان مثله أو أشد منه، يقع عليها من جماعة أقوى منها.

فالروح الإسلامية أجمع روح للمقومات الاجتماعية، فهى تعنى بمصلحة الفرد والاجتماع من كل النواحى عناية عادلة. ومادام الإنسان جسماً وروحاً فمن العبث أن يهمل المصلحون واحدًا منهما، ويقفون عنايتهم كلها على الثانى. فالأمم لا تصلح أجسادًا لاروح فيها، ولا أرواحًا لاأجساد لها. فإن طغت إحدى طبيعتى الإنسان على الأخرى محّضته لها، فلا يستطيع البقاء على الأرض، ولا القيام بخلافة الله فيها. ومن الصعب التوفيق بين هاتين الطبيعتين فى حد يجعل التبادل بينهما ممكنا، والقيام بحقهما معًا مستطاعاً. وقد حل الإسلام بتعاليمه هذه العقدة، وقد درسنا كل ذلك درسًا دقيقاً فى مقالاتنا السابقة تحت عنوان مهمة الدين الإسلامى فى العالم فليراجعها من أراد.

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها[1] فى النفس البشرية

ـ ٥ ـ

مقومات النظر والتعقل والتفكير

الإنسان مفطور على النظر والتعقل والتفكير، لا يستثنى من آحاد نوعه فرد واحد. وهذا سر ترقيه فى العلم والعمل، والصنائع والفنون، ولولا هذه الخصائص فيه لبقى كما بقيت جميع الأنواع الحيوانية على ما كان عليه لم يبرحه قيد خطوة.

ولكن الذى يجيل نظره فى أفراده وجماعاته يرى تفاوتاً كبيراً بين ثمرات هذه القوى فيهم. فالساعة التى يراها الرجل المتمدن مجموعة من آلات دقيقة ركبت تركيباً خاصًا لتدير ثلاث إبر دورات معينة: أولاها تشير إلى الساعات، وثانيتها إلى الدقائق، والثالثة إلى الثوانى، لمعرفة أوقات الليل والنهار، يتخيلها الرجل المتوحش كائناً حيًا مستدلاً على حياتها بدقاتها المتوالية.

فالنظر والتعقل يحتاجان لعلم يغذيهما، وإلا وقعا فى أخطاء فاحشة، وتأديا إلى نتائج وهمية. وهذا العلم يجب أن يكون دائم الترقى، وإلا وقفت هذه النتائج عند حد، ووقف ارتقاء الإنسان عنده. ومن يتأمل فى تاريخ الفلسفة الطبيعية يجد عجباً عجاباً من ثمرات علمية باطلة، نتجت من استدلالات فاسدة.

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد السابع سنة ١٣٥٥ هـ، ص ٣٧٣

إن صحة الثمرات الفكرية لا تتوقف على العلم وحده، ولكن على الأصول الأدبية، والمبادىء الخلقية أيضاً. فقد تشاهد أمة بلغت من العلم مدىً بعيداً، ومن الصنائع والفنون غاية قاصية، ولكن ثمراتها الفكرية فيما يختص بالشئون العالمية قاصرةً قصورًا فاضحًا. فهى ترى أن الحق للقوة، وأن العدل يتلون بألوان شتّى، على حسب المصلحة، وعلى حسب حال من يطبق عليه، إن كان أبيض أو أسود، غنيًا أو فقيراً، مواطنًا أو أجنبيًا. وترى أن الصفات النبيلة من الرحمة والعطف والإيثار ضروب من الضعف النفسانى، لا يجوز أن تمثل بين صفات الرجولة التى نتخيلها، حتى ذهب بعض غلاة الاشتراكيين إلى وجوب إبادة كل ضعيف وذى عاهة فى المجتمعات حتى لا يبقى إلا الأقوياء وحدهم، بحجة أن وجود هؤلاء الضعفاء والزَّمْنَى يضعف المجتمعات، ولو من طريق إعالتهم.

فهذه الجماعات العليمة إلى أقصى حد، تنحط كما ترى من ناحية إنسانيتها إلى أسفل دركة، ويعدو تشددها فى الأثرة على كيانها، فلا تلبث أن تعركها الفتن الأهلية عرك الأديم، وتمخضها مخض السقاء، لتوقظ منها إنسانيتها النائمة.

أفلا يكون من أعجب العجب أن الإسلام الذى نشأ فى أبعد بلاد الله عن النظام والاجتماع والمدنية والعلم، يحتاط للثمرات العقلية كل الاحتياط، ويتخذ لها جميع المعدلات، لتأتى سديدة محكمة، تنفع الجماعة التى تُقَدَّم إليهم، وتقوِّم عوج الجماعات التى تحتك بهم فى ممارستها لحياتها الاجتماعية، وليضربوا مثلاً عالميًا أعلى لما يجب أن يكون عليه النظر والتعقل والتفكير فى جميع الأحوال التى تنتاب الإنسانية، من ضعف وقوة، وفشل وفوز، وتقهقر أو تقدم.

قلنا إن الإنسان مفطور على النظر والتعقل والتفكير، فجاء الإسلام وهو دين الفطرة يفرضها على أهله فرضاً، مناقضاً بذلك الأديانَ التى تحرمها على أهلها تحريماً باتًا خشية أن تُوَصِّل بعض أفرادها إلى اليقظة فيثوروا على قادتها ويحاسبوهم على ما يقترفون. فاتفق الإسلام من هذه الناحية وما يرمى إليه

العلم والفلسفة، ولكنه بزّهما باشتراطه على أهله أصولاً يقومون بحقها، وآداباً يراعونها، تكفل لهم الوصول إلى الحق، أو بالقليل لا تطوّح بهم عنه إلى مكان سحيق، لذلك جاءت ثمرات تفكير أهله واستنتاجاتهم، حتى فى العهود التى لم تكن العلوم فيها قد وصلت إلى درجاتها الراهنة، بالغة أقصى ما يمكن أن تصل إليه من الصحة وحسن التقدير.

فالأمور الشرعية التى دوّنها الفقهاء المسلمون قبل نحو أحد عشر قرنا تبز فى عدالة أصولها، وسمو مستواها، واتفاقها والحق الطبيعى، جميع القوانين الوضعية حتى التى سُنّت فى القرن العشرين. فهل يمكن أن يقال إن الفقهاء المسلمين كانوا أعلم من فقهاء العصر الراهن بجميع فروع المعارف البشرية، فتوصلوا إلى استنباط شريعة من كتابهم وسنّة رسولهم أرقى من قوانين العصر الحاضر بحكم تفوقهم فى العلم على المعاصرين؟ هذا غير معقول، ولكن الذى يمكن أن يقال إن الأصول التى كانوا يدينون بها، والآداب التى أمروا أن يراعوها، كانت أرقى مما لأهل العصر الحاضر، فجاءت ثمرات تعقلهم وتفكيرهم أرفع درجات من ثمرات تفكير المعاصرين.

إن من يتأمل فى التشريع الذى استنبطه علماء المسلمين فى الرقّ والأرِقّاء، وفى المرأة وما يتعلق بها من حقوق طبيعية وروحية، وفى الأيتام والفقراء، وفى حقوق المحاربين والمعاهدين والأجانب والذِّمّيين، وفى الشئون المدنية والجنائية، وفى العقوبات والتعزيرات إلخ، من يتأمل فى هذا كله يجد تفوقاً ظاهراً فى التشريع الإسلامى على التشريع الأوروبى فى القرن العشرين، وهذا خلاف ما كان ينتظر، فإن التقدم مطرد فى كل فرع من فروع المعارف البشرية، ومنها تقنين القوانين، فتفوُّق السابق منها على اللاحق بنحو ثلاثة عشر قرناً يعتبر أعجوبة الأعاجيب لمن يريد أن يفهم المسألة على أسلوب الأمور العادية، وهو مصداق لما قلناه من أن للأصول الأدبية والحالات النفسية، تأثيراً كبيراً فى تقويم النظر والتعقل والتفكير.

هذا فى الناحية الأدبية البحت، وهو فى الناحية العلمية ظاهر أيضاً لكل من يعنى بدراسته من الباحثين. فإن المعروف أن المسلمين الأولين انصرفوا إلى

تحصيل العلوم بعد وفاة النبى ﷺ بست سنين كما يعترف بذلك الأستاذ (دريبر) فى كتابه «المنازعة بين العلم والدين». فبدءوا بتدارس الفقه واللغة والتفسير والحديث والتاريخ، ولما اختلطوا بالأمم شرعوا فى نقل علومها إلى اللغة العربية، ولم يقفوا عند هذا الحد، بل زادوا فى مادتها، واكتشفوا علوماً جديدة أضافوها إليها، وما مضى على حركتهم هذه قرنان حتى أصبحوا أئمةً لها فى الأرض.

فإذا أردت أن تعرف هذه السرعة التى هضموا بها المعلومات وانتفعوا بها إلى أقصى حد، وجدتها ترجع إلى الأصول الأدبية، والمبادىء الخلقية التى أقامهم الإسلام عليها. وبيان ذلك أن الإسلام بث فى أهله حب الحقيقة وإكبارها إلى أقصى حد، باعتبار أنها هى الغاية المرجوة من الحياة، وأن ماعداها هو الضلال المحض: «فماذا بعد الحق إلا الضلال».

وبيّن لهم من ناحية أخرى أن الحقيقة بنت البحث، وأنها ليست بوقف على طائفة من الطوائف، ولا فرد من الأفراد، وأنه لا يُوصل إليها بالجمود علي الموروثات القديمة، والتعصب للآراء المقررة، وأن علي المسلم أن يتناولها ولو من ألد أعدائه، فهى ضالة المؤمن يلتقطها أنّى وجدها، وأنه ليس بعابٍ أن يقول الإنسان اليوم بقول ثم ينتقل عنه إلى غيره متى بدا له وجه الصواب فيه، وأن العلم إذا لم يقرن بالعمل فلاخير فيه، وأن كل علم لايقام عليه دليل فلا يصح أن يسمى علماً، وأن التقليد مذموم، فإن كان لابد من الاتباع فى العلم وجب أن يكون اتباعاً على بصيرة، لا على تسليم مجرد من البينة. وأن العلم لا حد له، وأن الإنسان أهل لأن يبلغ منه مالا يتخيله تخيلاً.

هذه الأصول القيمة التى أشربها الإسلام لأتباعه، دفعتهم لتلمس الحقيقة فى كل شيء: فى الأرض وفى السماء، وفى أنفسهم، وفيما بين أيديهم وما خلفهم، وفى بلادهم وخارج بلادهم، غير متعصبين لمذهب، ولا جامدين على رأى، ولا واقفين عند حد. فبهذه الروح المتوثبة درسوا كل فلسفة، وحللوا كل مذهب، فلم يقفهم عن الأخذ بأحسنها أصل من كتاب، ولا مبدأ من سنة، بل قد تحروا الأحسن منها مدفوعين بأصول كتابهم، ومبادىء سنتهم، فإذا اعترضهم نص منهما تخيلوا فيه نقضاً لما قامت لهم

الأدلة العقلية والطبيعية على صحته، صرفوا ذلك النص عن ظاهره بحكم أصولهم الأولية، لا تلاعباً منهم بمقرراتهم الدينية. لذلك ذهب المسلمون الأولون مذهب العلوم فى كل ما قررته، غير مقيدين بقيد، ولامرتبطين بشرط، فتأدوا إلى أبعد مما وصل إليه الذين كانوا قبلهم بمراحل لاتكاد تحصى. وقد أثبت مؤرخو الغرب أنهم وصلوا إلى نظرية تحوّل الأنواع بعضها من بعض، وقتلوها بحثاً وتفلية، وسروها حتى على المعادن، أى زادوا على ماذهب إليه الغربيون من وقفها عند حد الأحياء. وقد ثبت رأى المسلمين أخيرًا، فقد ظهر أن العناصر المعدنية المعروفة اليوم متحولة بعضها عن بعض، وأن الفلزات أجسام مركبة لا بسيطة.

أين هذه الحرية العلمية المطلقة، من القيود الحديدية التى كبل بها رجال الدين فى أوروبا الباحثين أيام كانت لهم السلطة العليا فيها. فقد اختاروا أولاً مذهب أفلاطون وتعصبوا له كل التعصب، وأوقعوا بالذين يفضلون عليه مذهبًا آخر أشد العقوبات. ثم غيّروا وبدلوا فى مذهب أرسطو، واتخذوه قاعدة لبحوثهم، وتشيعوا له تشيعًا عظيمًا حتى كانوا يسومون الذين يناهضونه أشد العذاب.

أما المسلمون الأولون فإنهم لما درسوا هذين المذهبين تخيروا أولاهما بالتعويل عليه، غير مقيدين بقيد، ولا مأخوذين بشرط، فوقع اختيارهم على مذهب أرسطو لأنه يعول على التجربة، ويؤدى إلى نتائج عملية، دون الأول، فإنه عقلى محض، وربما تخطاه إلى الخيال وما إليه.

يتبين مما مر كله أن للأصول القويمة، والمبادىء الأدبية، تأثيرًا كبيراً على صحة النظر والتعقل والتفكير، وقد رأيت أنها أدت المسلمين إلى درجة من التفوق لم تنلها أمة قبلهم ولابعدهم، على قلة المادة العلمية فى عهدهم، بالنسبة إلى الموجود منها فى العصر الحاضر.

إن نظرية التفاضل بين القوميات، وبين أصحاب الألوان والأديان، وبين أصحاب الألقاب، لاتزال سائدة فى العالم المتمدين ومعمولاً بها فى التقنين والتشريع، وقد هدمها المسلمون وعفوا على آثارها وعدوها من بقايا الجاهلية منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً؛ عملاً بأصول كتابهم وسنة رسلولهم. فتأمل إلى أى مستوى من السمو تصل صحة النظر والتعقل والتفكير رغماً عن قلة المادة العلمية، تبعًا لسمو الأصول، ورفعة المبادىء الأدبية.

يجب أن يعرف المسلمون هذه الخصائص لدينهم، وأن يشبعوها شرحًا، ويوفوها بحثًا، وينوهوا بها فى مشارق الأرض ومغاربها، فهى على طرافتها حقائق فلسفية لا يجوز أن يغفلها الباحثون فى تاريخ العقلية الإنسانية وتاريخ المبادىء والأصول.

وبعد: فهذا وجه من وجوه الروح الإسلامية ومدى تأثيرها فى النفس البشرية، وهو تأثير لو وصفته بأنه عظيم لهضمته حقه، فإنه إن كان الإنجليز يفخرون بأنهم شعروا بالروح الدستورية من لدن القرن الثالث عشر الميلادى، وشرعوا يطبقون نظمهم عليها فى خلال العصور، حتى أتموا دستورهم فى القرن السابع عشر، وإنه إن كان الفرنسيون يتيهون بأنهم قرروا الحقوق الطبيعية للإنسان فى أواخر القرن الثامن عشر، فماذا يفعل المسلمون وقد بلغوا إلى أوج المبادىء الدستورية، وانتهوا إلى أبعد غايات الحقوق الإنسانية قبل غيرهم بنحو ألف ومائتى سنة؟

نعم إنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه اجتهادًا منهم، ولكن بواسطة الوحى الإلهى، فإن كان ليس لهم أن يتيهوا ويفخروا بالوضع والابتكار، فلهم أن يتيهوا ويعجبوا بأنهم أول من عملوا بهذه المبادىء فى الأرض.

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها[1]
فى النفس البشرية

ـ ٦ ـ

مقومات علاقات الإنسان بالعالم الخارجى

إذا أطلق لفظ العالم أريد به كل ما هو موجود من الكائنات . والإنسان وإن كان لا يكاد يحسب له حساب من ناحية الحيز الذى يشغله فإنه بما منحه من الخصائص العقلية والروحية، بمكانة ممتازة منه. فإذا لم يكن هو أرقى الكائنات العاقلة على الإطلاق فهو من أرقاها لا محالة. وقد أفرد كثير من علماء أوروبا البحث فى مكانة الإنسان من العالم بالتأليف، حتى إن الداروينيين الذين يقولون بتحول الإنسان من حيوان أدنى منه، لا يضنون عليه بهذه المكانة الممتازة، وإن كانوا لا يؤمنون بوجود روح فيه مستقلة عن المادة، ومتنزلة من عالم أرفع منها.

وقد اعتبر العلماء الطبيعيون ثبوت علو مكانة الإنسان فوزاً كبيراً لهم على الأديان، فقد زعموا أنها تحقر من شأنه، وتحط به إلى ما لا يتناسب ومواهبه السامية، وتعمل على إذلاله بضروب من التكاليف الشاقة تحت اسم العبادات، وتحاول الأستيلاء على ضميره بما تصوره له من صور الثواب والعقاب فى دار بعد هذه الدار.

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد السابع سنة ١٣٥٥ هـ، ص ٥١٧.

وهذا تجرُّم ظاهر من خصوم الأديان، فإنها قررت جميعاً أن الإنسان من روح الله، وليس بعد هذا رفع لمكانة مخلوق فى هذا العالم. فإن آنس هؤلاء الخصوم بعد هذا تكاليف شاقة فرضت على بعض طوائفه، وتقاليد مذلة حتم عليها القيام بها، فذلك من وضع زعمائها وقادتها، إما خطأ منهم فى تقدير قدر الفطرة الإنسانية، وإما جريًا وراء مطامع لهم لا تنال إلا من ناحية تسخير الشعوب لإرادتهم.

وإذا وجد هؤلاء الخصوم كلاماً يقولونه من هذه الناحية فى جميع الملل، فإنه يعز عليهم أن يجدوه فى الإسلام، اللهم إلا ابهتاناً وتجنياً.

الإسلام كسائر الأديان السماوية يقرر بأن الإنسان خلق من الطين، ونفخ فيه من روح الله، ولكنه يزيد عنها فى الإشادة بسموه، وفى تعليل هذا السمو، وفى تحديد مدى سلطانه على العالم الخارجى، بما يتناسب والمعلومات العصرية الحاضرة، ويتماشى وإياها جنبا إلى جنب.

وقد ذكر الله كل ذلك فى كتابه الكريم، فنقتبسه منه، ونشرح منه ما يستدعى الشرح، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا
مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ
مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ
أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا
عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم
بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا
كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ٣٣ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ
وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

---

(١) البقرة: من ٣٠ إلى ٣٤.

هذه المحاورة تمثيل لما جاش فى صدور الملائكة عند خلق الله للإنسان، وليست هى كما يدل عليه ظاهر الألفاظ جدالاً بين الله والملائكة لأنه يقتضى ما ينافى التنزيه الذى جاء به الإسلام.

ومؤدها أن الملائكة عند ما علموا بوشك خلق الله لكائن يجمع بين طبيعتين متناقضتين إحداهما سفلية أرضية والأخرى علوية روحانية، أدركوا أنه سيكون متنازعاً بين دواعيهما، فيميل تارة إلى هذه وتارة إلى تلك، وفى الميل إلى السفلى الفساد على ضروبه وسفك الدماء، ومثل هذا الكائن كيف يصح أن يكون خليفة لله فى الأرض؛ أى مكلفاً بتحقيق مقاصده فيها؟ فأجابهم مجيب من صميم معرفتهم بالله، أنه يعلم ما لا يعلمون.

وتلا هذا أن خلق الله آدم، وطبع فى صميم معناه كل ما هو مستعد له النوع الإنسانى من الرقى الصورى والمعنوى، والسمو الروحى والمادى، فلما تبين الملائكة ذلك، قالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. وأكبروا شأن الإنسان، وأدركوا أنه أهل لخلافة الله فى الأرض.

فأنت ترى من هذا مبلغ تشريف الله لقدر الإنسان، وسمو الفطرة التى فطره عليها، وبعد الغاية التى خلقه لها. فهو معتبر فى الإسلام بأنه خليفة الله على العالم الذى وجد فيه، يسير فيه سيرة المرشد المربى، الممهد له طرق الترقى، وأنه أهل لأن يبلغ شأواً يبز فيه الملائكة، ويكون فيه أهلاً لتبجيلهم وتعظيمهم باعتبار أنه أرفع درجة منهم، وأنه قد دفع به إلى ترق مادى وأدبى لا يقف عند حد، بحيث يرى الملأ الأعلى أن النظر إليه من موجبات تسبيح الله على سمو جبلته.

وقد نبه الله فى كتابه إلى أن سمو هذه الفطرة الإنسانية قد اقتضى أن تستند إليه المهام التى تقتضيها الخلافة الإلهية فى الأرض، فقال الله تعالى:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١).

---

(١) الجاثية: ١٣.

فهذه الآية الكريمة تشير إلى بعد مدى سلطان الإنسان على العوالم المادية، إذ ليس بعد تسخيرها له مرمى فى تسليطه عليها، ومثل هذا القول من المعجزات الفلسفية للكتاب الإلهى، فلم يقل به أحد قبل القرن التاسع عشر من الناحية العلمية. فقد اعتبر الكون دائما مجهولاً مزعجاً، وقد ألّه قواه المختلفة الأقدمون وعبدوها. وكان الإنسان منذ زمان قريب إذا سمع جلجلة الرعد، وهزيم الرياح، ولمح وميض البرق، أخذته رعدة وكاد يصعق فرقاً. ولكنا آنسنا أن الإنسان كما سخر الماء والنار وذلل الكهرباء والبخار، وكبح جماح الأهوية والبحار، عامل على تسخير بقية العوالم، فما لا يصل إليه بحواسه المجردة، صوّب إليه من آلاته وأدواته ما يقتاده خاضعاً مستسلماً.

هذا السلطان العظيم الذى استتب للإنسان فى هذا العالم، قد كشف عنه الإسلام قبل أن تظهر بوادره، بل قبل أن يطمئن الإنسان على وجوده فى الأرض، وهو ما كشف عنه وأحاطه بضروب من الإكبار، إلا وهو معتبر إياه حقا صريحا للإنسان، بل مظهر ما غرسه فى صميم معناه من القوى المؤدية إليه. فلا نقول والحالة هذه إن الإسلام يسمح بأن يشتغل الإنسان فى ترقية المحسوسات وإيصالها إلى كمالها، ولكنا نقول إنه مخلوق لذلك بحكم الفطرة التى فطره الله عليها، وعدّه بسببها خليفة له فى الأرض.

فالمسلم الذى يتلو القرآن حق تلاوته، ويتبع سبيل المؤمنين قبله، يتأدى حتماً إلى مثل ما تأدوا إليه من الترقيات الصورية والمعنوية، وبالعمل المتواصل فيها، كما عمل آباؤه حتى بلغوا غاية من الارتقاء لم يصل إليها أحد من قبلهم.

كثيراً ما عجب الباحثون من شدة نهم المسلمين فى الأخذ بكل ما وجدوه صالحاً ونافعاً فى الأمم التى احتكوا بها، ومن سرعة ما هضموه وتمثلوه غير مفرقين بين مصادره مادام خيراً محضاً، أو مادام خيره أكثر من شره، حتى جمعوا بين ما لم يكن مجموعاً قبلهم من علوم أمم كان بينها بعد المشرقين، ومن صنائع وفنون كانت معروفة عند قوم ومجهولة عند آخرين، فلو كانت أمة تدين بالمادية الباحتة لما استطاعت أن تبلغ شأو المسلمين الأولين فيما بلغوه فى

سنين معدودة، فما ظنك وهم مع ظهورهم بهذه النهمة المفرطة للعلوم والصنائع والفنون كانوا يمثلون أرقى ضروب المتدينين الصادقين، حتى قيل إنهم بزوا العالم أجمع فى شدة تمسكهم بالدين، وسلوكهم طريق الزاهدين المخبتين.

حل هذه المسألة لا يعسر على العارف بالإسلام ولايستدعى الإطالة فى القول، ذلك أن القرآن صرح بأن فى الإنسان من قيوم السموات والأرض نفحة روحانية، ظهرت بأجل المظاهر وأكبرها شأناً فى العقل والتفكير، وفتح آفاق بعيدة فى العلم والمعرفة، وعدم وقوفه عند حد من النظر والاستدلال. وفى شعوره الصميم بأنه أرفع من هذا العالم المادى المحسوس.

وقد نصّ الكتاب فوق هذا بأنه قد سخر له ما فى السموات وما فى الأرض، وأن الله قد أقامه خليفة له فى هذا العالم، فكل هذه الأصول تزيد ارتباطه بالعالم الخارجى، وتورطه فى شئونه، لا ارتباط الجزء بالكل فحسب، ولكن زائداً عليه شعوراً بالهيمنة والسلطان، فلا غرو أن ينظر كل مسلم إلى الكون نظر الخليفة فيما وكل إليه أمره، لسيتطيع أن يضطلع بمهمته، فتراه مضطراً لسبر غور كل غامض من غوامضه، وتقدير بعد كل غاية من غاياته، وتحليل تركيب كل كائن من كائناته، متأثراً بدافع العجلة، لأن قصر مدى الحياة لا يناسبه التسويف والتلوم.

هذا هو السبب الحقيقى الذى جعل المسلمين الأولين العاملين بالدين، يتذرعون بهذا النهم المفرط لتحصيل المعارف والعلوم، والإلمام بالصنائع والفنون، مما لم يكن معروفاً لديهم، ثم الاشتغال بدرسها وتمحيصها وزيادة مادتها والتطوع لنشرها بين الناس كافة. وفيه دليل عملى على أن المقومات التى وضعها الإسلام لتنظيم العلاقات بين الآخذين به والعالم الخارجى هى أرقى المقومات وأكرمها وأكثرها بركة.

نعم إن الإنسان مدفوع بدواعى الحاجة إلى تعرف أسرار الموجودات

والاستفادة منها، فهو ليس فى حاجة لمن ينبهه إلى ذلك، ولكن هناك فارقاً بين من يندفع فى هذه السبيل بواسطة الحاجة المادية، ومن يسلكها محفوزاً فوق هذا الدافع بدافع أرقى منه، وأعلق بالنفس، وهو أنه فى عمله فيه يقوم بخلافة مبدعه عليه، والخلافة تقتضى الهيمنة، والتنظيم، والتربية، والتكميل كما قدمنا. وكل هذه الصفات تقتضى أن يعتصرها الإنسان من غرائزه، وأن يستثيرها من أعماق طبيعته. فهل تعجب بعد هذا من قول التاريخ إن المسلمين كانوا أشد الأمم عملاً فى استغلال الطبيعة، وتسخير قواها، والإبداع فيها، وأنهم فى الثلاثة القرون التى كانوا عاملين فيها بدينهم قد جلبوا للإنسانية من الخير العام ما لم تجلبه لها الأمم كلها مجتمعة.

ومما يجب لفت نظر القراء إليه أن المسلمين أسّسوا علاقاتهم بالوجود الخارجى على ما ذكرنا، وتكلموا فى كل منحى من مناحى العلم، وجالوا فى كل مجال من مجالات الفلسفة، ولم يصطدموا بالدين فى أية مسألة من المسائل التى توهم فيها ظواهر النصوص الكتابية، خلاف ما تثبته المقررات العلمية، وهى العقبة التى اضطرت الكنيسة فى أوروبا إلى منع البحث العلمى أكثر من ألف سنة أى من القرن الخامس إلى السادس عشر. فهذه ميزة للإسلام لم يُثبت تاريخ العالم لها نظيراً لأمة من الأمم.

الروح الإسلامية ومدي تأثيرها في النفس البشرية

-٧-

مقومات العاطفة الاعتقادية في الإسلام

الإنسان محمول بفطرته إلى اتخاذ عقائد دينية له، وهذه العقائد يتناولها أكثر المتدينين من آبائهم، وقادة أديانهم، من طريق التقليد دون نقد ولاتمحيص. ولكن الإسلام حرم على أهله هذا الضرب من توارث العقائد، فشرط أن يكون أساسها العقل، وسنادها الدليل. وهذا ما لا عهد للإنسانية به إلا فى العلوم الكونية بعد الإصلاح الخطير الذى أحدثه فيها العلامة الإنجليزى الكبير بيكون من لدن القرن السابع عشر، فخرجت المعارف الإنسانية بهذه الوسيلة من حيز الظنيات إلى حيز اليقينيات، فما أحدثه هذا العبقرى الإنجليزى من التمحيص فى مجال المعارف المادية، سبقه الإسلام إليه بأكثر من ألف سنة فى عالم المعتقدات الدينية.

فليس على مسلم بموجب هذا الأصل الإسلامى أن يتناول عقيدة من كائن من كان دون أن يعقلها، وأن يستطيع أن يدلل عليها، حتى ساغ لأهل الأصول من المسلمين أن يقرروا أن إيمان المقلد لايقبل منه.

هذا حدث جلل لم يكن يخطر لأحد على بال من أهل الأجيال السالفة، ولا يزال يجهله غير المسلمين ويظنون أن الإسلام دين كالأديان المعروفة.

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد السابع سنة ١٣٥٥هـ ، ص ٥٩٧.

لقد أشبعنا هذا الأصل الإسلامى بحثاً فى مقالاتنا السابقة تحت عنوان (مهمة الدين الإسلامى فى العالم)، فإن كنا نعود إليه الآن فذلك لبيان مقوماته، فإن له مقومات تحفظ كيانه، وتكفل ترقيه وكماله.

لأن العقل فى ذاته وإن كان خاصة طبيعية من صفاته التمييز بين الحق والباطل، والحسن والقبيح، ولكنه فى حاجة إلى نور يستمده من الخارج، تظهر له به الأمور على ماهى عليه فى الواقع، فما كل ماظهر لأول وهلة أنه حق حقًا، ولا كل ماتبادر إلى الذهن أنه باطل باطلاً، ولا كل ما لاح أنه حسن حسناً، ولا كل ما أوهم مظهره أنه قبيح قبيحًا.

ولو كانت هذه الخاصة تدرك الأشياء على حقائقها دون حاجة إلى ما يقومها ويكملها، لما شجر بين الناس خلاف على معقول قط، بل لما تنازعوا على شىء أصلاً، ولا كان هنالك تفاوت بين ذوق وذوق، ولا بين نظر ونظر.

فالعين خاصتها المميزة رؤية الأشياء على ماهى عليه فى ظاهرها، ولكنها فى حاجة إلى نور خارجى يبين لها الأشياء فى مواضعها، ويظهر تفصيلاتها، ويشترط أن يكون ذلك الضوء خالياً من الشوائب، وكافيًا لإظهار جميع الدقائق. فما كل مايلوح فى الغبش أنه حسن حسنًا، ولا أنه قبيح قبيحًا.

وهنالك ما هو أدق من هذا تأثيرًا فى تقدير الحسن والقبح، وهى الخصائص الذاتية والمزايا التبعية، فالمرارة تعتبر قبحًا، ولكنها فى العلاجات المفيدة بمرارتها تعتبرحسنًا، وإذا اشتدت صارت غاية فى الحسن. والحلاوة تحسب حسنًا، ولكنها إذا اشتدت حتى أحدثت غثياناً وقيئًا عدت قبحًا، وإذا أفرطت اعتبرت نهاية فى القبح.

فخاصة العقل بحكم وظيفتها فى التفرقة بين الأمور الفاضلة والرذلة، والشئون النافعة والضارة، فى حاجة ماسة إلى المقومات الذاتية، والمقومات الخارجية. فالمقومات الذاتية المعارف على جميع ضروبها، والتجارب على

اختلاف مواضيعها، فإن العقل الخاوى من العلم والمجرد من التجارب، يتعقل الأشياء تعقلاً ساذجاً، ويميز بين الحسن والقبيح تمييزاً سطحيًا، ولكن أيستطيع أن يفرق بين حق وباطل، أو بين حسن وقبيح تفرقةً صحيحة؟

إذا كان ذلك ممكنًا لما اختلف الناس فى عقائدهم وشرائعهم ومبادئهم على النحو الذى هم عليه اليوم.

لذلك عنى الإسلام بأمر المقومات العقلية بنوعيها كل العناية، بقدر ماعنى بنصب العقل حكَماً بين ما هو حق وباطل، وحسن وقبيح، وخير وشر.

فأما من ناحية المقومات الذاتية فقد حثّ على وجوب طلب العلم، فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(١).

وعلل هذه العناية منه بوجوب طلب العلم بأن العلم يوجد لأهله مزايا يتجرد منها المحرومون منه، وهو يريد أن يكون للآخذين به جميع المزايا التى يمكن أن يتمتع البشر بها، فقال تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢).

وصرح بأن بين المؤمن الجاهل والمؤمن العالم درجات، فقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾(٣).

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾.

بالنصر وحسن الذكر فى الدنيا، وإيوائهم غرف الجنان فى الآخرة. ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.

---

(١) طه : ١١٤.
(٢) الزمر: ٩.
(٣) المجادلة : ١١

ويرفع العلماء منهم خاصةً درجاتٍ بما جمعوا من العلم والعمل. فإن العلم مع علو درجته يقتضى العمل المقرون به مزيد رفعة. ولذلك يقتدى بالعالم فى أفعاله ولا يقتدى بغيره. وفى الحديث: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»

نقول: وقد قدر ابن عباس رضى الله عنه هذه الدرجات بسبعين درجة.

وقد حضّ الإسلام ذويه أيضاً على إجالة الفكر فى الأمور، وتناولها بالبحث والتقدير، وحرضهم على النظر فى الكون والكائنات وتنور أسرارها، واستكناه مساتيرها، واعتبر ذلك أفضل من العبادة بالجوارح، فقال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(١).

وقال: ﴿ ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٢).

و ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴾(٣). وكرر ذلك فى عشرات من الآيات.

وورد فى الأحاديث النبوية تحضيض شديد على التفكير، حتى جعله النبى ﷺ خير ضروب العبادة، فقال: «فِكْر ساعةٍ خيرٌ من عبادة سنة».

وقد شفع الإسلام هذا التحضيض على التفكير ببيان النواحى التى يجب توجيه الفكر إليها، وهى:

(١) الوجود فى جملته، فقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٤).

---

(١) آل عمران: ١٩١

(٢) الرعد: ٣

(٣) طه: ١٢٨

(٤) يونس: ١٠١

وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(١).

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾(٢).

(٢) الكائنات الأرضية من جمادية ونباتية وحيوانية، والتأمل فى صورها وأشكالها، وطبائعها وأسرار وجودها. قال الله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا (أى رطبا)، وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ (أى ذات أشجار غليظة) وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾(٣).

وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٤).

قال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾(٥).. إلخ.

(٣) الإنسان، تكوّنه فى الرحم وميلاده وأطواره وأحواله ونفسه، قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(٦).

---

(١) يوسف: ١٠٥.

(٢) الأعراف: ١٨٥.

(٣) عبس: ٢٤ ـ ٣٢.

(٤) الأنعام: ٩٩.

(٥) الغاشية: ١٧ ـ ٢٠.

(٦) الذاريات: ٢٠ ـ ٢١.

وقال:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[1].

وقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾[2].

وقال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾[3]

فهذا ومثات من أمثاله فى الكتاب الكريم يوقظ فى النفس غريزة النظر فيما بين يديها وما خلفها، ويثير فيها رغبة ملحة لكشف المساتير واستجلاء غوامض الخليقة، فتجد فيها مادة العقل غذاءً لها يبلغها غاية ما تصل إليه من قوة التحليل والتركيب للمعقولات، فلا تؤخذ بظاهر خلاب، ولا عرض فاتن، فإذا أرادت الحكم على الأشياء ردها عن الانخداع بالظواهر ما تمرست به من النفوذ إلى السرائر، والغوص لاستخراج الحقائق.

ولم يكتف الإسلام بهذا من مقومات العقل، فدفع بالآخذين به إلى مخالطة الأمم، ومعاملة الشعوب، وحفزهم إلى التجوال فى الأرض، والضرب فى أكنافها، ودراسة أحوال الجماعات البشرية، والنظرفى شئونها، من قوة وضعف، وعزة وذلة، وارتقاء وجمود، والبحث عن أسباب ذلك وعلله، من أمورها الراهنة، وتاريخها الماضى، وتقدير ذلك بالمعايير العلمية، وقياسها بالمقاييس الحكمية، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ

---

(١) الأنعام: ٩٨

(٢) الطارق: ٥، ٦، ٧

(٣) المؤمنون: ١٢، ١٣، ١٤

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾(١).

وقال: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾(٢)

وصرح جل وعز بأن ثمرة هذه السياحات كشط ما على القلوب من ظلمات الجهالة، وما على العقول من غاشيات الغباوة، وإزالة ما علق بالنفس من ران العماية، قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾(٣).

لم يدع الإسلام هدفاً من أهداف النظر، ولا موضعاً من مواضع الاستبصار، ولا عاملاً مما يوقظ غريزة التأمل، وينبه خاصة التفهم، إلا دعا إليها واستنهض الهمم للتنافس فيها، كل ذلك منه ليطوف بالعقل فى جميع أدوار التربية والنمو، فيبلغه النضج الذى يصبح معه قادرًا على الحكم على ماهو حق وماهو باطل، وما هو حسن وما هو قبيح، حكمًا يكون هو الصواب كله أو قريبًا منه.

والذى يتتبع وصايا الإسلام وتعاليمه يجده لم يهمل وجهاً من وجوه تربية الإنسان هذه التربية الأدبية إلا نبه ذويه إليه، وحضبهم عليه، حتى مايتوهم بعض الناس أنه لا علاقة له بها، كالرياضة البدنية، من المصارعة، والمضاربة بالسيف، والسباحة، والمسابقة على الخيل، مما قد يدفع بعض خصوم الإسلام أن يقولوا: ما لهذه الألاعيب والدين الذى يستدعى الوقار وحسن السمت والخشوع؟ ويغيب عنهم أن هذه الرياضات التى يسمونها ألاعيب لاتنافى الوقار

(١) الروم: ٩

(٢) الأنعام: ١١

(٣) الحج: ٤٦

والسمت الحسن والخشوع ولا أرقى مظاهر التقوى، ولكنها تعين عليها بفهم وتعقل وحنين صادق، بما توجده للجسم من الصحة الكاملة، وما تقتضيه من مراس عقلى وتدبير فكرى، وخروج عن عوامل التحجر الجسدى والأدبى، التى تعترى الذين يكرهون الحركات الجسمية، ويألفون تمضية حياتهم بين جدران دورهم ومعابدهم. فإذا كان القصد من الدين تكميل الإنسان حسا ومعنى، فهذه سبيل هذا التكميل، وهذه أساليبه، هُدِى إليها البشر من طريق العمل، ونزل بها الوحى الإلهى قبل عصر العلم خاتم أنبيائه ﷺ.

يقول خصوم الإسلام: إن الإسلام دين مادى يحض على العمل، وعلى الضرب فى الأرض، وعلى كسب المال، وعلى الفتوح والتوسع فى الأرض، وغاب عنهم أن الإسلام دين أوحى ليعتَقَد ويُعْمَل به، لا ليعتقد ويلقى به فى زاوية باعتبار أنه لا يمكن القيام عليه.

وما رقى الإسلام من كل ذلك إلا لتحتك الناحية الأدبية من الإنسان بكل ما يمكن أن يصقلها، ويستصفى جوهرها، بتورطها فى مضايق الحياة ومآزمها، وتَمَرُّسها بأحداثها وجوائحها، فإذا اجتازت كل هذه القواطع خرجت منها مستكملة جميع الشرائط الصحية، حاصلة على جميع خصائصها الطبيعية، ناضجة نضوجًا يؤهلها لبلوغ جميع غاياتها الروحية.

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها[1]
فى النفس البشرية
- ٨ -
المقومات الخلقية

خلق الله الكائنات الحيوانيةَ وطبع جنس منها على ما به تصان حياته الشخصية والنوعية، وما عليه تقوم سعادته النفسية والمادية، فهو يجرى من محاولاته على قانون لا يتعداه، وسنة لا يستطيع عنها حِوَلا، إلا الإنسان فإنه لقيام أمره على التعقل والاسترشاد، ولارتباط كماله بتحرى الأصلح والأفضل من الأمور، أطلقت له حرية النظر والاستدلال والاختيار. وما خلقه الله على هذا النحو إلا لأنه قد بنى وجوده على الارتقاء والسمو إلى درجات لا يصل إليها الخيال، فى كل ضرب من ضروب الكمالات الصورية والمعنوية، حتى إن أبعد المتأملين خيالاً عجزوا عن معرفة الحد الذى يقف عنده فى تدرجه إلى الكمال.

وكيف يصلون إلى معرفة هذا الحد، وقد منح قوى عقلية وروحانية لا يمكن تقديرها بحال من الأحوال. فهو كلما وصل إلى غاية تراءت له غايات أبعد منها، وتيقظت فيه عوامل جديدة للوصول إليها، ما كان يتخيل وجودها فى نفسه. حتى قيل إن كل ما يروى عن الخوارق التى تحدث على أيدى أفراد من الممتازين، ستصبح أموراً عادية لأهل الأزمان المستقبلة، فيقرأ بعضهم مايجول فى ضمائر بعض، ويعرف أحدهم ما يفعله صاحبه وهو على بعد آلاف

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد السابع سنة ١٣٥٥ هـ، ص ٦٦١

من الأميال، ويأمر القوى الطبيعية فتطيعه صاغرة، ويرى بقلبه ما وراء الحوائل الكثيفة إلخ إلخ، ويكون وهو فى هذه الحالة قد بلغ من السمو الروحانى إلى درجة لا يفترق بها عن سكان الملأ الأعلى فى شىء.

ونحن لا نتعرض لهذه التخيلات بتصديق ولا تكذيب، ولكنا نلفت القارئ إلى ما تشير إليه من توقع الدرجات العلى للإنسان، من جراء ما تبين للباحثين من سمو القوى التى منحها، وكان من أثرها فى آماد قصيرة الوصول من الناحية المادية إلى الدرجة التى وصل إليها الآن، ومن الناحية الروحية إلى مايروى عن الآحاد الذين عنُوا بتربية أنفسهم على الأساليب الدينية الصحيحة.

هذا كله أثر الأخلاق والآداب التى يتبعها الإنسان فى تدبير القوى المُودَعة صميم معناه. أقول فى تدبير القوى، لأن الأخلاق والآداب المجردة من هذا التدبير لا تثمر شيئاً أكثر من حسن السمت، ولطف المعاشرة، وهذا ليس بكبير الخطر فى حياة الأمم، ولا هو مما يغنى عنها شيئاً فى مواقفها حيال الطبيعة، وحيال الجماعات التى تنازعها الوجود والغَلَب. فالإنسان كما يطلب منه أن يكون على ضرب من الأخلاق إزاء معاشريه ومواطنيه، كذلك يطلب منه أن يقوم على ضرب آخر منها أمام الجوائح الطبيعية المساورة به، وحذاء الجماعات التى تزاحمه فى مضمار الحياة. وهو إن انقاد لمجرد ميوله الفطرية فى هذه الأمور، فلا يتأدى إلى أكثر مما تأدت إليه الطوائف الساذجة فى أول وجودها على الأرض، من تأليه القوى الطبيعية والاستخذاء لأفاعيلها، وبذل الجهد كله فى مكافحة الجماعات المعادية لها، والعمل المتواصل على إبادتها أو الفناء فيها.

هذا كل ما تعطيه الميول الفطرية غير المقوَّمة تقويماً علميًا، وقد استمر الإنسان على هذه الحال قروناً لا تحصى حتى ولد العلم، فعيّن موقف الإنسان من الطبيعة ومن الجماعات الإنسانية، كما عيّنه من المجتمع الذى يعيش فيه، وألزمه فى كل موقف من هذه المواقف أخلاقاً وآداباً تناسب القوى العليا المودعة صميم معناه الإنسانى.

هذا ما يفهمه العلم من كلمتى أخلاق وآداب، أما ما يفهمه البعض منهما

وهو ما يقتصر على المخالطة والمعاملة، فهو ناحية صغيرة من نواحيها، وليست بذات أثر كبير في وجودها وترقيها. فلو قامت أمة من أخلاقها وآدابها على مثل ما عليه للكَمَلَة الأطهار، ولم توسع من دائرة هذه الأخلاق والآداب حتى تشمل سيرتها مع الكون الذى تعيش فيه، والجماعات التى تنازعها العيش، هان أمرها على أصغر أمة تعنى بهذه الناحية الثانية من الأخلاق، وليست من الناحية الأولى على شيء.

فكم قبيل على مثل ما عليه الوحوش الضارية من الخشونة والتجرد عن الأخلاق، داهموا قبيلاً آخر فى أسمى درجات الآداب، فأذاقوهم صنوف الويل، ومزقوهم شر ممزق، وجعلوهم أحاديث.

وكم أمة لا يراعى آحادها الأصول الأدبية المثلى، ولكنهم على أصول قويمة حيال الوجود والأمم، قد وصلوا إلى قمة المدنية المادية، ومدوا سلطانهم على مساحات واسعة من الأرض، وبجوارهم أمة لاهْم لها إلا تدارس الآداب وتطبيقها وهى لا تغنى عن أنفسها فتيلا.

من هذا التناقض نشأت شبهات قوية على الحكم الأدبية، وعلى الأديان معًا، ونجمت مذاهب سقيمة على معنى الحياة، حتى لقد ذهب المتطرفون منهم إلى أن التقيد بالأخلاق الفاضلة، والآداب العالية، يعطل من نهوض الأمم ويعرقل حركاتها إلى الغايات القاصية من المدنية المادية. فزعموا أن إطلاق العنان للشهوات يدفع بالنفوس لطلب المزيد من المتع الجسدية، وهذا الإطلاق يحفز إلى التوسع فى استغلال المادة، وإلى التفكير فى وجوه تسخير قوى الكون للإرادة البشرية، وهذا لا يكون إلا بدراسة العلوم وتطبيقها على العمل، والتنقيب عن المساتير وحل معمياتها، فجملة هذه الحركات النفسية والعلمية يدفع بالمدنية إلى الارتقاء، والتحليق فى أرفع آفاق الإبداع.

هذه شبهات يظنها هؤلاء الإباحيون حججاً لتبرير مذهبهم، والحقيقة أن المدنية ليست مدينة لواحد من هؤلاء الشهَوانيين بشىء، وما دعّم قواعدها وأقام صروحها من علم وعمل وفن، غير أفراد من خيار هذا النوع كانوا على جانب

كبير من الاستقامة والنزاهة، واصلوا أبحاثهم غير مدخرين مالاً ولا صحة، وكثير منهم ذهبوا ضحايا لإخلاصهم لتجاربهم. وأمثال هؤلاء يوجدون فى كل مجتمع تتوافر لهم فيه شروط الحياة وحرية العمل. وإذا كان لثمرات قرائحهم خطر يهددها بالاجتياح، فهو من ناحية أمثال هذه المذاهب الإباحية. فقد تسلطت على مدنيات اليونان والرومان وغيرها فأبادتها، وجعلتها أقاصيص.

وإذا كان لا يمكن تقدم مادى دون حافز شهوانى، فكيف نشأت المدنية الإسلامية الباهرة فى بيئة كلها أخلاق وآداب وسمو روحانى، حتى صارت أساسًا للمدنية الأوروبية الحاضرة؟ وهذه المدنية الحاضرة هل يتوقع علماء الاجتماع تطرق الخراب إليها إلا من تفاقم شر الشهوات فيها، كما صرح به كبار قادتها ونقلناه عنهم فى هذه المجلة؟

فالأخلاق لأجل أن تكون كاملة، وحاصلة على جميع مقوماتها الضرورية، يجب أن تكون شاملة لكل ضروب المعاملات، والإنسان لم يُطلب منه أن يعامل معايشيه ومواطنيه فحسب، ولكن يُطلب منه أن يعامل من يتصدى لمعاملته من الناس كافة، بل مايعرض له من الكائنات كافة، فهو قبل أن يُدعى لمعاملة مواطنيه دُعى لمعاملة نفسه وجسمه، وما يحيط به من الموجودات، ولما تعلقت حاجاته بمخالطة الأمم، والنظر فى الأجرام السماوية، والعناصر الأرضية، تبينت له الحاجة إلى نظام عام شامل من الأخلاق والآداب يستهدى به فى كل هذه الضروب من المعاملات التى تدعوه إليها حياته وارتقاؤه.

وقد كفل الإسلام إقامة صرح هذا النظام الخلقى العام على أقوى أساس من العلم والعمل، حتى لا يتطرق الوهن إلى بنية جماعته من أية ناحية من النواحى، وحتى يصلح شطره المادى لحماية شطره الروحانى، فلا يكون عرضة فى كل دور من أدوار الاجتماع لأفاعيل الانقلابات الفكرية، والتطورات النفسية. فقرر للإنسان حيال كل ما يعرض له أخلاقاً وآداباً. فمما جعله له منها مع نفسه، أن لا يهينها ولا يعرضها للأمراض النفسانية، وأن يعمل على السمو بها إلى أعلى درجات الطهر والنبل؛ ومما سنّه له منها مع عقله، أن يغذيه بالمعارف الحقة، وأن يوسع من دائرة تجاربه إلى أقصى حد يمكنه الوصول إليه؛

ومما فرضه عليه منها مع جسده أن يكرمه بالنظافة، وأن لايرهقه فى عمل، سواء أكان دنيويًا أم دينيًا، وأن يلتمس له الصحة من كل مظانها؛ ومما أوجبه عليه مع الكون أن يتدبر آياته، ويكشف عن مساتيره؛ ومع بنى ملته أن يعتبرهم إخواناً، وأن ينصفهم من نفسه، وأن يعمل لخيرهم جهده؛ ومع بنى نوعه أن يحسن إليهم ويبرهم، وأن يعدل فيهم إلخ إلخ، حتى لم يستثن من كل ما هداه إليه من أخلاق، ما يجب عليه نحو الحيوانات العجم، والجامدات الصم.

فهذه المجموعة من الأخلاق يقوِّم بعضها، وهى فى ترابطها وتساندها يتألف منها سياج أدبى، يسمح للأمة التى تأخذ به أن تدخل فى جميع ضروب التطورات الاجتماعية والأدبية آمنة من الانحلال والتلاشى. وقد دل تاريخ المسلمين على صدق هذا النظر، فإن المسلمين فى جميع أدوار قوتهم لم يعترهم ما اعترى الأمم من التراخى فى كيانهم، وإنك لتراهم وهم فى أشد حالات ضعفهم يستعصون على جميع عوامل الانحلال. وهذا الأثر قد أدهش علماء الاجتماع، فلا فتن المدنية، ولا غلبة الاستعمار الأجنبى، ولا انتشار الجهالة فى بعض بيئاتهم، بصالحة لأن تحل رابطتهم الاجتماعية، أو تعدو على حالاتهم النفسية. بل تجد أضعف جماعة فيهم عظيمة الثقة بالمستقبل، قوية الإيمان بصلاحيتها لأن تسترد فى يوم من الأيام مجدها الضائع على أكمل وجه. فهذه القوى المعنوية الضخمة فى أشد الحالات الموجبة لليأس، هى أثر ذلك السياج الخلقى المتين، الذى برهن فى كل عهد من عهود الانقلابات التاريخية، على أنه من قوة الاحتمال بحيث تصطدم به أقوى عوامل التحليل فترتد عنه خاسرة.

لا جرم أن هذا أقوى بناء اجتماعى عرفه البشر منذ أن خلق الله العالم إلى اليوم.

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها في النفس البشرية

- ٩ -

المقومات الجثمانية

لقد عنى الإسلام بالمقومات الجثمانية عنايته بالمقومات الروحية والعقلية، وهذه ميزة لم يشاركه فيها دين من الأديان المنتشرة بين جماعات البشر اليوم. فالذى يعرف عنها أنها تهدر المقومات الجثمانية فى جانب المقومات الروحية، ولكل منها فى ذلك أسلوب خاص اشتهرت به فى هذا العهد شهرة عالمية.

فالبراهمة والبوذيون فى الهند وغيرها، يرهقون أنفسهم عسراً، ويسومونها التكاليف والرياضات المضنية، كسراً لطغيان الجسم، ومناهدة لسلطانه؛ تذرعاً للوصول إلى السمو الروحى، والصفاء الوجدانى. ويروى عن خاصتهم فى هذا المجال مالم يرو عن سواهم من أصحاب المجاهدات النفسية، من ضروب التعذيب التى يعاملون بها أجسادهم، طموحاً إلى هذه المنزلة. فمنهم من يقللون من طعامهم وشرابهم إلى حد أن يصيروا كالهياكل العظمية هزالاً ونحولاً، ومنهم من يضيفون إلى هذا إثقال أجسادهم بالسلاسل الحديدية، بل منهم من يجلسون وينامون على أسنة مشرعة من المسامير ينفذونها متقاربة من أسفل أسرتهم لتباشر أطرافها المحددة أبدانهم.

(١) مجلة الأزهر- المجلد الثامن سنة ١٣٥٦ هـ، ص ٢٤١

وأما الإسرائيليون فإنهم وإن لم يقولوا بلعنة المادة، فإن فى ديانتهم إرهاقات جسدية لا يتحملها إلا الأتقياء منهم، وكانت سبباً فى خروج الكثرة الغفيرة من إسرائيلى أوروبا عن تقاليدهم فى مسألة السبت والشئون الغذائية، واتباعهم ما يجرى عليه الناس هنالك، فهم كما يقول المسيو (جوليان ويل) حاخام باريس فى كتابه عن الديانة الإسرائيلية قد أصبحوا يهود قومية لا يهود ملية.

ونظراً لفداحة التكاليف الجسدية فى الديانة اليهودية، وعجز أكثر الناس عن القيام بأدائها، قد كلف كل ربانى يتقدم إليه رجل طالباً الدخول فى هذه الملة، أن يحاول رده عن قصده حتى لا يرتد بعد تهوده. قال المسيو جوليان ويل المذكور آنفاً: «يجب على كل ربانى أن يرد كل طالب الدخول فى عهد إبراهيم ثلاث مرات، لافتاً نظره إلى الصعوبات التى سيصادفها، والتكاليف الشاقة التى سيتحملها، والاخطار التى سيتعرض لها. فإذا أصر على طلبه، وتحقق الربانى بأن الدواعى التى تحدوه للتهود طاهرة ونزيهة، فيمكنه أن يقبله فى حظيرة البيعَة» ثم قال الحاخام المذكور:

«هذا التحفظ فى أمر طالبى التهود دعت إليه طبيعة اليهودية ونظامها الخاص الذى لا يقصد به إلا الإسرائيلى بأدق معانى هذه الكلمة؛ وأوجبته كذلك ما فى اليهودية من التكاليف الكثيرة التى يستدعى العمل بها نكران الذات والاخشيشان والثبات والشجاعة، وأحياناً البطولة أيضاً»

أما المسيحية فإنها وإن كانت لا تبلغ شأو اليهودية فى التكاليف الشاقة، فهى بنص كتابها وشروح علمائها، ديانة زهد وتقشف، وتخلص من علاقات الدنيا، وإعداد بالروح دون الجسد.

أما الإسلام فقد امتاز عن جميع الأديان المعروفة بالعدل بين مطالب الروح ومطلب الجسد، فهو لا يتقاضى الآخذ به أن يحرم نفسه من متعة مادية، ولاملذة جسدية، ما دام يتناولها من طريقها المشروع، وفى حدها المعتدل، بل لا يمنعه أن يبلغ أبعد شأو فى الغنى مادام يؤدى حق الله منه، وحق الله هو ما

نص عليه فى كتابه من البذل فى سبيله، والإنفاق على عياله، «الفقراء عيال الله».

لم يقم الإسلام على هذا الصراط السوى بين الروح والجسد ذهاباً منه أنهما سواء فى الدرجة، أو أن الحياة الدنيا تساوى الحياة الآخرة. لا، ولكن لأن الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون الدين العام الخالد مبنياً على قواعد العلم، ونواميس الطبيعة. وقد قرر العلم أن العقل السليم لا يكون إلا فى الجسم السليم، وأن السمو الروحانى لا يتأتى من حرمان الجسد من حاجاته، ولكن من توفية تلك الحاجات فى دائرة الاعتدال، وأن ذلك السمو ليس فى أن يعيش الإنسان حياة سلبية لا أثر لها فى الخارج، ولكن فى أن يعيش حياة إيجابية تستفيد من الوجود علماً وحكمة، وتفيضهما على من يجاورها من المزاملين لها فى الحياة.

نعم إن السمو الروحانى لا ينال بحرمان الجسم من حاجاته، فإن قصارى من يسلك هذه الطريقة أن ينفق السنين الطوال فى ترويض نفسه على الإقلال، ذائداً إياها عن التطلع للمتع المادية، باذلاً فى هذا السبيل جميع ما أوتى من مذخور معنوى، ثم يخرج من هذا الكفاح المضنى غير حاصل إلا على ميزة واحدة، وهى ضبط النفس عما سوى الضرورى من مقومات الحياة، ولكنه لايكون حاصلاً على السمو الروحى الذى يجد وراءه أهل الطموح العالى، وهو أن يكونوا مالكين لقياد أنفسهم يصرفونها فيما يجب من الأعمال، ومؤثرين فيما حولهم يوجهونهم إلى حيث تستدعيه كرامة الحياة، وشرف الوجود.

فإذا عمدنا هنا إلى التشبيه، فإن الأولين يشبهون من يريدون كبح جماح مطاياهم بإضعافها بالمسغبة، تفادياً من تحمل مشاق الترويض على أصوله المقررة، فلا يحصلون بعد طول العناء منها إلا على أنضاء رازحة. وأما الأخيرون فيشبهون من يريدون أن يجعلوا من دوابهم سوابق تطير بهم إلى الغايات القصية، دون أن تعرضهم لأخطار الطرق وعقباتها، فيلجأون إلى أصول الرياضة الصحيحة يسومونها إياها فى اعتدال وأناة ومهارة، فيبلغون ما يريدون منها صلابة عود ودربة، حتى إذا جد الجد كانت طوع بنانهم فى

الكر والفر، قوية على كل مكاره الكفاح، تسخو بنفسها على المعاطب كأنها أدوات مسخرة، لا كائنات شاعرة.

كذلك الرجال إذا لجأوا فى التكمل إلى الأسلوب السلبى فى حاجاتهم، والتدبير الإذلالى لأجسادهم، خرجوا من مراسهم هذا كالخلال هزالاً، وكالجوامد صبراً على الخسف، فلم يصبحوا أهلا لأن يحموا حماهم، ولا أن يردُّوا ضيماً يراد بهم. فإذا لم تضطرهم النوازل إلى الشك فى دينهم، اضطر أخلافهم إلى ترك العمل به، فأصبح فيهم شبحًا ذهنيًا، لا ديناً عمليًا. ومن يتأمل فى أحوال الذين تدعوهم أديانهم لمثل هذا الضرب من الرياضة، يجد ما نقوله جليًا واضحًا.

أما الإسلام فقصد من الدين أن يكون دستوراً عمليًا، لاخيالاً وهميًا، وأن تكون ثمرته إنشاء أمة تكون مثلاً أعلى للأمم فى حماية بيضتها، والذياد عن كرامته، والجرى على أكرم أصول العدالة، وأشرف مباديء الاجتماع، لتصل إلى أبعد شأو من المدنية الفاضلة، والحياة الكاملة، ويكون آحادها أعلام هدى فى كرم الطباع، وسمو الأخلاق، وشرف المقاصد، وبعد الهمم، ينصرفون فى تحقيق مراد الله من تكميل الخليقة، انصراف النوامس المسخرة، لا تصدهم عنه خاطرة من شهوة، ولا بادرة من هوي، ولا سانحة من وهن.

فلا يتهمنا متهم بأننا نغترف من الخيال ما نلهى به القارئين، وننتزع من الوهم صوراً ليس لها ما يدل عليها من الحوادث. فإن الأمة الإسلامية فى صدر الإسلام كانت مثالاً حيًا لما نقول. الم تتألف على أكرم المباديء، وأشرف الأصول، طلبًا للحق فى ذاته، لا لدنيا تصيبها، ولا لسيادة تحصلها، وكان آحادها من السمو الخلقي، والأدب النفسى والبطولة الفذة، بحيث ضربت بهم الأمثال، وتناقلت سيرهم الأجيال، فلما اختلطوا بالأمم داخلها من إكبارهم

وإعظام شأنهم، ما حملها على الدخول فى ملتهم طوعا لا كرها؟ فهل عهدت فى تاريخ البشر أن شرذمة من الناس، تألفت فى أبعد بلاد الله عن الاجتماع وسياسة الشعوب، تستهوي فضائلها مائة مليون من البشر فى مدى قرن واحد دون دعوة غير السمت الصالح، والمظهر الفاتن؟

أليس ما نقوله هو مانطقت به الحوادث، وقرره التاريخ، وشهد به حتى الأجانب؟ فالإسلام قد رمى بأصوله ومبادئه إلى إحداث مثل هذا الحدث الضخم فى العالم، وما كان ليتأتى ذلك جريًا على مبادىء رياضة سلبية، تجرد النفس من أشرف نزعاتها الإيجابية، وتميت فيها أكرم غرائزها الفطرية، وتضعف منها أقوى عواملها المعنوية. فما خلق الله فى الإنسان هذه القوى الغريزية، والميول الجسدية، والشهوات البدنية، عبثاً، أو لتستوعب رياضتها وقمعها حياة الإنسان كلها، ثم لا تكون ثمرة هذا الجهاد كله فى أمة أو أمم برمّتها إلا أن تصبح كالمومياوات المصبرة؛ أو كالأشباح التى لا حياة فيها، ولكنه خلق الإنسان على هذه الصورة من تباين القوى، وتنوع الغرائز، وتخالف الميول، ليصل الإنسان بامتلاك ناصيتها، وتصريفها فيما خلقت له، إلى مكانة من السمو وعدالة التصرف، بحيث يصلح أن يكون خليفة الله فى أرضه.

الذى يراه الناس اليوم أن الجماعات البشرية قسمان: قسم على المبادىء السلبية، وهى لا تفترق عن قطعان الماشية فى أيدى الأمم المتغلبة، وقسم على الأصول الإباحية، وهى قد حصلت على حظ من القوة والبطش، بيد أنها قد انحطت إلى الإباحة البهيمية، التى لاتتناسب وكرامة الإنسانية. وأنا لا أقول ذلك تعصبًا لمذهبى، ولكن الذى يقوله علماؤها وفلاسفتها حتى الماديون منهم.

ولو كانت هذه الحالة الإباحية سليمة من جراثيم العطب، لأمكن أشياعها أن يدّعوا أنها هى المثل الأعلى للحياة الأرضية، ولكنها مبتلاة بجراثيم الأمراض الاجتماعية، ومهددة بقارعة حرب عمومية، لو حدثت لتصوحت زهرة المدنية، وارتكست الإنسانية لأسوأ عهودها البربرية. وقد ارتكست أمم متمدنة مرات

عديدة إلى البربرية الباحتة، فمنها من أتيح لها الخلاص منها، ومنها من بادت أو فنيت فى جثمان أمة أخرى.

فالحالة الوسطى بين الروحانية المتطرفة والمادية الباحتة، أمر يستدعيه الاتزان الاجتماعى، والاستقرار العالمى، ولا يوجد فيما بين أيدينا من التعاليم ما هو حاصل على هذه الميزة فى تركيب هو غاية فى الحكمة غير التعليم الإسلامى.

نعم: قرر الإسلام أن الآخرة خير من الأولى، وأن الكمال الروحانى هو الغاية التى يجب أن يتجه إليها كل مسلم، ولكنه أمره أن لايغفل حظه من الكمال المادى، حتى تكاد لاتجد فى القرآن تحضيضاً على منزلة روحية، إلا مقرونة بتحضيض على نيل مكانة مادية، قال الله تعالى:

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾[1]

وقال: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[2].

وقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[3].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[4].

وقد دلنا على مايجب أن يكون عليه دعاء المؤمنين من الجمع بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة، فقال:

---

(١) القصص: ٧٧

(٢) النحل: ٣٠

(٣) النحل: ٩٧

(٤) النحل: ٤١

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[1].

وفى الكتاب الكريم آيات كثيرة تحض المؤمنين على وجوب العناية بالجسم من ناحية النظافة وحفظ الصحة وعدم إرهاقه بالمشاق، ولا حرمانه من متع الحياة واللذات المشروعة، فقال تعالى:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[2].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾[3].

مما يجب لفت النظر إليه فى هذه الآية الآخيرة أنه سمى حرمان النفس مما أحله الله اعتداء، أى خروجاً عن صراط العدل بين الطبيعتين، وهذه غاية فى عناية الإسلام بالناحية المادية من الحياة الإنسانية.

أما السنة فهى حافلة فى هذه الناحية بالحكم الباهرة. من ذلك ماروى عن النبى ﷺ أنه قال لعبد الله بن عمرو بن العاص وقد بلغه أنه يفرط فى التنسك، يصوم الدهر ويقوم الليل: «ياعبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل»؟ قال عمرو: فقلت بلى يارسول الله. قال: فلا تفعل، صم وأفطر وقم ونم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقًا، وأن لزورك[4] عليك حقًا، وإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك

---

(١) البقرة: ٢٠٠ ـ ٢٠٢

(٢) الأعراف: ٣٢

(٣) المائدة: ٨٧، ٨٨

(٤) لزورك: أى لزائريك، جمع زائر

بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله. قال عمرو: فشددت، فشدد على. قلت يارسول الله فإنى أجد قوة. قال فصم صيام نبى الله داود ولا تزد. قلت وما كان صيام نبى الله داود عليه السلام؟ قال رسول الله: نصف الدهر». فكان عبد الله بن عمرو بعد أن كبر يقول: ليتنى قبلت رخصة النبى ﷺ.

أرأيت أحكم من هذا؟ رسول كان يعبد الله حتى تتورم قدماه، ويربط الحجر على بطنه من ألم الجوع، ينهى آخذاً بدينه أن يبالغ فى العبادة[1]؟ أتراه كان يصده عن خير؟ لا ولكنها الحكمة الإسلامية ترشد أهلها إلى أن الكمال الإنسانى المنشود، لا ينال بإرهاق الأجساد، ولكن بالعلم، والعمل، وتحرى الحق، وتجنب الباطل، وتطهير القلب، وتهذيب النفس، والوصول إلى درجة الرجولة الكاملة.

(١) لا يعترضن معترض بقوله: كيف ينهى النبى ﷺ الناس عما كان يفعله هو من المبالغة فى العبادة، فإن للنبوة باتصالها بالعلم الروحانى شأناً غير شأن سائر الناس.

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها في النفس البشرية

- ١٠ -

المقومات الاجتماعية

الإسلام آخر الأديان السماوية نزولاً، وكتابه خاتمة الوحي الإلهي للإنسانية، وقد نص فيه على ذلك في غير موطن منه، وأثبت الزمان ذلك بعدم قيام دين بعده إلى يومنا هذا. اللهم إلا مذاهب لبعض الأفراد ادعى أصحابهم أنهم رسل الله، وبعضهم غلا فاعتبروا زعيمهم الخالق نفسه متجسداً. ولكن هذه المزاعم لم تصدقها الحوادث، فلم تقم لتلك الأديان المزعومة قائمة، ولو كانت من الله لبزّت جميع الأديان في الأتباع، ولكانت لها دولة وصولة في العالم، ولم تكن على ماهي الآن، وقد مضى على بعضها أكثر من قرن ولا تزال مجهولة لا يكاد يعرفها إلا عدد قليل في كل نحلة.

بهذا الاعتبار جاء الإسلام حائزاً لميزات الخواتيم، وهي النهايات التي ليس وراءها مذهب، سواء أكان ذلك في المعتقدات والعبادات والمعاملات، أم في الأخلاق والآداب، وروابط الاجتماع. وبما أننا اليوم بصدد المقومات الاجتماعية فإننا نبسط القول فيها تحت ضوء مقرراتها الرسمية، فنقول:

كانت الروابط الاجتماعية قبل الإسلام لا تعدو دائرة القوميات، فكان لكل قوم دعتهم الضرورة للحياة حياة مشتركة نعرة جنسية قائمة على المصلحة المادية

(١) مجلة الأزهر المجلد الثامن سنة ١٣٥٦ هـ، ص ٣٨٥

دون سواها. فأفراد هؤلاء القوم كانوا يقبلون الاشتراك فى الحياة دفعاً لعاديات جماعات أخرى، وتعاوناً على مبدأ تقسيم الأعمال، والاستفادة من الميول المختلفة فى المحاولات المعيشية.

على هذا الأساس قامت جميع الربط الاجتماعية السابقة، لم تشذ واحدة منها فتتطلب غرضاً أسمى من المصلحة المادية، وهو إلى اليوم مدار الدعوة الرئيسية إلى الالتفاف حول راية واحدة أو التوجه لغاية معينة. ولكن هل هذه النعرة القومية هى المثل الأعلى للدعوة إلى الاجتماع، وإلى التضامن فى الحياة، والتساند فى تذليل ما يعترضها من عقبات؟ اللهم لا، وإليك البيان:

الأمم تتطلب اليوم إبطال الحروب لما ثبت لها أنها تصيب الغالب والمغلوب على السواء، بسبب دخول الحياة العالمية فى ترابط اقتصادى تام، فما يفسد هذا الترابط أو يخله تقع تبعته على جميع الأمم بلا استثناء. فقد انتصرت الأمم الأوربية على الألمان فى الميدان، ولكنها تحملت وإياها تبعات تلك الحرب الشعواء، فما من أمة منها إلا وقد اضطرب جثمانها، واختل توازنها، ورجعت فى بعض شئونها القهقرى عشرات من السنين. وإذا تلتها حرب أخرى فستكون نتائجها أعدى على كيانها من الحرب السابقة، وأشد إخلالاً لتوازنها. ولذلك تجد الأمم تتجنب وقوع الحرب جهد طاقتها.

ولكن تجنب الحرب لا يكون بالتمنى، فهو يقتضى تحديد التسلح، وتكافل الأمم على حل مشاكلها بالتحاكم إلى العدل لا إلى السيف، واتفاقها على كل من يخالف ذلك بالتألب عليه وإلزامه حده بالقوة.

كل هذا لا يكفى فإن الجوع كما قيل كافر، والأمم التى تنمو تحتاج لمادة جديدة لتقيت بها الزيادة فيها، وإلا طاشت الأحلام تحت تأثير الحاجات الملحة، وأحدثت ما لا تحمد عقباه من الاضطراب، والضمير البشرى أصبح لا يطيق أن يضغط على أمة ويضيق على خناقها لتموت تحت تأثير حاجة طبيعية لبعضهم منها أوفى نصيب، ومقدار يزيد عن حاجتها زيادة عظيمة.

من هنا نشأت فكرة توزيع المواد الأولية العالمية توزيعًا عادلاً بين الأمم حتى يعدم تطلعها للاستعمار، والعدوان على غيرها من الأمم. ولكن وصولها إلى هذه النتيجة من العسر بمكان، فإن شراهة المحرومين، وشح المستأثرين، تمنع من الوصول إلى حل وسط.

ولكن الوصول إلى هذا الحل أمر لا محيص منه، فإن الترابط بين الأمم تشتد عراه يومًا بعد يوم، وتداخل المصالح العالمية يزداد شيوعاً على نسبة تقدم المدنية، والمدنية تيار جارف يطغى فى طريقه على كل عقبة.

ولسنا ننسى أنه إلى جانب هذه العوامل الداعية إلى التفاهم بين الشعوب، توجد عوامل أدبية أشد منها تأثيراً، منها ذيوع مبادىء الفلسفة بين الناس، وهى تصور الحروب البشرية تصويراً لاقبل للضمير البشرى بقبوله، وتلطف الشعور الإنسانى إلى حد النفور من كل عمل وحشى، وسقوط الأوهام التى كانت تبنى عليها مجادة الأمم من الانتصار فى الحروب، واستئصال شأفة الأعداء، أو تمزيقهم كل ممزق، وضعف التعصب للأديان إلى درجة أنه أصبح يعتبر من مفسدات الشخصية البشرية. وفوق هذه العوامل كلها عامل ذيوع العلم بين الأفراد وقضائه على كل عقيدة باطلة بأدلة لا تحتمل النقض، وتجليته للناس العقائد الفطرية من وجود الخالق والروح والخلود والعالم الروحانى بحجج حسية تثلج عليها الصدور، ويشترك فى الخضوع لها الناس كافة.

من هنا يدرك كل من يتأمل فى أحوال الإنسانية أنه لابد، تحت تأثير جملة هذه العوامل المتضافرة، من توحد الإنسانية فى المعتقدات الأولية، وفى الآداب النفسية، وفى ربط الاجتماع أيضاً.

نعم إن بلوغ هذا الشأو يحتاج لوقت طويل، ولكن الإنسانية متجهة إليه، ولا يتخيل شىء يصدها عنه، إذا عرف أن ناموس الارتقاء طبيعى، وأنه لا محيص من تأثيره. فالروابط الاجتماعية ستنقلب من المادية الباحتة، التى تفضى إلى التزاحم والتنازع على العيش، إلى مادية وروحية فى آن واحد،

تفرض على الكافة حقوقاً تتناسب وترابط مصالحهم، وتداخل مرافقهم، ووصولهم إلى درجة من السمو الأدبى بحيث يستفظعون أن يعيش بعضهم بامتصاص دماء بعض.

فالإسلام الذى جاء بالمثل العليا فى جميع الشئون الإنسانية، جاء بالمثل الأعلى فى هذه الناحية أيضاً، فلم يدع إلى اجتماع أساسه القومية ولا الجنسية، ولم يعبأ بالأواصر اللغوية ولا التاريخية، ولكنه تخطى تلك الاعتبارات الخاصة كلها، ودعا إلى المثل العليا للاجتماع الذى ستنتهى إليها الإنسانية، وهى الوحدة النوعية، والأصول الأدبية، والمبادىء الخلقية، فجاء مجتمعه ذا صبغة عالمية عامة، لا قومية خاصة. وأول أساس وضعه فى هذا الصرح الاجتماعى العالى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾[1].

فأنت ترى أنه يدعو الناس كافة ولا يدعو قبيلة واحدة، ولا أمة بعينها، وقد جاءت جميع آياته داعية إلى هذا المبدأ السامى مبدأ الوحدة الإنسانية، بصرف النظر عن جميع الفوارق من جنس ولغة ولون. وهو لأجل أن يوطد أركان هذه الوحدة ويجعلها حقيقة واقعة، لا خيالاً شعريًا، دعا إلى الدين الجديد بأن يكون ديناً عامًا للإنسانية، وهو دين الفطرة الذى يتأدى إليه الإنسان محفوزاً بمقتضيات فطرته لا بتعليم معلم، ولا بتوريث مورث، فقال: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[2].

والفطرة تدعو إلى الاعتقاد بخالق الكون، وبالروح وبقائها فى عالم وراء هذا العالم، وبترتب أحوالها هنالك على سيرتها فى هذا العالم، وعلى حب الحق، وكراهة الباطل، وإيثار العدل، ومكارم الأخلاق، وإقامة دولة الفضيلة فى الأرض.

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) الروم: ٣٠.

يقول قائل: كل دين يدعو إلى هذا فأى مزية للإسلام عليها؟ نقول: نعم، والإسلام يقرر أنه ليس بدين جديد، ولكنه الدين الأول الذى أوحاه الله إلى أول أنبيائه، فحرفه الناس وأخرجوه عن أصوله، وتفرقوا فيه، وذهب كل فريق بما تخيله منه، ينابذ به سواه ويستحل دمه. فجاء الإسلام لتنبيه الناس إلى هذا الخطأ البين، والضلال البعيد. قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ (أى لا محاجة ولا خصومة) اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾(١).

﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾(٢).

فالإسلام يدعو لتوحيد دين الإنسانية، وهو الدين الذى فطر عليه الناس جميعاً، وهو إنما تعددت صوره بفعل الرؤساء الذين اقتضت أهواؤهم أن يستغلوا الخلاف بين الناس، مواتاة لمطامعهم، ومسايرةً لمزاعمهم.

فالدين فى نظر الإسلام كل لايقبل التجزؤ، ويشمل ما أوحاه الله إلى الناس كافة، واعتبار كل من أرسلهم إليهم فى جميع العصور والأجيال، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ

(١) الشورى: ١٣ ـ ١٥
(٢) آل عمران: ١٩

وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[1].

والإسلام لأجل أن يسد جميع المسارب على التضليلات التى يتذرع بها رؤساء الأديان لخدع الشعوب، وتفريقهم وحمل بعضهم على معاداة بعض، أقام العقل حكمًا يرجع إليه فى التفرقة بين الحق والباطل، وجعل الدليل وسيلةً من وسائل الوصول إلى لباب المسائل المتنازع عليها. وزاد الإسلام على هذا، القضاء على الاعتداد بالموروثات من العقائد والتقاليد، وجعل كل إنسان مسئولاً عن نفسه، وخلى ما بينه وبين ربه بإسقاط الوسطاء الذين انتحلوا لأنفسهم هذا الحق، فى غفلة العقل، وفى دور طفولة الإنسانية.

فالأديان كما يقول المعترض تدعو كلها إلى عقائد واحدة، ولكنها ملتاثة بشوائب الآراء البشرية، مما لا مناص من التنابذ عليه، ولكن الإسلام يدعو إلى تلك العقائد خالصة من شوائب الآراء، فلا تجد الشعوب المختلفة مانعا يمنعها من الأخذ بها باعتبار أنها دين الإنسانية جمعاء لا دين طائفة من الطوائف، ولا أمة من الأمم. فدين الإنسانية لا يجوز أن يكون حاملاً طابعاً من قومية، ولا أثراً من عقلية، ولا شائبةً من حالة نفسية. بل أصولاً أولية، ومبادىء كلية، وآداباً عالمية.

هذه الغاية سينتهى إليها العقل البشرى حتماً، وإذ ذاك لاتجد الإنسانية فى طريق وحدتها حائلاً يمنعها منها، وعند ذاك تكون الأحوال الاقتصادية العالمية قد استقرت على قرار مكين، وتكون العلوم قد بلغت شأواً تصلح معه أن تطهر النفوس من دنس الميول الساقطة، وتخلص المدنية من آفاتها الموبقة، فتقوم على سياسة رشيدة فى حكوماتها، وأخوة صادقة بين جميع وحداتها، وإذ ذاك يتحقق ما وعد الله به فى قوله: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾[2].

(١) النساء: ١٥٠، ١٥١.

(٢) فصلت: ٥٣.

فالإسلام بما شرعه من جعل أصول الاجتماع قائمة على الأصول الأدبية، والمبادىء الخلقية والعقائد الفطرية، قد وضع أساس مجتمع عالمى عام ستقوم عليه البشرية حين تبلغ رشدها، وتعرف حدها. وقد جرى فى ذلك على سنته من الدعوة إلى النهايات من كل الأمور، والإهابة إلى الغايات فى جميع الشئون.

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها في النفس البشرية (1)

- ١١ -

مقومات التكافل العالمي

كانت الحالة الاجتماعية فى العالم قبل الإسلام، أن كل أمة تعيش على حساب نفسها، منقطعة الصلات بكل أمم الأرض، إلا ما تجمعها بها محالفة دفاعية أو دفاعية هجومية لمصلحة الطرفين المادية، ولم ينشأ الشعور بوجوب وجود تكافل عام بين جميع الأمم إلا فى القرن التاسع عشر، حيث كتبت فيه بحوث قيمة، ونشرت له دعوة مؤثرة.

كانت الأمم قبل هذا التاريخ أشبه بالمعسكرات المعبأة، لاتأمن الغارات المفاجئة ليلاً ولا نهاراً، وكان كل فرد منها مهدر الدم إن حدثته نفسه بتجاوز حدود بلده. فلما ازداد العمران، ونشأت الحاجة إلى تبادل المحصولات الأرضية، والمنتجات الصناعية، نشأ بجانبها شعور بضرورة احتمال الأجانب فى حدود هذا التبادل. ومع هذا فكان المتغربون للمبادلات لايستطيعون تجاوز مناطق معينة من التخوم المتجاورة أو الشواطىء البحرية، فإذا آبوا فلا يأمنون على أنفسهم من الغارات البرية والبحرية، فكانوا يتخذون لذلك أهبتهم الحربية.

كان العالم كله إلى ذلك الحين متأثراً بالعوامل المادية، ولم تكن قد ولدت

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد التاسع سنة ١٣٥٧، ص ٧٣

بعدُ عاطفة الجامعة الإنسانية، إلا فى رءوس بعض أفذاذ الفلاسفة على نقص فى مدلولها. ألم يقل أفلاطون نفسه: إنى أحمد الله على ثلاث: على أن خلقنى إنساناً ولم يخلقنى حيوانًا، وعلى أن جعلنى يونانياً ولم يجعلنى من جنس آخر، وعلى أن أوجدنى فى عصر سقراط ولم يوجدنى فى عصر غيره؟ ألا يدل هذا على أن توهم الأجناس السمو على غيرها كان قويًا حتى فى عقول الفلاسفة المبرزين؟ ودعوى السمو تقتضى التميز فى الحقوق، وليس هذا من العدل المطلق فى شىء. ومثل هذه الأوهام لا تدع محلاً فى الأذهان لفكرة الجامعة الإنسانية.

ولكن الإسلام قد أتى بما يزيل هذا الوهم، فذكَّر الناس جميعاً بأصلهم الأول وهو آدم وحواء، ومن كان أبوهم واحداً وأمهم واحدة فلا محل لأن يدعى بعضهم السمو على بعض من ناحية الجنسية. وترك الطريق مفتوحًا لمبدأ سام وهو أن التميز الصحيح يكون بما يكتسبه الإنسان من صفات روحية، ومزايا عقلية، وهذا التميز لا يحتاج فى تقرره لغير تحققه فى شخص معين، أو أشخاص معينين، فيصبح حقًا لا مرية فيه، ويسارع الناس إلى الاعتراف به للاستمداد منه، والأخذ عنه، وهذا كله مؤدى قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1].

ولدت مع هذا المبدأ الذى أعلنه الإسلام فكرة الجامعة الإنسانية لأول مرة فى تاريخ العالم البشرى، ولم يدعها محصورة فى دائرة نظرية بحتة، كأكثر النظريات الفلسفية التى نقرؤها فى أسفارها الضخمة ولا نجد لها أثراً فى الخارج، ولكنه طبقها على العمل ككل مبدأ جديد أتى به لترقية المجموعة الآدمية.

فأول مظهر يراه الباحث من آثار تطبيق الإسلام لهذا المبدأ، محوه للفروق الجنسية واللغوية واللونية، ومحقه للنعرات القومية المتوسطة فى جميع المسافة

---

(١) الحجرات : ١٣

التى بين آدم ومحمد وما بعده إلى يوم القيامة، فأصبح لم يعد يستطيع قائل أن يقول فى بلاد العرب، وهى بؤرة الفروق القومية: هذا عدنانى وهذا قحطانى، أو هذا عربى وهذا تركمانى، ولا هذا أبيض وهذا أسود، فصار جميع البشر يعتزون إلى أب وأم، إخواناً لا يتميز بعضهم على بعض إلا بالمميزات الأدبية والروحية. وكان أصحاب رسول الله ﷺ يعتبرون الاعتزاز بالقبائل إثماً يجب الاستغفار منه. جاء فى أخبار عمرو بن العاص أنه حدث بينه يومًا وبين المغيرة بن شعبة حوار، فسبه المغيرة، فغضب عمرو وقال: يال هصيص يسبنى المغيرة! فقال له ابنه عبد الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، أدعوة القبائل يا أبت وقد نهى رسول الله ﷺ عنها؟! فندم عمرو على ما بدر منه، وكفّر عنه بأن أعتق ثلاثين عبداً.

وناقش أبوذر فى حضرة النبى يوماً رجلاً أسود فاحتد عليه وصاح به قائلاً فى عرض الكلام: يابن السوداء! فغضب رسول الله ﷺ وقال: طف الصاع طف الصاع! ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بعمل صالح. فندم أبو ذر على مافرط منه وكفّر عن فعلته بأن وضع خده على الأرض وقال للرجل الأسود: قم فطأ على خدى.

هذه حوادث قد يقرؤها الناس كما يقرءون الفكاهات، وهى فى الحقيقة أمور جلل، يصغر بجانبها كل إكبار، لأنها تريك ميلاد أضخم مبدأ عالمى فى العالم الإنسانى على يد خاتم المرسلين ﷺ.

وقد تمشى أسلوب تطبيق هذا المبدأ على كل ما وضعه الإسلام من أصول روحية وخلقية، وما قرره من مبادىء أدبية وقانونية، وما أسسه من معاملات سياسية واجتماعية، وذهب فى تطبيقه حتى فى مجال الحرب، فسمح بها إذا حتمتها الضرورات، ولكنه أمر بالقصد فيها، وحاطها بكل ضروب التخفيف، مراعاة لمبدأ الجامعة الإنسانية، فقال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[1].

---

(١) البقرة : ١٩٠

وقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ (أى ولا يحملنكم بغضكم لقوم) عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1].

وأمر النبى مع هذا أن لا يجهز على جرحى الأعداء، وأن لايتعقب مهزوموهم، وأن لايقتل خدم المحاربين، وأن يحسن إلى أسراهم، وأن لايتعدى على غير المحاربين من نسائهم وأولادهم وشيوخهم وقسوسهم.

أين هذا كله مما يجتهد فيه المتمدنون اليوم من إعداد الآلات الجهنمية لهدم المدن الآمنة ونسف دورها على من فيها من النساء والولدان والهرمى والمرضى، وإحراق مزارعهم وتحطيم بناياتهم، وهذا كله مما نهى عنه الإسلام عملاً بالمبدأ الذى قرره من الاعتداد بالجامعة الإنسانية العامة؟

فهذا السمو الذى تحلى به الإسلام، يزداد ظهوراً إذا قورن بما يجرى بين أرقى المتمدنين اليوم من المعاملات التى تنافى كل مبدأ عال من هذا الطراز. فإذا أراد الإنسان أن يستدل على نبوة نبى، فلا إخاله يستطيع أن يصادف أظهر ولا أجلى من هذه الأدلة الدامغة. فإذا كان العلم الطبيعى وما حمله إلى الإنسان من كشف المساتير، وهتك الحجب عن وجوه الحقائق، وماتحلت به الفلسفة العصرية من الكلمات الضخمة، والعبارات المفوفة، إذا كان كل هذا لم يوصل الإنسانية إلى كلية من هذه الكليات العلوية التى قررها الإسلام، وحمل أهله على العمل بها، فى بقعة من الأرض لم يكن للعلم ولا للفلسفة ظل فيها، أفلا يكون هذا أدل دليل على ما للوحى الإلهى من السلطان على قلوب الناس وعقولهم، أكثر مما للعلم منه بما لا يقدر؟

وإذا قورنت سيرة قوم كانوا بالأمس أهل جاهلية يأكل بعضهم بعضاً، بسيرة المتمدنين اليوم وهم أهل علم وفلسفة، وعراقة بعيدة الغور فى الفكر والنظر، وتحليل الشئون الإنسانية وتركيبها، فهل تجد بدًا من الحكم بأن الأصول

---

(١) المائدة : ٨.

الإسلامية ترفع من نفوس الآخذين بها ما لا ترفعه أصول جميع العلوم والفلسفات مجتمعة؟

فالإسلام الذى أوجد فكرة الجامعة الإنسانية وأخذ يرسخها فى نفسية أهله، لم يغفل جزئية من جزئيات الأمور إلا وقرن بها ما يوجهها هذه الوجهة العالمية الكريمة، حتى فيما يبذله الإنسان من الصدقة، فقد قال النبى ﷺ: «تصدقوا على أهل الأديان كلها»، وحتى فى الهدية. وقد أثبتنا هنا فى بعض بحوثنا أن ابن عباس أمر خادمه بذبح شاة فقال له وهو يسلخها: لا تنس جارنا اليهودى. وما لبث غير قليل حتى عاوده بهذا القول، ثم مالبث أن كررها الثالثة: فقال خادمه: كم تقول ذلك؟ فقال له: إن النبى ﷺ أمرنا بمراعاة الجار حتى خشينا أنه سيورثه. فابن عباس لم يفرق بين المسلم وغيره فى حقوق المجاورة، وما ذلك إلا لأن اعتباره وصايا تعاليمه وجميع الإسلام لم يخل من الجامعة الإنسانية. وهل بعد قوله تعالى: ﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[1].

مرمى لمستزيد؟ أليس البر لايكون إلا بين المتصافين المتحابين، ومعناه كمال الخير، ولا يستعمل إلا لزيادة العناية بمن يراد به، ولذلك استعمل فى الوصاية بالوالدين؟

وقد امتد سلطان المسلمين إلى أمم لم تكن بينهم وبينها آصرة من جنس أو لغة أو دين، بل لم يكونوا فى جاهليتهم يسمعون بوجودها، فعايشوهم على قدم المساواة، وبروهم على ماوصاهم به الكتاب، فرضوا بهم حكاماً، وبدينهم ديناً، وبلغتهم لغةً. ألم تر كيف انتشر الإسلام فى أمم برمتها دون إجبار، فلم تمض على الفرس بعد احتكاكهم بالمسلمين سنون معدودة حتى دخلوا

---

(١) الممتحنة : ٨.

فى الإسلام، وصارمنهم كبار أشياخه، وثقات أئمته، وقلدهم فى الدخول فيه كل الأمم التى تليهم حتى فريق من أهل الهند والصين، ولا يزالون مسلمين مخلصين إلى اليوم. ولقد دهش جميع من عنى بهذا الشأن من العلماء الغربيين وغفلوا عن السبب الطبيعى لحدوثه، وهو سمو تعاليم هذا الدين،وانطباقها على الفطرة الإنسانية والعقل، وتحليه بفكرة الجامعة الإنسانية الكريمة، مع تجرده من كل الخصوصيات القومية، والتعصبات الجنسية، والمميزات البيئية، فهو دين عالمى عام بأصوله وفروعه، لا يفرض صبغة قوم على قوم آخرين، ولكنه يطلق وصاياه وتعاليمه إطلاقا، مسميًا الحال التى تحدث من الأخذ بها بصبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة؟

ومن أعظم مظاهر تأثر المسلمين بفكرة الجامعة الإنسانية، نشرهم علومهم ومعارفهم فى كل بلد حلوا بها، وعملهم المتواصل على تحسين حالة الشعوب التى تقع تحت سلطانهم، وعدم ضنهم بتعدية علومهم للأجانب عنهم. على هذا أجمع المؤرخون من أبناء الفرنجة، وذكروا ما شيده المسلمون من الجامعات فى بلاد غيرهم، وما أقاموه من المراصد، وما سهلوه لأهل الأديان عامةً من الالتحاق بها. فكان كثير من أهل أوروبا يقدمون فى طلب العلم إلى بلادهم. فيرحب المسلمون بهم، ويوسعون لهم صدورهم، ويخلصون لهم في تلقينهم أسرار معارفهم. ولشعور الأوروبيين بكرم نفوس المسلمين، ورحابة ذرعهم، كان ملوك أوروبا وأمراؤها إذا أرادوا الاستشفاء قصدوا بلاد المسلمين لشهرة أطبائها فى صناعة الطب، وتبحرهم فى فن العلاج. ومن يأتمنك على حياته، وليس بينك وبينه آصرة من دين ولا قرابة ولا وطنية، فقد اعتقد فيك الإخلاص المطلق للإنسانية.

ومما يوجب الدهش أن فكرة الجامعة الإنسانية ظهرت بكل سلطانها فى المسلمين، حتى فى عهد حماستهم الدينية. فإن هذه الحماسة لم توجد فيهم كراهة المتدينين بغير دينهم، كما حدث ذلك فى كل شعوب الأرض أيام حماستها الدينية، لكنها على العكس أوجدت لدى أبناء الإسلام رحمةً بمن يخالفهم فى الدين. وهل يوجد أشد صلابةً من عمر فى دينه وهو الذى حمله

التحمس له أن يعلن إسلامه فى وقت كان المؤمنون يعقدون اجتماعاتهم سراً، ولا يجرؤ أحدهم أن يصرح بأنه انضم إلى شيعة النبى ﷺ ؟ فعمر هذا لم يَحُلْ تحمسه لدينه بينه وبين واجبه نحو المعايشين لقومه من أهل الأديان المختلفة، جريا على المبدأ الإسلامى من مراعاة حقوق الجامعة الإنسانية. فقد روى فى تاريخه أنه كان يسأل رجال دولته عن غير المسلمين، فيجيبونه بأنهم على أحسن حال لا يشكون من شيء، وأنهم يعاملون بالعدل والإنصاف، ولا يضيق عليهم فى أى عمل دينى أو دنيوى. فكان رضى الله عنه لا يكتفى بهذا فيذهب بنفسه إليهم ويسألهم عن أحوالهم، تفادياً عن أن يكون بهم ما يشكون منه ويخافون أن يجهروا به.

هذه مدنية لم تولد فى العالم بعد، وأظنها لا تولد إلا بعد مضى أجيال كثيرة، ويخيل إلىّ أنها لا تولد إلا بعد أن لايكون غير الإسلام دين فى الأرض

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها[1] فى النفس البشرية

- ١٢ -

مقومات السياسة الدولية فى الإسلام

كل أمة تتألف فى أية بيئة من بيئات العالم لا تخلو من أن تتصل بعلاقات سياسية مع الأمم المجاورة والبعيدة عنها، لأن المجاورة والمبادلات التجارية سواء أكانت بين جماعات دانية أم قاصية تولد أزمات سياسية، قد تتطور إلى مشاكل دولية، على حسب ماتعالج به من الأصول المرعية لدى تلك الأمم. فلكم جر سوء معاملة المجاورين وأصحاب الرحلات التجارية إلى حروب طاحنة كان من نتائجها إزالة بعض الدول من خريطة العالم، وما حدا تلك الجماعات إلى هذه الإساءات إلا عدم وجود أساس ركين فيها للسياسة الدولية تسير على مقتضاه، أو لها شيء من ذلك ولكنه مشبع بروح الأثرة التى لا تستقيم معها علاقات حسنة، وتفضى دائما إلى التناحر بين الجماعات المتنازعة.

فوجود سياسة دولية مشبعة بروح العدل والمسالمة، أمر لا مفر منه لكل أمة تريد أن تتقى الأخطار الخارجية، أو تقلل من دواعيها جهد الاستطاعة.

فهل للإسلام سياسة من هذا النوع يقوم بناؤها على أصول الحقوق العامة المتفق عليها بين الأمم المتمدنة اليوم؟

---

(١) مجلة الأزهر - المجلد التاسع سنة ١٣٥٧ هـ، ص ٢١٧

نقول: نعم، للإسلام سياسة دولية تقوم على أصول الحقوق الطبيعية، وهى أرقى بما لا يقدر من الحقوق المتفق عليها، لأن هذه وضعية لا تزال بعيدة عن المثل العليا، وتلك إلهية هى المُثُل العليا نفسها ولبيان هذا الإجمال نقول:

أول أساس للسياسة الدولية فى الإسلام هو قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[1].

فهذه الآية تسقط أمهات المزاعم القومية التى تسوّل للناس الأثرة، وتكره إليهم الأمم الأجنبية. ولكن الإسلام يعلن بأن الناس جميعا أبناء أبوين معروفين، وهم سواء فى الحقوق، وأن الأمم والشعوب وإن اختلفت فى البيئات، قد خلقت لتتعارف وتتعاون على تذليل عقبات الحياة، لا لتتناكر وتتناحر فى سبيل البقاء، ولا يجوز أن تكون الفروق فى الأديان واللغات والعادات والألوان، بصادة للأمم الرشيدة عن أن تتعارف وتتصافى فى مجال المعاملات، ويكون أقربها إلى الله أخشاها له، وأوقفها عند حدوده، وهو الذى يتولى وحده السرائر. هذا مؤدى هذه الآية الكريمة التى هى الأصل الأول للسياسة الدولية لدى المسلمين، ومنه تفرعت جميع المعاملات التى تحقق معنى هذه الزمالة العالمية، التى يريدها الإسلام فى هذه الحياة بين جميع الأنام.

فمرمى الإسلام والحالة هذه ربط جميع شعوب الأرض برباط ألفة عامة، تبتنى على أعم أواصر الإنسانية، ولا تقوم الفوارق الجنسية واللغوية والدينية عقابات كأداء فى سبيل تحقيقها. وأول من باشر العمل على تأسيس هذه الألفة بين أفراد النوع البشرى هو نبى هذه الأمة ﷺ، وجاءت آيات الكتاب كلها باعثةً ومعينةً على وضع هذه السياسة العالمية.

ولما كان الدين لا يخرج عن معتقدات وعبادات ومعاملات، فقد جاءت كلها

(١) الحجرات: ١٣

فى الإسلام إما رامزةً إلى هذه الغاية الكريمة أو مهيئةً لها، ومطابقةً لقواعدها العامة كل المطابقة.

أكثر ما تظهر هذه الروح الإسلامية السامية هو فيما فرضه الكتاب على أهله فى المواطن الخطيرة من الدفاع لحماية أنفسهم، أو الهجوم لكسر شرة عدوهم. فقد أمروا فيها بمراعاة أصول مشبعة بروح الاستبقاء والعطف، لا بروح الاصطلام والعسف، كما يحصل بين أمم كتب عليها أن تعيش مؤتلفة لامتازعة، وإنما دفعتها الضرورات لتحكيم السلاح فيما شجر بينها من خلاف مسايرة لسنن الاجتماع، قال الله تعالى: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

ولما كان قد يتوهم أن الإسلام يقضى بمقاطعة كل من لايدين به من الأمم بَيَّن الله هذا الأمر على وجه يرفع كل لبس فقال تعالى:

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[2].

فإن أدت العداوة بين المسلمين وبين بعض الجماعات إلى تحكيم السيف، أمرهم الله أن يقاتلوا أعداءهم، وأن يستبسلوا فى القتال، ولكن على شرط أن لا يحملهم الاستبسال على العدوان والتجنى، بل أن يباشروا الحرب مستشعرين روح العدل المجرد عن الهوى. فكان الإسلام أول من كاشف العالم بأن فى كل شىء عدلاً يناسبه حتى فى التناحر المحض، فقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[3].

(١) الممتحنة: ٧.
(٢) الممتحنة : ٨، ٩
(٣) البقرة : ١٩٠.

وقال تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا (اى ولا يحملنكم بغضكم لهم على أن تعتدوا عليهم) وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(2).

فمن العدل فى الحرب فى شرعة الإسلام أن لا تسرف فى القتل، وأن لا تتجنى على المحارب لك، وأن لاتتعقب المهزومين، وأن لاتجهز على الجرحى، وأن لاتهين الأسرى، وأن لاتقتل خدم المحاربين والمرافقين لهم فى الخطوط الخلفية، فإذا دخلت بلداً معادياً فلا تحرق أشجارها، ولا تهدم دورها، ولا تزهق روحاً من شيوخها ونسائها وولدانها ورجال دينها. وقد تبرأ النبى ﷺ ممن ارتكب شيئاً من ذلك حتى إنه نهى أصحابه أن يسبوا قتلى أعدائهم، فقال عقب وقعة بدر وقد سب بعض الصحابة قتلى المشركين: «لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شىء مما تقولون، وتؤذون الأحياء، ألا إن البذاء لؤم». وهذا نهاية ما يؤثر من السمو الخلقى لشعب دعى لأن يضطلع بخلافة الله فى الأرض، وأن يعمل على إقامة دولة الحق فى العالم كله. وإذا كانت هذه أصوله فى المواقف التى تغلى فيها الرءوس تحت تأثير سورة الغضب، والأسنة المُذَربة تزهق الأرواح وتخمد الأنفاس، فما ظنك به فى مواطن العافية، والسلام ناشر ألويته، والهمم تتبارى فى التكيف بعقائل المحامد، لنيل الدرجات العلى، والزلفى من الحق المطلق؟

ثم إن الحاجات الاجتماعية قد تدعو لعقد المعاهدات، وإبرام الاتفاقات، وتقرير المهادنات، فإزاء هذه الحاجات قرر الإسلام أن يكون شعار أمته الوفاء

(1) البقرة: ١٩٤.

(2) المائدة: ٢

المطلق بها، من غير نظر إلى فائدة تبدو فى نقضها، أو مصلحة تدعو إلى تأويلها، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾[1].

وقال: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾[2].

وذكر صفات المؤمنين الصادقين فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴾[3].

وزاد ذلك تأكيداً فذكر وجوب الوفاء بالعهد ووجوب الصبر فى أشد المحن، وأحرج المواقف، فقال: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾[4].

وأوصى سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهد حتى بالنسبة لمشركى العرب الذين كانوا ينقضون عهدهم فى كل فرصة يظنونها مواتية لهم فى إيذاء المسلمين، ﴿ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[5].

---

(١) المائدة : ١

(٢) الإسراء : ٣٤

(٣) المؤمنون : ٨

(٤) البقرة : ١٧٧.

(٥) التوبة : ٣، ٤.

يوصى الله بالوفاء لهم وهو يعلم أنهم لا يتحرجون من نقض عهدهم، لأول بادرة من فائدة تبدو لهم، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾(1).

ولكى لا يؤثر غدر المشركين فى قلوب المؤمنين فيحملوهم على مجاراتهم فى رذيلة نقض العهد، مقابلة للمثل بالمثل، عاد فذكَّر المسلمين بأن الله يأمر بالعدل بين الناس وبالإحسان، وهو فوق العدل، وبالبر بذوى القربى، وأنه يحرم كل عمل خسيس، وكل منكر وظلم، باعتبار أن هذه الصفات لذاتها من لوازم الإيمان، لا يجوز الهوادة فيها لأى اعتبار كان، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾(2).

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(3).

أى ولا تحملنكم كراهتكم لقوم على مايرتكبونه ضدكم من التعديات المنكرة، على أن تتخطوا طريقة العدل فى معاملتهم.

هذه غايات قصية من السمو السياسى لا يزال العالم بعيداً عنها، وقد عمل بها المسلمون فى عهد لم يكن للوفاء بالعهد فيه من حافز غير الخوف من انتقام

---

(1) الأنفال : ٥٥ ، ٥٦.

(2) النحل : ٩٠، ٩١

(3) المائدة : ٨

المعاهد، لأن غرض الإسلام لم يكن توفير المصالح المادية لأهله فحسب، ولكن تطهير قلوبهم من أقذاء الصفات الحيوانية، وجعلهم أمة نموذجية تقوم على حراسة المُثُل الخلقية العليا فى الأرض. وقد ثبت من استقراء حوادث التاريخ أن الاستقامة الخلقية في السياسة، كانت دائماً أعود على أهلها بالفوز فى مجالات الحياة الاجتماعية العامة من العوج والتلون والنزول على حكم القوة.

ومن الأخلاق السياسية التى بثها الإسلام فى أهله قبول السفراء واحترامهم، والتفاوض معهم على قدم المساواة، فقد روى أن رسول ﷺ كان يحتفل بالوافدين عليه، ويحبوهم بألطافه، حتى روى أنه فرش عباءته لوفد نصارى نجران وأجلسهم عليها.

ويروى عنه ما هو أعظم من ذلك مما يدل على مرونة سياسية حقة يجب أن تؤثر عنه، وتنشر بين الناس، ذلك أنه لما كانت السنة السادسة من الهجرة، أراد النبى ﷺ أن يعتمر، أى يطوف بالبيت الحرام فى غير أوان الحج، فاستنفر الناس لذلك فاجتمع إليه ألف وخمسمائة، فخرجوا ليس عليهم من السلاح إلا السيوف. فلما بلغ قريشا ذلك هاج هائجها فأرسلت بديل بن ورقاء ليتعرف مقصدهم، فعاد إليهم وأخبرهم أنهم جاءوا معتمرين، فقالت: أيريد محمد أن يدخل علينا فى جنوده معتمراً فتسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة، وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا، والله لا كان هذا أبدًا ومنا عين تطرف! وأرسلوا إليه حليس بن علقمة. فلما عاد إليهم أيد قول بديل بن ورقاء ونصحهم بأن يدعوه وما أراد. فلم يقبلوا نصيحته وأرسلوا إليه عروة بن مسعود الثقفى، فقال له: «يامحمد قد جمعت أوباش الناس ثم جئت إلى أصلك وعشيرتك لتفضها بهم؟ إنها قريش قد خرجت تعاهد الله أن لا تدخلها عليهم عنوة أبدًا» وكان عروة يتكلم بهذا ويمس لحية رسول الله بيده، وكان المغيرة بن شعبة، وهو أحد الصحابة، يقرع يد عروة كلما هم بذلك. ولما عاد إلى قريش أيد رأى صاحبيه. فقالوا لا بأس من أن يجىء فى العام المقبل، أما هذا العام فلا. وأرسلوا سهيل بن عمرو ليتفق مع النبى ﷺ على ذلك. فقبل رسول الله هذا

العرض وأخذ يملى على علىّ بن أبى طالب نص العقد، فأملاه: بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سفير الجاهليين: لا نعرف الرحمن الرحيم، اكتب: باسمك اللهم. فقبل رسول الله ذلك منه. ثم مضى في إملائه فقال: ياعلى اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله. فاعترض مفوض قريش على هذه العبارة، وقال: لو نعلم أنك رسول الله ما خالفناك. فأمر النبى ﷺ كاتبه أن يمحو ماكتب، فكره على محوه، فمحاه رسول الله بيده.

يتحكم الجاهلىّ فى وجوب حذف كلمتى الرحمن الرحيم وهما عربيتان والقصد منهما تمجيد الخالق، ويأبى إثبات عبارة (رسول الله) بحجة أن قريشاً لا تعتقد بصحة نبوته، ويغبى عن أن إثبات هذه العبارة فى العقد لا يقتضى إيمانهم به، ولكن الجاهليين لا منطق لهم. فاعجب من سمو منطق النبى ﷺ فى حذفها، لأن ذلك الحذف لا يقتضى سلبها منه.

هذه، لا أقول مرونة سياسية، ولكنى أقول إنها حكمة نبوية، ورسول الله قدوة لأمته، وقد جرى خلفاؤه فى أحفل عصور الإسلام بالعظائم على مثل هذه الخطة من المياسرة والملاينة، وتحدى المثل العليا فى المعاملة والمجاملة، واستشعار أسمى الصفات النفسية حتى فى المخاصمة والمقاتلة، فوضعوا بذلك أصول سياسة دولية هى أحكم قواعد، وأرسخ وطائد، وأجمع لمبادىء الإنسانية، من أية سياسة فى الأرض من يوم أن خلق الله الخلق إلى اليوم.

فمن يتأمل فى أقوال أقطاب العالم الحديث من أن السياسة لا قلب لها ولا ضمير، وأنها يجب أن تبنى على أصول تنازع البقاء، ومحاباة الأقوياء، ويقارنها بأصول السياسة الإسلامية، يجد البون شاسعا بين المذهبين، ولا يسعه إلا أن يعترف بأن تلك سياسة جاهلية من آثارها استبقاء الإحنَ والأحقاد بين الأمم والشعوب، وإثارة الحروب بينها مع ما تجره من خراب على العمران، وهذه السياسة أساسها العدل المطلق، وثمرتها التقريب بين الجماعات البشرية، والقضاء على المنازعات المصلحية، وردها جميعًا إلى دستور من التعاون والائتلاف جدير بكرامة الإنسانية، وملىء بإيجاد زمالة عامة بين البشر كافة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾[1].

---

(١) الإسراء: ٩.

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها[1] فى النفس البشرية

- ١٣ -

المقومات الشرعية فى الإسلام

لم تر الأرض شريعة أرسخ قواعد فى العدل، ولا أبعد مدى فى المساواة واحترام الغير، ولا أجمع لأصول الحياة الاجتماعية، وأشمل لعناصر التطورات الإنسانية، من الشريعة الإسلامية، ذلك لأنها قامت على مراعاة الحقوق الطبيعية، وراعت فى وضعها لا مصلحة المجتمع الإسلامى وحده، ولكن مصلحة المجتمع البشرى كله، بل والمجموع العالمى عامة، ولا حظت فى بناء جماعتها أن لا يكون أمرهم قائماً على التضخم بامتصاص دماء المقهورين، ولكن على بذل النفس والنفيس فى سبيل إقامة المثل الأعلى للحياة الإنسانية الكاملة.

هذا كلام يحتاج لبيان، فإليك:

أدرك الإنسان فى القرون المتأخرة أن هنالك عدلاً مطلقاً، وحقوقاً طبيعية لكل فرد وكل جماعة، وأن قصارى أمر الشرائع التى تعتبر عادلة هى التى تقرُب بالإنسان إلى هذا العدل المطلق وهذه الحقوق الطبيعية، لا أن تؤتيه بها كاملة، لقيام عقبات من طبائع شتى تحول بين المشترعين وبينها. ولكن الإسلام

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد التاسع سنة ١٣٥٧ هـ، ص ٢٨٩

انفرد عن جميع الشرائع فى تقرير العدل المطلق والحقوق الطبيعية للأفراد والجماعات معاً.

شريعة الإسلام فى القرآن الكريم، وهى فى الجملة أصول أولية من العدل والمساواة على إطلاقهما، وقد تركت لأولى البصر تقدير الحقوق، وتحديد التبعات، وتقرير العقوبات (إلا فى مواطن معدودة).

وقد قضى النبى ﷺ فى حوادث حفظتها السنة الصحيحة، وجاء الأئمة بعده فقضوا بأمور أخرى لم تكن وقعت على عهده ﷺ، وقد راعى جميعهم فيما قضوا به العدل المطلق والمساواة الكاملة، فجاءت مذاهبهم أعدل ما عرفه البشر إلى اليوم.

أطلق الشارع حق النظر فى الشريعة لكل إنسان حتى من لا يقبل منهم النظر فى أحقر الأمور لدى الأمم كافة كالأرقاء ومن فى حكمهم، فتكلم كل قادر على الفهم والاستنباط فى هذه الشئون، واعتبر كلامه إما اجتهاداً مطلقاً منه، أو اجتهاداً فى مذهب من المذاهب المعروفة، حتى لا يستطيع أحد أن يأتى بقول من أقوال المشترعين المعاصرين لا يكون قد سبقهم إليه إمام من الأئمة أو عالم من علماء المسلمين. فإذا أريد أن يعمل من جملة هذه الأقوال قانون عام أمكن عمله على حال أكمل من حال كل قانون فى الأرض، ويكون مع ذلك قابلاً للتطور إلى ما لا حد له، لأن الإسلام لم يضع للاجتهاد حداً، ولم يعين له أهلاً، ولم يحدد له زمناً، ولكنه ترك بابه مفتوحاً ليسع جميع التطورات العقلية التى تدخل فيها العقول فى كل زمان ومكان، حتى لا يكون للمسلمين عذر فى تركه والتعويل على الشرائع الأخرى.

هذا من ناحية الأصول الأولية، التى أقيم عليها صرح الشريعة الإسلامية، فهل راعى المشترعون الإسلاميون هذه الأصول، وهل أساغها الناس فى تلك العصور ونفذوها على أكمل الوجوه؟

نحن مضطرون لتقديم هذه الأسئلة، لأن تنفيذ مقتضيات العدل المطلق

والمساواة الكاملة، لم يحصل إلى اليوم فى أرقى أمم الأرض من اللاتى نصبن أنفسهن أوصياء على العالمين، فهل تنفذه أمة فى أول عهدها بالاجتماع، وتقوم بحقه فى الحدود التى نعرفها نحن اليوم؟

نعم: نفذته الأمة الإسلامية، وقامت بحقه طوال عهد قوتها، وإليك طرفًا من سيرتها فى ذلك، والحوادث أدلة لا تقبل الشك:

ساوت بين خاصة المسلمين وعامتهم، وبين الكافة من أهل الملل الأخرى أمام القانون، ونظرت فى منازعاتهم على بساط المساواة المطلقة، ولم تعتد بالفروق التى بينهم من نواحى الجنس والدين والميزات الأدبية والمادية، ألم يُسَوِّ الفاروق رضى الله عنه بين يهودى وعلى بن أبى طالب، وبين أحد العامة وجبلة بن الأيهم ملك غسان، وبين واحد من الرعية وابن عمرو بن العاص فاتح مصر وأعطاه دِرته ليضربه بها كما ضربه ابن عمرو بعصاه؟ ألم يغضب النبى ﷺ من أبى ذر الغفارى عندما قال لأحد السود: يا ابن السوداء، وقال له: إنك رجل فيك جاهلية؟ أسمعت منذ خلق الله العالم إلى اليوم أن مشترعاً قرر أن من يقتل عبده أو عبد غيره يقتل به كما فعل ذلك الإمام مالك؟

إننا نكتب هذا ونحن نترنح طرباً من هذه الآيات الباهرة، ونتساءل: هل يمكن أن يكون لهذه الشريعة التى بلغت درجة المثل الأعلى فى العدل والمساواة مصدر غير الوحى الإلهى؟

وهل يستطيع رجل نشأ فى جزيرة العرب، بيئة الفخر بالآباء، والعدوان على الضعفاء، أن يأتى بمثل هذا العدل فى ذلك العهد البعيد عنا؟

الحدود المقررة على بعض الجرائم فى القرآن:

قلنا فى مفتتح هذه المقالة: إن الشريعة القرآنية أصول أولية من العدل المطلق، وقد تركت لأولى البصر تحديد التبعات، وتقدير العقوبات، إلا فى مواطن معدودة، فهذه المواطن هى الزنا والقذف والسكر والسرقة والإفساد فى الأرض. الشريعة الإسلامية قررت على الجريمة الأولى الرجم إن كان مرتكبها

محصناً، وعلى الثانية مائة جلدة، وعلى الثالثة ثمانين جلدة، وعلى الرابعة قطع اليد، وعلى الخامسة قطع اليد والرجل من خلاف أو النفى.

هذه العقوبات تصادف اليوم اعتراضات من جانب المشترعين. وقد أباحوا هم الزنا وشرب الخمر، وقرروا على القذف والسرقة والإفساد فى الأرض عقوبات لاتتناسب وخطرها. فكان من أثر ذلك أن انتشرت الجرائم فى العالم المتمدن انتشاراً مزعجًا لم يكن معروفًا من قبل، ولا يمر يوم دون أن يزداد المجرمون عددًا، وتكثر وسائلهم الشريرة، حتى أصبح الناس لا يأمنون على أموالهم وأنفسهم.

ولكن الإسلام دين إصلاح عالمى يرمى إلى تأليف مجتمع تقل فيه الشرور والآثام إلى أقصى حد ممكن، ويسود فيه التكافل فى الحياة، والترافد حيال عقباتها.

وفى الأرض مذاهب إصلاحية كثيرة ممثلة فى الأديان الموجودة، وفيما تركه الفلاسفة الأولون من التعاليم، وما رآه المفكرون المعاصرون من النظم، من أول حكومة الفرد إلى الاشتراكية الشيوعية، بل إلى الفوضى الباحتة.

وقد طبقت هذه المذاهب كلها فكانت آثارها غير مرضية، إذ زادت الجرائم حتى فى عهد المدنية الراقية، والفتوحات العلمية العظيمة، ولا تزال فى ازدياد. وقد ألح المشترعون فى الغرب على دراسة مناشىء الجرائم ووسائل علاجها، وطبقوا كثيراً من أساليبهم فأخفقت جميعًا. ولم يبق إلا وسيلة واحدة وهى تشديد العقوبة على المجرمين ليكون فى ذلك ردع لأهل النفوس المريضة، ووازع لذوى النزعات الخبيثة.

وخير لأى مجتمع أن تقطع بضع أيد من أن يتمادى اللصوص فيه على العدوان على الناس ليلا ونهاراً، وكثيراً ما جرت تعدياتهم إلى إزهاق نفوس زكية.

والجلد إذا كان مشروعًا فى الإسلام بالنسبة للقاذف والسكران فإن مبدأ الجلد

معمول به إلى اليوم فى أرقى البلاد مدنية كإنجلترة وألمانيا عقاباً على بعض الجرائم.

فإذا رأى بعض الناس أن عقوبة الرجم شديدة فقد احتاط لها الإسلام فوضع للوقوع تحت طائلتها ضمانات قوية، وهى أن يشهد بها أربعة شهود عدول يقررون أنهم رأوا الفعل بأعينهم واقعاً بحيث لا تتسرب إلى واحد منهم شبهة من ملامسة أو مفاخذة أو غير ذلك، وهذا يكاد يكون مستحيلاً.

فإن لم يتم نصاب الشهادة فلابد لاستحقاق العقوبة من الاعتراف بالجريمة، فإن لم يعترف بها سقطت عنه وعن شريكه فى الإثم وإن اعترف.

ومن أعظم ما يعرف من الاعتداد بمصلحة المتهم أن الزانى لو اعترف وبدىء فى الرجم ثم عاد فأنكر، رفعت عنه العقوبة، وهذا غاية ما يعرف من الرحمة بالإنسانية. وفيه دليل قاطع على أن الإسلام لم يقرر ما قرره من هذه العقوبات إلا للردع لا للانتقام أو التشفى.

ومن خصائص الشريعة الإسلامية قيامها على العلم وهو غير محدود، وعلى الفهم وهو قابل للتطور، وعلى اعتبار الأحوال المحيطة، والعوامل الخارجية، وعلى الاعتداد بناموس الترقى. وقد تظهر هذه الخصائص كلها جلية من النظر فى الأمور الآتية:

(أولها) أن التشريع فى الإسلام لم يودع إلى طائفة خاصة، ولا حصر فى طبقة معينة، ولا جعل من حظ أمة دون أخرى، ولكنه جعل حقًا شائعاً للكافة يتناوله من شاء من المسلمين حتى المماليك والموالى، ثم ترك للرأى العام الحكم فى الأخذ بما قيل أو إهماله.

(ثانيها) أنه لم يوضع للتشريع فى الإسلام أسلوب مقرر لا يجوز تعديه، فترك لكل ناظر الخيار فى انتخاب أسلوبه، فلذلك تخالفت أساليب مجتهدى الإسلام، ولم يعتد المسلمون باختلافها بل اعتدوا بمقدار انطباقها على الأصول الأولية للكتاب والسنة.

(ثالثها) أنه لم يخص التشريع فى الإسلام بزمان دون زمان، فقد كان للقرن الأول أئمة، وللثانى أئمة يبلغ عددهم نحو سبعين يتبعهم الناس دون حرج. ونص العلماء أنه كان فى كل قرن علماء وصلوا إلى درجة الاجتهاد، وقرروا أن بابه مفتوح إلى يوم القيامة، ومعنى هذا أن الفيض الإلهى لا يتوقف على جيل من الناس دون جيل آخر حتى قالوا: كم ترك الأول للآخر. أى كثير.

(رابعها) أن أحدًا لم يحجر على أحد فى اتباع أى المذاهب الفقهية شاء، ولم يضطهد أحد من المسلمين بسبب مذهبه قط، وإنما نبه العلماء على المبتدعة، وعلى من خرج عن دائرة الإسلام منها.

(خامسها) إجماع المسلمين على أن الاجتهاد فى تنوّر أسرار الشريعة واجب على الحاصلين على مؤهلاتها، ولذلك لم يكرهوا قط أن تتعدد المذاهب، وهم فى ذلك كله يصدرون عن سنة النبى ﷺ نفسه، فقد قال: «للمجتهد أجران إن أصاب، وأجر إن أخطأ». وفى هذا أكبر تنشيط على النظر والتأمل، ومحاكمة الأدلة المختلفة والتحرى عن الحق الصميم.

(سادسها) كان المسلمون لا يروعهم الخلاف بين المجتهدين مهما كان بعيد المدى، بل كانوا يقابلون هذه الخلافات بارتياح عظيم، وكانوا يكبرونها إلى حد أن جعلوا لها علماً خاصًا سموه علم الخلاف، فكانوا يتدارسونه كما يتدارسون أصول الفقه لتحصيل ملكة السريان فى سرائر المسائل المعقدة. وسرى الترحيب بهذا الخلاف إلى العامة حتى قالوا: «اختلافهم رحمة».

هذه الوجوه أعجب ما يروى عن شريعة دينية، فلا يسع أى مشترع من المعاصرين أن لا يظهر دهشه منها؛ إذ يرى بعينيه أنها تضع شريعة الإسلام فى مستوى بعيد عن العوامل، التى تلحق بالشرائع فتصيبها بالوقوف والتحجر، وتوجد لها من المناعة وقوة الحياة ماتتقى بهما كل خطر يخطر بالبال من دواعى الانحلال، وتضمن لها الخلود والتفوق فى وسط كل تطورات العقل والعلم معا.

وما أضر بالشرائع الدينية السابقة فى العالم كافة إلا أن أصحابها اعتبروا جزئياتها ثابتة فى درجة ثبوت كلياتها، فتقدمت الجماعات التابعة لها فى العلوم والصنائع والفنون، وجدّت فيهم مع تتالى العصور أمور وشئون، ونشأت لهم

عادات وآداب، وحدثت بينهم وبين الأمم الأخرى ارتباطات، وكل ذلك يقتضى تشريعات جديدة، ونظم مناسبة لها. فوجد القائمون بشرائعهم أنفسهم بين أمرين: فإما أن يعطلوا تقدم تلك الأمم لتدوم على ما كانت عليه قبل حدوث التطورات الجديدة عليها، وإما أن يغيروا فى أوضاع شريعتهم، فعز عليهم الأمر الأخير، فلم يجدوا بدًا من الأمر الأول، فبذلوا وسعهم فى عرقلة كل تقدم للأمم التى أوقعها سوء حظها تحت سلطانهم، وكثيرا ما لجأوا إلى السلاح فى هذه السبيل ليدوم لشريعتهم سلطانها، ولهم مكانتهم الممتازة، فلم يفلحوا، وكانت النتيجة أن تركت الشعوب الدين لممثليه، وأخذت هى فى تقدمها. وقد اتقى الإسلام ذلك كله بأسلوبه البديع كما رأيت.

فهب أن عقولاً قد تمردت إلى أقصى حد، فلم تخضع إلا لأحكام عقولها غير معتدة بأى أصل فى الأرض. فإنها بذلك التمرد لا تستطيع أن تسقط الشريعة الإسلامية، لأن العقول مهما تمردت فلا تستطيع أن تتمرد على الحقائق، وما دامت فى هذه الدائرة فهى فى دائرة الإسلام نفسه، وهو يريد منها أن تتمرد على الأباطيل لتصل إلى الحق المجرد عن الملابسات.

هذه مقومات الشريعة الإسلامية، فإذا أراد المسلمون إظهار عظمتها وخلودها فليقيموا هذه المقومات وليعملوا بها، غير وانين ولا متواكلين: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1].

(١) العنكبوت: ٦٩.

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها[1] فى النفس البشرية

- ١٤ -

مقومات التطور الأدبى والاجتماعى فى الإسلام

إن تطور الجماعات فى الناحيتين الأدبية والاجتماعية من الأمور التى يجب أن تعنى بها الشرائع لأنها من أمسّ الأمور بحياة الأمم. فالجماعات التى تعيش على حالة من الأحوال ولا تصادف من الشريعة التى تقود ميولها، وتدير قواها المعنوية ما يسهل لها سبيل التطور فى الآداب والعادات والعلوم والصنائع، تقف حيث هى، وتسبقها من كان دونها من الجماعات، وتدخلها فى طاعتها.

وقد دل التاريخ على أن شرائع جنت على أهلها من هذه الناحية جنايات تعتبرغايةً فى الفظاعة، فقد أجمع المؤرخون على أن المسيطرين على أوروبا بعد القرن الرابع من الميلاد أمسكوا أهلها فى حالة جمود أكثر من ألف سنة، فلم ينبغ منهم عالم واحد فى علم من العلوم، وانحط ما كان لديهم من آثار اليونانيين والرومانيين من المعارف والفنون، حتى بعث الله المسلمين فاستخرجوا تلك الكنوز المدفونة من قبورها، وأرسلوها نوراً ساطعاً غمروا به الناس، وبما زادوا عليه من نورهم قروناً كثيرة، حتى استحقوا أن يلقبوا ببناة المدنية الحديثة.

وما أُتيت الأديان، ودب إليه الضعف، إلا من ناحية إغفال قادتها هذه الناحية في تعاليمهم، ناحية التطور في كل مجال من مجالات النشاط العلمى والعملى.

والذى حدا أولئك القادة إلى سد طريق التطور فى وجوه أتباعهم، أنهم

---

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد التاسع سنة ١٣٥٧ هـ، ص٣٦٤

تخيلوا أن التطور يخرج بهم عن الأصول القديمة، ويفضى إلى ضياع ما أتمنوا على حفظه سليماً من كل تحول، وغفلوا عن أن التطور إذا عدا على شى فإنما يعدو على الباطل، أما الحق فيزيده جلاء ولألاء. فإذا كان الذى يتمسكون به حقًا فلا خوف عليه من أى تطور كان، وإن قلب الأوضاع كلها رأساً على عقب، وإن كان باطلاً فعبثاً يحافظون عليه، فإنهم إن استطاعوا دفع الغير عنه جيلاً أو جيلين اضطروا فى النهاية للقهقرى إزاء القوى الغالبة للانتقال، وانهارت بانهيارهم صروح ربما كان بقاء بعضها ضروريًا.

أما شريعة الإسلام من هذه الناحية فلا أقول إنها قد احتاطت لها فحسب، ولكنى أقول إنها قد فرضت التطور على أهلها فرضاً، ودفعتهم إليه دفعاً، لأنها شريعة عهد الرشد للأمم، وقد علم الله أن الأمم فى هذه العهد تطفر فى الترقى طفرًا، وتقطع المراحل إليه قفزًا، فهى بحاجة إلى شريعة لا تناسب حالتها الراهنة فحسب بل تهيئ لها وسائل التقدم، وتعبد لها طرقه، وتمدها فيه بقوة معنوية فوق قواها الطبيعية، لتحفظ وجودها بين أمم لا تكاد تغرب عن واحدة منها الشمس حتى تدوى الجواء باكتشاف جديد تحدثه يؤثر فى الأحوال العامة تأثيرًا عميقًا يجب المبالاة بنتائجه، وماذا تغنى المبالاة المجردة إذا لم تقترن بالعمل، وأنى يكون عمل إذا لم يكن علم عال ومحاولات تبلغ النهايات المعروفة؟

قلنا: إن الإسلام قد فرض التطور على أهله فرضاً ودفعهم إليه دفعاً، وإلا فكيف نفسر انتقال المسلمين بعد أخذهم بهذا الدين من عداد الأمم الجاهلية المسودة، إلى مصاف الأمم العالمة السائدة، أستغفر الله بل إلى صف فوق الصفوف صارت فيه وحدها حافظة للعلم والحضارة والفنون دون سائر الأمم؟ وقد اعترفت الأمم كافة لها بالزعامة قروناً طويلة كانت فيه تؤم عواصمها تأخذ عنها فيها العلم والحكمة، وأسرار الصنائع والفنون، أليس هذا لأن الإسلام يفرض على متبعيه التطور فرضاً، ولا يكتفى بأن يسمح لها به سماحاً؟

إن قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1].

وقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[2].

وقوله: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3].

وقول النبى ﷺ: « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وقوله: «خذ الحكمة ولو من مشرك »كل هذه الآيات والأحاديث فرضت على المسلمين العلم، ودفعت بهم إلى مضايقه دفعاً، والعلم يؤدى إلى الترقى لا محالة، بل هو طريقه الوحيد فى كل أدوار البشر.

هل اكتفى الإسلام بهذا اللون فى تحبيب العلم إلى الناس، وأجبارهم على التعويل عليه؟ لا، ولكنه لم يدع لوناً من ألوان التأثير فى العقول، ولا باعثاً من بواعث التوثب فى النفوس إلا استخدمه فى هذه السبيل، حتى قال النبى ﷺ: «كن عالماً أو متعلماً ولا تكن الثالثة فتهلك» وقال: «الموت عالم واحد أشد عند الله من موت قبيلة» وقال: «فقيه واحد خير من ألف عابد» وقال: «يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء فيرجحه».

هذا كله وأمثاله مما يكاد لا يحصى يفسر ما حدث من الانقلاب العظيم فى جماعة العرب، وإلا فمن ذا الذى كان يتخيل أن أولئك الجاهلين، بعد فترة من الزمان لا تعتبر فى حياة الأمم شيئاً يذكر، يصبحون وفى أيديهم قبس العلم يعشو إلى نوره العالم أجمع، يأخذون عنهم ما جعلهم الله أمناء عليه دون خلقه، فكانوا الحافظين لميراث الإنسانية من ناحية، والواسطة فى إحيائه، وتسهيل الانتفاع به، من ناحية أخرى؟

من ذا الذى كان يستطيع أن يتخيل هذا لولا أن الإسلام قد أوجب على متبعيه الاندفاع فى التطور إيجاباً، ولم يكتف أن يبيحه لهم إباحة؟

(١) الإسراء: ٨٥.
(٢) طه: ١١٤.
(٣) الزمر: ٩.

هل وضع الإسلام حدًا للتطور؟

لا، إن الدين يقول لمتبعيه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] يفتح أمامهم باحة اللانهاية فلا يدع فى أنفسهم حاجة إلى السؤال عن الحدود والغايات. لذلك رأيت المسلمين الأولين بعد وفاة نبيهم بست سنين اندفعوا وراء العلم اندفاعهم وراء الحياة. ولا عجب فإن الدين الذى يصرح بأن عقل آيات الله وإدراك أسرارها من حظ أهل العلم دون سواهم وحدهم فيقول:﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[2].

يجب أن يوصف بأنه دين العلم غير منازع.

هل وضع الإسلام لشهوات العقول حدًا؟ وهل أوصد فى وجه مستفيد مجالاً؟ اللهم لا، ولكنه أباح لها أن تجول فى كل مجال، وأن تجوس خلال كل مجهول تظن أن وراءه فائدة مادية أو معنوية.

وقد ندب الإسلام المسلمين إلى تعلم اللغات الأجنبية، وحضَّهم على تعلم كل علم حتى العلوم المعروفة بأنها باطنية أو ظلمانية، إن لم يكن للانتفاع بها فلاتقاء الضرر الذى يجىء من قبلها، كالعلوم الطلسمية والسيمياء وأسرار الحروف وغيرها.

ومَنْ مِنَ الناس يخطر بباله أن الإسلام يسمح بتعلم السحر، وهو من أخص العلوم الظلمانية، وقد أعدم مئات الألوف من المتهمين به فى الأمم، وألقوا فى النار أحياء، ولا تزال بعض القوانين الأوروبية تعاقب من يشتغل بالاتصال بالعالم الخفى ولو من ناحية التجارب العلمية.

لم يحرم الإسلام من هذه العلوم الظلمانية إلا العمل بها، حتى قال المسلمون فى حِكمهم: «تعلم السحر ولا تعمل به».

---

(١) النحل: ٨.
(٢) العنكبوت: ٤٣.

هذا تسامح عظيم، بل مراعاة حقة للطبيعة البشرية، فإن الإنسان مدفوع بطبعه لأن يرود كل مجهول، ويتحسس من كل محجوب، ويرمى بنفسه إلى كل مرمى ولو كان وراءه حتفه فالدين الفطرى المماشى لطبائع النفوس لا يسمح أن يوصد على العقول باحة، ولا أن يضع لمرماها حدًّا. ولو كان فعل ذلك لكسر الناس كل حاجز وضعه، وجازوا كل حد رسمه، ولأصبح ديناً خياليًا يعرف ولا يعمل به، والله لا يريد إلا أن يكون الإسلام دين العالمين العملى.

ومما هو جدير بالذكر أن المسلمين لم يكتفوا بالشغل بجميع هذه العلوم الباطنية، ولكنهم ألفوا فيها كتباً لاتزال موجودة إلى اليوم، منها المطبوع ومنها المخطوط، وكثير منها محفوظ بدار الكتب المصرية، وفى مكتبات الأفراد فى جميع البلاد الإسلامية.

ومن أغرب ما نرويه أن المسلمين اشتغلوا كثيرا بكيمياء الذهب ووصلوا منها إلى نتائج عملية، فقد صرح بعضهم بأنه قد أنجح فيما تصدى له منها، وليس لنا أن نكذبهم كما كنا نفعل قبل سنين معدودة، إذ أعلن علماء من الكيماويين فى أوروبا بأنهم قد توصلوا إلى عمل الذهب، ولكن يمنعهم من عمل مقادير كبيرة منه أنه يتكلف قدر ما يصنع منه.

وثبت أيضًا، كما قرره الأستاذ (دريبر) وغيره، أن العرب بحثوا فى مذهب التطور والاستحالة ودرسوه فى بعض دورهم العلمية بأوسع مما يفعله الأوروبيون اليوم، إذ أنهم سرَّوا عوامل التطور العام على المعدنيات أيضا، فكانهم صعدوا بتلك العوامل إلى أعلى مصادرها، ولم يقصروا النظر فيها إلى طور متوسط منها.

وقال بعض المؤرخين: إنه ثبت أن العرب وصلوا فى رحلاتهم الجغرافية إلى شواطئ أمريكا، وإن كريستوف الذى اعتبر مكتشفها قد عثر هنالك على أشياء مادية تدل على وصول العرب إليها قبله.

وقد شهد كبار المؤرخين الاجتماعيين أن العرب قد وصلوا من بعض الفنون والصنائع إلى شأو لم يبلغه الأوروبيون بعد. قال العلامة الدكتور (جوستاف لوبون) فى كتابه (تمدن العرب):

«العرب مع ولوعهم بالأبحاث النظرية لم يهملوا تطبيقها على الصنائع والفنون، فقد أكسبت علومهم لصنائعهم جودة عظيمة جدًا. وإننا وإن كنا لم نزل نجهل أكثر الطرائق التى سلكوها لذلك، فإننا نعرف نتائجها وآثارها، فنعرف مثلاً أنهم احتفروا المناجم واستخرجوا منها الكبريت والنحاس والزئبق والحديد والذهب، وأنهم برعوا جدًا فى الصباغة، ومهروا فى سقى الفولاذ مهارة بعيدة المدى، وأنهم فى كثير من فنون الصنائع، قد برعوا براعةً لم يلحق لهم شأو فيها للآن (تأمل)».

نقول: إذا كانت أوروبا على ما وصلت إليه من الإبداع الفنى والصناعى تشهد على لسان أكابر ممثلى العلم والفنون فيها بأن المسلمين وصلوا من الكمال العملى فى كثير من الصنائع إلى أبعد مما وصلت هى إليه، فإن ذلك لا يمكن أن يكون ثمرة تعاليم دينية جامدة، وأزيد فأقول: ولا تعاليم حاثة عليه من الطراز المعروف، ولكنها تعاليم من نوع أرفع، يسندها من جميع نواحيها بواعث تحضيض للتكمل، وبلوغ غايات السمو فى كل ضروب النشاط الروحى والعقلى، قد مزجت مزجًا مقيساً على القابليات البشرية فى كل دور من أدوارها. من لم يفترض هذا الافتراض، مستهدياً ببعض التفصيلات العملية، فلا يستطيع أن يفهم كيف يؤدى هذا الدين جماعة يؤلفها على غير نظام الجماعات، طفرة دون تدرج، ثم يقذف بها فى قابوس الحياة الملتطم الأمواج، إلى ساحل للسمو الروحى والمادى لم تصل إليه أمة قبلها.

والذى علينا بعد هذا الافتراض أن ندرس الإسلام دراسةً تحليليةً لنصل من مجموع تعاليمه إلى كنه هذه العوامل الفذة، المنبثة فى صميم تركيبه.

إنه قد قيل: لو كان الإسلام كما تدعى لكان حال الشعوب الآخذة به غيرما هى عليه اليوم، وأنا قد قلت: لو لم يكن هو كما ادعيت لما أمكن تعليل قيام جماعته الأولى على النحو الذى كانت عليه فى مدى من الزمان لا يكفى عشرة أضعافه لإحداث بعض التطورات التى دخلت فيها، حتى انتهت إلى ما انتهت إليه. فإن اعتبر خصوم الإسلام ما قالوه شبهة سلبية، فإنا قد قابلناها كما ترى بحقيقة إيجابية، وأقمنا على حقيقتها كل دليل.

القسم الثالث

عناصر المدنية فى الديانة الإسلامية

عناصر المدنية في الديانة الإسلامية[1]

- ١ -

المدنية كلمة مشتقة من «مدن المدائن» أى بناها ومصرها، و«تمدن» أى تخلق بأخلاق أهل المدن وخرج من حالة البداوة.

ولكن للمدنية فى عرف العلماء الاجتماعيين معنى أوسع مما مر، فهى تعنى عندهم الحالة الراقية التى توجد عليها الأمم تحت تأثير العلوم والفنون والصنائع، وبهذا فقد اكتسبت المدنية معنى أرفع من معناها اللغوى، إذ اعتبرت مثلاً أعلى للحياة البشرية تتدرج إليه الأمم تحت تأثير رقيها العلمى والعقلى والنفسى والاجتماعى.

وجاء الفلاسفة فقرروا أن الإنسان مدنى بطبعه، أى إنه مفطور على الارتقاء، وعلى بلوغ غايات بعيدة من السمو العلمى والأدبى والصناعى، وهم بهذا القول ما فعلوا شيئاً غير حكاية الواقع المحسوس، فإن الإنسان خلق مجرداً من جميع ما يلزمه من ضروريات العيش، وفروع العلم، وضروب الفنون والوسائل، ولم يصل بعد إلى غاية مداه! بلغ كل هذا بدوافع ذاتية، وحوافز نفسانية، وقوى مودعة فيه، لاتنى تدفعه إلى الاستزادة مما هو فيه حتى قدّرٍ بعض الحكماء إنه سيصل إلى مستوى من الترقى لا يجول بخيال إنسان.

لسنا بصدد الكلام عن قابليات الإنسان ومواهبه النفسية، ولكنا بسبيل بيان ما فى الدين الإسلامى من عناصر المدنية، تبرئة له من التهمة التى يشيعها

(١) مجلة الأزهر ـ السنة الحادية والعشرون سنة ١٣٦٩ هـ، ص ٤٨٧

الماديون من أن الأديان عدوة طبيعية للحضارة الإنسانية، ما أخذ بها قوم إلا أصبحوا أعداء لكل ارتقاء مادى، وهبطوا إلى حضيض الشعوب البدائية.

للمدنية ككل الشؤون الاجتماعية عناصر يتألف منه كيانها، تؤثر فى الجماعات البشرية فتؤديها إلى شكل من الوجود يتناسب والبيئة المحيطة بها. وللديانات تعاليم خاصة بها، تارة يتفق بعضها وتلك العناصر فترتقى الأمم الآخذة بها، وتصل إلى مدى بعيد من التحضر؛ وتارة لا يتفق بعضها الآخر وتلك العناصر، فتتدهور عن مستواها الأول، ولا تزال تمعن فى التدهور حتى تصل إلى الحضيض، فتفنى فى جثمان أمم أخرى.

وبعد، فقد جاء الإسلام إلى العرب وهم لم يصلوا بعد إلى درجة أمة، وذلك بسبب قحولة بلادهم، وحرمان أرضهم من الأنهار، وما درجوا عليه وألفوه من الحياة القبيلية آماداً طويلة، فوقفوا بسبب تلك الحالة عن الترقى الأدبى والمادى أجيالاً طويلة: وما وصل إلى شىء من ذلك من قبائلهم لم يلبث إلا قليلاً حتى تلاشى، وعاد إلى مثل ما كانوا عليه من البداوة والجاهلية حتى ظهر الإسلام، وما إن دخلوا فيه، وجروا على تعاليمه، حتى تطوروا إلى درجة أمة موثقة الأواصر، موحَّدة المبادىء؛ ولم يمض عليهم غير جيلين حتى رأيناهم قد أصبحوا للبشرية قادةً فى العلم والفلسفة والصناعة؛ وامتد ملكهم إلى نحو ربع الكرة الأرضية، وهو ملك لم ينبغ لأمة قبلهم ولا بعدهم إلى يومنا هذا، حكموه بعدل وإنصاف يضرب بهما المثل إلى عهدنا الراهن، فكيف يتفق للعرب أن يطفروا إلى هذه المنزلة من التمدن العالى، إن لم يكن فى الدين الذى دخلوا فيه، وهو الإسلام عناصر لتلك الحالة الرفيعة التى تأدوا إليها؟

هذا أمر لا معدى عنه، فما هى هذه العناصر؟

(أولها) إحكام أواصر الاجتماع، وتوثيق عرى الوحدة، إلى الحد الذى تتلاشى فيه الفوارق الشخصية، فيصبح معه المجتمع كالفرد الواحد تحركه إرادة

عامة، وتدبره روح واحدة، وتدفعه إلى غاية مشتركة هى السعادة الكلية التى يحظى بالمتاع بها، والعيش فى كنفها، جميع الأفراد على حد سواء، على مثال أعضاء الجسم الواحد يستمتع كل عضو بنصيبه من سلامته دون أن ينقص منها شيء؛ وقد وصل المسلمون الأولون إلى هذه الدرجة الممتازة من الاجتماع بفضل المبادىء الإسلامية، وبتأثير الروح المحمدية، فكان أثرهما فى أمة لا عهد لها باجتماع من أغرب الظواهر العمرانية، وأدعاها إلى الدهش والحيرة. أصبح المجتمع الإسلامى جسداً واحداً تحركه روح واحدة على وجه لم يعهد له مثيل فى مجتمع آخر؛ حتى روى أن صحابياً منهم حمل قدحاً من الماء ليروى صدى بعض الجرحى فى موقعة، وكان منهم كثيرون بجواره يجودون بأرواحهم، فلما اقترب منه أشار إليه أن يقدم القدح للذى يليه، فلما قدمه إليه أشار له هذا ليعطيها لواحد آخر، فلما انتهى إليه آثر على نفسه جريحاً آخر بالقرب منه، وهكذا صار حامل القدح يتردد به بين الجرحى، وكل منهم يؤثر على نفسه غيره حتى ماتوا جميعاً عطاشاً ولم يصب واحد منهم قطرة. وقد وصف النبى ﷺ حالة أصحابه من الناحية الاجتماعية فقال: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» وقال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»، وقال: «ليس منا من بات شبعان وجاره جائع» وقال ابن عباس: «لقد أوصانا رسول ﷺ بالجار حتى خشينا أنه سيورثه».

هذا التماسك الاجتماعى من أوليات عناصر المدنية، لأن الأفراد إذا تكاتفوا على حفظ كيان الاجتماع، ووثقوا بأن وجوده غير مهدد بالتفكك، لم يحصروا همهم كله فى وجودهم الشخصى وضرورياته من مأكل وملبس، بل يحل محله كيانهم العام، ويشغلهم ما هو بحاجة إليه من استصلاح بيئته، وتوفير مقوماتها، ومن ترقية جماعته وتمهيد سبل حياتها، وتنمية عددها، واكتشاف وسائل تقويتها، فتشتغل على هذا الوجه عقول أذكيائها، وأولى العلم منها بالأمور الفنية، والاكتشافات الصناعية، والتطوع لأجل الأغراض العمومية. وقد

تشتد هذه العاطفة الاجتماعية حتى تصل إلى الاستهانة بالحياة الشخصية، فى سبيل كشف جغرافى، أو تركيب كيمائى، أو تحقيق طبى، ولو أردنا أن نسرد أسماء من لقوا حتوفهم جرياً وراء هذه المقاصد العامة لا ضطررنا إلى الإطالة.

والحياة القبيلية لا تتوافر فيها البواعث النفسية الدافعة للترقى الأدبى المادى، لأنها لقلة عدد أفرادها، وعدم طمأنينتها على وجودها، بسبب الإغارات المتوالية عليها من جيرانها، تطغى لديها عاطفة الدفاع عن النفس والأهل والولد على كل عاطفة ذات آثار عامة، فلا يشتغل بال رجالها بغير التسلح والوقوف موقف المتربص لكل مفاجأة عدوانية تقع فى ليل أو نهار؛ وجماعةٌ هذه حالتها من توقع المباغتات، وتخوف الغارات، لا يدور بخلد آحادها غير هَمّ واحد، وهو الدفاع عن النفس، فلهذا السبب لا تصادف فى القبائل واخدة تخطت دور الحياة البدائية ولو مكثت على حالتها ألف سنة.

وما حمى المسلمين من شر التفرق بعد وفاة النبى ﷺ غير ما عنى به الإسلام من توثيق أواصر الاجتماع، وإحكام عرىٍ الوحدة العامة. وقد جرت العادة وخاصة فى الجماعات القريبة العهد بالوجود، أنها عقب موت موجدها تتداعى إلى الانحلال، انصياعاً لتسويلات أركان حربه من القواد الكبار، فتقع بينهم الشحناء، وتشب نيران الحروب آماداً طويلة لا تجنى الشعوب والأفراد من ورائها غير القلاقل والفتن؛ فتتلاشى طيباتها، وينتشر فيها البؤس واليأس، ثم تنتهى إلى ما قدر لها من مغبة غير محمودة. كما حدث بعد وفاة الإسكندر المقدونى، فقد اتفق له فتح ممالك برمتها عقب حروب موفقة، فلما وافاه أجله اقتسم قواده ملكه بينهم والسيوف مصلتة فى أيديهم، ووقعت الشعوب بسبب ذلك فى فتن كقطع الليل المظلم، ثم انتهى الأمر بتلاشى ذلك الملك العظيم.

ولكن المسلمين بعد وفاة النبى ﷺ ولوا عليهم واحداً منهم، ولم يؤد ذلك فى أمة كانت بالأمس مؤلفة من قبائل شتى إلى انقسام يفضى إلى فتنة، غير

جماعات ارتدت عن الإسلام لم تلبث أن عادت إلى حظيرته كما كانت. ولما توفى خليفته طلب المسلمون إليه أن يختار لخلافته أولاهم بها، فكان ما أرادوا وسمعوا له وأطاعوا، وفتحوا سورية ومصر وبلاد الفرس على عهده. وتوالى الخلفاء وتوالت الفتوح حتى أصبح ملك المسلمين تساوى مساحته ربع الكرة الأرضية، فى مدى نحو قرن واحد. وفى أثناء ذلك نشطت العقول لإيتاء ثمراتها، وتحركت الهمم للتبريز فى ميدانها؛ ولم يمض غير قرن آخر حتى بلغ المسلمون من المدنية إلى المستوى الرفيع الذى بيناه فى مقالنا السابق. وفيما يلى من المقالات نأتى على بقية عناصر المدنية ومكانتها من الأصول الإسلامية، وآثارها على المسلمين حتى بلغوا بها الأوج الذى أدهش العالم تحت هداية القرآن والتربية المحمدية.

عَناصِر المَدنيّة فى الدّيانة الإِسلاميّة(1)

- ٢ -

الرابطة المادية والرابطة الأدبية

قلنا فى العدد الذى سلف: إن أول عناصر المدنية إحكام أواصر الاجتماع فى الجماعة. واليوم نقول: إن كل اجتماع لا بد له من رابطتين، إحداهما ذات أغراض مادية، والأخرى ذات غايات أدبية: فالرابطة الأولى تقتضيها الحاجات الجسدية، إذ لابد للمجتمعين أن يكون لهم محاولات لتحصيل ما يوفى بضرورياتهم الجثمانية، وهذه المحاولات لصعوبتها تستدعى التضافر على إيجادها، ولا تغنى فيها الجهود الفردية، فهى رابطة حيوية قوية؛ إذ لاتقوم الحياة الجُمَّاعية إلا بها، وهى ضرورية تعنى بها الجماعة عنايتها بحياتها، وتبيع فى سبيل صيانتها وجودها الدنيوى رخيصاً، وهى تتولد تولدا آلياً فى نفسية الجماعات دون أن تحتاج لدعوة.

والرابطة الأدبية هى من ضروريات الحياة البشرية أيضاً، ولم تصادف جماعة مجردة منها فى مدى الأدوار التاريخية كلها، وهى تتألف من أصول ومبادىء يوحى إليها بها محصولها العلمى مناسبةً لمداركها العقلية ومواهبها النفسية؛ فهى تحكم على الوجود وقواه وأحداثه وانقلاباته، وعلى الإنسان وحياته وتطوراته ومُثُله العليا ومصيره، تحت ضوء ما ورثته عن أسلافها من دين، وما طرأ عليها من عادات وتقاليد.

(1) مجلة الأزهر - السنة الحادية والعشرون سنة ١٣٦٩، هـ ص٥٧٧

والرابطة المادية كما تتولد آليا، تتطور الأدبية آليا كذلك، دون أن تحدث في الجماعة أي اضطراب، لأن المحاولات المادية من شأنها أن تتشعب تحت ضغط الحوائل والحاجات، فتقبل الجماعات تطوراتها كوسائل إنقاذ من العنت والرهق؛ وعلى خلاف ذلك الرابطة الأدبية، فإنها لتعلقها بالعقائد الدينية، والعادات القومية، والتقاليد الاجتماعية، تستعصى على التطور، وتتألب على دفعه. فإن دفع العلم والتهذيب العقلى فريقا إلى قبوله، أدى ذلك إلى انقسام الجماعة شطرين فى الميول والمُثُل العليا؛ وقد يتفاقم أمره فيؤدى إلى الثورات المسلحة، فيقتل بعض الجماعة بعضاً غير آبهين بما يصيب أمتهم من الوهن، وبما يعرّض وجودها للخطر.

وقد تكون مظاهر هذه الثورات اجتماعية باحتة، ولكنها ترجع بالتحليل إلى عوامل أدبية، كشعور الطبقة العاملة بحيف واقع عليها من ناحية الطبقة القابضة على زمام الثروة العمومية، وعدم معاملتها بروح العدالة التى تقتضيها الأخوة القومية. فالعوامل الأدبية فى الجماعات هى الأسس التى يقوم عليها بناء المجتمع، فإذا لم تكن مرنة مسايرة لحركات التطور الشعورى والأدبى للنفوس البشرية، فلا يعقل أن يستقر نظام أو تزدهر مدنية.

ومن يتأمل فى كثير من أحوال الجماعات الأوروبية التى بلغت مدى بعيداً فى المدنية، يأخذه العجب مما آلت إليه من اضطراب شئونها، واختلاف ميول شعوبها؛ حتى لم يوفق بعضها لإقامة حكومة تثبت أمام هذه الأعاصير من القلاقل بضعة أشهر. والسبب فى ذلك تحول طرأ على مبادئها الأدبية تحت تأثير خطباء من ذوى اللسن والخلابة الكلامية، حشوا عقولهم، إن حقًا وإن باطلاً، بأن العدل يقتضى أن يكون نصيبهم من ربح الأعمال التى يقومون بها، يكفيهم ويكفى من يعولونهم الحاجة. وما لم يعطوا أجورهم على هذا الوجه، فلا يفتأون يعتصبون ويضطربون، بل يثورون حتى تجاب مطالبهم. فانظر كيف أثر هذا التحول فى المبدأ على الجماعات، حتى جعلها فى أمر مريج لا مخلص منه إلا حدوث إصلاح عام للمبدأ نفسه، تتقى به هذه الزعازع. وكيف يمكن

أن يتم إصلاح تستقر الأمور عليه على طريقة الارتجال، وهو إذا أرضى فريقاً أسخط فريقاً آخر لا يقل عن الأول إثارة للقلاقل والارتباكات؟ فانظر إلى أى حد يضطرب نظام الجماعات تحت تأثير المبادىء والأصول؟ ثم انظر إلى أى حال من الدقة والاتزان يحب أن تكون تلك المبادىء والأصول، لتعيش فى ظلالها الأمة أجيالاً متوالية قرونًا كثيرة، لتصل إلى مدنية تستفيد منها البشرية انتقالات مادية وأدبية؟.

فلنرجع الآن بعد بسط هذه المقدمة إلى موضوعنا الأصلى، وهو: «عناصر المدنية فى الديانة الإسلامية» فنقول: العنصر الثانى بعد توثيق أواصر الاجتماع هو:

فرض «رابطة أدبية» على الجماعة تضمن حقوق الأفراد، وتعين واجباتهم، وتحدد دوائر نشاطهم، وتكون من المرونة وقبول التطور بحيث لاتصطدم فى أدوار وجودهم، بما يتأدون إليه من ترقيات مادية وأدبية، بل تسايرهم فى تلك الأدوار، وتماشيهم فى طريقهم إلى المُثُل العليا من جميع محاولاتهم، بما يناسب جميع طبقاتها، ويوائم حوافز نفسياتها، فتعيش وهى مركبة من طوائف شتّى فى نطاق هذه الرابطة، كأعضاء الكائن الحى، تتكافل جميعها على إبلاغه الغاية القصوى مما قُدِّر له من ارتقاء وبقاء.

لا يعرف فى تاريخ العالم الإنسانى بأن رابطة اجتماعية قامت على هذا النحو غير الرابطة الإسلامية، فقد جاءت فى كل هذه الشئون البشرية بالنهايات التى ليس وراءها مرمى، تاركة فهم مكانتها من السمو للأجيال المقبلة: «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق». ولذلك أوصلت الأمة التى تولتها إلى أرفع المكانات الاجتماعية، دون أن يحتاج أهلها إلى تعديل عوج في أصولها، أو تبديل نص من نصوصها. خلافًا لجميع الأمم التى وصلت إلى غايات بعيدة فى مدنيتها، فإن روابطها بدأت ساذجة جائرة، ليس للضعفاء فيها حق يحترم، ولا للمساواة فيها مبدأ يلتزم، بل كان السلطان كله للقوة والغلب، فكانت فى كل مرحلة من مراحل وجودها تجد نفسها فى معمعان

ثورة بين الأقوياء والضعفاء، تنتهى عادة بخيال من حقوق ينالها هؤلاء بعد جهاد عنيف، ولا يزالون ينشدون هذه المساواة، ولم ينالوها كاملةً إلى يومنا هذا.

الا تعجب أن أكبر العقول البشرية عجزت عن قبول مبدأ المساواة فى الحقوق الوطنية، فقرر أفلاطون شيخ الفلسفة ، وتلميذه أرسطو أميرها، أن العمال وأرباب الصنائع يجب أن يكونوا مجردين من الحقوق الوطنية، أما السود من العبيد ومن على شاكلتهم، فلا يجوز أن يعتقد أن لهم أرواحًا إنسانية خالدة كأرواح البيض، فهم بعد موتهم يستحيلون إلى تراب كما تستحيل إليه أجساد الحيوانات العجم؟

ولما خلفت هذه المدنية اليونانية الرومانية، جرت على شاكلتها فى معاملة سواد الأمم، فاعتبرتهم مسخرين للكبراء وأصحاب الثروات، ومضت فى ذلك قُدُما حتى ضج العامة من فداحة ما عوملوا به من الامتهان والظلم، وفضلوا أن يهيموا على وجوههم فى القفار على أن يصبروا على إذلال لا تطيقه الطبيعة البشرية. فاضطر الخاصة أن يرضخوا لهم ببعض مطالبهم، فعادوا مغلوبين على أمرهم، ينتهزون كل فرصة للشغب والخروج عن الطاعة، وما زالوا على ما كانوا عليه من سوء الحال حتى تألبت القبائل الهامجة المجاورة للإمبراطورية الإمبراطورية الرومانية فى إيطاليا على إبادتها فبادت فى سنة (٣٩٥) م وتلتها فى الزوال الأمبراطورية الرومانية الغربية حين فتح الأتراك القسطنطينية عاصمتها فى سنة (١٤٥٣) م بعد أن كانوا جردوها من جميع ممتلكاتها الأوروبية.

أما الرابطة الإسلامية فقد خلصت من جميع العلل الاجتماعية، فلم تنطو على أصل يناقض العقل أو يدابر العدل، أو يؤدى إلى اصطدام الطبقات والأجناس فى دور من أدوار الاجتماع، أو يقف حائلاً بين الجماعة والترقى فى مرحلة من مراحل حياتها الطويلة، أو يمكن تأويله لمصلحة فريق دون فريق، وهذا الأمر الجلل من الآيات الخالدة، يدل على أنه وحى من مدبر الوجود والكائنات، لا أنه ثمرة تفكير فلسفى، أو تدبير علمى؛ فقد سبق زمان وحيه بما لا يقدر من الأجيال؛ وجاوز حدود الطاقة العلمية والفلسفية لعهد تشريعه بما لا يتخيله إنسان.

الا تعجب أنه بينا كانت أرقى فلسفة فى العالم، تقرر أن الصناع والعمال لايستأهلون أن يعترف لهم بالحقوق الوطنية، وأن الأرقاء مثلهم كمثل الحيوانات العجْم لا أرواح لهم تبقى بعد موتهم، كان الإسلام يسوى بين جميع الطبقات فى الحقوق الوطنية، ومنهم العبيد السود، لقول النبى ﷺ: «لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لأبيض على أسود، إلا بتقوى الله وعمل صالح»! وجرى العمل على ذلك من ذاك العهد، فعين رسول الله بلالاً، وكان عبداً حبشياً، والياً على المدنية وفيها أبو بكر وعمر، وجمهور كبير من كبراء الصحابة، وولى غيره قائداً لجيش كان من جنوده الصديق والفاروق وغيرهما من أجلاء المسلمين! هذا عجيب حقًا، وهذه المساواة فى الحقوق، كانت إحدى الأسباب التى صانت وحدة المسلمين من التفكك، وحمتهم من الاضطرابات الثورية، فى مدى قرون متوالية. فهى بهذا الاعتبار، كما كانت من أوثق حوافظ الترابط الاجتماعى، كانت كذلك من أقوى عناصر المدنية، ومن أشدها شحذاً للهمم فى الذهاب بها إلى أقصى حد يمكن أن تصل إليه: لأن المدنية تستمد إبداعها المادى من الصناعات اليدوية، فإذا كان رجال هذه الصناعات يجدون أنفسهم محرومين من الحقوق الوطنية، فلا يجدون من البواعث على الإتقان والابتكار ما يجده المتمتعون بجميع الحقوق الاجتماعية؛ لذلك لم يكد يخلف المسلمون الأولون من سبقهم من الأمم فى الخلافة العالمية؛ حتى نهضت الصناعات اليدوية نهضة فجائية بزوا بها جميع الأمم التى تقدمتهم فى الوجود، وصارت بلادهم مثابة لطلاب العلم والحكمة والصنائع، يقتبسون منها ما يسدون به حاجتهم الاجتماعية. واستمر الحال على هذا المنوال مئات من السنين. فإذا كانت الشعوب الإسلامية قد تدهورت إلى ما هى عليه الآن من الناحية الإبداعية والفنية، فإنما كان ذلك لأسباب انحراف المسلمين عن الصراط السوى الذى قام عليه أسلافهم؛ أما وقد أدركوا ذلك الآن، وبدأوا يستقيمون على الطريق السوى الذى كان يسلكه أوائلهم فى الدين والدنيا، فسيصلون إن شاء الله إلى مثل ما كانوا عليه من السبق إلى كل غاية كريمة.

عناصر المدنية فى الديانة الإسلامية(١)

- ٣ -

بينا فى مقالنا السابق، ما للرابطة الأدبية من تأثير على حياة الاجتماع، وانتظام وجوده، واطراد ترقيه، فإذا تأثرت بأقل عارض اضطرب له جثمان المجتمع، وتزلزلت أركانه، وآذنت بالتصدع والانهيار، إذا لم يبادر حفظة تلك الرابطة إلى إزالة ذلك العارض. وما الثورات التى يشب أوارها فى المجتمعات، فتندلع ألسنته فى جميع نواحيها، وتأتى على الأخضر واليابس منها، إلا نتيجة كما قلنا، لتأثر تلك الرابطة. وهى تتألف من ركنين عظيمين: دين الأمة وعاداتها المألوفة، وتقاليدها الموروثة.

ولما كان من المحال أن تقيم الأمم على حالة واحدة من الحياة والعادات والتقاليد، ما دام ناموس الترقى عاملا رئيسيا فى حياة الأمم، فلا مندوحة من طروء تأثرات متوالية من ناحيته عليها، فلا تنقطع مادة الثورات والانقلابات الاجتماعية فى أدوار متقاربة أو متباعدة من حياتها.

نعم، قد يظهر أن ناموس الترقى عديم التأثير فى بعض الجماعات البدائية، فإن منها من مضى عليها عشرات من القرون، وهى ملازمة لحالة واحدة لا تريم عنها، ولكن لذلك أسباباً طبيعية، وهى أنها تقيم بعيدة عن العمران، وتعيش فى بيئات مجدبة لا تحصل فيها على مقومات حياتها إلا كدًا، فلا تجد أى حافز يدفعها، لأن تتقدم خطوة واحدة فى مجال الحياة، فإن طرأت انقلابات اقتضت

(١) مجلة الأزهر - السنة الحادية والعشرون سنة ١٣٦٩ هـ، ص٨٦٥

أن تقرب منها جماعة أخرى أرقى منها، وحدث اتصال بينهما، كان ذلك فاتحة انتقال لها من حال إلى حال أخرى أرفع منها، بما تقتبسه من وسائل جارتها، وما تستفيده من تجاربها، ووجد ناموس الترقى مجالا له فى بعثها من رقادها. على أنه قد شوهد أن من الجماعات من جمدت على ما هى عليه، فأصبحت تستعصى على الترقى ولا تقبله مهما كان جذابا، كهنود أمريكا الشمالية والجنوبية فقد احتلتهما الدول الأوروبية منذ قرون، ففضل أهلها الأولون البعد عن المتمدنين والعيش على أسلوبهم متوحشين، على أن يحسنوا من شأنهم باقتباس ماهم فى حاجة إليه من نظم الاجتماع، وما هم محرومون منه من وسائل العيش الرغيد، ولا يزالون يعيشون على طريقتهم القديمة بعيدين عن العمران، وتحت تأثير عوامل الانقراض والفناء.

فناموس الارتقاء هو الحافز الأول فى بث روح الثورة فى الجماعات، وهى وإن كانت تسبب كثيرا من المتاعب لها، إلا أنها بما تستتبعه من الانتقالات الأدبية والمادية تعتبر من الضروريات للجماعات. على أنها من العوامل الخطرة، وخاصة إذا كانت تشب فى طائفة تجاور أخرى مزاحمة لها فى البقاء، فإنها بما تحدثه من التفكك فى رُبُطها، وما تستدعيه من الفوضى فى نُظمها، تسهل لجاراتها الإجهاز عليها.

وإذا تأملنا فى بواعث الخلاف الذى يؤدى إلى تناحر الآحاد فى الجماعة الواحدة، تحت تأثير عوامل الارتقاء، وجدناه يرجع إلى أسباب دينية وعادية. فالأديان بما تشاب به من الخرافات، والعادات بما تلتاث به من الجمود، قد تصبح عوامل معطلة للارتقاء، وقد يدرك هذه الحقيقة جمهور من النبهاء ويعملون على التجديد، فيخيل للجامدين أنهم أصبحوا خوارج على تراث الآباء من عادات ومعتقدات، فيحقدون عليهم، ويتداعون إلى الإيقاع بهم، فتشب نار الثورة بين الإخوان، ثم تخمد بغلبة أحد الفريقين، فإن كان الفائزون هم المحافظون، ازدادت الجماعة تقهقراً فى مجال الحياة، وإن دارت الدائرة عليهم استطاع المجددون أن يخطوا بمجتمعهم خطوة أو خطوات فى سبيل الارتقاء.

وهذا التدافع الاجتماعى لا مناص منه حتى فى أدوار الرسالات السماوية. ألم تصادف رسالة الإسلام، وهو الدين العام، من هذا التدافع، مع نصوع أدلتها، وتجلى حكمتها، ووضوح الحاجة إليها، ومن التألب على أبطالها، ما يعتبر من أغرب أطوار الحالات النفسية والعقلية للجماعات البشرية؟

كل هذا مسلَّم به، ولكن تأمل فيما حدث بعد أن تكونت أول جماعة للمسلمين: تألفت هذه الجماعة من شتى القبائل العربية، ولكل منها عقائد موروثة، وتقاليد مألوفة، وعادات امتزجت بنفوسهم، ككل جماعة بدائية لم يهذبها علم، ولم تقوِّمها حكمة، فهى وإن كانت قبلت الدعوة المحمدية، فلم تتجرد من شخصيتها البدوية، فكان المعقول أن تفهم مايلقى إليها من التعاليم على أسلوبها، فتحوِّله إلى ما درجت عليه من سيرتها، وتجمد عليه كما جمدت على موروثاتها قروناً طويلة، وتقع من جديد تحت سلطان ناموس الترقى، فتكابد من جمودها وعوامله، ما تكابده كل جماعة فى مثل عقليتها. ولكن الأمر لم يجر على هذه السنة الطبيعية، بل جاءت سيرتها خارقة للعادة، تعتبر بحق أكبر معجزة وقعت فى هذا العالم. ذلك أن هذه الجماعة أخذت تزداد كل يوم عدداً، وما مضى عليها سنوات معدودة حتى انقلبت إلى أمة فاتحة، ذات نعرة إصلاحية مدوِّية، وما هى إلا ثمانون سنة حتى أصبح لها إمبراطورية لم تنبَغ لأمة قبلها ولا بعدها، وما بلغت سنها مائة وخمسين سنة حتى آلت إليها خلافة الله فى الأرض، فصارت جامعاتها العلمية محجاً لطلاب العلم من جميع بقاع المعمورة، ودورها الصناعية مورداً عدا لطلاب الفنون الجميلة، ومكتباتها الفخمة ملتقى لعشاق المعرفة، وفلاسفتها وأطباؤها وفلكيوها وكيماويوها ومشترعون أئمة لكل راغب فى الغايات القصية.

حدث كل هذا دون أن يحدث شىء من التدافع بين طوائفها، إلا ما لابد منه عند ميلاد كل رأى جديد، أما الثورات المسلحة، وأما الدماء المهراقة، وأما التطاحن الماحق لطيبات الأمم، بسبب التنافس بين أنصار القديم، وأصحاب الجديد، فلم يكن له أثر فى تلك الملايين الكثيرة من المسلمين فى تلك العصور البعيدة. فأين ما ذكرناه من أفاعيل ناموس الترقى فى الجماعات البشرية، وقد

بدأ المسلمون جماعة أمية لا عهد لها بكتاب ولا علم، وما زالت تتطور بسرعة لم تعهد فى تاريخ أمم العالم أجمع، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من سعة فى الملك، وكثرة فى العدد، حتى صارت أكبر دولة فى الأرض؟ فأين التدافع الاجتماعى الذى يصيب الجماعات عند كل مرحلة من مراحلة التطورات المدنية؟ بل أين الانقلابات المدوِّية التى تصاحب كل حضارة فى أدوار الانتقالات التجديدية؟

عجب لا يشبهه عجب! لقد اتبعت هذه الأمة من سنة التطور ما يكابده الطفل من يوم ولادته حتى يبلغ أشده، دون أن يصيبه مرض يقفه عن النمو، ولم تؤثر عليها الفواعل المحيطة بها، بما يحول بينها وبين بلوغ غاية نموها، على كثرة العوامل العالمية التى كانت تحتوشها من كل جانب، حتى صدق قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[1].

نعم إن الذين يؤمنون بالتأييد الإلهى، والتوجيه السماوى للأمم، هم وحدهم الذين يفهمون فى هذا الموطن معنى هذا التأييد الإلهى؛ أما الذين لا لايؤمنون به، ويرون أن العالم يجرى على السنن الطبيعية، دون أى تأييد فوق الطبيعة، فلا يستطيعون أن يفهموا سر تطور المسلمين من أول مراحل الاجتماع، حتى يصلوا إلى خلافة الله فى الأرض، بعد سنين معدودة لا تكفى لنقل جماعة سواهم درجة واحدة من درجات الرقى، دون أن يمنوا بانقلابات تتزلزل لها الأرض التى تحت أقدامهم، وتضيق لها المنادح التى أمام أعينهم!

نعم إن هذا الأمر المعجز أثر ناطق للتأييد الإلهى المباشر، وللتوجيه السماوى المحكم، ليكون لأهل القرون المتأخرة آية تخر لها العقول ساجدة، وتؤيدها العلوم جاهدة، فتتغلب على الشبه والشكوك التى يثيرها الملحدون حول

(١) النور: ٥٥.

أمثال هذه المعجزات الخالدة. ولكن أنَّى لهم إنكارها، وقد ملأ الخافقين لألاؤها، وعم العالمين سلطانها، وبقيت إلى اليوم آثارها، فلا يتسنى لأحد إنكارها؟

قلنا إن الروابط الأدبية للأمم تتألف من ركنين: أديانها وعوائدها، فإذا كانت الأمة الإسلامية قد مثلت معجزة اجتماعية تعتبر غاية الغايات فى الجلالة، فإنما يرجع ذلك إلى ديانتها دون عوائدها، لأنها أعلنت بإسلامها أنها قاطعت جميع عوائدها، اكتفاء بما تمدها به ديانتها من آدابها، وبذلك ينحصر سر نهضتها بتلك السرعة والثبات المحيرين للعقل، فى ديانتها.

عناصر المدنيّة في الدّيانة الإسلاميّة[1]

- ٤ -

قلنا فى المقال السابق: إن الأمم فى انتقالاتها الاجتماعية، خلال الأدوار المتابعة التى تتوالى عليها، إنما تتأثر بعاملين قويين: عاداتها الموروثة، ودياناتها؛ وإن كثيراً ماجرها التدافع بين هذين العاملين إلى شر ضروب التناحر بين آحادها. وكثيرًا ما قضى عليها هذا التناحر بالانحلال والتلاشى. إلا الأمة الإسلامية، فقد كان أمرها عجباً؛ بل كان آية خالدة لم يرو لنا تاريخ البشرية ما يشبهها ولا ما يقرب منها؛ فأقرب الأديان إلينا وأشهرها اليهودية والنصرانية، فالأولى كانت خاصة ببنى إسرائيل، دعا إليها موسى ﷺ، فاختلف عليه قومه حتى عوقبوا بالتيه، ولم تقم لهم دولة إلا بعد أدوار شتى. وأما النصرانية فكانت أبطأ خطى من سابقتها حتى أنه لم تتأسس باسمها دولة إلا فى سنة (٣١٣) على عهد الإمبراطور (كونستانتين) الرومانى. أما الإسلام فلم يطل عهد الدعوة إليه أكثر من عشر سنين فى مكة. فلما هاجر منها محمد ﷺ إلى يثرب، كان ذلك بداية للدولة الإسلامية، وهى الديانة العالمية التى أرسل خاتم المرسلين لإعلانها للناس كافة؛ فأرسل رسولها لعياهل الأمم التى كان يمكن الاتصال بها فى ذلك العهد، وهى الدولة الرومانية، والدولة الفارسية، والدولة الحبشية، وغيرها، كتباً يحيطهم علماً بقيامها، ويدعوهم للدخول فيها، وينذرهم بالمُثُلات إن هم تنكبوا عنها. حَدَثٌ جللٌ لم يعهد له

(١) مجلة الأزهر السنة الحادية والعشرون سنة ١٣٦٩ هـ، ص٧٦٩

مثيل فى تاريخ البشر، ولم يقم به محمد ﷺ إلا بوحى من ربه، وكيف كان يقدم على ذلك من تلقاء نفسه، وهو على رأس قلة من الرجال لم يأمنوا على وجودهم بعد، وكانوا إذا قاموا للصلاة تقدمت طائفة وحرستهم أخرى، خشية أن يكبسهم أعداؤهم وهم مجردون من أسلحتهم فلا تقوم لهم بعدها قائمة؟ ولكن الحق جل وعز وعدهم ـ وهم فى تلك القلة يخشون أن يتخطفهم الناس ـ بأنه سيمنحهم خلافته فى الأرض، وأنه سيؤيدهم وسينصرهم على أعدائهم ماداموا موفين بعهدهم الذى عاهدوه عليه، وهو قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(1).

هذه آية اجتماعية لم يقم لها نظير فى العالم كله، وهى أن تتألف جماعة من طوائف شتى، فتزداد عدداً بسرعة لم تعهد فى أى دور من أدوار البشرية، ثم تنساح فى الأرض بعد نحو خمسة عشرة سنة من تألفها، فتنشر فيه ديناً لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه، وتؤسس ملكًا قوى الدعائم، ركين الأركان، لا تغرب عنه الشمس، يبلغ أهله فى مائة وخمسين سنة من العلم والصنائع والمدنية ما يفوقون به العريقين فيها أنفسهم، ويستمرون حاملين لواءها قروناً متوالية ينشرونها حيث حلت أقدامهم من بقاع الأرض.

نعم هذه كبرى الآيات الإلهية فى تاريخ الإنسانية، يرجع الفضل فيها إلى تعاليم الإسلام وإلى الروح التى يبثها فى القلوب، والأسلوب الذى يسيطر به على العقول والميول. فالأمة الإسلامية التى نالت خلافة الله فى الأرض، وتولت زعامة العالم نحو ألف سنة، وإن يكن أصابها من الفتور ما يصيب الجماعات البشرية، تحت تأثير عوامل شتى، إلا أنها لا تزال تذكر ما ضيها الماجد، وتحنّ إلى استرجاعه؛ ولانشك فى أنها ستستعيده كاملاً غير منقوص

---

(1) النور: ٥٥.

متى أتم مصلحوها مهمتهم من استخلاص دينها مما شابهُ من البدع، وما ألحق به مما ليس منه فى شىء.

نرجع بعد هذا الاستطراد الذى كان لابد منه، إلى تجلية ماكنا بصدده من بيان خصائص الإسلام فى بناء الأمم، وفى كفايته لتوفيته بحاجاتها من عوامل النهوض، وتداركه لما يساور هذا النهوض من فواعل التثبيط، وعلاجه لما يعتور تدرجها فيه من دواعى الانحراف، دون أن تحتاج الأمة إلى ماجرت به سنن الاجتماع من الخلاف والتناحر الحزبى الذى يجر إليه، ويدفع بمجموعها إلى التفتت الموجب لتقهقرها أو لتلكؤها فى أداء رسالتها آماداً طويلة، هذه خاصة فى الديانه الإسلامية ميزها الحق بها دون الأمم كافة.

ذلك لأن الديانة الإسلامية أوحيت خالية من جميع بواعث الشقاق بين العقل والعقيدة، وبين جميع أطوار الترقى العلمى وأصولها الأولية؛ فمن أية جهة يندس الخلاف لدى ذويها بين المنقول والمعقول، أو يتطرق التناقض فى نظرهم بين أصولها ومقتضيات الظروف؟ هذه ناحية تحتاج لتفصيل فإليك:

قرر الإسلام أن الدين فطرة فطر الله الناس عليها، وأن أساسه الاعتقاد بخالق الكون، وأنه واحد لا شريك له، وأنه تعالى عن الأبصار فلا تراه عين، وعن العقول أيضاً، فلا يدرك كنهه عقل، فكلما خطر ببالك، فهو بخلاف ذلك. وأنه متصف بجميع صفات الكمال، فمهما بالغ المتكلمون، وأطنب المؤمنون، فالله لايحيط بكماله وصف، ولا يبلغ إلى مدى نعته بيان.

فهذه العقيدة لا تقبل أى جدل، ولا تحتمل أى خلاف، ولا تتسع لأية منازعة، وبها أمن أهله كل ما بليت به الجماعات، من شرور الظنون والأوهام، ومن الإغراق فى التلاحى والخصام، فإذا كان كل ماخطر ببالك فالله بخلاف ذلك، فمن العبث إضاعة الوقت فى التحديدات والتقييدات، وفى كل ما يجر إليه محاولة التكلم فى هذا الموضوع من المماحكات.

بهذا الطراز من العقيدة سد الإسلام باب الخلاف سداً محكمًا لا يجرؤ على محاولة فتحه إلا متعسف أو متزندق؛ وبسد هذا الباب سلمت جماعة المسلمين

من شر مستطير، هو الانقسام فى أصل العقيدة، وتفرق كلمتها تبعًا لها، ووقوع الاضطرابات المهددة لكيانها.

نعم لم يسلم المجتمع الإسلامى من متطفلين ومتزندقة، فحاول بعضهم فتح هذا الباب على مصراعيه، ولكنها كانت محاولات فاشلة، لمناقضتها لنص العقيدة مناقضة صريحة، فلم تصل واحدة منها إلى مستوى تستطيع معه أن تدفع بجماعة المسلمين إلى الفرقة، فاعتبرت كلها خوارج على الدين، ثم آل أمرها إلى التلاشى والزوال، وبقيت العقيدة الإسلامية إلى يومنا هذا نقية قوية، وجاء العلم فأيدها، فأصبحت الوحيدة التى لا محيد عنها، وتابع المسلمون حركتهم الاجتماعية والمدنية لم تحل بينهم وبين بلوغ غاياتهم البعيدة أية عقبة.

يأتى بعد العقيدة فى الله، العقيدة فى الرسل وفى الأديان، وهى أيضاً كانت مثاراً لمنازعات بين الجماعات لا تقف عند حد، والإسلام فى هذه الناحية يقرر بأن النوع البشرى من يوم وجد كان فى حاجة إلى رسل يهدونه الطريق القويم، ويلقنونه ما به نجاحه فى هذه الحياة، ونجاته فى الدار الآخرة؛ وأمر أتباعه بالإيمان بهم أجمعين، دون أن يفرقوا بين أحد منهم، ودون أن يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض.

فإن وُجد فى مجتمعهم طوائف من أديان سابقة لا تؤمن بالإسلام ولابخاتم المرسلين، أمر المسلمون أن لا يتعرضوا لهم بسوء، وأن لا يفرقوا فى المعاملات بينهم وبين المسلمين، وأن يدعوهم أحراراً فى عقائدهم وعباداتهم وبِيَعهم وكنائسهم، وأن يحموهم حمايتهم لأنفسهم، وأن يذودوا عنهم ذيادهم عن إخوانهم فى الدين.

هذا الوضع الحكيم يحسم من أسباب المنازعات والخلافات مالا يحصيه عد بين أبناء المجتمع الواحد، فما دام المسلمون مأمورين أن يؤمنوا بجميع الرسل وأن لا يفرقوا بينهم، وأن لا يتعرضوا لعقائد من تخلف من أهل الملل عن الدخول فى دينهم، وأن لا يفرقوا من المعاملات بينهم وبين أهل ملتهم، فأى فتنة يُعقل أن تنشأ فى مجتمع هذا شأن تحفظاته فى هذه الناحية الحساسة؟ وليس

فى القراء من ليس يدرى أن هذه الأمور كانت ولا تزال مثار قلاقل اجتماعية فى جميع الأمم، حتى فى الجماعات الأوروبية، فإن فى تاريخها حوادث من الاضطهاد أدت إلى مذابح بين البروتستنت والكاثوليك، وبين هؤلاء جميعًا وبين اليهود كانت مثالاً للوحشية البالغة، والجاهلية المتطرفة، ولا ينسى أحد ما حدث فى فرنسا من قتل نحو خمسة وعشرين ألفاً من البروتستنت فى ليلة واحدة، ومن هجرة خمسمائة ألف منهم من فرنسا سنة (١٦٨٥) هرباً من الاضطهاد، حارمين وطنهم من صنائعهم ومعارفهم، وحامليها إلى البلاد التى أووا إليها، فكان فى ذلك خسارة على فرنسا لا تقدر.

وإذا كان هذا فى فرنسا وكانت فى مقدمة الأمم ثقافة وذكاء، فماذا أنت ظان فيما حدث فى سواها من الأمم الأخرى؟ وليس فى قرائنا من يجهل ما كان يحدث لليهود قبل الحرب العالمية الأولى من العسف والاضطهاد والتشريد فى جميع الممالك الأوروبية حتى اضطروا لإنشاء وطن قومى لهم، وضنت جميع الأمم عليهم بقطعة من الأرض ولو فى مجاهل إفريقا، وأخيراً تفضلوا عليهم بها ولكن على حساب المسلمين فى فلسطين.

هذا من ناحية سمو التعاليم الإسلامية، وقطعها لذرائع الاضطرابات الطائفية فى جماعاتها من ناحية الخلافات الدينية. وبقى علينا دراسة هذا الموضوع من الناحية الاجتماعية لتجلية عناصر المدنية فيها.

عناصر المدنية في الديانة الإسلامية(1)

- ٥ -

بينا فى الجزء الماضى أن عقائد الإسلام الرئيسية تمنع تولد الشقاق بين الجماعات، فلا تشتغل الجماعات بنفسها عن توحيد قواها للوصول إلى غاياتها فى ثقة وطمأنينة لابد منهما لبناء الأصول الراسخة، وإقامة المبانى الشامخة؛ واليوم نسرد رءوس الأصول الاجتماعية فى الإسلام، ونبين أنها مستودع آياته الباهرة، ومعجزاته الخالدة، فنقول:

لكل مجتمع أصول تقوم عليها أركانه، كما لكل مبنى وطائد يقوم عليها بنيانه، وبقدر ما تكون تلك الأصول قوية ومستقرة على قرار مكين، يجىء البناء متيناً راسياً لا يتداعى للسقوط، ولا يحتاج للترميم. وقد جرت السنة الاجتماعية على أن هذه الأصول تكون بدائية فى المجتمعات الحديثة الوجود، ثم تأخذ فى التهذب والارتقاء رويداً رويداً تحت تأثير دوافع قاهرة، وعوامل مؤثرة، تظهر أولاً على صورة مصادمات جدلية، ثم تتطور إلى ثورات دموية؛ وعقب كل انقلاب من هذه الانقلابات ترتقى الروابط الاجتماعية درجة فى تطورها إلى الديموقراطية المثالية، التى تنقطع معها الفوارق الطائفية فى الأمة الواحدة. من هنا لا تفتأ الجماعات تهب فيها الثورات من حين إلى آخر، مدفوعة إليها بعوامل ناموس الارتقاء، لا بعوامل شر كما يتوهم ذلك من لا بصيرة لهم بعلم الاجتماع.

---

(1) مجلة الأزهر- السنة الحادية والعشرون سنة ١٣٦٩ هـ، ص٨٧٢

قلنا: إن الجماعة الإسلامية مضى عليها بعد أن تألفت على حالة ضعيفة ساذجة، ووصلت إلى درجة ممتازة من النظام الاجتماعى، والرقى العلمى والعملى، مما استحقت به خلافة الله فى الأرض ـ قرون كثيرة، لم تشب فيها ثورة واحدة أثارها ما يثير غيرها من طلب المساواة فى الحقوق والواجبات الاجتماعية، وهى الأسباب التى ولدت فى جميع العصور شر الثورات، وأشدها كَلَبًا، حتى كانت سببًا فى حل جماعات، وضياع استقلال أخرى، وجرت وراءها نكبات لا حصر لها لتلك المجتمعات وما جاورها، ولا يزال الناس يعيدون ذكرى الثورات الرومانية والانجليزية والفرنسية والروسية وغيرها مما لا يمكن حصره. وإنما يردد الناس ذكرى هذه الثورات لأنها إنما شبت لتوليد الحقوق الإنسانية الطبيعية، وتسجيل نشوئها فى العالم كأصول أولية لكل نهضة اجتماعية ذات أغراض مدنية أو أدبية.

إذا صح هذا وهو صحيح، بل هو طبيعى محسوس، فلماذا لم تحدث مثل هذه الثورات فى الأمة الإسلامية، فيستدعى نهوضها الاجتماعى والمدنى قروناً كثيرة كما حدث لغيرها؛ بل تألفت ولم يمض على تألفها قرنان حتى أصبحت أعظم إمبراطورية فى الأرض، وأسست مدنية فاقت جميع ما تقدمها، وحفظت للعالم تراثه العلمى وزادت عليه من جهودها مكتشفات جديدة، ومعلومات ثمينة، أتمت كل هذا فى قرنين لم يتخللهما أقل اعتراك على الحقوق الاجتماعية، الأمر الذى احتكر جميع الثورات البشرية، واستوعب تاريخها كله؟

السبب فى هذا هو ما قدمناه من أن الإسلام جاء مشتملاً على جميع حقوق الأفراد بعضهم حيال بعض، وعلى كل ضروب المساواة التى تتطلبها الحياة المدنية، ولا تظهر الحاجة إليها فى الشعوب إلا رويداً رويدًا، ففى كل مرحلة من المراحل الاجتماعية يزداد وعى الجماعة بنفسها، فتطالب الطوائف المحرومة من حقوقها بتلك الحقوق، ويصر المتمتعون بها على حرمانهم منها، فيحاول الضعفاء أخذها غلاباً، فتقع بين الفريقين ثورة قد يتغلب فيها المغتصبون، فتهدأ الثورات أمداً محدوداً، ثم تهب من جديد؛ ولا تزال تتبع هذا الاسلوب إزاء

حصولها على حقوقها الاجتماعية، حتى تحصل عليها كاملةً أو تخيب فى منازعة خصومها فتلحق بالمتخلفين.

أرسل الله خاتم رسله بالإسلام، والأمم فى غيابة من الجهل بحقوقها، يسوقها رعاتها إلى التناحر، فتنقاد لهم انقياد الخراف لرعاتها، فيدفعون بها إلى أى الأغراض شاءوا؛ فأعلن ﷺ الأفراد بحقوقهم وواجباتهم وطالبهم بالاعتداد بها والحرص عليها، وأنهم يحيون حياة طيبة، ويخدمون أنفسهم والإنسانية أجمع ما داموا عاملين بها، ومترسمين خطواتها، فإن انحرفوا عنها انحرفت بهم الأحوال، فإن لم يتيقظوا أدركتهم أدواء الأمم وهلكوا ولا كرامة.

أول تلك الأصول: المساواة بين الناس كافة فى جميع الحقوق الإنسانية لافضل لعربى على أعجمى: ولا لتركى على زنجى ولا لغنى على فقير، ولا لوجيه على صعلوك، فالجميع متساوون فى الحقوق والواجبات، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(١).

وقال النبى ﷺ: «لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح، كلكم لآدم وآدم من تراب».

بهذا الأصل الأصيل سقطت فى العالم الإسلامى فتنة اعتبار الفقراء والعامة محرومين، أو كأشباه المحرومين من الحقوق الوطنية، والميزات الاجتماعية، فلكل مسلم وإن كان معدماً وذا ماض بعيد فى الفاقة وخمول الذكر، من الحقوق الوطنية مالأثرى الأثرياء، الممثل لأرفع البيوتات، وأنبل الطبقات.

فكما فتح الإسلام أمامه باب الارتزاق، ولم يضع له حدّاً فى طلب الحلال، مهد له سبيل الخدم الاجتماعية، فلم يوصد فى وجهه باباً يمكن أن يلج منه للوصول إلى أرفع الدرجات فى المجتمع، ولم يضع أمامه من العراقيل ما يصرفه عنه إلى غيره. وقد بدأ رسول الله ﷺ بتنفيذ هذا النظام فولى بلالاً -

(١) الحجرات: ١٣.

وكان مملوكاً حبشيًا لواحد من الناس - على المدينة، ليدبر أمورها فى غيبته، وكان فيها أبو بكر وعمر وعدد كبير من عظماء الصحابة، وكبار أصحاب البيوتات.

فهذه ديمقراطية لم يرها العالم المتمدن إلى اليوم، ولم ينس الناس مالقى ويلقى السود والهنود وغيرها من سوء معاملة بعض الأمم المتمدنة إلى عهدنا هذا.

وكما رفع الإسلام عن الضعفاء هذا الإصر، أشركهم فى جميع مجالات الحياة مع الكبراء، وجلة الأثرياء. وساوى بين الجميع فى المعاملات، بينما كانت الأمم فى حين إيحاء الإسلام إلى أواخر القرن الثامن عشر أى إلى عهد الثورة الفرنسية فى سنة (١٧٩٨)، لا تزال تضع فروقاً عظيمة بين الأثرياء والفقراء. جاء فى موسوعة لاروس قوله: «فى سنة (١٧٩٨) كان يوجد عدم مساواة شائك فى توزيع المناصب العمومية، وعدم الرقابة عليها، فبذل وزراء لويز السادس عشر جهدهم لإجراء الإصلاحات التى تتطلبها الأمة؛ فلم ينجحوا ضد المقاومة العنيفة لرجال الدين والنبلاء، فرأت الأمة أنه لا يجدى فى هذا الأمر غير ثورة تضع مكان جماعة قائمة على اعتبار الامتيازات، جماعة أخرى يسودها قانون المساواة بين الجميع». أ هـ. وليس بخاف على القراء ما أحدثته الثورة الفرنسية من الانقلابات، وما قررته من الإصلاحات، وكانت سببًا فى إيقاظ شعوب أوروبا جميعا من سباتهم، فلم يلبثوا حتى ثاروا جميعًا ضد حكوماتهم طالبين التأسى بحكومة الفرنسيين، فكان لهم ما أرادوا، فانظر كيف تأخر الأوروبيون عن المسلمين نحو اثنى عشر قرناً فى التمتع بالحرية، وبالأصول المستندة إلى الديموقراطية الصحيحة، التى أساسها المساواة المطلقة بين جميع أفراد الشعب. والله إنه لأمر جلل!

هذا تأويل عدم ثورة المسلمين على قادتهم طوال عهد ارتقائهم، فقد كان ذلك لعدم وجود ما يقتضيه من منع حقوق الضعفاء، وحصر الشؤون العظيمة للطبقات القوية من الأثرياء، وأصحاب العصبيات. وعدم وجود مثل هذه

الثورات فى الاجتماع الإسلامى فى مدى قرون متوالية، هو الذى مكنهم من تحقيق مدنية راقية فى مدى قرنين اثنين. أليس من المعجزات الباهرة أن تتألف أمة لا عهد لها بوحدة، ولا بحكومة، ولا بقانون، ولا بمثل أعلى، فتصل فى قرنين إلى أبعد ماوصل إليه غيرها فى عشرة قرون؟

نعم إن هذا الأمر من المعجزات الباهرة، وأى إعجاز أعظم من إيجاد أمة من العدم، وتزويدها بأصول اجتماعية تضمن قيامها على أكمل نظام، وبمبادئ خلقية تجعل منها أمة مثالية على أرقى حال؟ ومن العجيب أن هذه الأمة مرت بجميع الأدوار المكونة للاجتماع، كما يمر الطفل بجميع أدوار الطفولة حتى يصل إلى سن الرجولة. وعند وصولها إلى دور الرجولة تنقلب فى أدوارها دون أن يصاب وجودها بأذى، إلا مما لا مناص منه من لوازم الحروب والمصاولات، ولكنها لم يتزعزع لها أساس، ولم يَهِ لها ركن، فتحملت جميع عواقب تصرفاتها الحيوية دون أن تصاب فى صميمها بأى عرض.

وقد انتهى بها الأمر فى أدوار الاجتماع إلى أن بلغت هذه المرحلة الأخيرة التى تغلب فيها الأجانب على كثير من أقطارها، ولكنها مع كل هذا شديدة التعلق بدينها، والحنين إليه، عازيةً جميع ما أصابها إلى حيدها عن صراطه، ومدابرتها لمبادئه وأصوله، غير يائسة من العود إليها لاسترداد مجدها الأثيل، وعزها التليد.

القسم الرابع

مباحث شتى

الحياة الدينية والحياة المدنية

يخيل لبعض الناس أن الحياة الدينية تنافى الحياة المدنية، ولهم فى إثبات هذا التنافى مذهب ليس له أصل من الفلسفة ولا من حقائق الأشياء، إذ يتوهمون أن الحياة الدينية تقتضى الزهد والتقشف والعزوف عن كل متعة أو رفه، وحبس قوى النفس على الأمور الأخروية، حتى زعم زعماؤهم أن الأمم التى تأخذ بالدين لا يرجى لها تقدم فى باحات العمران، وأنها تجمد حيث هى معطلة جميع مواهبها، لا تستثمر علماً، ولا تكتشف مجهولاً، ولاترقى صناعة ولافنًا، حتى تهم بها دولة مستعمرة فتبتلعها غنيمة باردة، أو تبقى على ماهى عليه أمدًا، ثم يضطرها الإهمال والخمول إلى الانحلال، فتفنى فى أجساد الأمم الأخرى. ومن ثم يجعل هؤلاء الزعماء ديدنهم العمل على تشكيك الناس فى دينهم بطرق شتى، رجاء أن يضعفوا سلطان الدين عليهم، ولا يهمهم أدفع بهم هذا التشكيك إلى الإباحة أم إلى المادية البحتة.

ولست أدرى أدرس هؤلاء الزعماء التاريخ فعلموا أن الإسلام أحيا أممًا كان الجمود قد أناخ عليها بكلكله، وأسس دولةً لا تغرب عن ممالكها الشمس، وبعث العلوم والفنون من أجداثها، وزاد عليها مما فُتح على أهله علوماً وفنوناً جديدة، فكان سببًا فى إحياء أوروبا ودفعها إلى ماوصلت إليه اليوم من علومها وصنائعها التى مزجتها بمدنيتها الزائفة.

فالدين الذى حوّل الأمم الجامدة الهامدة، إلى أمم حية راقية رفعت لواء

(١) المجلد الخامس مجلة الأزهر ـ السنة الخامسة سنة ١٣٥٣ هـ، ص١٩٩

خلافة الله فى الأرض أجيالاً متعاقبة، لا يعقل أن ينقلب إلى دين يكون سبباً لجمود الأمم وتجريدها من أسباب الحياة وعوامل الرقى.

إن هؤلاء الزعماء يعرفون كل هذا، ولكنهم يتخيلون أن الأمور قد حالت، فما كان يصلح أساساً للمجتمعات فى الزمان الغابر، لا يصلح أن يكون أساساً لها فى العصر الحاضر، فيقولون إن الناس كانوا يُعنَون فى سالف العهود بشئون روحية مع شئونهم المادية، ويجهدون وراء التوفيق بينهما، ولكن الأمم اليوم لاتعبأ إلا بالشئون المادية، فإذا وُجدت أمم تتحرى التوفيق بينهما لزمها أن تتوقف عن الأخذ بأمور كثيرة عُدت اليوم من مقتضيات المدنية.

هذه شبهة يدلون بها إلى الناس، فيتلقاها الذين لا يعلمون بالقبول، باعتبار أنها ترمى إلى سرٍ من أسرار علم الاجتماع، وهى فى الحقيقة لا ترمى إلى شىء غير دعوة صريحة إلى التحلل من تكاليف الأخلاق، والتكالب على الأخذ بجميع آفات المدنية وأدوائها بغير حساب.

لقد سبقت من هؤلاء دعوة حارة إلى ضرورة اختلاط الجنسين، وإلى وجوب عمل المرأة خارج بيتها، مستأنسين فى دعوتهم هذه بما عليه النساء فى الأمم المتمدنة، فافتتن بهذه الدعوة جميع من لا بصر لهم بالأمور، واطّرحوا كل ما عورضت به هذه الدعوة من طريق العلم الاجتماعى والفلسفة والأخلاق، فلم يمض على هذا القول ربع قرن حتى وقعت أوروبا وأمريكا فى شر هذه الأزمة العامة، فنظر أهلهما فإذا العامل الوحيد الذى أدى إلى شيوع البطالة إنما هو أن النساء قد هجرن بيوتهن واشتغلن بأشغال الرجال، ورأوا أن ضرر هذه الرخصة لم يقف عند حد البطالة، ولكن تعداها إلى نظام الأسر وتربية الأطفال، وانتشرت العزوبة إلى حد مريع، وفسدت بذلك الأخلاقُ فساداً يعز إصلاحه على الأساة، فأخذ قادة تلك الأمم يعملون على رد الأمور إلى نصابها الطبيعى، بكف يد المرأة عن العمل الخارجى، وردها إلى مملكتها الطبيعية وهى الأسرة، وهيهات أن يتم لهم ذلك إلا فى أجيال يكابدون فى أثنائها من الشدائد ما لا قبل لنا ببيانه.

فماذا جنى الأغرار عندنا الذين اتبعوا هؤلا الإباحيين من آثار دعوتهم إلى وجوب اختلاط الرجال بالنساء، وإلى عمل هؤلاء خارج بيوتهن غير ما تشاهده من فساد الأخلاق، وانحطاط النفوس، وتفاقم الشهوات، وانتشار العزوبة؟ واليوم يمدون من مطامعهم فيدعون إلى وجوب الأخذ بكل جديد، دون التقيد بالمبادىء الأولية للأخلاق، كأنهم يريدون أن نأخذ بجميع أدواء المدنية.

وكأنه ما كفاهم أن نقع بسبب دعوتهم إلى اختلاط الجنسين فى كل مانشير إليه من الشرور، فقاموا يدعوننا للأخذ بجميع تلك العلل جملة، حتى يكون تدهورنا فى تيهور الانحلال غير قابل للعلاج.

إنهم لا يقصدون ذلك كما هو بدهى، وإنما هو قصر النظر وخطأ التحليل، والافتتان بالظواهر تطوح بهم إلى هذه المتاهات، وهى حالات تضطر حفظة الاجتماع إلى زيادة التنبه، وشحذ الهمم لإبطال دعوتهم بالأسلوب العلمى الصحيح.

يتوهم بعض الناس أن الحياة الصالحة تنافى متُع المدنية الصحيحة، وتجعل الأمم كجماعات من المتبتلة لا يتسع لهم الوقت لغير القيام بالواجبات الدينية، فإذا صح انطباق هذا التوهم على بعض الأديان فلا يصح مطلقًا أن يوصم به الإسلام، وهل بعد قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾(١). وجه لإذاعة مثل هذه الشبهة بين الناس؟

الإسلام لم يحرِّم على إنسانٍ متعة من متع الحياة الصالحة، بل أباحها بشرط أن لا تدفع به إلى عالم الحيوانية، وتدس به فى حمأة الإفراطات الشهوانية. فهو يبيح له التمتع بالملذات إلى الحدود التى قرر العلم أن ماوارءها يؤدى إلى شرور شنيعة، وأخطار على المجتمع مريعة.

---

(١) الأعراف: ٣٢

فهو يحرم الخمر والمقامرة، والبغاء والتهتك والإفراط، وكل ما ينافى كرامة الإنسانية، ويحط من قيمتها، وهى صفات قرر العلم فى كل زمان ومكان أنها آفات يجب تجنبها، لما يبتنى على شيوعها من العلل الاجتماعية الخطيرة. فإذا كان من الناس من يزعم أن الحياة لا تكون هنيئة سعيدة إلا إذا أبيحت فيها هذه المحظورات فقد أخطأوا خطأ لا يغتفر. فإن الذى يرى أن هناءه لا يتحقق إلا إذا أبيح له أن يتعاطى السوائل السامة المضللة للعقل، وأن يُلْقى بماله جزافاً فى اللعب بالورق، وأن يترك ما أحل له ويجرى وراء الساقطات فى الشوارع والأزقة، وأن ينتهك حرمات الآداب ويغرى فاسدات الأخلاق على انتهاكها، وأن يأتى كل مابدا له محلولَ الرسن لا يبالى أحفظ كرامة الإنسانية أم أهانها فى شخصه وأشخاص مشايعيه، نقول: إن الذى لا يرى له هناءة إلا فى هذه المقاذر المنكرة، فهو ضال عن طريق الهناء الصحيح الذى لا يشوبه كدر، مما يتمتع به كملة الرجال وينعمون فيه. فهو يجهل لذات العقل السليم، والاحتفاظ بالماء، والاقتصاد فى توفية الشهوة على الحلال، ويجهل نعيم التصون والاعتدال، وحفظ كرامة الإنسانية، والمحافظة على الآداب.

إن لهذه الصفات السامية لذاتٍ يشعر بها المحافظون عليها، ويحرصون على أن لا يحرموها، وينظرون إلى أهل الإباحة نظرهم إلى المحرومين من مباهج الحياة ونعيمها.

يتخيل هؤلاء المفتونون أن ليس لصفات الكمال لذات، وهو غاية الجهل، ومنتهى الغباوة، ودركة بعيدة القرار من قصر النظر وسوء التقدير.

يغر هؤلاء المفتونين أن للإباحة دولة فى أرقى أمم الأرض، ويغفلون عن أنها السبب المباشر لكل مافيه هذه الأمم من أزمات اقتصادية وعلل اجتماعية عجز تبريزها فى العلوم، وتفوقها فى الصنائع والفنون أن تهتدى منها إلى حل حاسم. فمن كان ضاربًا مثلاً فليضربه بالسليم المعافى، لا بالمريض الذى

يتطلب العلاج فلا يجده، والذى يتوقع من آونة إلى أخرى أن ينفجر ماكدسه بين يديه من مواد التدمير فتلقى بالمدنية إلى مكان سحيق ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾[1].

---

(١) الحج : ٤٦.

مايقوّم المدنيات وما يفسدها(1)

من أخص مباحث علم الاجتماع، الأصولُ التى تقوِّم المدنيات وتحفظها، والعلل التى تفسد كيانها وتدهورها. وقد ذكر القرآن الكريم هذه الأصول وتلك العلل قبل أن تدور بخلد الحكماء بقرون كثيرة.

الأسس الأولية لعلم الاجتماع هى ماكشفه النظر من أن الأمم كائنات حية، وأنها تولد وتموت، وأن لارتقائها وانحطاطها سنناً طبيعية مقررة، وأن أعمال آحادها وحالتهم النفسية، تؤثر فى حيوية الاجتماع قوةً وضعفاً. وأن العلل الاجتماعية تقبل العلاج، وقد تستعصى عليه إذا اشتدت، وتكون سببًا فى هلاك الأمة.

هذه الأسس يعدها مؤرخو العلم من فتوحاته فى القرن التاسع عشر، وهى فى الواقع من فتوحات القرآن الكريم منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا، ولسنا فى هذا الحكم بظانين، فسيمر بك فى صلب هذا الموضوع من وجوه البسط والتطبيق، بين أصول علم الاجتماع وآى الكتاب، ما لا يدع لك شكًا فى أن الوحى قد سبق العلم إلى تقريرها، وزاد عليه ماعجز مجرد النظر عن الوصول إليه.

قامت فى الأمم مدنيات كثيرة يرجع تاريخها إلى نحو ستة آلاف سنة، أشهرها المدنيتان المصرية والهندية، ويزعم الصينيون أن مدنيتهم أبعد منهما عهداً، وأنها تبلغ من السن أربعين ألف سنة، ولكن العلم لم يحقق هذا الادعاء بعد.

---

(1) مجلة الأزهر المجلد الخامس سنة ١٣٥٣ هـ، ص ٤٥٢

كل هذه المدنيات تبدأ بنهضة فكرية، وحركة أدبية، تسوق الأمة إلى تجديد مارثّ من أوضاعها القومية، ومايلى من مقوماتها الاجتماعية، فتندفع إلى الأمام بقوة لم تكن لها من قبل، ويكون أمرها فى هذا الاندفاع كما لو حلت بها روح جديدة.

هذا الدور الذى يسمى بدور الانتقال هو أكثر الأدوار تأثيراً فى مصيرها، لأنها تكثر فيه من الهدم والبناء، فقد يتفق أن تهدم ما حقه البقاء، وأن تبنى ماحقه الزوال، وتتسرب إلى الأمة فى هذا الدور أخلاق جديدة تتخيلها ضرورية، وهى فى حقيقتها جراثيم أمراض قتالة يتفاقم شرها، وتشتد أفاعيلها، فتظهر أعراضها فيما ينتابها من علل اجتماعية، كذيوع الإباحة، وشيوع الفحشاء، وانتشار العزوبة، وتبرج النساء، وفساد أخلاق الشبان، وكثرة البطالة، ونضوب معين الثروة، فلا تلبث الأمة أن ينسخ وجودها، وتزول كوحدة من وحدات الاجتماع العام.

وقد والى الله تعالى إرسال الرسل إلى البشر لتتولى الأمم فى أدوار تدهورها بالهداية والإرشاد، لتتلافى وجودها من الانحلال، وتتدارك بناءها من التداعى، فمنها من استفادت من هذه العناية الإلهية بها، فرأبت صدوعها، ولأمت جراحها، وتابعت البقاء إلى حين؛ ومنها من هزئت بالقائم بالدعوة وأنكرت رسالته، ودابرت ما أتى به، فتحيفتها العلل، وما زالت بها حتى ألحقتها بالغابرين. وإلى هذا يشير الكتاب الكريم فى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[2].

---

(١) الأنعام : ٦

(٢) يونس : ١٣

فالإسلام يقرر أن سبب هلاك الأمم الذنوب التى يرتكبها آحادها، وعلم الاجتماع يقول إن علته هى تدهور الأخلاق، ونضوب معين الفضائل، ومؤدى العبارتين واحد، وهو أن الصفات الأدبية للأفراد تؤثر فى كيان الأمم فتركبها أو تحللها، وتصححها أو تسقمها، والمدار فى هذا كله على نفسية الأمم، فهى العامل الأول فى إعداد الأمم لقبول الصفات التى يقوم عليها بناء الاجتماع كله. وقد أنفق علماء النفس والباحثون مداداً كثيراً فى تحليل هذا الموضوع وتمحيصه، حتى شاعت كلمة النفسية شيوعًا لاحد لسريانه، وأصبح كل كاتب ومتكلم يلوكها باعتبار أنها من الأطروفات الفلسفية الجديدة، ولم يعلموا أنها من فيض القرآن. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾(1).

فانظر كيف أوجز الحق ناموسًا اجتماعيًا خطيراً فى كلمات معدودة تقوم مقام المقالات المستفيضة، وتفعل فى النفس عمل البداهات العقلية، والمسلمات العلمية؟

وقد أصبحت تربية النفوس الشغل الشاغل لعلماء الاجتماع، فقد ثبت أن العلم وحده يعجز عن تقويم النفسية، بل ربما كان سببًا فى تغلغلها فى الشر، بما يفتحه على الإنسان من وسائل العمل، وأساليب السبك والحيل، وهذا يوافق ماصرح به القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾(2).

فرجعت المسألة إلى النظر فى الهوى وما يجره على الإنسان من مضار وكيف يمكن إسقاطه والتخلص منه، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتربية القلب، فهو الذى يستطيع أن يخلص الشخصية الأدبية للإنسان من تسويلاته وإغواءاته، وانحصر جهد الفلسفة اليوم فى ذلك، وهو ما نطق به القرآن الكريم فى قوله تعالى فى وجوب تربية القلوب:

---

(1) الرعد : 11.

(2) الجاثية : 23

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(1).

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(2).

ثم زاد هذا الأمر تشديداً فعلق النجاة على سلامة القلب من الآفات، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(3).

الخطأ الكبير الذى وقعت فيه هذه المدنية الحديثة عدم اعتدادها بالدين، واعتبارها العلم كافياً فى توفير وسائل الحياة المادية، وتطهير القلوب من آفاتها الأدبية. فلما تبين لزعماء هذه المدنية تصدُّع هذا البناء لخواء النفوس من العقائد، قام جمهور من فلاسفة أوروبا ووضعوا دينًا أسموه بالدين الطبيعى، جعلوا أساسه الاعتقاد بالله وتنزهه، والإيمان بحياة روحية بعد هذه الحياة، ينعم فيها الإنسان بثمرات أعماله فى حياته الدنيا؛ وقرروا وجوب التخلق بالأخلاق الفاضلة، والآداب العالية، ولكنهم خابوا فى مسعاهم هذا، لأنهم لم يدعوا الناس إلى هذه المبادىء باعتبار أنها وحى من عند الله جاء على لسان رسله، وإنما باعتبار أنها قد أدى إليها نظرهم، فهى من أوضاعهم العلمية والعقلية، فكانت نتيجة ذلك إهمالها كل الإهمال. وجرى الناس على ما هم عليه من اتباع الشهوات، والجرى وراء اللذات، وراجت فيهم أصول الفلسفة المادية، فعُبد الهوى، وذاعت الغواية، وركب كل إنسان رأسه فى تطلب الماديات، لا يلوى على شىء، حتى إذا جد الجد، وأصبحت نتائج هذه الانحرافات عللاً مستعصية على العلاج، وامتدت أفاعيلها إلى جميع مقومات

(1) الأعراف : 179
(2) الحج : 46
(3) الشعراء : 88، 89

الاجتماع، التفت الناس فإذا بهم حيال معضلات تهدد الحياة المادية التى قنعوا بها وجعلوها غرضهم من الوجود، فأدركوا أن الحياة المادية نفسها لا تستقيم إلا بالقيام على الفضائل، فتطلبوها، ولكن أنى لهم الوصول إليها، وهى تقتضى قمع الشهوة وكبت الهوى، والشهوة والهوى هما الغرضان اللذان جعلوهما مطمح أنظارهم، ووقفوا عليهما جميع جهودهم؟ فالمدنية اليوم على مفترق طريقين: فإما متابعة السير فيما كانت عليه، وفيه الهلاك المحقق، وإما اقتفاء أثر الأنبياء والمرسلين، وهو شديد على نفوس لم تدع لها الأهواء قوة على الرجعى إلى الطريق القويم.

لا نحب أن ندع هذه الناحية من البحث حتى نلفت القارىء إلى أن علم الاجتماع يعترف بأن الذى يدك صروح المدنيات هو الفساد الذى يتطرق إلى الأخلاق، والأهواء التى تتسلط على النفوس، فتدفعها إلى سبل التمرد والعصيان، فقوله تعالى: ﴿ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾[1].

حقيقة علمية فى مستوى البداهات العقلية، لا يمارى فيها إلا جاهل أو متعنت. فالمدنية لا تقتضى الإباحة الخلقية، ولا الحرية الحيوانية، ولا وقف النفس على الأهواء والملهيات، ولكنها على عكس هذا كله تقتضى أن يحسب أهلها لكل شىء حساباً، فإن لكل صغيرة وكبيرة نتائج تصيب المجتمع كله على نسب مقررة لا تختل. فإذا استخفت مدنية بهذه الأصول العلمية، وخاضت غمرات الحياة على غير هدى، فلاشك فى أنها تحاسب على ماجنته حساباً عسيراً، وتجد جزاء أعمالها فتنًا كقطع الليل المظلم. إلى هذا الناموس الثابت يشير الكتاب بقوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾[2].

(١) الأنعام: ٦.
(٢) الطلاق: ٨.

إن هذه الأمم التى تفرِّط فى جنب الأخلاق، استهانةً بها أو شكًا فى تأثيرها، تتورط فى نتائج أعمالها، وعواقب تفريطها، فتؤول إلى أسوأ منقلب، وتصبح كأن لم تغن بالأمس، قال الله تعالى:

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝٤٥ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾(1).

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾(2).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾(3).

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾(4).

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾(5).

وقد قرر علم الاجتماع أن شئون الأمم تجرى على سنن طبيعية ثابتة لاتتغير بتغير الأزمنة ولا الأمكنة، وأن ما تلقاه أمة نتائج أعمال آحادها، هو ما تلقاه وما لقيته جميع الأمم، وأن ما تدخل فيه من الأطوار هى نفسها الأطوار التى دخلت فيها من تقدمتها، وأن الحزم كل الحزم هو أن تدرك الجماعات هذه الحقائق فتأخذ لنفسها الحيطة قبل أن تتورط فيما تورطت فيه من سبقتها، وأن سبيل ذلك أن تتعرف أحوال الذين استعمروا الأرض قبلها بالاطلاع على تواريخهم، وما وجدوه من عنت الحياة فى دورهم، ليكون لها من وراء ذلك عقل يرشدها إلى مايجب أن تأخذ به من التعاليم الحكيمة، والأخلاق القويمة.

(١) النحل: ٤٥ ، ٤٦
(٢) العنكبوت: ٤
(٣) هود: ١٠٢
(٤) الحج: ٤٥
(٥) هود: ١١٧

هذا ما قرره العلم فى القرن التاسع عشر، وقد سبقه الوحى الإلهى إليه بنحو اثنى عشر قرنا، فقرر القرآن الكريم هذا كله بأفصح عبارة، وأوضح إشارة، فقال تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾(1).

وفى آية أخرى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾(2).

وفى آية أخرى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾(3).

من هنا يرى قارئونا أن الوحى الإلهى قد سبق العلم إلى بيان أصول العلم الاجتماعى وأسرار حياة الأمم، وما يصلح المدنيات وما يفسدها. فإذا كان من الناس من يخيل اليهم أن المدنية من لوازمها تجاوز حدود الأخلاق، والوقوع فى الإباحة، وأن ما فيها من فنون وصنائع وذرائع تستطيع أن تحفظها من نتائج هذه الصفات السافلة، فقد منُّوا أنفسهم بالمحال. ولما كان هذا الأمر يهم الهيئة الاجتماعية حكامها ومحكوميها على السواء، فقد وجب عليهم أن يتعاونوا على درء كل فساد خلقى يسبب للمجتمع علةً تصيب نارها الجميع: ﴿وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(4).

فالقرآن الكريم كما ترى هو موجد علم الاجتماع بأخص معانيه، وليس

---

(1) الفتح: ٢٣.

(2) فاطر: ٤٣.

(3) آل عمران: ١٣٧.

(4) الأنفال: ٢٥.

موجده ابن خلدون فى القرن الثالث عشر، ولا أوجست كومت فى القرن التاسع عشر: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[1]:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾[2].

(١) الإسراء: ٩.

(٢) الكهف: ٥٤.

الإسلام حمى الإنسانية من الانهيار(1)

لم تتجل حاجة العالم إلى الإسلام مثل ما تجلت فى عهدنا هذا.

لقد كان قيام الإسلام فى أول وجوده حداً فاصلاً بين التدهور الاجتماعى العام، وبين العالم كله؛ وقد لخص المستشرق (جول لابوم) الفرنسى صاحب الفهرست لآيات القرآن العظيم، حالة العالم كله قبيل بعثة النبى ﷺ، فأثبت بالأدلة التاريخية أن العالم برمته كان فى حالة تنازع وتناحر، لايهدأ لأمة جأش، ولا يترك لها عهد استقرار، يمكن أن تتطور فيه فى الوجهة الأدبية والعلمية، بل كانت تتطور فى التدلى فى هاتين الناحيتين، حتى لو كانت بقيت على ماكانت عليه لتجردت بعد بضعة قرون أخرى من كل ما حصله أجدادها من أدب وعلم وصناعة، وباءت بأسوأ ما يبوء به العارون من هذه الفتوحات العقلية المكملة للإنسانية، فقال العلامة جول لابوم:

«حوالى ميلاد محمد فى القرن السادس الميلادى، كان جو العالم متلبداً بغيوم الاضطرابات والفتن».

ثم أخذ يسرد ما كانت عليه الأمم قاطبةً فى جميع أنحاء الأرض من التناحر الوحشى بين الجماعات البشرية، ثم قال:

«الخلاصة أن جو العالم الأرضى كان متلبداً بسحب القلاقل الهمجية، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير، وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة فى إصلاء نيران الحروب والمعارك؛

(1) مجلة الأزهر ـ المجلد التاسع عشر سنة ١٣٦٧ هـ، ص ٨٧٣

ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ولا يؤثر عليها تأثيرًا حادًا وإن كان وقتيًا إلا شيء واحد، وهو الغنيمة وسلب الأمم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحروب وفقراء الحراثين وسذج المتسولين».

ثم ختم المسيو جول لا بوم مقدمته التفصيلية هذه بقوله:

«في عهد هذه الأحوال الحالكة، وفي وسط هذه الجيل الشديد الوطأة، ولد محمد بن عبد الله في ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ م».

وقد ثبت تاريخيًا وبشهادة المؤرخين أنفسهم أن المسلمين الأولين انتشروا في الأرض يبلغون الأمم دعوة الإسلام؛ فاندفعوا يقتبسون ما صادفوه من العلوم والصناعات لدى تلك الأمم، وأخذوا يتدارسونها ويتقنونها، ودفعهم حب التكمل إلى البحث عن نصوصها في مصادرها المكتوبة، فلم يحرقوا ما صادفوه في البلاد التي افتتحوها من الكتب العلمية، كما كان يفعل غيرهم من الفاتحين، ولكنهم كانوا يستولون فيها على أمهات المصادر العلمية، ويستأجرون العارفين بلغاتها لكي يترجموها لهم ترجمةً حرفيةً، ويغدقون على أولئك التراجمة من المال ما يغريهم على الدؤوب والاجتهاد والتباري في الإنتاج؛ ثم أكبوا على دراستها وتطبيقها على العمل، وساعدهم في ذلك ملوكهم وأمراؤهم وأسرياؤهم حتى انتقلت إليهم الخلافة العلمية بعد اليونانيين والرومانيين، وأصبحت جامعاتهم محط رحال مريدي الاستفادة من جميع الأمم، وزادوا في مواد العلوم مما اكتشفوه في الطب والكيمياء والطبيعيات والرياضيات إلخ. ولم يهملوا الفلسفة على مجافاة جمهورهم لها، لا لا عتبارات وهمية، ولكن لما ظهر لهم من أنها ترتكز في مقدماتها على الخيالات والظنيات، وهذه في نظرهم لاتوصل إلى يقين، فالشغل بها يكون عرضة للأخطاء؛ وقد ثبت بُعد نظرهم في هذا الموضوع، وصدقت فراستهم فيه، فقد اتضح بعد أن ترقت العلوم أن كل الظنيات الفلسفية كانت خيالات لا حقيقة لها، فصرف المسلمون همتهم في إتقان العلوم المرتكزة على الأدلة الواقعية، والمنافع الحيوية، فارتقت معارفهم،

وتطورت مداركهم، ووصلوا إلى مدى بعيد من الرقى استحقوا به خلافة الله فى الأرض. وإلى القارىء رأى مؤرخى أوروبا فى ذلك:

قال العلامة (سديو) Sedillot فى كتابه تاريخ العرب:

«كان المسلمون فى القرون الوسطى متفردين فى العلم والفلسفة والفنون» وقد نشروها أينما حلت أقدامهم، وتسربت عنهم إلى أوروبا، فكانوا هم سببًا لنهضتها وارتقائها».

هل يدرى القارىء ماذا كانت أوروبا فى ذلك العهد؛ خاصة بعد أن مزقت الحروب الداخلية أحشاءها، وتوقفت الحركة العلمية فيها قروناً طويلة؟

الأوْلى بنا فى هذا المقام أن نستشهد بالأجانب. قال العلامة (دريبر) فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين):

«إن أوروبا فى ذلك العهد كانت غاصة بالغابات الكثيفة من إهمال الناس للزراعة، وكانت المستنقعات قد كثرت حوالى المدائن، وكانت تنتشر منها روائح اجتاحت الناس وأكلتهم. وكانت البيوت فى باريز ولوندرة تبنى من الخشب والطين المعجون بالقش والقصب. ولم يكن فيها نوافذ ولا أرضيات خشبية. أما الأبسطة فكانت مجهولة لديهم، وكان يقوم مقامها القش ينشرونه على الأرض نشرًا. ولم يكونوا يعرفون المداخن، فكان الدخان يطوف الدار ثم يتسرب من ثقب صنعوه له فى السقف. فكان الساكنون فيها معرضين لضروب الإصابات الخطيرة. وكان الناس لا يعرفون للنظافة معنى، فيلقون بأحشاء الحيوانات، وأقذار المطابخ أمام بيوتهم أكواماً تتصاعد منها روائح قاتلة، ولا رقيب عليهم. وكانت الأسرة تنام فى حجرة واحدة رجالاً ونساء وأطفالاً، وكثيراً ما كانوا يؤوون معهم الحيوانات المنزلية.

إلى أن قال: «هذه الجهالة كان من أثرها على أوروبا أن عمتها الخرافات والأوهام، فانحصر التداوى فى زيارة الأماكن المقدسة، ومات الطب وحييت أحابيل الدجاجلة... إلخ إلخ».

نقول: احفظ هذا وقابله بما كانت عليه الحالة عند المسلمين فى تلك الأيام ببركة النهضة العلمية والاجتماعية التى أوجدها الإسلام، ننقله لك عن العلامة دريبر نفسه فى كتابه المذكور، قال:

«لم تكن أوروبا العصرية بأعلى ذوقًا، ولا أرق مدنية، ولا ألطف رونقاً من عواصم الأندلس على عهد العرب، فقد كانت شوارعهم مضاءة بالأنوار، ومبلطة أجمل تبليط، والدور مفروشة بالأبسطة، وكانت تدفأ شتاءً بالمواقد، وتهوًى صيفا بالنسمات المعطرة بواسطة إمرار الهواء تحت الأرض من خلال أوعية مملوءة زهرًا؛ وكانت لهم حمامات ومكتبات ومطاعم وينابيع مياه عذبة إلخ. ويقول فى مواطن أخرى: «إن جامعات المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الأوربيين الذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب العلم، وكان ملوك أوروبا وأمراؤها يفدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها».

لسنا هنا بصدد أن المسلمين لم يمض عليهم قرنان حتى بلغوا إلى هذه الدرجة السامية من الرقى بينما كان الأوروبيون فى حالة قهقرى سريعة نتيجة للحروب التى كانت ناشبة بين جماعاتهم، ولكنا بسبيل التدليل على أنه لولا المسلمون لا ستمرت أوروبا فى تدهورها ووصلت الأمم العائشة فيها إلى أسوأ مما وصفة العلامة (دريبر) ولتلاشى منها كل ميل إلى تدارك الخطر، وانتهى أمر العالم كله إلى همجية محضة.

ولكن السنة الإلهية التى شوهدت آثارها فى الجماعات البشرية على مدى الزمان، تدل أن التدهور متى بلغ إلى درجة مؤذنة بسيادة الوحشية الباحتة، بعث الخالق أمة من العدل، وحلاها بالميول التى تدفعها إلى الرقى، وأمدها بالوحى الذى يرشدها إلى الصراط السوى، فترتقى فى سنين معدودة إلى أرقى ما تسمح به الوسائل المعاصرة، وتنجى ميراث العقلية البشرية من التلاشى، وتستولى عليه وتزيده مادة، وتنتشر فى الأرض فتبث فى أممها من روحها ما يقف من تدهورها، وما يمدها من عوامل حياتها، فتسترد البشرية نزوعها الطبيعى للبقاء، وتبلغ ما قدر لها من الارتقاء.

وقد اختار مدبر الكون جل شأنه لإحداث النهضة العالمية الأخيرة الأمة الإسلامية، فقامت بما ندبت له تحت تأثير الوحى الإلهى، والقيادة النبوية الملهمة، فوقفت الحركة القهقرية التى كانت شملت الأمم كافة، ورسمت لها طريق النجاة، بما حصلت عليه من التراث الأدبى والعلمى والمدنى للبشرية، وزادت عليه.

نعم إن الله يغار على عباده فلا يدعهم تحت سلطان الأهواء حتى تؤديهم إلى الفناء، فلو لم تكن الأمة العربية لناط هذه المهمة بأمة أخرى، ولكنه اختار العرب ومنحهم هذه الكرامة، ولا حجر لفضل الله. وقد صرح الكتاب الشريف بذلك فقال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا (اى عجزا عما تستدعيه هذه المهمة العالمية) يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾[1].

فعلى الذين يكتبون فى الإسلام ويعلمونه للناس أن ينوهوا بهذه المهمة الإسلامية الخطيرة ويدللوا عليها بشهادات الأجانب أنفسهم لها، كما نفعل، فإنها تضع الإسلام من الأذهان فى مكانته العليا، وتكون أفعل فى نشره من جميع عوامل النشر.

---

(١) محمد: ٣٨.

الفتوح الإسلامية حيرت العلماء.[1]

تعليل المشترع الكبير مونتسكيو

حيرت الفتوح الإسلامية العلماء الاجتماعيين تحييرًا لم يجدوه حيال مسألة اجتماعية أخرى، فقد بلغ ملك المسلمين فى ثمانين سنة حدًا لم تبلغه جميع فتوحات الرومانيين فى ثمانمائة سنة، ولم تصل أمة قبلهم ولا بعدهم إلى مثل ما وصلت إليه الأمة الإسلامية من سعة الملك، ونفاذ الكلمة، ووحدة الأجزاء، وارتياح الناس إلى حكومتها.

وقد افتنَّت العقول فى تعليل هذا التوفيق الباهر، فقال بعضهم: إن سببه أن الأمم على عهد ظهور الإسلام كانوا فى شقاق بعيد، وثورات طاحنة، واختلافات دينية، فدهمهم المسلمون وهم على تلك الحالة فدوّخوهم.

وقد رُدَّ عليهم هذا التعليل بأن المسلمين لما ولوا وجوههم شطر الشام وفارس ومصر، لم تكن دولتا الرومان والفرس لا فى حرب فيما بينهما، ولا فى شقاق فى داخل بلاديهما، فكان هيراقل الرومانى فى أوج عظمته وأبهة ملكه، لايزعجه مزاحم فى بلاده، ولا عدو مغير من خارجها.

نعم كانت فارس مقطعة الأوصال تحت حكومة إقطاعية، استقل فيها كل أمير بما تحت يده، ولكنم لما آنسوا استفحال شأن العرب، وحدوا كلمتهم، وعدلوا صفوفهم، ودانوا كلهم لملك اختاروه من أعرق أسرهم الملكية وهو يزدجرد، فلما واجه سعد بن أبى وقاص فارس، واجه منها أمة متراصة الآحاد

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد التاسع، سنة ١٣٥٧ هـ، ص ٤٢٣

كالبنيان، متحالفة الجماعات على الاستماتة فى الدفاع، لأنهم كانوا يملكون عرباً كثيرين، ويأنفون أن يكونوا محكومين بهم.

فسقط بذلك قول الذين يعللون الفتوحات الإسلامية بتخاذل الشعوب وتناحرها. ومهما كانت الشعوب متخاذلة فهل يعقل أن أمة واحدة تتحكم فى الأرض فلا تجد من يصدها عن أغراضها، لاسيما وهى خارجة من بلاد طال عليها الثوى فيها، محكومة غير حاكمة، أو بادية غير متحضرة؟

وقد عللها بعضهم بالعصبية الدينية التى بثها النبى ﷺ فى القبائل، وما وعدها به من الصيرورة إلى جنة عرضها السموات والأرض، فانصلتوا من بلادهم لا يردهم شيء، فاكتسحوا كل ما وصلوا إليه من البلاد طمعًا فى تلك الجنة.

وهذا تعليل ساقط كالذى سبقه، إذ لو صح لأنتج مسألة تعتبر من أعقد المسائل، فإنّ بث إيمان كهذا يدفع صاحبه إلى التضحية بنفسه للحصول على أمر غيبى، لم تجر به سنة الله بين البشر، لا سيما وقد كان العرب قومًا ماديين حسيين لا يسهل خدعهم بالعقائد الغيبية، فهم من الذين كانوا يفضلون العاجل على الآجل مهما كانت قيمته. فأى قوة روحية يمكن أن تتغلب على هذه النفوس المفتتنة بالماديات فتخلعها عنها بوعود خلابة لتلقى بها فى وجه العالم بأسره طلبًا للموت فى سبيلها؟ كل فلسفة نفسية تقف هنا عاجزة عن التعليل، معترفة باستحالته من طريق علمى.

ومن الناس من عللها بحب العرب للنهب والسلب، فلما اطمأنوا إلى داعية منهم يقودهم إليها، التفوا حوله وأيدوه، وقاموا بما قاموا به مما ظاهره فتح وباطنه نهب وسلب.

وهذا التعليل منقوض أيضاً، لأن النبى ﷺ أول مادعاهم إلى الخروج من تقاليدهم، وترك موروثاتهم، واتباع أحكام العقل فى عقائدهم، وقد لبث فيهم سنين كثيرة يدعوهم إلى هذه الأصول، حتى آمن به جمهور من الناس. ولم يأمرهم بالقتال للدفاع عن أنفسهم إلا بعد أن انتقل إلى المدينة، وهنالك اشتغل بنشر الإسلام بين القبائل، ودعوتهم إليه صريحة لا لبس فيها، وليس منها

وجوب مقاتلة الأمم طلبًا للغنم منها. فأساس هذا الدين هو تصحيح النظر، وتقويم النفس، وإصلاح القلب، والسمو إلى أرفع ما يصل إليه جهد طالب الكمال. أما ما تقتضيه الحياة الاجتماعية بعد ذلك من حماية الحوزة، أو نشر الدعوة، أو غير ذلك، فقد سنت لها أحكام لم ير العالم أعدل منها كما سبق لنا بيانه فى كثير من المواطن. فمن أين يستدل أصحاب هذه الشبهة على ما يقولون وليس له أثر فى كتاب ولا سنة، ولا فى شرح من شروح الأئمة؟

وذهب المشترع مونتسكيو فى كتابه أصول الشرائع إلى رأى آخر، فقال عند إلمامه بالأتاوات الحكومية: «إن هذه الأتاوات المفروضة قد كانت سببًا لهذه السهولة الغريبة التى صادفها المسلمون فى فتوحاتهم. فالشعوب رأت بدل أن تخضع لسلسلة لاتنتهى من المغارم التى تخيلها حرص البراطرة، أن تخنع لأداء جزية خفيفة، يمكن توفيتها بسهولة، وتسلمها بسهولة كذلك، ووجدت نفسها سعيدة بأن تستخذى لأمة متبربرة تعاملها على هذه الصورة من أن تدين لحكومة فاسدة كانت تكابد تحت سلطانها كل ضروب الموانع دون حرية لم تنعم بها قط، مضافاً إليها كل ويلات عبودية عتيدة».

نقول: إن هذا التعليل وإن كان فيه إشادة بتسامح المسلمين إلا أنه لا يفسر نجاحهم فى هذه الفتوحات السريعة التى انفردوا بها بين البشر.

لأن أول هذه الفتوح كانت الشام تحت قيادة أبى عبيدة بن الجراح، ولم يكن العرب قد جروا من أمر الجزية فى شعب على سنة تسامعت بمزاياها الأمم الأخرى، فالتقت الجيوش الإسلامية بجيوش رومانية مدربة تفوقها عَدداً وعُدداً، فهزمتها وأجبرتها على ترك حصونها المنيعة وقلاعها التى لا ترام، ولم تكف عنها حتى فتحت الشام كلها وغادرها إمبراطور الرومان وهو يقول: أودعك أيتها البلاد إلى الأبد!

فأى سيرة استعمارية كانت قبل هذه فتت فى عضد الجيوش الرومانية، وحسنت لها التسليم للعرب؟ وأية علاقة بين الجيوش المحاربة وبين قلة الأتاوات أو كثرتها؟ إن المحاربين كانوا هم الطبقة الثانية فى تلك الأمم بعد رجال

الدين، وكانوا متحكمين فى رقاب الدهماء يبتزون أموالهم ولا يدفعون للحكومة أموالاً، فالمعقول أنهم كانوا يدافعون أعداءهم بكل ما أوتوا من قوة مادية ومعنوية، لا أن يسلموا لهم ليكونوا رعية لهم، وليسوا هم بالذين تفتنهم قلة الأتاوات، ولا الحرية المحبوبة، فقد كانوا منها بالمكان الممتاز.

وفى الوقت الذى كانت فيه الجيوش الإسلامية تهزم جموع الزومانيين، كانت جيوش أخرى لهم ترد جنود الفرس المعروفين بصلابة العود على أعقابهم فى ذات بلادهم، ومثلهم كمثل الرومانيين فى الامتيازات المالية والأدبية، ويسقطهم من مراتبهم تغلب جنود أجانب عليهم.

إن تعليل مونتسكيو كان يشتبه به لو أن العرب كانت لهم مستعمرات تنعم باليسر، وكانت الجيوش المحاربة تعامل بالعسف، وتئن تحت أثقال الضرائب، أو لو كانت الأمم نفسها هى التى تحارب، وقد قلنا إن المسلمين إذ ذاك كانوا لا يزالون فى أول عهدهم، ولم تبل الأمم من حكمهم ما يحببها فيهم.

على أن مونتسكيو يصف المسلمين الأولين بالأمة المتبربرة، فهل عهد فى تاريخ البشر أن أمة متبربرة تكون مثلاً يضرب فى قناعتها، وحسن معاملتها لمن تقهرها من الأمم؟ إن المعروف بين الناس أجمع أن الأمم المتبربرة لا تقف نهمتها للمال عند حد، فلا تزال بالمقهور حتى تبيد خضراءه، ولاتدع له شيئاً. فمن أين جاء هذا الأدب العالى للمسلمين، المتبربرين فى نظر مونتسكيو، على خلاف سنة العالمين قديما وحديثا؟

إن مونتسكيو قد زاد المسألة إشكالاً ولا يحلها إلا افتراض واحد، وهو الحق، إن الأمة الإسلامية كانت على شريعة إلهية تمثل أعلى درجات العدل والإنصاف، وإن ما احتازته من الملك الذى لم ينبغ لأمة قبلها ولا بعدها، لم يقو على إفساد قلوبها كما أفسد قلوب الفاتحين قبلها، وإن الله قد أيدها بروح من عنده، وقذف بها فى وجه العالم لترده عن الغى الذى كان فيه، ولتحطم السلاسل والأغلال التى كانت فى أعناق الأمم.

هذا هو التعليل الصحيح، والله غالب على أمره.

الدين مطمأن النفس(١)

لما كان العالم الإنسانى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كان الجو العلمى على مايزينه من شموس وأقمار يأخذ لألاؤها بالأبصار، مشوبًا بغيوم كثيفة من الشبهات فى العقائد التى فيها سلوة الإنسان وعزاؤه على مايصيبه من قوارع الحدثان فكان كلما أصابته قارعة استقبلها بقلب يعمره الإيمان بأن كل هذه النوازل الحيوية من لوازم الحياة المادية، فإذا ما انتهى دورها، وانتقل منها الإنسان إلى حياته الروحية، ارتقى إلى عالم منزه من الشوائب، كله روح وريحان، وأمن واطمئنان، لا يزال يرتقى فيه بروحه وشعوره حتى يبلغ من كرامة الوجود مالا يخطر ببال، ولا يمكن بيانه بالأقوال.

هذه كانت عقيدة العالم كافةً إلى ماقبل قرنين من الزمان، فلما انتشر العلم بين الناس بانتشار المدارس، وتولدت الشكوك والشبهات بتأثير الاكتشافات العلمية، طرأت زعزعة فى العقائد الدينية، فكانت كارثة إن استمرت سائدة فى العقول أثرت فى أخلاق الإنسان وأطواره تأثيرًا ليس من مصلحة النوع البشرى إهماله، بل قذفت به إلى حالة نفسية ليس من فائدته الإبقاء عليها، إن لم يكن بسبب تأثيرها فى شخصيته، فمما تولده من فلسفة ليس مما يسمح به الخضوع لها.

نعم إن هنالك فرقاً كبيراً بين نفسية من يعتقد أنه حيوان كسائر الحيوانات، يعيش راتعاً فى المأكل والمشرب، ثم يموت كما يموت حصانه وبعيره ويستحيل

(١) مجلة الأزهر، السنة الثالثةوالعشرون سنة ١٣٧١ هـ، ص ٤٧٥.

إلى تراب تطأه الأقدام، وتذروه الرياح إلى كل اتجاه، وبين نفسية من يعتقد أن حياته وإن كانت قصيرة الأمد لا تتجاوز بضع عشرات من السنين إلا أنه خالد بروحه فى وجود أرفع من الذى يعيش فيه سينتهى إليه ويجد فيه جزاء ماعمل من بر، وثواب ما بذل من جهد، أو نشر من علم، أو هذب من أخلاق، أو أمات من بدع، أو أحيا من سنن.

لاشك أن الفارق عظيم بين هاتين النفسيتين، وتأثيرهما فى توجيه الإنسان لا يخفى على أحد. فقد يعيش عشرات كثيرة من السنين حتى يبلغ أرذل العمر، ويقل مطعمه ومشربه، وتضمحل قواه، وتذبل نضرته، ويكاد لايستطيع الحركة، وتجافيه لذاته ومحابه، بل قد تساوره الأمراض من كل ناحية، وتؤلمه حركاته الجسدية، ومع ذلك يفضل أن يبقى فريسة لهذه المنغصات على أن يموت وتنصب على قبره القباب، ويحيط به الناس من كل جناب. ذلك لأنه ذاق لذة الحياة وأدرك قيمتها، ويخشى أن يرد بعدها إلى العدم!!!

وقد شوهد أن الهلع الذى يعترى النفس من الضعف الذى آلت إليه عقيدة خلود الروح، كان يشتد لدى بعض الناس حتى ليكاد يقعدهم عن العمل، ويشل حركتهم الحيوية، بل ويفضى بهم إلى الموت كمدا. وقد استند كثير من الفلاسفة على هذا الشعور واعتبروه من أدل الأدلة على خلود الروح بعد انحلال الجسد. وصرح رجالات من العبّاد أنهم رأوا الأرواح وحادثوهم كما يتحادث الأحياء سواء بسواء. وجاء العلم أخيرا فصرح بأنه أثبت وجود الروح إثباتاً حسيًا باستحضارها والتحادث معها؛ فكان هذا انتصاراً حاسماً للدين ليس بعده مرمى، فقد كان العلم الغربى قد اشتد فى إنكار وجود الروح حتى عد القول بذلك خرافة لا يصح أن تبقى إلا عند صغار العقول.

ولم يقف من إثبات وجود الروح عند الحد الذى وقفت عنده الفلسفة، فتوسع فى مناحيه حتى صرح بأن توصل إلى تجريدها من سلطان الجسد، والتخاطب معها مباشرة، وهى الحالة التى تتجلى بها فيما سموه بالتنويم

المغناطيسى. وزاد فى فتوحاته العلمية المتعلقة بها حتى أعلن أنه توصل بواسطة التنويم أيضا إلى إخراجها من الجسم فيصير ذلك الجسم فى تلك الحالة كما يكون فى حالة الموت، مجرداً من الحركة ومن التنفس أيضاً، وتكون هى على بعد منه، وتثبت وجودها لمتولى هذا البحث بوسائل توجب اليقين لابتنائها على الحس، على أنها خارج الجسد، فترى وتسمع وتفهم، وتأتى من الأعمال المادية بما يثبت وجودها خارج جثمانها إثباتاً لا يشوبه شك. وقد أثرت هذه الفتوحات العلمية أعظم تأثير فى العقول فانكسرت شوكة الملحدين، وخفتت أصواتهم، وأصبحوا بعد أن كانوا يصيحون هل من مجادل، يلزمون الصمت حتى ولو دعاهم إلى الكلام داع، خشية أن يتصدى لهم خصم قوى الحجة، فيظهر ضعفهم، ويكشف مستورهم. ولماذا يتحاشى هؤلاء الجدال وقد كانوا من أكثر الناس ولوعاً به واعتماداً عليه؟ لأن العلم فى تقدمه زاد فى عداد العقد التى لا تحل إلا بافتراض وجود خالق حكيم خلق الخلق على ما هو عليه، وأقامه على ما اقتضته حكمته من الأصول، ووجهه التوجيه الملائم له إلى الغايات البعيدة والابداعات التى لاتقف عند حد.

إن من أعجب ما ولدته العقول المريضة من أوهام ووساوس تخيل بعض الناس إمكان قيام هذا الكون دون قيوم أوجده من العدم، فيكون الحال أن العقل لا يستطيع أن يدرك أن أية مادة حقيرة يمكن أن توجد بذاتها، والأستاذ المادى يريد أن يوهم الناس ويجعلهم يصدقون أن العالم كله على ما هو عليه من جلال يقوم بنفسه دون عقل ينظمه وأنه متع بجميع مافيه من إبداعات وقوى ونواميس دون وجود مدبر عليم تولى إيجادها وتدبيرها؟ أليس من حقنا أن نعجب من هذا التناقض العجيب، بل الضعف العقلى المعيب. وإننا لنسميه ضعفاً عقليًا لأن سخفه يكاد ينطق باستحالته، فكيف يتأتى لشبهة هذا مبلغها من الضعف أن تدحض ما تقضى الخاصة الرئيسية للإنسان بضرورة وجوده، وأن أى عمل إنسانى مهما صغر وحقر لا يتأتى أن يقوم ويثمر ثمرته المقصودة منه إلا تحت قيادته وتدبيره.

نعم إن الأمر جلل، والعقل الإنسانى لا يستطيع أن يجول إلا فى الممكنات الجزئية التى يعملها بيده، فلذلك هو يطلق على ما يتعاصى عن إمكانه، والخضوع لسلطانه من الموجودات صفة المثل الأعلى، وهو توجيه إلهى ليستطيع تحت حوافزه الأدبية أن يترقى فى أعماله، وأن يتحرى فى حدود إمكان السبل التى يجب عليه أن يسلكها للوصول من أقرب الطرق إلى أغراضه، ولهذه الشئون كلها ثمرة جليلة أخرى هى من أرقى مميزاته، وهى سرعة الإلف للشىء ثم التبرم منه، والنزوع لتغييره نزوعًا لاهوادة فيه، فتتوافر له تحت هذه العوامل النفسية القوى التى تدفعه للعمل، والمثل التى تتراءى له ليتخير منها ما يتفق واندفاعه لاختيار الأكمل. فأنت ترى أن حياة الإنسان الأدبية سلسلة تطورات نفسية تبدأ بسيطة ثم تتركب وتتعقد لأجل أن تحال بتفكير المشتغل بها إلى أجزائها خالصة من التعقد، كاشفةً فى الوقت نفسه عن وجوه شتى للأفضل والأكمل.

هذه سيرة الإنسان، وهذه طريقه إلى مثله العليا، سائقاً العالم معه إلى حياة إنسانية لا سبيل لأى عقل على إدراك حقيقة عواملها، ومدى شوطها.

هل فات زمان الأديان[1]

يخيل للذين يشهدون الخطوات الواسعة التى يخطوها العلم فى سبيل كشف القناع عن وجوه المجاهيل، وفى متابعة البحث وراء عللها، ومبلغ آثارها، حتى تأدى إلى فهم حقيقة المادة، وتراءى له ماسيبتنى على ذلك من حل مساتير أخرى؛ قلنا يخيل إلى الذين يشهدون ذلك أن عهد الدين قد أذن بالزوال، وأن سيحل محله العلم فى هداية الإنسان إلى أقوم سبل الحياة، وفى إيتائه بمُثُل عليا من الأدب السامى يندفع إلى الوصول إليه على أكمل ما يكون من ثقة وطمأنينة وبعد عن الشبهات. وقد نطق بهذا الحكم طائفة من العلماء وتلقفها عنهم رجال من المتصلين بهم من زعماء المذهب المادى، فاندفعوا يروجونها فى الجامعات والمجلات العلمية، واشتدت حملتهم على الدين حتى زعموا أن بقاءه أصبح من المحال، فما هى إلا ملاوة من الدهر تمضى حتى يموت من بقى من أهل الجيل الحاضر المطبوعين بتأثير بيئاتهم وثقافاتهم، على الدين، فينقضى عهد الدين، ويشرق سلطان العلم، فلا يناظره فى قيادة النفوس منازع، وتتوحد وجهة البشرية تحت ضيائه الساطع.

بنى هذا الحكم من قادة الماديين على أن العلم يكشف حقائق الموجودات، ويبحث فى عللها، ويُعنَى بتفسير ما يستطيع تفسيره منها، وهو دائب على عمله هذا من يوم وُجد، وقد تأدى إلى ثمرات قيمة، لا يتردد فى عظمتها أحد. وهذا لا يؤثر فى ضرورة الدين أقل تأثير، حتى ولو وصل العلم إلى غاية مراده من

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد التاسع عشر سنة ١٣٦٧ هـ، ص ٧٨٢

تفسير الموجودات وتعليلها، إلى أن يصبح الإنسان لا يجهل شيئاً منها. ذلك لأن للدين مطلباً آخر أسمى من مطلب العلم، وارفع منه موضوعًا، وأعلق بالنفس الإنسانية من ثمرته مهما جلت، ألا وهو إيجاد صلة بين الإنسان ومبدعه، يتأهل بها إلى ما تتوق إليه نفسه من اقتباس فيوضاته، والاستعداد لإدراك حقيقة حياته، إدراكاً يطمئنه على خلود ذاته، ويكشف له عن معنى حكمة الوجود وآياته، ويحل له ما يزعج العقول من متناقضاته. وهذا كله ليس من مهمة العلم أن يقوم به، ولا في استطاعته أن يحاوله. وهو الذى تألم النفوس من الجهل به، وتفضل الإلمام به على كل عزيز عليها. فماذا يفيد الإنسان أن يعرف سر تركيب الذرة المادية، وأن يصل إلى تفجيرها، وأن يصنع منها قنبلة تأتى على مدينة بأكملها؛ أو أن يجيد استخدام الكهرباء فى حاجاته، وأن يكتشف قوة جديدة من قوى الوجود، تقوم له بما هو أخص وأرفع مما تقوم لنا به القوى المعروفة، أو أن يخترع آلة توضع فى السفن والطائرات فتوصله إلى أقصى الأرض فى دقائق قليلة، أو غير ذلك مما يدخل فى عداد المعجزات؛ قلنا ماذا يفيد النفوس من هذا كله إذا كانت غير مطمئنة على حياتها، ولاتعرف حقيقة ذاتها، ولا مصير الأعزاء من أمواتها؟ وبأى نفع يعود عليها إذا مسها طائف من مرض، وضعفت مقاومة بنيتها له، وأصابها من الجزع ما يزيد علتها تفاقماً حين يتراءى لها أن الفناء فاغر فاه ليبتلعها ويلاشى قواها العقلية، ولا تبقى منها إلا ذكرى لا تشعر هى بها وإن طبقت الأرض صيتا وشهرة؟.

ولا جرم أن العلم فى الحدود التى حصروه فيها لا يواتى النفس البشرية من هذه الناحية بأقل فائدة.

لسنا بسبيل بيان تقصير العلم وإنما بصدد دحض قول من يزعم أن فى العلم غناء عن الدين، وقد رأيت العكس، فإن العلم فضلاً عن أن عمله مقصور على العالم المادى، فإن كثيرًا من رجاله يتدخلون فيما لا يعنيهم، ويقررون أن ما تحلم به النفوس الضعيفة من وجود بارىء للوجود، ونفس مستقلة عن الجثمان

فى الأحياء، أحاديث خرافة يجب أن تتجرد منها العقول السليمة. وتغالى بعضهم فقال إن هذه العقائد تنافى الإنسانية القوية الجديرة بالسيطرة على القوى الطبيعية، وأن المتمسكين بها ضعاف النفوس يغلب عليهم التراخى والزهد فى الدنيا، والتغلب على الطبيعة وامتلاك زمامها لاتتأتى لأمثالهم من الذين جعلوا محط أمانيهم فيما وراء هذا العالم.

إن أمثال هذه المحاولات تروج فى العقول المحدودة، وتأتى بثمرات إلحادية تنافى المقام المحمود للإنسانية، وهى قائمة على سفسطة لا تقوى على الرد.

هل يصح أن يغيب عن هؤلاء الخصوم أن الأمم التى تتقاسم الأرض وتسيطر عليها اليوم، قامت كلها على بواعث دينية؟ وأن أمم الشرق الأقصى التى تتناحر جماعاتها كذلك للحصول على حقوقها الطبيعية، وشعوب الشرق الأدنى التى تستعصى اليوم على الاستعمار، وتقاوم القوى المضادة لها باستبسال وعناد لا يتصف بهما إلا ذوو النفوس الأبية، هل منعتها أديانها عن الاندفاع وراء مطالبها المادية، وهل حطت من كبريائها القومية ما تعتقده من الأصول الدينية؟

وهذه الأمة الإسلامية التى ظهرت فى جزيرة العرب فى بيئة لا تسمح طبيعتها بقيام أمة فيها، ألم ترها قامت تحت تأثير عقيدتها تفتح العالم وتستغل الطبيعة حتى بلغت أقصى ما تبلغه أمة من العظمة الأدبية والمادية؟ فلو كانت المطالب الروحية تصد النفوس عن الاشتغال بالشئون الدنيوية، والمعارف الكونية، لكانت الأمة الإسلامية فى عهدها الأول ـ وقد نالت بسطة من الملك وسعة من السلطان ـ استنامت إلى ما لديها من العقائد، وأهملت ما عداها من البحوث الفلسفية والعلمية؛ بل كانت تصدت لما صادفته من هذه البحوث واعتبرتها من المكائد الشيطانية، لإلهاء المؤمنين عن الواجبات الدينية فأحرقتها. ولكن العالم كله يشهد الآن وفى مقدمته المؤرخون، بأن المسلمين فى بدء نشوئهم ما احتكوا بأمة إلا أخذوا بأفضل ما عندها من المعلومات الكونية،

والأسرار الصناعية، وأكبوا على دراستها حتى بلغوا درجة الإمامة فيها قروناً كثيرة، ولا تزال مؤلفاتهم ماثلة فى الجامعات الأوروبية تشهد بصحة مايقوله المؤرخون عنهم، فأين تقع بعد هذا الدليل المحسوس دعوى زعماء الفلسفة المادية من أن الاشتغال بالأمور الدنيوية والعقائد الدينية، يميت القلوب، ويصد النفوس عن الاهتمام بالأمور المادية، ويحول دون الوصول إلى النهايات البعيدة للفتوحات الطبيعية.

أما وقد دحضنا هذه الشبهة، فنعود إلى القون بأن للدين مهمة لا يستطيع أن يقول بها العلم بل هو كما ترى يحاول أن يستهين بها، ويعزوها إلى السذاجة العقلية.

لا لا، ليس تفكير الإنسان فى مصيره، ولا البحث فى علاقاته الروحية بما فوق الطبيعية، من السذاجة العقلية، ولكنه أسمى ما يجب أن يبحث فيه الإنسان، وهو مدفوع إليه بعوامل طبيعية فى ذاته، فإن كان من المسموح به استخدام عبارة السذاجة العقلية فى هذا البحث، فإن هذا الوصف أولى بالذين يدعون أن ليس فوق الطبيعة المنظورة وجود أعلى منها يصح البحث عنه، وخاصة فى الوقت الذى ظهرت فيه مكتشفات تثبت أن فوق عقل الإنسان العادى عقلاً باطناً أقوى منه إدراكاً، وأبعد منه نظراً، وأشرف منه غايةً، ولا أريد أن أتعدى هذا الحد هنا. وكل ما أريد أن أقوله إن هذا الحنين من النفس لمعرفة ذاتها، وكشف الستار عن عالمها، وإحكام الصلة بينها وبين قيومها، من الأمور التى تهمها، إلى أبعد حد، ولا يمكن أن تنصرف عنها مهما شككها فيها المشككون، ومهما بلغ إليه العلم من تسخير الطبيعة. فلا خوف على الدين من تقدم العلم بل إنى أتوقع، وقد كثرت المكتشفات الروحية، أن يصير العلم من أشياع الدين، ويصبح من أخلص خدامه.

هل في الإلحاد مادة للبقاء[1]

ليس للملحدين دليل يعتمدون عليه

قلبنا مذهب الملحدين على كل وجه فلم نصادف فيه مادة للبقاء، فهو ليس يعتمد على العقل ولا على الحس ولا على الشعور. فالعقل يأباه لأنه ينفى الموجد، والعقل المجرد يقرر أن كل موجود لا بد له من موجد. ولأجل أن يتخلص المادى من هذا المأزق الحرج، يزعم أن الكون لا أول له، وليس به حاجة لموجد يوجده، منكراً هنا حصة العقل أيضاً من ضرورة تعليل وجود كون متنوع الكائنات والقوى، ومتباين الموجودات والنواميس، وآخذ فى الارتقاء والتكمل، وُجد من الأزل بغير أن يكون له صانع مدبر يوجده ويدبره.

هنا يكر علينا المادى فيشهر علينا سلاحنا نفسه قائلاً: وكيف تدركون وجود صانع على ما تصفونه من العظمة والقدرة والإبداع من الأزل، ألسنا وإياكم سواء فى هذا الأمر؟

نقول: لا، والفوارق بيننا لا تقدر، وإليك البيان:

فما دمتم تشعرون بضرورة وجود شىء دون موجد من أزل الآزال، فالعقل لايستطيع أن يتصوره جماداً، لأن الجماد ميت، لا حراك به، ويبقى على ما هو عليه حتى تجيئه قوة تحركه، وأين هى وليس فى الوجود غيره؟

ولكن العقل يستطيع أن يتصور وجود إله أزلى أبدى لا يدرك كنهه العقل، ولا تحد قدرته بحد، يوجد المادة ويتصرف فيها على ما يقتضيه علمه وتدبيره

(١) مجلة الأزهر - المجلد العشرون، سنة ١٣٦٨هـ ، ص ٨٨١.

وحكمته، وهو متصف بجيع صفات الكمال؛ ثم هو إن كان لا يُدرك كنهه بالعقل فذلك لأنه فوق مرتبة الموجودات.

فالإدراك إذا اضطر أن يبحث فى أصل الوجود، وهو مضطر إلى ذلك كل الاضرار بحكم تركيبه الأدبى، فلا معدى له عن إعطاء حق الوجود الأول لموجد لاحدَّ لقدرته، ولانهاية لسلطانه، يقدر أن ينشئ كل هذه المخلوقات، لا لمادة ترابية مجردة من العقل والإرادة والاختيار!

وإذا أضفت إلى هذا إنه لا توجد أدلة تسند الإلحاد إزاء آلاف من الأدلة التى تثبت لإيمان، أدركت أن الإلحاد نقص خلقى فى الإنسان، أى إن صاحبه يميل إلى النفى بطبعه ويكره أن يعتبر من زمرة المؤمنين. وكما يوجد هذا النوع من المرض الأدبى فى الإنسان، يوجد نوع آخر أكثر شيوعًا وهو عدم الاهتمام. هذا النوع يشاهَد فى أكثر الناس؛ خاصة فى هذه الأيام التى كثر فيها الاهتمام. بالأعمال المعيشية والمزاحمات. وهؤلاء أقل خطراً من سابقيهم وإن كانوا يضرون أنفسهم من حيث لا يدرون؛ فإن الإنسان مهما ابتسمت له الحياة، فإنها قد تتجهم له فى بعض الأدوار، إما لمرض يصيبه أو يصيب بعض ذويه، أو لنازلة تحيق به فتفقده ماله وجاهه وتضيق فى وجهه المنادح. فهل تظن أن فى العالم شيئاً يمكن أن يسليه فيما أصابه من هذه المكاره غير اللجأ إلى موجده، والاستئناس بذكره؟ ولكنك لا تستطيع أن تقوِّم طبيعة بشىء من هذا مهما بالغت له فى الموعظة. وهو على أية حال يكون خيراً من الملحد الذى إن أصابته كارثة لايرى أيسر لديه من إزهاق نفسه برصاصة تخترق فؤاده، أو تحرق مخه.

كل ما فى صميم الإنسان من قوى، وما يحيط به من عوامل خارجية، وما هو مدفوع إليه من الغايات البعيدة، وما هو ممنوع به من المتاعب الأدبية والمادية، يدل على أنه خلق ليكون متديناً، ومتديناً معناه ذا عقيدة يعتصم بها حيال الكوارث التى تصيبه فى حياته الدنيوية القصيرة الأمد، ولذلك لايوجد الإنسان حيث

يكون إلا متديناً، ولا يزال فى عصر الشكوك متديناً، ولن يزال متديناً. أما الذين جانبوا الدين تحت أى عنوان كان فشواذ، وهم شواذ حتى فى إلحادهم. وقد استنتج العلامة الدكتور (ووتى) فى كتابه (هل الإلحاد ممكن)؟ L'atéisme est - il possible? من ذلك أن الإلحاد سيزول شيئاً فشيئاً. فقال: «الإلحاد آخذ فى الزوال شيئًا فشيئًا على نسبة التطور العقلى للإنسان. لأنه لا يستطيع البقاء بعد أن تبين أن الأصول التى كان يستند إليها أصبحت عديمة القيمة ولا تعتمد على قواعد أدبية. وليس مجرد حكمنا بعدم وجود شيء، دون تقديم الأدلة على ذلك، يمنع من وجوده. والتفكر فى وجود خالق للكون وحاجة الإنسان للاعتقاد، هما فطريان فى الإنسان، ويغمران العقول والقلوب معا، وإن القادة من الكفرة عبثاً يحاولون طمس الدين، وإبعاده عن المدارس، وعن الدولة، ولن يستطيعوا التغلب عليه؛ بل تراه يعود ويسود رغماً عن كل هذه الموانع؛ لأنه متصل بصميم الطبيعة الإنسانية».

ثم عقب الدكتور المؤلف على هذه العبارة بقوله:

«كل عقل منطقى، صحيح النظر، وقويم المحاكمة والحكم، لا يستطيع أن يجحد وجود قدرة عليا خلقت الوجود ونظمته».

«والملحدون أنفسهم يعترفون بذلك. وهذا الأستاذ (لودانتك) Le Dantec [(١)]

يعترف بذلك ويصرح علنًا بأنه ليس لديه أى دليل فلسفى أو علمى يحمله على الإلحاد. وإنه ملحد بفطرته، دون أن يعلم لما هو كذلك. ويجوز أن يكون ذلك أمر وراثى».

«ويزيد على ذلك فيعلن على رءوس الأشهاد بأنه ليس له أى دليل على عدم وجود الخالق، فكتب يقول فى كتابه (الإلحاد) L'atéisme

«أنا ملحد على نحو ما أنا (بروتونى)[(٢)]، كما قد يكون الإنسان أسمر أو

---

(١) العلامة (لودانتك) من أعلام علم الحياة ومدرس بجامعة باريس.

(٢) بروتونى أى من أهل بريتانيا وهى مقاطعة فى فرنسا. وفى إنجلترة مقاطعة كبيرة بهذا الأسم، ولذلك سميت الدولة الإنجليزية بريتانيا العظمى.

أشقر دون أن يكون له دخل فى أنه كذلك. وليس لدى من دليل أقدمه على أن الإلحاد خير من شئ غيره، لأنى لم أعرف قيمة ذلك الشئ ولم أتذوقه».

عقب الدكتور (ووتى) على هذا الاعتراف فى كتابه (هل الإلحاد ممكن) بقوله:

«من المحال إعطاء تصريح أبلغ من هذا على وهى الأساس الذى يقوم عليه الإلحاد. ومما يجعل لهذا الاعتراف قيمة أنه صادر من أشهر خصوم الإيمان الذين نبغوا فى القرن العشرين».

ثم عقب الدكتور (ووتى) على هذا التصريح المكتوب بقوله:

«إننا لا نستطيع أن نحسن خاتمة القسم الأول من كتابنا هذا إلا إذا نقلنا الكلمات التى ألقاها (فيكتور هوجو) فى الجمعية التشريعية التى عقدت فى ١٥ يناير من سنة (١٨٥٠) بباريز، قال:

«توجد كارثة فى زماننا هذا، وكنت أريد أن أقول (شبه كارثة)، ألا وهى الميل إلى حصر كل اعتبار فى هذه الحياة وحدها. والحقيقة أنه بإقناع الإنسان بأن هذه الحياة الأرضية المادية هى الغرض الأسمى من الوجود، والنهاية التى ليس بعدها مرمى، تتضخم جميع متاعب العيش، وتعظم سائر تكاليفه، وتصبح فكرة العدم غير ممكنة الاحتمال، وينقلب الألم وهو ناموس إلهى موصل إلى الكمال، ناموساً من اليأس موصلاً إلى النار. وقس على ذلك جميع الشؤون الاجتماعية.

«فالذى يخفف الجهاد، ويشرف العمل، والذى يجعل الشخص قوياً متسامحاً عاقلاً صبوراً شجاعاً جريئاً، وفى الوقت نفسه متواضعاً وعظيماً جديراً بالحرية، هو ما يتراءى له على الدوام من حياة أبدية أكمل، يتألق نورها خلال غياهب هذه الحياة.

«فواجبنا جميعاً أن نوجه الرءوس نحو السماء، وأن نلفت جميع الأرواح إلى حياة بعد هذه الحياة، يتقرر فيها العدل، ويجازى كل على ما كسبت يداه»

«فلنقل بأصرح العبارات ولنرفع الصوت عالياً، بأن أحداً لا يتألم ظلما ولا لغير فائدته. فإذا كان مِساك العالم المادى التوازن، فإن مِساك العالم الأدبى هو العدل، ثم إلى الله مصير الأمور».

بين المتفائلين والمتشائمين[1]
والإنسانية المعذبة

قال شيخ الفلسفة التشاؤمية (شوبنهوير) Schopenhauer:

«ليست الحياة شيئا غير حرب مستعرة طلبا للبقاء، لا يهدأ لها أوار طرفة عين، ولكن مع تحقق الإنسان أنه لامحالة مغلوب. . . لأن الحياة نفسها كبحر غاص بالشعاب والمهاوى، والإنسان بواسطة قوة تبصره وتحفظه يعمل على تجنبها، ومع هذا فإنه يعلم بأنه متى اقتحمها بصلابة عوده وحيل عقله، يكون قد اقترب يسيرًا يسيرًا من الصدمة النهائية التى لا يمكن تجنبها، ولا يستطاع معالجتها، وليس بعدها إلا الغرق»!

«جهود تبذل، وآلام تعانىَ، ثم الموت، هذا كل ما تحصله لنا (الإرادة) من العلم، ومن أجل هذا يصح أن يقال إن (الإرادة) بعد أن تثبت وجودها تعود فتنكر نفسها، هذه ثمرة الوجود الشخصى للإنسان! (يريد بالإرادة القوة الخالقة فى مذهبه كما سيجىء)».

«ما أبعد الفرق بين بدايتنا ونهايتنا! تلك تتميز بخوادع الرغبات، وسكرة اللذات؛ وهذه بتهدم الأعضاء، وبِلَى الجثمان».

«والطريق الذى يفصل بين هاتين الحالتين من ناحية راحة القلب، والغبطة بالحياة، تَتَّبع مستوى مائلاً إلى الحضيض. تجد فى أوله الطفولة ذات الأحلام اللذيذة، تليها الشبيبة ذات المرح والفتوة، تأتى بعدها الرجولة العاملة الجادَّة،

(١) مجلة الأزهر، المجلد الثالث عشر، سنة ١٣٦١ هـ، ص ٣٣٧

ثم تُختتم الحياة بالشيخوخة المحطمة، ويغلب أن تكون مبكية، تتبعها آلام المرضة الأخيرة ثم معركة الموت القاسية!».

هذه الفلسفة التشاؤمية لعبت دوراً بعيد الأثر، فى أهل القرن التاسع عشر، ولاتزال تتردد على ألسنة الذين فتنتهم الفلسفة المادية، ويروقهم الزراية بالوجود والموجودات، باعتبار إنهما ثمرات الاتفاق والخبط؛ يقصدون من ذلك معاكسة الذين يستدلون بهما على وجود قدرة أزلية أقامتها على أكمل ضروب الإبداع، بعد أن أوجدت مادتهما من العدم.

وإنما نتصدى لزعيم المتشائمين لأن فلسفته تعدت الملحدين إلى بعض الاعتقاديين، فإن منهم من أصبح يتساءل عن الحكمة فى شن كل هذه النوازل على رأس الإنسان الضعيف، ويستشهدون بقول شيخ المتشائمين الإسلاميين أبى العلاء المعرى:

ومن صحب الليالى علمته خداع الالف والقيل المحالا
وغيرت الخطوب عليه حتى تريه الذر يحملن الجبالا

هذه الأقوال وإن كانت تصادف هوى من أكثر الناس، فإنها مبالغ فيها كل المبالغة، فليست الحياة الإنسانية كما يراها كل ذى عينين على هذا الوصف، ولاشعور الإنسان بشؤمها بهذا القدر. فإن اعتبرنا الناس طبقة بعد طبقة، على حسب درجاتهم من البداوة والحضارة، والجهل والعلم، ظهر لنا بدليل محسوس أنهم وإن كانوا كثيراً ما تتعاورهم الهموم، فإنهم على وجه عام مغتبطون بالحياة، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة.

فإذا اعتبرنا المتوحشين وجدناهم ناعمين بالحياة على شظفها، يقضون جل أوقاتهم فى الغناء والرقص، على ما أجمع عليه من أشرفوا عليهم فى بيئاتهم من المستكشفين والسائحين. وإذا نظرنا إلى من فوقهم من أهل القبائل رأيناهم على مثل حالهم من المرح والارتياح.

ولو تأملنا فى أهل المدنية على اختلاف درجاتهم ومعارفهم، نجد الغالب

عليهم الاغتباط بالحياة، وتمنى دوامها، وقد افتنوا فى اتخاذ الملاهى حتى ليخيل إلى مستقرىء أحوالهم أنهم لا يفكرون إلا فى الاستكثار من ضروب الاستمتاع؛ ناهيك أن المولعين منا بتمضية العمر لهواً ولعباً، يرحلون إلى بلادهم ليقضوا شهوراً من سنتهم فى جوار الناعمين من أهل الثقافة العلمية العالية.

فأين الإنسانية المعذبة التى وصفوها بما تقشعر منه الأبدان؟

نعم، إن الحياة لاتخلو من منغصات طبيعية، وأخرى صناعية. فالأولى كموت الأقربين، وما يصيبهم من أمراض وأوصاب، وهذه المنغصات وقتية كما هو مشاهد محسوس.

وأما المنغصات الصناعية فهى أشد النوعين مساورةً للإنسان، وكلها من عمله، لم تفرضها الطبيعة عليه.

خلق الإنسان وأوتى عقلاً يدبره، ويتولى هدايته، وأشعر، بعلم ضرورى، بأن من أعطى هذا العقل ذمامه، سلك به أقوم السبل، وأداه من مطالبه العادلة إلى أبعد الغايات؛ وقد مُنح مع هذا العقل شعوراً أدبيًا يميز به بين العدل والظلم، والحق والباطل؛ ولكن الإنسان بما وُهب من الحرية الطبيعية، كثيراً ما يدع حكم عقله جانبًا، وينقاد لأهوائه صاغراً، فإن استعصت عليه رغباته من طريق السلام، حاولها من طريق العنف والخصام.

فلو حللت أكثر ما يشكو منه تحليلاً دقيقاً، وجدت علته فيما ذكرتُ لك، أما الطبيعة فلم تفرض عليه عذاباً بغير سبب. والذين أفسدوا عقول الناس من هذه الناحية هم الفلاسفة الماديون، والشعراء الخياليون. فالأولون يعولون على هذا السلاح ليخدعوا الناس، ويجتلبوا إذعانهم إليهم بأشد الأشياء تأثيراً فى شعورهم؛ والآخرون ينعون لهم الحياة، ويصفونها بما يصفونها به من المذام، ليرنّنوا فى قلوب سامعيهم، وتراً يشترك الناس كلهم فى حب الاستماع إلى رنينه، لاشتراكهم فى السيرة الفوضوية، والحياة السَبَهللية، التى لاتتقيد بقانون

من العقل، ولا بناموس من الأدب، ولا تنقاد إلا لأهوائها النفسية، وشهواتها البهيمية، وتريد مع هذا الانحلال الخلقى المنحط، أن لا يصيبها مما تجنيه على نفيها وعلى غيرها أثر ينغص عليها حياتها!

يصعب جدًا أن تصادف كافراً بالحياة الآخرة متفائلاً، كيف يعقل ذلك وهو يعتقد أن الفناء آخرته؟ فيكون مثله كمثل المجرم المحكوم عليه بالإعدام، يذهب ويجىء، ويأكل ويشرب، وأحياناً يمرح، وفى قلبه همٌ مقيم مقعد، يصور له كل شىء فى هذه الدنيا قبيحاً مشوهًا. وهذا سر تكالب الماديين على ذم الحياة، ومبالغاتهم فى تصوير أحداثها وكوارثها فوق ما هى عليه فى الواقع، وتصديهم لحياة الإنسان، وادعائهم أنها سلسلة آلام وأوصاب، ليس للإنسان فيها إلا أن يصبر صبر الأنعام، أو يرسل بنفسه بطعنة خنجر إلى عالم الفناء.

ولو كان يعتقد هؤلاء المتشائمون بالدار الآخرة، لظهرت لهم الحياة الدنيا على وجهها الصحيح، فترة يمكن أن يعاش فيها عيشة راضية، وقد تشوبها منغصات، ولكن لايقصد بها التعذيب بل التهذيب؛ ويكون أشد ما يشغل بال الإنسان فيها أن يرتقى عقلاً وشعوراً، وأن يحصل شخصية فاضلة يستطيع معها أن يحيا فى العالم الآخر مع من سبقه من ذوى الكفايات الأدبية العالية، حياة روحية كاملة.

إذا سمع شيخ المتشائمين هذا القول عدَّه من الأوهام، التى ولدها حب الإنسان للحياة، وأنه مناقض للعالم والعقل كل المناقضة! وقد علمت أن البحوث العملية الحديثة قد أقامت على هذه الحقيقة الأدلة العلمية المحسوسة. ومن العجيب أن شوبنهوير الذى يعتد بالعلم والعقل إلى هذا الحد، قد بنى مذهبه على أصل لا يسوغه علم ولا عقل!

فالوجود عند الفيلسوف شوبنهوير لم يخلقه صانع حكيم، وإنما خلقته إرادة غير شاعرة بوجود ذاتها، فصورته على ماهو عليه من نبات وحيوان، ثم انتهت إلى الإنسان، فاقتضى تركيبه الدقيق أن يتولد فيه إدراك لذاته، ولكنه إدراك محكوم عليه بالفناء بعد تهدم النظام الجثمانى الذى اقتضاه.

فهل فى العالم عقل يستطيع أن يدرك أنه توجد إرادة أزلية أبدية قوية فعالة إلى حد أنها تخلق الوجود وتدبره هذا التدبير، وهى مع ذلك مجردة من إدراك ذاتها؟ إذاً كيف تسمى إرادة وأنت تعلم بأن الإرادة لا يمكن أن تتجرد من العلم بحال من الأحوال؟

فالإنسانية إذا كانت معذبة كما يقولون، فإنما يعمل على تعذيبها رجال من هذا الطراز، يلقنونها مذاهب لا يمكن أن يقام عليها خيال من دليل، فتذهب فى الضلال كل مذهب، وترتكب من الانحرافات ما ترتكب، فإذا وجدت جزاء أعمالها المنحرفة صاحت بالويل والثبور، وعظائم الأمور؛ لأنها كانت تود فى عقيدتها أن تنحرف فى أعمالها ولا تصادف من نظام الكون محاسباً ولاجزاءً وفاقاً.

لماذا أنا متدين ؟[1]

يجيب الفيلسوف سا باتييه بقوله: «لأنى لا أستطيع أن أكون غير ذلك»

صفحات مختارة لأقطاب الفلسفة العصرية

بذلت الفلسفة الإلحادية فى أوروبا جهد المستبسل فى هدم صرح الدين، واستعملت لذلك كل معول وصلت إليه يدها، حتى ما لا يصح التعويل عليه من وسائل التضليل والتزوير فى مقررات العلم، وقد أثرت فلسفتهم تأثيراً عظيماً فى الذين لم يؤتوا القدرة على دحض الشبهات، وقد أصابنا رشاش من طامّاتهم هنا، فرأينا أن من أحسن الذرائع لإبطال مزاعمهم نقل ماصدر ضد هذه الحركة المشؤمة من أقطاب الفلسفة الغربية، ليعرف الذين غرهم ظاهر هذه الشبهات منا أنها لا تصلح لهدم الدين، بشهادة من هم أقرب من هؤلاء الملاحدة إلى صميم العلم، وأحذق منهم بصياغة الأدلة.

فنتحف قراء مجلة الأزهر اليوم بترجمة المقال الأول من كتاب جليل القدر للفيلسوف الكبير (أجوست ساباتييه) الفرنسى المدرس بجامعة باريس، يَدعى (فلسفة الدين)، كافح فيه شبهات الملحدين كفاحاً موفقاً كانت سبباً فى اعتبار كتابه عَلماً من أعلام عهد جديد للعاطفة الدينية. قال تحت عنوان:

تأملات انتقادية أولية

«لماذا أنامتدين؟ إنى ما أثرت هذه المسألة إلا تأديت لأن أجيب عنها جواباً واحداً، وهو: أنا متدين لأنى لا أستطيع أن أكون غير ذلك. فإن التدين حاجة

(١) مجلة الأزهر، المجلد الحادى عشرسنة ١٣٥٩ هـ، ص ٢٢٩

من حاجات وجودى. يقولون لى: هذا من تأثير الوراثة أو التربية أو المزاج. وقد اعترضت بذلك على نفسى. ولكن تعليل المسألة على هذا الوجه يقهقرها ولا يحلها».

«إن الحاجة إلى التدين التى أشاهدها فى حياتى الشخصية، أشاهدها فى الحياة الاجتماعية للإنسانية أكثر قوةً. فإن الإنسانية ليست بأقل منى تعلقاً بالعاطفة الدينية. فعبثاً يعترض عليها بأن الديانات التى أخذت بها وتركتها، قد خدعتها الواحدة بعد الأخرى؛ وسُدى يهدم لها نقد الفلاسفة والعلماء خرافاتها وأصولها الاعتقادية، وباطلاً يصور لها ما تركته الأديان فى تاريخ البشرية من آثار فظيعة للدماء والنيران؛ فإن الدين لا يزل باقياً وماثلاً فى جميع أدوار الثقافة العلمية، وجميع الانقلابات الثورية، مثله كمثل نبات شديد الحيوية اجتث ألف مرة من سطح الأرض، ولكن جذوره العتيقة أعادته إلى ماكان عليه قويًا ذا أفنان وريقة. فمن أين أتت الدين هذه الحيوية التى لا ينضب معينها؟ وما هى علة عمومية الدين وخلوده»؟

« أنا لا أستطيع أن أفسر هذا الأمر لنفسى إلا بمحاولة إيضاح وتحقيق آرائى فى الأصول النفسية التى ترتكز عليها العاطفة الدينية، وفى جوهرها نفيه. سيكون هذا موضوع تأملاتى الأولية.

« قبل التورط فى هذا البحث، يجب علىَّ أن أبعد سببًا خصبًا من أسباب إساءة الفهم والوقوع فى الأخطاء، وخاصة لدى الشعوب اللاتينية. هذه الأيباب مثارها كلمة (الدين) نفسها. فإنها لا تعيِّن الظاهرة النفسية المراد دراستها إلا تعيينًا سيئاً جدًا، لأنها تحيط هذه الظاهرة بآراء تبعية، وأحياناً غريبة عنها، تضلل الذين هم من الثقافة العلمية فى درجة متوسطة. وقد أتتنا هذه الكلمة من شعب هو أقل شعوب الأرض تديناً. وليس لها مرادف لا فى لغة العبرانيين القدماء، ولا فى لغات اليونانيين والجرمانيين والسلتيين والهنديين، وأعنى بهؤلاء الأسرَ الإنسانيةَ التى ثبت أنها من الناحية الدينية أعرق الشعوب وأكثرها تجديداً

فيها. إن روما هى التى فرضت هذا اللفظ علينا، كما فرضت علينا لغتها وعقليتها ونظمها».

«فالمسيحيون الأولون لم يكونوا يعرفونه، وليس له وجود فى كتب العهد الجديد. ولما دخل فى القرن الثالث فى اللهجة المسيحية كابد ضرباً من التنصير، واكتسب معنىً يتفق وروح الأنجيل. فعرَّف لاكتانس الدين بقوله: «هو العلاقة التى تجمع بين الإنسان وربه». ولكن هذا اللفظ عند كتَّاب روما القدامى لم يكن له هذا المعنى الباطنى العميق. فبدلاً من أن يعين لاكتانس الناحية الصحيحة الشخصية لكلمة دين، ويشير إلى أنها تعنى ظاهرة نفسية متنزلة من الروح، حدَّها من ناحيتها الظاهرية، معتبراً إياها مجموعة تقاليد ونظماً اجتماعية موروثة عن الأقدمين. وتنصير هذا اللفظ لدى المسيحيين لم يمح منه هذا المعنى ذا الأصل الرومانى. والدين لدى السواد الأعظم من الناس إلى اليوم لا يعنى إلا مجموعة طقوس تقليدية، واعتقادات فيما فوق الشئون الطبيعية، ونظماً سياسية. فهو كنيسة تملك الأسرار الإلهية، وتقوم على نظام من الرتب الكهنوتية، لتهذيب الأرواح الآدمية. هذا هو الشكل الذى أدركت العقلية الرومانية الديانة المسيحية عليه، وحققت وجودها فى العالم الغربى. والسلطان الذى تتمتع به كلمة الدين من الناحية السياسية والاجتماعية على أكثر العقول استنارةً، تقر ماذهب إليه المسيو برونتيير حينما أراد التنبيه على سمو الكاثوليكية على البروتستانتية حيث اكتفى، متابعا فى ذلك (بوسويت)، بقوله: إنها أكمل شكل لحكم الشعوب».

«وفى العصور والبلاد التى تغلب فيها هذا الوصف السياسى للدين، ظهر بضرب من ضروب الضرورة المنطقية تعليل من قبيله لتولد الدين فى الجماعات الإنسانية. فقد قالوا: لما كان الدين يصلح لحكم الشعوب على حالة توجب الإعجاب، فقد اخترع إذاً للوصول إلى هذه الغاية. فهو عمل القساوسة والبراطرة الذين أرادوا بهذه الوسيلة تثبيت سلطانهم، وضمان استمراره. على هذه العقيدة كان الرومانيون على عهد شيشرون، والفلاسفة فى القرن الثامن عشر. لم تعوز المدافعين عن هذا الرأى الأدلة عليه. فمن المحقق أن الدين كثيراً ما سُخر

لخدمة السياسة، وأنه قد ثبت أنه أداة عجيبة للحكم. وقد فُضحت تدليسات لابسة لبوس التقوى فى تواريخ جميع الأديان.

«ولكن ماذا تثبت هذه الحوادث مهما بلغ عددها المركوم؟ إنه ليست التدليسات اللابسة لبوس التقوى هى التى أوجدت الدينَ، لأنه لولاه لما راجت تدليسات من هذا النوع. فإذا قيل: إن القساوسة هم الذين أوجدوا الدين، فأنا أسألهم بدورى: وما الذى أوجب وجود القساوسة؟ أليس لأجل أن توجد القسيسية، ولأجل أن يجد هذا الاختراع فى الشعوب كلها مشاركةً عامة فى اعتباره، يجب أن يكون ثاوياً فى سويداء القلوب عاطفة دينية، نحلت هذا الاختراع صبغة مقدسة؟ نعم، فيجب قلب وضع العبارتين، والقول بأنه ليست القسيسية هى التى تفسر وجود الدين، ولكن الدين هو الذى يعلل وجود القسيسية».

* * *

«النظرية التى وضعتها الفلسفة الوضعية أعمق معنى، وأكثر تماسكاً. قالوا إن الدين الذى كان موجوداً فى أول وجود العالم لم يكن إلا تفسيراً ساذجاً للظواهر الطبيعية العجيبة التى كانت تدهش الإنسان الجاهل وتزعجه. فهو بداية العلم وصورته الطفلية. وهذه الصورة يجب أن تترك مكانها على توالى الأحقاب لصور أخرى أرقى منها وأكثر إتقاناً. ولقد عهدنا الأطفال والمتوحشين يمنحون حياة روحية لكل ما يحيط بهم. فهم يتخيلون وجود إرادات فعالة خلف جميع الظواهر التى تثير عندهم الخوف أو الرجاء. وبناءً على هذا عمدت مخيلة الأناسى الأولين إلى ملء الوجود بعدد لا يحصى من الأرواح الخيِّرة والشريرة، وتوهموا أنهم يتأثرون بأعمالهم الخفية فى كل صغيرة وكبيرة مما يصيبهم. وقد رأينا الساعة كيف عللوا وجود الدين بوجود القسيسية؛ وأمامنا الآن تفسير لوجود الدين بسبب وجود الأساطير الخرافية. ولكن يغيب عنهم أن هذا يلزم منه الدور والتسلسل نفسه الذى تقع فيه بسيكولوجيا ناقصة تخلط بين العلة ومعلولها».

«القول بأن الدين ضرب من العلم، يعتبر خطأ لا يقل فى خطورته عن

القول بأنه نوع من النظم السياسية، نعم، مما لا مشاحة فيه أن العقيدة الدينية تكون مصاحبة دائماً لشيء من العلم، ولكن هذا العنصر العقلى مهما ظهر أنه ضرورى للعقيدة، فهو ليس فى شيء من مادتها ولا من جوهرها، وأنه يتغير على الدوام فى أدوار الانتقالات الدينية. والصيغ المذهبية، والعبارات الأصولية، هى وسائل للتعبير والتربية يستخدمها الدين لأغراضه، ولكن يمكن أن يحل بعضها محل البعض الآخر فى أعقاب كل أزمة فلسفية. فالشعائر والمعتقدات قد تضعف أو تزول، ولكن الدين يبقى على ماهو عليه من القوة بحيث لايتأتى لأية صورة خارجية أو فكرة اعتقادية أن تستنفد مادته الجوهرية.

«يعرف الناس نظرية الأدوار الثلاثة التى مر بها الفكر الإنسانى فيما ذهب إليه أجوست كومت وتلاميذه، وهى: الدور اللاهوتى فى العصور الأولية، ودور ما وراء الطبيعة فى القرون الوسطى، والدور العلمى فى العهد الراهن. فإذا كان الدين فى جوهره علماً، لكان سرى عليه ما تقتضيه هذه القاعدة المنطقية من أدوار التطور، وهو زوال الصورة الساذجة من العلم ليحل محلها صورة أرقى منها. والدليل على أن أمر الدين ليس من هذا فى شيء، بقاء الدين وظهوره فى جميع العهود، وفى درجات من الثقافة متباينة كل التباين. والذى يجب أن يتنبه له أن هذه الأدوار الثلاثة المذكورة آنفًا ليست متعاقبة، ولكنها توجد كلها فى وقت واحد. فهى لا تقابل ثلاثة عهود من التاريخ، ولكنها تقابل ثلاث حالات مستمرة للروح الإنسانية. فإنك تجدها مجتمعة على درجات متخالفة فى العهد القديم لدى سقراط وأفلاطون وأرسطو، وتجدها فى العهد الحديث لدى ديكارت وباسكال وليبنتز وكَنت وكلود برنار وباستور. وبقدر ما يترقى العلم ويدرك أسلوبه الصحيح وحدوده، يتميز عن الفلسفة وعن الدين. فليس من الدين البحث العلمى الذى لا يرمى إلا إلى تحديد الظواهر وشروط حدوثها فى الزمان والمكان؛ وليس من الدين كذلك الحاجة الفلسفية لفهم الوجود باعتبار أنه مجموعة كونية يمكن فهمها، وتفسير كل ما هو موجود على أساس من التعليل الصحيح؛ وليس من الدين أيضًا الحاجة الاعتقادية التى

إذا فهمت على حقيقتها لم تكن إلا مظهراً أدبيًا للغريزة التى تحمل كل كائن على التشبث بالخلود، فكيف لا تظهر هذه الميول المختلفة للنفس فى آن واحد، وعلى سموت متوازية، وهى موجودة معًا فى الجبلة الإنسانية وفى كل زمان»

«فهل لنا أن نذهب للبحث عن أمثلة وأدلة لاستمرار العاطفة الدينية عند من هم أجدر بذلك من أشياع الفلسفة الوضعية أنفسهم»

«إن إجوست كومت وهرترت سبنسر وليتريه سيكونون شهودنا العدول على صدق ما نقول. فزعيم الفلسفة الوضعية (يريد أجوست كومت) الذى كان قد أنبأ بالانطفاء المحتم للعاطفة الدينية فى النفس الإنسانية، توج مذهبه وختم حياته العلمية بتأسيس ديانة جديدة، نسجها بقلة مهارة على النظام الكهنوتى، وطقوس الكاتوليكية الرومانية. نعم، قد تأسست كنيسة للفلسفة الوضعية تؤدى فيها العبادة لقديسين، ولها مخلفات مقدسة وأعياد سنوية، وكتاب تعاليم دينية، على رأسها قس كبير ليس بأقل عصمة من الحبر القائم فى روما، الأمر الذى أهاج على أجوست كومت بعض تلاميذه من جراء محاولته هذه، وأرادوا الاعتذار عنه باتهامه بالجنون. ولكن هذا الاتهام يكذبه الواقع. والحقيقة هى أن أجوست كومت بعدما فرغ من بناء مذهبه الاجتماعى، أدرك الدور تقوم به العاطفة والغريزة الدينية فى حياة الشعوب، فرأى أنه لا يستطيع تدعيم بناء الجماعة المستقبلة إلا بالدين، فأتاها به على أسلوبه. إنه ليقال إن بعض المبتورين يحسون بحكة شديدة فى مكان أعضائهم المقطوعة، ويظهر أن أجوست كومت وتلاميذه الذين اتبعوه قد شعروا بما يشبه هذه الحكة، فأحدثوا ما أحدثوه، فتكون الطبيعة فى سخريتها بالمستخفين بها قد انتقمت منهم على ما ارتكبوه ضدها من العنف العظيم».

«ولسنا بحاجة لإطالة الكلام فى هربرت سبنسر، فالناس يعلمون ما آل إليه فى مذهبه قوله (بالموجود الذى لا يمكن إدراكه) من اعتباره قوة غير محدودة، ولا واعية، تند عن مآخذ التفكير، ولكنها مع ذلك فى نظره العلة المفسرة لكل

تطور، والينبوع العذب الذى يستمد منه كل شىء وجوده. فبصرف النظر عن اختلاف الأشياء، ألسنا نرى فى هذا القول المذهب القديم فى وجوب وجود علة أولية للوجود، وصورة غير واضحة للإله الذى يقول به المؤمنون؟ فهل ندهش من أن يصل المفكر الإنجليزى على هذا النحو إلى إعلان الدين الخالد، وإلى حصر الحياة العقلية للإنسان فى جهدين أصليين أوليين: أولهما الجهد العلمى الذى يتعقب الظواهر الطبيعية واستحالاتها، وثانيهما الجهد الدينى الذى يعمل على التأمل الباطنى والعبادة الصامتة للموجود العام.

«أما ليتريه فأمره أشد تأثيرًا على النفس. فإنى أذكر أنى قرأت له صفحة فخمة فى بعض مؤلفاته مؤداها أنه بعد أن طاف الأرض الثابتة للمعارف المحسوسة، ووصل إلى نهايتها القصوى، جلس على قمة مرتفعة لقطعة من الأرض ممتدة إلى البحر؛ وهنالك وجد نفسه محاطاً بالمساتير من كل مكان كأنها محيط لاساحل له، وليس لديه لأجل أن يكشف حقيقته سفينة ولاشراع ولا بوصلة، فوقف يتأمله، فاعتراه خشوع أمام هذا المجهول، واستسلم لحركة من العبادة والثقة جددت لفكره قواه، وأنزلت على قلبه السكينة والسلام. فسألت نفسى عند ذاك: مامعنى هذا التأمل فى هذا المستور الكبير إن لم يكن انفجاراً فجائيًا للعاطفة الدينية التى زادها العلم المحسوس قوة بدل أن يطفىء جذوتها؟ وبما أننا هنا حيال ديانة الموجود الذى لا يمكن إدراكه أفلا يعتبر هذا المذهب من الأدلة على أن الدين ليس بعلم ولكنه غريزة؟.

«قد وصلت الآن، وإن كان هذا المذهب أقدم مما مر، فإنه يوصل إلى ما يقرب من الغاية التى نرمى إليها. فقد قال شاعر لاتينى: (إن الخوف هو الذى ولّد الآلهة). هذا التعليل إذا فهم على بعض الوجوه فهو صحيح. ذلك أنه مما لا مشاحةَ فيه أن عاطفة التدين تنبهت فى قلب الإنسان تحت تأثير الخوف الذى سببته له القوى الطبيعية الأولية المضطربة حوله. فإنه وقد قذف به عارى الجسم ومجردًا من السلاح على كوكب قريب العهد بالبرودة بعد أن كان نارًا

تتلظى، كان يمشى وهو يرجف على أرض لا تزال تضطرب تحت قدميه، واقعاً فى حالة من الفاقة والبؤس تملأ فؤاده بذعر عظيم. نعم ولكن يجب إتمام هذا التعليل، فإن الخوف وحده ليس فى ذاته فى شىء من الدين، إذا أنه يشل القوى، ويطمس العقل، ويسحق الإنسان. فلأجل أن يكون الخوف خصباً من الناحية الدينية، يجب أن يلابسه من لدن وجوده شعور مضاد له، أى بصيص من الأمل. يجب أن يشعر الإنسان وهو بين براثن الوجل بإمكان التغلب عليه، أعنى أن يؤمل أن يجد فوقه عوناً يدفع عنه ما يتوقعه من خطر. وبناءً على هذا فالخوف لا يولد الدين عند الإنسان إلا لأنه يوقظ فيه الأمل، ويلهمه الدعاء الذي يفتح لنوازله متسرّبا. هذا هو الصحيح من هذا الافتراض القديم. وهو يقربنا من الينبوع الذى نبحث عنه بوضعنا فى المجال العملى للحياة، لا فى دائرة النظريات العلمية. فالأمر الذي يعنى الإنسان من الدين هو نجاته من العطب، فإذا ظهر أحياناً أنه يحاول بواسطته أن يدرك سر الوجود، فليس ذلك إلا ليحل بهذه الوسيلة سر حياته الشخصية. ونحن بعد أن وصلنا إلى هذه النقطة يجب علينا أن نزيد هذه المسألة محاولة. فيتعين علينا أن نرى كيف ينبع الشعور الدينى من خلال المتناقضات الأساسية. وهو ما سنصل إليه بتحليل بسيكولوجى يستطيع كل إنسان أن يتابعه، وإن يحققه بسهولة إذا كان ممن يملكون القدرة على ذلك بالاعتماد على تجاربهم الخاصة».

* * *

(مجلة الأزهر): هذه محاولة فلسفية تعتبر أبدع ما أنتجته الفلسفة الأوروبية لإثبات أن الدين غريزة طبيعية فى النفس البشرية، فانظر كيف تتأدى الفلسفة العالية إلى تأييد الكتاب المجيد؟ أليس كل ما فى هذا البحث الجليل محصوراً فى قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا (فطرةَ الله) ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

(١) الروم: ٣٠

الدين هو الكوة التى ينبع منها النور للإنسان(1)
هذا ما صرح به الفيلسوف الكبير أجوست سباتييه
المدرس بجامعة باريس
فى كتابه (فلسفة الدين) - تحليل بسيكولوجى دقيق

صفحات مختارة لأقطاب الفلسفة العصرية

«ما هو الإنسان؟ إنه من الناحية الظاهرية لايفترق كثيراً عن الحيوانات العليا، ولكنه بحياته العقلية يتميز عن الحيوانية ويتخلص منها يسيراً يسيراً. وهنا تظهر فيه ظواهر ونواميس مع نوع جديد. فإن الحياة الغامضة للعقل تتفتح رويداً رويداً كأنها زهرة إلهية فتطلعنا من الوجود على معناه وجماله، وفى الوقت نفسه تتضح لضميرنا منطقة الحق والجمال والخير، ويتجلى له العالم الأدبى كوجود عال هو عالمه الذى ينتسب إليه. فهذه النواميس هى التى تصلح أن تسطو على النواميس الطبيعية، وأن تقهرها لتوصلنا إلى غايات سامية، هى التى تحقق وتؤلف للحيوان الإنسانى معنى الإنسانية. فالإنسان لا يستحق وصف الإنسانية إلا بقدر ما يطيع هذه النواميس العليا، وهذه هى نقطة الاتصال التى يشغلها بين هذين العالمين، وهذا وجه ضرورة الآلام التى بواسطتها يجب أن يتخلص من الحيوانية الأصلية. فإنه إذا لم ينجح فى أن يعلو عن مستوى الحيوانية، وقع بفساد حياته إلى حضيض أدنى منها».

(1) مجلة الأزهر، المجلد الحادى عشر، سنة ١٣٥٩ هـ، ص ٣٧٦

* «الحياة النفسية تقتضى بأصل تكوينها حركتين، أولاهما تحدث من الظاهر إلى الباطن حتى تصل إلى مركز الذات الإنسانية، وثانيتهما من الباطن إلى الظاهر، أى من مركز الذات إلى الخارج».

* «الحركة الأولى هى تأثير الأشياء الخارجية على الذات الإنسانية بواسطة الإحساس، والثانية هى رد فعل للذات على تلك الأشياء بواسطة الإرادة. فهذان التياران الباطنيان يؤلفان الحياة العقلية فى جملتها. من هنا يتبين الإنسان التضاد الأساسى الذى تتكون منه الحياة، والذى يقوى ويشتد دون انقطاع. وفوق هذا فإن الجانب السلبى والجانب الإيجابى للحياة العقلية ليسا متلائمين، فإن الإحساس يسحق الإرادة؛ ونشاط الشخصية وتفتحها وميلها للامتداد والنمو ترزح تحت أعباء الوجود التى تقع عليها من كل جانب. حتى إذا اندفعت موجة الحياة من مركز الذات، تكسرت على صخور الأشياء الخارجية. فهذا التصادم المستمر، وهذا الكفاح بين الذات الإنسانية والعالم الخارجى، هو السبب الأول الأصلى لجميع الآلام البشرية، وبهذا تجد نشاط تلك الذات بارتداده على نفسه تشتد حرارته كما تشتد حرارة محور العجلة من شدة الحركة. إذا حدث هذا لمعت شرارة الحياة الباطنية وأضاءت. وهذا هو الضمير، وبتكرر هذا الإحساس المؤلم للخيبة المتوالية تلجأ الذات للفكر والتأمل وتدرك ماهيتها، وتقدر نفسها، وتنفصل عن الجسد الذى كانت لا تتميز عنه، وتبدأ فى معارضة نفسها بنفسها كأنها مؤلفة من شخصيتين، شخصية مثالية، وشخصية عادية. ومن هنا ينشأ عذابها وكفاحها وندمها، ولكن ينشأ فيها إلى جانب ذلك اندفاعها المتجدد، وترقيها غير المحدود فى الحياة العقلية، بحيث تكون فى كل برهة لها درجة تؤديها إلى درجة أرقى منها. ألسنا نلمح هنا النفحة الإلهية التى يستوجبها لنا هذا الألم؟ إنه دون هذا الألم كان لا يمكن أن تتميز الحياة العقلية عن الحياة المادية. ولا غرو فكل ميلاد لا يكون إلا بألم. والضمير كالطفل لايولد إلا غارقاً فى الدموع. ولما كان الضمير ابن الألم فقد قضى عليه أن ينمو إلا به. فهل نصادف أعظم العقول تلطفاً، وأكثر الضمائر حدةً، وأشد ضروب

الحياة تركزاً، إلا لدى آحاد شَل نشاطهم الخارجى بسبب مرض، أو حرج فى حالتهم الاجتماعية؟ فكيف تستطيع أن تعلل وجود (أفكار باسكال) و(مين دوبيران) و(يوميات أميل) بغير هذه العلة؟ من أين جاء لهؤلاء الرجال سمو ضمائرهم الخارق للعادة إن لم يكن من هذه الناحية، وهى أنهم شعروا شعوراً عميقاً بالتضاد الذى بيناه هنا بين العوامل المنصبة على الإنسان، ورأوا أنها كما توجب عليه الشقاء والبلاء، تدفعه إلى العظمة والسمو».

«استمرْ فى هذا النظر، وتتبعْ كل واحدة من خصائصنا وهى تتفتح وتنمو، تجدها قد نشأت من هذا التضاد الذى رأيته، فإذا لم يكن هو لم توجد هى. على أنه يسطو عليها حتى يكاد يقتلها بعد ظهورها، ولا تجد أينما وجهت طرفك إلا هذا التضاد المؤيس».

«والإنسان لا يستطيع أن يعرف نفسه إلا إذا أدرك أنه محدود، ولكنه لايشعر بهذه الحدود إلا بعد أن يجتازها بفكره وإرادته، بحيث أنه أصبح لا يقنع بما يملكه، ولا يسعد إلا بما لا يستطيع أن يناله. فأرانى أريد أن أعرف، وعقلى متعطش لأن يفهم ويعلم، فإذا وصلت إلى مكتشفات أولية أسرتنى، ولكن واأسفاً لا ألبث حتى يصطدم فكرى بغامض فيما حصلت. فالأمر لا ينحصر فى أنه توجد أشياء لا يعرفها عقلى. ولكنى متحقق أن هنالك أشياء لايستطيع أن يعرفها عقلى قط. فأنَّى للإنسان إن يقفز إلى ما بعد ظله، أو أن يصعد على كتفىْ نفسه ليرى ماوراء السور الذى لا يستطيع أن يقتحمه! وأنا أريد أن كل ما يمكن إدراكه يكون حقيقيًّا، ولكن هل كل ما هو حقيقى يمكننى أن أدركه؟ إذاً على أية حال يؤول علمى إن لم يكن إلى شعور ما ليخولى لجهالة تدرك نفسها على هذا الوصف»؟

كذلك أجد تناقضاً فى خاصة تمتعى. فكما أفضَى الساعةَ علمى الظاهر إلى عكسه، كذلك أرى كل ما أسميه متعة وسعادة يتحول إلى شقاء وتألم. فليتهم السطحيون والعامة الحظ والخوادع والتقصير فى عدم وصولهم إلى السعادة،

ولكنى أنا لا أتهم إلا التركيب الصميم لكيانى، فإنه بسبب هذا التركيب نفسه تحمل المتعة فى ثناياها سبب زوالها، ويستحيل الصفو فيه إلى كدر، وتخرج حُمَةَ الألم من وسط اللذة. (الحمة إبرة العقرب ونحوها)

«لقد أصاب مذهب التشاؤم فى هذا الموطن؛ فقد ثبت بما لا يُدحض من التجارب بأن التفانى فى البحث عن السعادة لا نتيجة له إلا زيادة قابليتنا للتألم. وهل ألم يذكر النشاط الأدبى؟ إنى أريد أن لا أفعل غير الخير، ولكنى أجد الشر لى ملازماً، فلا آتى كل ما أرتضيه، ولا أرتضى كل ما أفعله. إنى أشعر بالحرية فى إرادتى، ولكنى أحس بذل الأسر فى عملى. وكلما جهدت أن أصل إلى المثل الأعلى فى العدالة، سَجل علىَّ هذا المثل الأعلى الذى لا أصل إليه أبدًا أنى آثم، وقوَّى فى نفسى الشعور بالإثم، بحيث تصبح هنا، وهنا على الخصوص، الثمرة النهائية لمحاولاتى عكس ما كنت أتمناه من قبل.

«فمن أية ناحية يأتينى الخلاص؟ كيف السبيل إلى حل هذا التضاد فى ذاتى، وهو التضاد الذى يحيينى ويميتنى فى آن واحد؟ من الناس من يعتمدون فى سبيل تخليص الإنسان من فاقاته وعقباته، على تقدم العلم وصلاح أحوال الحياة. ولكن كيف لا يرى هؤلاء هنا، نشوء ينبوع جديد من ينابيع القنوط؟ كيف ينسون أن العلم بتقدمه يزيد فى التناقض الأساسى للحياة ويجعله أقتل مما هو عليه، بدل أن يخفف من وطأته؟ فهل حدوث اكتشاف جديد، أو تعليل ظاهرة جديدة، يعنى شيئاً غير إضافة ذلك إلى سلسلة العلل الضرورية التى ينسجها العلم ويمدها على أشياء الكون؟ هل يعنى ترتيب العلم للكائنات وتقرير نظامها وثباتها، شيئاً غير إثبات سيادة القهر عليها سيادة مطلقة. فالعلم جبرى بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة. فزدْ ما شئت من هذا الترقى العلمى، وأبلغه إلى عشرة أو مائة أو إلى ألف ضعف، فهل أنت بذلك صانع شيئاً غير مضاعفة سلطان الجبرية العامة التى تخضع لها أرواحنا وينحل دونها نشاطنا الباطنى؟ وإذ ذاك تنتهى إلى زيادة إدراك التضاد المؤلم بين العلم والضمير،

وبين النواميس المادية والنواميس الأدبية، وبين الفكر والعمل! وبقدر ما ينمو أولهما ويتغلب، يظهر لنا ثانيهما باطلاً لا حقيقة له. من هنا نشأت هذه الثنوية الفلسفية التى انتهى إليها الفكر العصرى، من قيام علم يعجز عن توليد أخلاق يمكن أن يعترف بها الناس، وقيام أخلاق يمكن أن يعترف بها العلم. إننا بهذا التحليل قد وصلنا إلى علة هذا المرض العجيب الذى يمكن تسميته «بمرض القرن الراهن»، وهو ضرب من الانحلال الباطنى الذى أصاب العقول المستنيرة على درجات شتى. فهو حرب باطنية تسلح الذات الإنسانية ضد نفسها، وتُنضب ينابيع الحياة فيها. فبقدر ما يفكر الإنسان فى إيجاد البواعث للحياة والعمل، يقل نشاطه للجهد والعمل. فاستضاءة الفكر هى على نسبة عكسية مع قوة الإرادة، حتى ليقول أنصار التشاؤم بأن وصول الضمير إلى قوته وكماله يبطل فينا حب البقاء والرغبة فى العمل. ومن الذى يتجرد اليوم من التشاؤم على قدر من الأقدار؟ ومن الذى لا يشكو اليوم من ثقل وطأة الفكر عليه، ومن ضعف تأثير الطبيعة فيه؟ ومن الذى لم يشاهد هذا الازدواج الغريب الذى كاد يكون عادياً، بين خفة الأخلاق والذكاء الممتاز؟ ما هى هذه الشكوى المملة التى تتصاعد من كل ناحية ممثَّلة فى أحدث كتاب فى الفلسفة، أو أعلق رواية بالقلوب، أو أحسن قطعة تمثيلية، إن لم تكن هى الأنين المالیخولی المنبعث من حياة يظهر أنها قريبة من الانطفاء، ومن عالم عتيق آيل إلى الفناء؟ فهل يحسن بنا أن نقلع عن التفكير لنحتفظ بالقوة على البقاء، أو أن نصبر للموت لنستبقى الحق فى التفكير».

«من هذا الشعور بالحرج الشديد، وبالتضاد فى الحياة الباطنية للنفس يتولد الدين، فهو الكَوَّة[1] التى ينبع منها النور المحيى للإنسان من خلال الصخور المطبقة عليه».

(١) الكوة (بفتح الكاف وضمها): الخرق فى الحائط.

لم كان الدين هو الكوة التي ينبع منها النور للإنسان ؟[1]
بيان ذلك للفيلسوف أوجست سباتييه نفسه

صفحات مختارة لأقطاب الفلسفة العصرية

انتهينا من ترجمة البحث الفلسفى الجليل لموضوع الدين من كتاب (فلسفة الدين) للعلامة أجوست سباتييه مدرس الفلسفة بجامعة باريس، إلى قوله: «الدين هو الكوة التى ينبع منها النور للإنسان من خلال الصخور المطبقة عليه»، ونعمد اليوم إلى ترجمة ما ساقه من الأدلة الفلسفية على ذلك، قال:

«لم يكن الدين هو الكوة التى ينبع منها النور للإنسان وهو على أشد ما يكون من الشعور بالحرج وبالتضاد فى حياته الباطنة، لأنه يحمل إليه حلاً نظرياً لتلك المسألة. لا ولكن المخرج الذى يؤتينا به الدين من تلك الحيرة، ويقترحه علينا، هو من القبيل العملى، لا من طريق معلومات جديدة؛ أى بإعادتنا إلى الأصل نفسه الذى تتصل به ذاتنا، وذلك بواسطة عمل أدبى من إحياء الثقة فى نفوسنا بذلك الأصل الذى نشأت منه الحياة، وبالغاية التى تنتهى إليها. ومع ذلك فإن هذا العمل المنجى لايفرضه الدين علينا من طريق الإلزام، ولكنه ينشأ فينا من ناحية الضرورة. فإن التمسك بالحياة ليس بشىء غير غريزة حفظ الذات فى العالم الطبيعى، وهو يؤثر فى العالم العقلى على الأسلوب نفسه. فهو صورة سامية لتلك الغريزة. ذلك أنها عمياء وجبرية فى الكائنات الحية، ولكنها تصطحب بالوعى والإرادة فى الحياة الأدبية. وهى باستحالتها هذه تظهر على صورة الدين فى النوع البشرى.

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد الحادى عشر، سنة ١٣٥٩هـ ، ص ٤٠٤.

«هذا الاندفاع وراء حفظ الحياة لا يحدث فى الفراغ، ولا هو مجرد من غاية. لأنه يستند على إحساس ملازم للوعى الشخصى، وهو الشعور بتبعية الإنسان للكائن العام. فمن الذى فى وسعه أن يهرب من الشعور بهذه التبعية المطلقة؟ ليس ما قدر علينا قد بث فينا خارجاً عنا وفى غيبتنا فحسب، بواسطة النواميس العامة لحركة التطور الوجودية، فظهرنا فى ناحية من الأرض فى زمان ما موقرين بموروثات وقوى لم نُستشر فيها ولم نخترها؛ ليس هذا فحسب، ولكننا لعدم وجداننا علة وجودنا فى أنفسنا، وفى أى مجموعة من الكائنات الأرضية، اضطررنا للبحث عن السبب الأول لوجودنا، وعن الغاية الصميمة لذاتنا ولحياتنا، خارج أنفسنا فى الكائن الأول نفسه. فلأجل أن يكون الإنسان متديناً يجب عليه قبل كل شىء أن يعترف وأن يرضى، فى ثقة وبساطة وخضوع، بتبعية وجودنا الشخصى للأصل الأبدى الذى نشأ منه وبارتباطه به؛ وأن يريد أن يكون ضمن نظام الحياة ومتكافلاً معه. فهذا الشعور بتبعيتنا يهبنا القاعدة العملية التى لا تقبل التلاشى، للعقيدة بوجود الخالق. وهذه العقيدة يمكن أن تبقى فى عقولنا غير محدودة، وقد تلبث غير بالغة حدها الأقصى من الكمال، ولكن موضوعها لا يزايل ضميرنا قط. وقد أُلقيت هذه العقيدة فى روعنا، بل فُرضت علينا فرضاً قبل إجالة أى فكر أو نظر فى أى تحديد معقول. وعلى هذا فيمكن وضعَ هذه المعادلة الفلسفية دون تهيب وهى: إن الشعور بتبعيتنا هو الشعور بوجود الله فينا. هذا هو الينبوع العميق الذى تفجرت منه عقيدة وجود الله عندنا بقوة لا يمكن دفعها، ولكنها نبعت منها هى. والدين فى آن واحد، وبتأثير الدين نفسه.

«ومع هذا يجب أن نقدر بأى ثمن قَبِل فكر الإنسان هذه التبعية حيال الأصل العام للحياة. فقد رأينا أن هذا الفكر قد ثار على الأشياء الخارجية ونازعها، لأن هذه الأشياء من طبيعة مغايرة لطبيعته، ولأن الصفة الخاصة للفكر هى أن يفهم وأن يتسلط وأن يقود الأشياء، لا أن يخضع لها. فمن الذى لا يذكر فى هذه المناسبة عبارة باسكال: «ليس الإنسان إلا قصبة واهية، فهو أضعف شىء فى

الوجود، ولكنه قصبة مفكرة. فإذا كان الوجود يستطيع تحطيمها، فإنها مع ذلك أسمى منه، لأنها تعرف أنها تتحطم، وتعلم أن الوجود أقوى منها، والوجود فى غفلة عن هذا كله»، فمن أجل هذا ليس فى الوجود المادى أصل للسيادة يمكن أن يخضع له الإنسان. إن العظمة السامية للعقل حيال مجموع الأشياء لا يمكن الاحتفاظ بها للنهاية فى شخصيتنا المؤقتة، إلا بعمل من الثقة والاتحاد الصميم بروح الوجود. فإن ضميرى لا يستطيع أن يحكم بتبعيتى أنا والوجود فى حالة وفاق، إلا بقوة روحية أدركت أن لها فى الكائن العام أصلاً مشتركاً وغايةً واحدة. وديكارت لم ينخدع فيما قرره، فإن محاولة الفكر الإنسانى أن يثبت لنفسه قيمته وعظمته هى عمل دينى فى حقيقته[1] . ودائرة حياتى العقلية التى انقصمت من المنازعة بين شعورى الذاتى والحوادث العالمية، عادت فالتأمت بواسطة حد ثالث اندرج فيه الاثنان الآخران، وهذا الحد الثالث هو إحساسى بتبعيتها جميعاً لله.

* * *

«أليس هذا الاستنتاج من تحليل عناصر الدين فى روع الإنسان، بعيد المدى فى الفلسفة والتجريد، بحيث لا يمكن أن يصح على الناس عامة؟ فإذا أمكن به تفسير وجود الشعور الدينى فى عهود الثقافة العلمية العالية، فهل يُستطاع أن يفسر لنا به ظهور الدين فيما قبل التاريخ من عصور السذاجة الإنسانية؟

«إن الذين يُدلون بهذا الاعتراض يُثبتون على أنفسهم أنهم لم يروا جيداً استمرار التضاد بين عقل الإنسان وحوادث الوجود فى أول عهد الإنسان بالظهور كما هو فى آخره، وهو التضاد الذى جعل حياته غير مستقرة وفى غاية

(١) ينوه هنا بالأصل الذى ارتآه ديكارت الفيلسوف الفرنسى أساساً لفلسفته وهو إثبات الناظر وجوده أولاً بدليل لا يقبل النقض، ثم التدرج إلى إثبات ما عداها بعد الشك فيها وتقليبها على كل وجه.

ودليله على ذلك إثبات وجوده هو: أنه يفكر، إذاً هو موجود، لأن ما ليس بموجود لا يفكر. فإذا تم له ذلك، نظر فيما حوله شاكاً فيه حتى يثبته بدليل محسوس. قال: «لأجل ان يصل الإنسان إلى الحقيقة يجب عليه أن يخرج مرة واحدة فى حياته من جميع الآراء التى أخذها عن غيره، وبناء معلومات لنفسه من جديد مبتدئاً من الأسس التى تقوم عليها».

الشقاء. وغاب عنهم أن هذا التضاد ليس بثمرة من ثمرات المنطق، حتى إن الإنسان لأجل أن يراه ويتألم منه يحتاج أن ينتظر حتى يكون فيلسوفاً. ولكنه يتجلى فى الأهوال التى تساور المتوحش، وفى الانقلابات الطبيعية التى تحدث بين يديه، وفى أخطار الغابات وبوائقها، كما تتجلى لنا نحن فى ارتباكات أفكارنا أمام مساتير الوجودِ وغوامض الموت. نعم إن مظاهر الكوارث والشعور بها تختلف بين الناس، ولكن الهزة الدينية التى ترج الإنسان وتزلزله، هى فى حقيقتها واحدة لا تختلف. وباسكال على ما كان عليه من علم لم يكن شعوره بالحرج أقل من شعور إنسان العصور الأولى به. ألم يقل: «إن الصمت الأبدى لهذا الفضاء الذى لا نهاية له يرعبنى»، وتلميذ (كَنت) وهو محصور فى اليأس داخل الحدود التى لا يمكن اجتيازها لعلم الظواهر الطبيعية، أو تلميذ شوبنهور الذى تأدى إلى إدراك استحالة الاتفاق بين العقل والأرادة، ألم يكونا مُبْهَظين[1] تحت آصار الشعور بالعجز الأشد إيلاماً للنفس؟ وعندما كان يقلعان عن النظر لأجل أن يستطيعا العيش، ألم يكونا يشعران على الرغم منهما وقلبهما يطفح بالمرارة والألم، تكون تنهيدة[2] على شفاههما هى مقدمة للدعاء؟

* * *

«وعلى هذا فالدين غير قابل للزوال، لأن ينبوعه الذى يتفجر هو منه فضلاً عن أنه لا يستدُّ[3] ولاينضب فى صميم الروح، فإنه على نقيض ذلك يتسع ويعمق وتغزر مادته تحت التأثير المزدوج من النظر الفلسفى والتجارب الحيوية المؤلمة. والذين يتوقعون نضوبه يحسبون من الدين ما ليس منه من المظاهر الخارجية الموقوتة. والأزمات الدورية التى تنتابه ويُخشى أن تأتى عليه بتغيرها لتقاليده وصوره، لا تدل على ضعفه، ولكنها تثبت خصوبته وخاصة التجدد

(١) مبهظين: من أبهظه الدين بمعنى ثقل عليه وفدحه ومثله بهظه بفتحتين. .

(٢) تنهد الرجل: أخرج نفسه بعد مده حزنا وألما.

(٣) استد: . بمعنى انسد.

فيه. ولم يُشاهد فى مدى التاريخ كله أن روح البشرية تجردت منه. فعلى هذه الدوحة الدينية التى تصعد عصارتها الإلهية على الدوام، إذا أدرك أوراقها الجفاف لطروء فصل جديد، فلا تسقط إلا مدفوعة من أعقابها بأوراق غضيضة[1]. فالعقائد الدينية لا تموت، ولكنها تتطور وتستحيل، فليقع أنصار الدين عن الهلع عليه، وخصومه عن الفرح بوشك زواله. وما عليه الفريقان من الرجاء والخوف يدل على جهلهم بالأصل الذى يستمد منه الوجود، وبالقاعدة التى يقوم عليها صرحه. فإذا بحثوا عنه فى سويداء قلوبهم لوجدوه حيا فى وجودهم الباطن بقدر ما تظهر لهم صوره التقليدية فى الخارج مهددة بالزوال. فإن تنهد النفس، وتوثبها للنهوض، أو ماليخوليتها وهى فى أشد الضيق، هى ظواهر أدخل فى الحياة الدينية، من تلك التقوى المغرضة أو الآلية. إن هنالك لساعات يكون فيها الخروج على الجماعة المصحوب بتألم وبحث ودعاء، أقرب إلى ينبوع الحياة من الجمود العقلى على أرثوذوكسية غير أهل لفهم العقائد فهى تتحتفظ بها آثاراً مصبرة، فعلى الذين يحتقرون الدين أن يحاولوا معرفة ماهيته أولاً، وأن يدركوا أنه هو الروح الباطن المبارك الذى بواسطته تتطور الحياة الإنسانية وتفتح لها مخرجاً إلى الحياة المثالية، وأن كل ترق إنسانى يصدر منه وينتهى إليه، وأن الفن والأدب والعلم نفسه تتصوح زهراتها وتذبل إذا لم يتعهدها هذا الروح العالى وينعشها، وأن النفس المجردة من الدين تختنق لحرمانها من التنفس، فالإنسان فى الواقع لا يوجد إلا إذا أوجد نفسه، ولأجل هذا يجب عليه أن يخرج من ظلمات هذا العالم وعلائقه إلى النور وإلى الحرية. فما بدأت الإنسانية فى الظهور فيه إلا بالدين، وبه أيضا تثبت له وتبلغ إلى كمالها المنشود».

---

(١) غضيضة: أى غضة.

الزهاوي والفلسفة المادية(١)

للسيد المرحوم جميل صدقى الزهاوى* شهرةٌ فى البلاد الناطقة بالضاد لما نشر من شعره، وأذاع من كتبه، وقد وقر فى نفوس الناس عنه أنه مشايع للفلسفة المادية، شديد التمسك بمقرراتها؛ إذ يكاد لا يقع نظر أحد على قصيدة له تخلو من ذكر العدم المحض الذى ينتظر الإنسان بعد موته.

ولما زار مصر حوالى سنة ١٩٢٥م أكثر فيها من قرض الشعر، وكانت جريدة السياسة تنشر له ما تجود به قريحته، فكنت ألاحظ أنه يبالغ فى نعى النفس الإنسانية، والتشهير بمصيرها إلى العدم المحض، الأمر الذى لم نلاحظه على شاعر غيره عربيا كان أو عجمياً، حتى من الذين يعرف عنهم الغلو فى المادية. فكان يخيل إلىّ أنه من الذين يؤلم شعورهم أن ينتهوا إلى ظلمة العدم بعد تمتعهم بنور الوجود، وأنهم لو لاح لهم بريق دليل على بقاء النفس بعد الجسد لتلمسوه حيث صادفوه، فسمحت لنفسى أن أكتب إليه كتاباً مفتوحاً فى جريدة السياسة أدعوه ليساجلنى البحث فى خلود الروح، وذكرت له أن لدى أدلة علمية لا مجال للمراء فيها. فردَّ علىَّ فى تلك الجريدة يشكر لى ما عرضته عليه، ويعتذر عن قبول المساجلة لوشك عوده إلى بلاده، وتفضل فأهدانى مؤلفاته.

لا أظن أن يتخيل قارىء، وأنا أتكلم عن الفيلسوف العراقى هنا، أنى أريد الحط من قيمته أو نقد أقواله وهو لايستطيع أن ينتصر لنفسه، لأن الزهاوى بعد أن نشر من شعره ومؤلفاته ما نشر، أصبح واحداً من جمهرة قادة الفكر لايمكن تجاوزه دون نقد فى مجال تمحيص حقيقة من الحقائق الفلسفية، بل

(١) مجلة الأزهر - المجلد الثامن سنة ١٣٥٦ هـ ، ص٣٣٨.

(*) العنوان الأصلى للمقال: "الزهاوى الفيلسوف العراقى"

أصبح يقصد بالذكر من خصوم مذهبه، لكيلا يفتتن بأقواله من ليس لهم قدرة على تمييز الحق من الباطل من المبادىء. ونحن إنما نقصده بالذكر اليوم لما نشر فى بعض المجلات من مذهبه دون تعليق، خشية أن تتسرب هذه الكتابة إلى النشء فتؤثر فى عقليتهم لمصلحة المذهب المادى الذى حطمت صرحه اليوم معاول الفتوحات النفسية الحديثة.

يصف بعض الناس الزهاوى بأنه مادى قح، وهذا ما يؤخذ من بعض شعره ونثره، ولكننا نلاحظ عليه هنا أنه لم يقم على طريقة زعماء المادية من الإعلان عن مذهبهم فى صراحة لا تقبل المماحكة، فقد كان يكتب الشىء ثم ينقضه بقول آخر كما فعل فى كتابه (الكائنات). فقد جرى فيه على أسلوب الماديين، فأنكر فيه الخالق والروح والخلود، ثم ختمه بكلمة تحت عنوان (ابتهال)، حقر فيها كل الآراء التى قررها فى الكتاب، وذكر أنه إنما جرى فيها على أسلوب الماديين لبيان مذهبهم، أما هو فيبرأ إلى الله منهم ومن آرائهم، ويرجو من يقرأ كتابه أن لا يعتد بما قرره فيه.

هذا أسلوبه فى الكتابة كل ما يمكن أن يعتذر عنه أنه يلجأ إليه هرباً من تبعية ما قرره من الآراء الإلحادية فى نظر الرأى العام والحكومة، ولكنه اعتذار غير وجيه، وكان الأولى به أن يتحمل تبعة ما يقول كما فعل جميع الذين تقدموه من ضحايا آرائهم، أو أن يسكت.

وكما جرى على هذا الأسلوب نثراً جرى عليه شعراً، فقد قال منكراً الخالق:

لما جهلت من الطبيعة أمرها وأقمت نفسك فى مقام معلل
أثبت ربا تبتغى حلا به للمشكلات فكان أكبر مشكل

وهو نفسه الذى قال:

قال ما دينك الذى كنت فى الدنـ ـيا عليه وأنت شيخ كبير

قلت كان الإسلام ديني وهـ ـو دين بالاحترام جدير
قال من ذا الذي عبدت فقلت الله ربي وهو السميع البصير

وهو الذى قال أيضا:

أنا ماكفرت كل عمـ ـري بالكتاب المنزل
أنا لم أزل أشدو بنعـ ـت للنبي المرسل

فهذا الضرب من التلاعب بالمبادىء ليس من صفات الفلاسفة الراسخين، ولا هو من سمات العلماء المحققين. وهو يدل دلالةً صريحةً على أنه لم يكن على عرق مما يتظاهر به من صفات المجددين. لأن المجدد يجب أن يكون مثالاً حياً لغيره فى تحديد مذهبه، وصراحة لهجته. أما الاعتذار عنه بأنه كان يلجأ إلى هذا الأسلوب من المراوغة لاتقاء شر الحكومات الخانقة للحرية، فلا يمكن قبوله والاعتداد به. لأن التاريخ قد سجل أسماء عشرات الألوف من العلماء والفلاسفة المجددين الذين هلكوا فى سبيل التصريح بآرائهم، فإن لم يكن قد بلغ مبلغهم من الإخلاص للمذهب، كان يسعه أن يهجر وطنه كما فعل غيره فى مجال السياسة، وإن يجاهر بما يقول، فلا يدع الناس حيارى فى معرفة حقيقة ما كان يقول به ويريد أن يدعو إليه.

ومن أغرب وجوه هذه الحيرة أن من الناس من فهم أن الأستاذ الزهاوى كان يعتقد بوجود الخالق، وأنه فوق ذلك كان متصوفاً.

قال الأستاذ إسماعيل أحمد أدهم كاتب تاريخ حياته:

«آمن الزهاوى بالعلم ونزل عند مقرراته، ومضى يبحث فى الطبيعة مؤمناً بأساليب العلم فى البحث، وخرج من دراسته معتقداً اعتقاداً لايوهنه الشك، ولايتطرق إليه الريب، أن لقوانين الطبيعة وحدتها، وأن للعالم وحدة متصلة أسبابها، غير منفصمة أجزاؤها، وعاد بالأشياء كلها إلى الأثير فهو عنده المرجع فى الأشياء والأثر، واعتقد أن الألوهية حالة فى الكون فنظرها فى الأثير، حيث بدا له من نظره فى العلم الموضوعى والذاتى ـ عالم الطبيعة والنفس ـ أن لا انفصام

بين السبب والمسبب، بين العلة والمعلول. وهكذا انساق الزهاوى لإيمانه بوحدة الكون وبطبيعة الاتصال بين ذواتنا الشاعرة المفكرة وبين طبيعة الأشياء إلى الإيمان بالله فى الكون، وبإمكان الاتصال بالله عن طريق الكون. وهكذا دلف الزهاوى إلى التصوف، فكان عميقاً فى تصوفه يؤمن بأن هنالك وراء ذواتنا وأعراض الأشياء التى تبدو لنا حقيقة واحدة، حقيقة تصل بيننا وبين الكون، ولولاها لما أمكننا أن نفكر فى العالم، وأن نستجيب لانفعالاتنا به، ولما أمكن للعالم أن يؤثر فينا»،

يقول الأستاذ إسماعيل أحمد هذا القول وهو نفسه قد نقل عنه البيتين المتقدمين اللذين ينكر فيهما وجود الخالق، فكيف يمكن التوفيق بين هذه المتناقضات؟

على أن ما استنتجه من كتابات الأستاذ الزهاوى ووصفه بأنه مطابق للتفكير العلمى الحديث، إن دل على شىء فهو يدل على أن الزهاوى كان يصرف بعض الأمور الافتراضية فى العلم، إلى بناء عقيدة خيالية فى حقيقة الكون وعلاقة الإنسان به على أسلوب الجماعة الذين يسميهم الأوروبيون بالميستيك(mystiques).

إن الأثير مادة افتراضية، تواضع عليها العلماء لحل بعض مشكلات الطبيعة، والعلماء يحتالون على فهم ما لايستطيعون فهمه بافتراض أشياء قد لا يكون لها وجود، وقد يثبت وجود خلافها عندما يصل إلى درجة أعلى مما كان عليه، وتاريخ العلم يثبت هذا الأمر إثباتاً لا مجال للشك فيه. فالتصوف الذى وصل إليه الأستاذ الزهاوى على أجنحة الأثير مكتوب عليه الانهيار بانهيار الأثير نفسه، كما انهارت مذاهب لاعدد لها، أغرى الخياليون باختراعها وزخرفتها فى كل زمان ومكان.

ثم نقول: لايصح ونحن فى عصر العلم أن يوصف مذهب يقوم على

موجود افتراضى بأنه مذهب علمى. ولو ساغ ذلك لوجدت مذاهب علمية بعدد الرءوس الخيالية التى تفكر على هذا النحو وهى بعيدة عن الروح التى ينفثها العلم فى روع الآخذين به.

ثم نتساءل: ما قيمة هذا التصوف الذى يزعم صاحبه أن الروح الإنسانية لاوجود لها، وأن الإنسان صائر إلى حيث تصير جميع الكائنات إلى العدم المحض؟

لا يصح أن يوصف القائل بهذا القول بالتصوف على أى احتمال من احتمالاته، لأنه لايغرى بالرياضة النفسية، ولا بالمجاهدة القلبية، ولا يحبب الإنسان فى التأمل إلا فيما يجلب السعادة الدنيوية، واللذات البدنية. وإذا كان ذا شعور حى ربما قذف به إلى هوة اليأس فكره الحياة وكره نفسه، وكره الوجود وما فيه ومن فيه، ولا يبعد على من تؤول حاله إلى هذه المأساة أن يصوب مسدسه إلى رأسه فينسفه نسفاً.

هل للأستاذ الزهاوى فلسفة؟

أنا أعترف بأن الأستاذ الزهاوى كان شاعراً، ولشعره طلاوة وانسجام فى كثير من موطن القول، ولكنى أنكر بأنه كانت له فلسفة، وكل ما يؤخذ مما كتبه فى كتبه أنه افتتن بمقررات العلم الطبيعى، وشغف حباً بالفلسفة المادية، فخلعته عن العقائد الدينية، ولم يستطع أن يتغلب على عقائده الوراثية فيعلن أنه أصبح مادياً، فوقف حائراً لا يدرى بأى فريق يلتحق: أبفريق الذين يؤمنون بالغيب، أم بفريق الذين يؤمنون بالواقع، فاعتراه من الهم ما يعترى كل واقف بين طرفين من الوحشة والذعر. فإذا كان الشعر مظهراً لنفسية الشاعر، فهذا الذى أقوله يؤخذ من شعره صريحاً بغير تأويل، فقد قال:

رأيت الهدى فى الشك والشك لا يهدى ... كأنى بالظلماء قد كنت أستهدى
فطورا أقول الروح كالجسم هالك ... وطوراً أقول الهلك عنه على بعد
فيالك من شك يبرح بى ولا ... يبارحنى حتى أوسد فى لحدى

وإنى لا أدرى أرشدى كان فيه ضلالى هذا أم ضلالى فى رشدى
أافقد جسمى وحده عند ميتتى أم الروح مثل الجسم يشمله فقدى
أروح وجسم أم هو الجسم وحده يحركنى فيما يضلل أو يهدى
أعذب حوبائى بما أنا فاكر كأنى من أعداء حوبائى اللد

يقول: إنه يعذب نفسه بهذا التفكير حتى كأنه من ألد أعدائها، وليس هذا من شأن الفيلسوف الذى ليس له عون على حل المعضلات غير التفكير، فهو لا يبالى بنفسه وإنما يبالى بالحقائق التى يشعر بأن خلق للوصول إليها. فإذا كان لا بد للفيلسوف أن يشكو فهو يشكو من أنه بطىء السير، كليل الراحلة، قليل التضحية.

على أن الشك ليس بعاب فى الفلسفة، بل من الفلاسفة من جعلوه أساساً لمذهبهم: كبيرون،(Pirrhon) الفيلسوف اليونانى الذى كان موجوداً قبل المسيح بأربعة قرون، فقد كان لا يثبت شيئاً قط، مستنداً فى ذلك إلى أن الإنسان لايستطيع لقصور عقله أن يصل إلى الحقائق، وقد بقى مذهبه قائماً إلى اليوم باسم اللاأدرية (agnosticisme) وله شيعة فى كل أمة.

فيكون تصريح الأستاذ الزهاوى بأن الشك قد أضناه دليلاً على أنه من طائفة اللاأدرية، ولكن من القائلين بأن الدرس والتفكير يؤدى إلى إدراك الحقائق، فهو قد أجهد نفسه فى تطلبها ولم يفز بطائل.

وبينا هو يندب حظه من الحيرة، ويرى أن الروح ليست إلا حالاً من أحوال المادة، إذا به يثبتها ويؤكد خلودها فيقول:

فيانفس سيرى فى الفضاء طليقة فلا شىء فيه للنفوس معوق
لأنت شعاع طار من مستقره وكل شعاع بالبقاء خليق
تحيق المنايا بالجسوم كثيفة وأما بأرواح فليس تحيق

إذا به يعود إلى شنشنته من التناقض فيقول:

يقولون إن النفس حق وجودها   فلا ينبغى إنكارها وجحودها
فقلت لهم هذا جميل وعله   خيالات عقل شارد لا أريدها
ولم يكن الإنسان إلا ابن غابة   على فجأة قد أنجبته قرودها

الخلاصة أن الأستاذ الزهاوى لافلسفة له، لكن له مجموعة من أقوال يتحدى فيها الأسلوب العلمى قولاً، ثم يقفز إلى الفلسفة الخيالية فينتزع منها صوراً ليست بخلابة ولا بثابتة، لأن العلم لايبنى على الافتراضات وهو يبنى كل مذهبه على الأثير، والأثير مادة افتراضية كما قدمنا.

أما شعره فهو صورة نفسية من التشكك والحيرة والعويل، وهذه صفات يرتاح إليها كل من تأثر قلبه بالشبهات وقصرت همته عن المجاهدة لحلها، وفى القطعة الشعرية التالية صورة صحيحة لهذه الحالة النفسية، قال رحمه الله:

سيطفىء يأسى فى المشيب حياتى   وأذهب من نوره إلى ظلمات
ويحملنى صحبى إلى القبر إننى   به بعد حين لست غير رفات
تقطع أوصالى وتبلى جوانحى   وليس بوسعى أن أبث شكاتى
وأجمل بأيام الصبا فهى لم تكن   على الفم من دهرى سوى بسمات
ولكن أيام الصبا قد تصرمت   ولم تُبقِ ذكراها سوى الحسرات
وفارقت أيام الشباب حميدة   وإن كثرت فى عهده عثراتى
قضيت شبابى مطمئناً وبعده   أتى الشيب منهوكاً من الشبهات

فلا جرم أن من يقضى أيام شبابه مطمئناً على ما يساوره من الشكوك والريب، ولم يكد نفسه للوصول إلى الحقيقة، تحل به الشيخوخة فلا يجد ما يلهيه عن شبهاته، فتثور عليه، فتخور قواه أمامها، فلا يسعه إلا أن يرثى نفسه ويندبها، كما فعل الأستاذ الزهاوى، ولسنا نتقول عليه، فهو الذى اعترف بذلك فى عشرات القصائد من شعره.

ومن العجيب أن يتلقف بعض الناس مثل هذا الشعر فيجدوا فيه نظرات عميقة، وتأملات دقيقة.

أنا لا أقصد بقولي هذا الأستاذ الزهاوى، ولكنى أقصد هذا المذهب فى بعض الشبيبة، فهم يطوون أيام الشباب لاهين لاعبين، متغابين عن الشبهات والشكوك التى تساورهم، حتى إذا انتابتهم الشيخوخة وجدوا أنفسهم ضعافاً ومجردين حيالها من كل سلاح، فلا يبقى لهم إلا خيال من تعزية وهى أن ينشدوا مثل أبيات الزهاوى، ويتنفسوا الصعداء، معتقدين أن فى الكون شكوكًا لم يخلق الله لها حلولاً!

يقول قائلهم: وهل لهذه الشكوك حلول؟

نقول: إذا فهم من هذه الحلول أن يلقنها طالبها كما يلقن رقم دار أو اسم شارع، فلا وجود لأمثال هذه الحلول حتى ولالأبسط مسألة حسابية أو هندسية. أما إذا فهم منها أنها بحوث مستفيضة، تتناسب والموضوع الذى تعالجه من فهم حقيقة الوجود، وتعرف أسراره، وكشف مساتيره، وتنور ما خلفه من عالم الروح والكائنات المجردة، فإن هذه الحلول قد وجدت وهى على أسلوبين:

(أولهما) أسلوب الفلاسفة الأولين من الاعتداد بالمسلمات العقلية، والقضايا المنطقية، والتدرج منها إلى إدارك العلل الأولية: وهو أسلوب أصبح لا يقنع أكثر المتعلمين على الطريقة الحديثة، فإنهم قد تأثروا بالفلسفة العملية فأصبحوا إلى المسلمات العقلية لا يطمئنون ويتطلبون عليها شاهداً حسيًا.

(ثانيهما) أسلوب الفلاسفة الوضعيين، وهى أن تبنى المقررات على المشاهدات والتجارب التى لا تقبل الصرف والتأويل، وهذا أسلوب المعاصرين.

وقد حاكت الشكوك والشبهات فى صدور كثيرين فى أوروبا، فمنهم من يئسوا من حلها، وصرحوا بعدم قبولها للحل، وهؤلاء هم الماديون، ومنهم رجال أبعد من هؤلاء همة، لم يثنهم اليأس عن بذل الوسع فى البحث، فدأبوا

نحو تسعين سنة على جمع المشاهدات وتدوين التجارب، فوصلوا إلى حلول لمسألة الحياة والروح والعالم الروحانى لايمكن أن يتطرق إليها وهن، لأنهم وصلوا إليها على أسلوبهم العلمى القائم على النظر والتجربة، ودونوا فيها مجلدات. منها جمعية المباحث النفسية الإنجليزية، وقد بلغ عدد مادونته من المجلدات ثلاثة وخمسين مجلداً، وكل الذين تولوا تمحيص ما فيها وتدوينه رجال من أقطاب العلم فى إنجلترا ما بين أعضاء فى المجمع العلمى ومدرسين فى الجامعات الكبرى. وفى كل أمة جماعات علمية قامت بمثل هذه البحوث، فى مقدمتها فرنسا والولايات الأمريكية وإيطاليا وألمانيا.

فهذه الثروة العلمية التى لم يسمح بها الدهر لعهد من عهود البشر، تحت طلب كل من يريد الاطلاع عليها بأقل كلفة.

فإذا كان فى الناس من تتنازعه الشكوك التى انتابت الأستاذ الزهاوى ولا يود أن يتلهى عنها أيام شبابه، حتى تحل به الشيخوخة فيجد نفسه عاجزاً حيالها، مثله كمثل من يحكم عليه بالموت وينتظر يوم التنفيذ فى كرب لا وصف له، فعليه أن يستأنس فى ساعات فراغه ببعض هذه المباحث، فهى على سحرها وطلاوتها، تؤتيه بالطمأنينة التى لا تنغيص معها، وبالسكينة التى مات الفلاسفة الماديون دونها بحسرة.

ما هو الأثير؟[1]

حدث فى الشهر الماضى أن أحد المحاضرين فى بعض الجماعات الأدبية انتدب لتفسير بعض الآيات القرآنية المتشابهة والواردة فى لفت الأنظار إلى بعض الظواهر الطبيعية، فجعل الأثير معوله فى التفسير والتعليل، وكان بين الحضور جم غفير من طلبة العلم والعلماء، فلم تقع منهم تلك المحاضرة موقع القبول لاعتمادها على مادة افتراضية، وأقبل علينا بعضهم يرجونا أن نكتب كلمة فى حقيقة الأثير، فلم يسعنا إلا تلبية الطلب، فنقول:

تتردد كلمة الأثير فى أفواه العلماء عند كلامهم على أصل المادة وعلى النور والحرارة والكهرباء وغيرها من القوى الطبيعية، فيحلون به ما أشكل عليهم حله من معميات الكون، ويفكون ما استبهم من طلاسمه.

ما الذى دعا الطبيعيين إلى افتراض شىء لا يدرك بالحواس، ولا يخضع للتجربة، ويناقض بخصائصه وبصفاته كل ما يعرف من أشياء الطبيعة؟

الذى دعاهم لذلك هو:

كان الطبيعيون الأقدمون يظنون أن النور والحرارة ينتقلان من بعض الأجسام إلى بعض بتأثيرها الذاتى من بعد، فلما تأملوا فى ذلك فى العصور الحديثة وجدوه مما لايعقل ولا يفهم، فافترضوا أنهما يسريان من الأجسام المنيرة والحارة على صورة أمواج، فأجمعوا على قبول هذا الافتراض، وكان أول من قال به الطبيعيون من المسلمين (راجع ما قاله العلامة دريبر).

(١) مجلة الأزهر ـ المجلد الثامن ١٣٥٦هـ ، ص ٢٥٠.

ولكن العلماء اعترضهم أمر جلل وهو: جهلهم على أى حامل تسرى هذه الأمواج الضوئية والحرارية إلينا من الشمس والكواكب، وليس بيننا وبينها هواء؟ فإن الهواء جسم غازى يحيط بالكرة الأرضية إلى نحو خمسة وعشرين كيلو متراً منها. ولو كان الهواء مالئًا للفضاء الموجود بيننا وبين الكواكب لبلغ ثقله على الأرض حداً لا تمكن المعيشه فيه، ولصد الكواكب الأخرى عن الجولان كما تصدها الحجب الفولاذية.

وإن افترض العلماء أن ذلك الحامل ليس بالهواء ولكنه شيء مادى ألطف منه، لزم منه كل ما يلزم من الهواء، لأنه ما دام ذلك الشيء مادياً فإن لانهائيته تجعله أكثف من الصوان. وإننا إنما نرى ما وراء الهواء من الكواكب والشموس لأن طبقته قليلة السمك، ومع ذلك فهو يلون السماء باللون الأزرق ويكسر الأشعة المنبعثة إلينا من الكواكب، فيخدعنا عن أماكنها، ويرينا أجرامها قبل أن تظهر على الأفق. فما ظنك به لو كان مالئاً لهذه اللانهائية؟

لما آنس العلماء كل هذه الصعوبات من افتراض الحامل للإشعاعات مادياً، اضطروا أن يفترضوه غير مادى، لا بمعنى أنه روحانى، بل بمعنى أنه شيء لم يصل لدرجة المادية فلا تسرى عليه قوانينها. وهم لأجل أن يخلصوا من كل الإيرادات التى يمكن أن توجه إلى ذلك الشيء فتحول بينهم وبين التعليل به، أخذوا فيه لأنفسهم كل حيطة، فافترضوه شيئاً مالئاً للوجود كله لا يخلو منه قدر ذرة فى الأرض ولا فى السماء، لا وزن ولا مسام، وغير قابل للانضغاط وغاية فى اللطافة. بل قالوا إن كل شيء مادى ناشيء منه فهو أصل جميع الموجودات الكونية.

فى عهد الشعور بالضرورة الماسة لافتراض الأثير، كان العقل يجدّ لوجدان نظرية جديدة غير نظرية الجوهر للفرد الذى جعلوه أصلاً للمادة، لعدم انطباق هذه النظرية على بداهة العقل، فآنسوا فى الأثير مخرجاً لهم من الترطم فى عقبات تصورها ناشئة من جواهر مادية لاتقبل الانقسام؛ فتخيلوها حركة زوبعية

فى الأثير، أى أن جزءاً من الأثير يتحرك، بسبب غير معلوم، حركة سريعة للدرجة القصوى على هيئة زوبعة، وبانضمام عدد كبير من هذه الزوابع بعضها إلى بعض تتألف منها المادة، وإنما تتنوع بتنوع درجات تلك السرعة، ونظام تآلف وحداتها.

ولما رأى العلماء أن بعض القوى تستحيل إلى بعض كاستحالة الحرارة إلى كهرباء أو نور أو العكس إلخ، قرروا أن هذه القوى كلها ليست بشىء سوى حركات حاصلة فى ذلك الأثير.

فالأثير بكل هذه الاعتبارات هو فى نظر العلماء الطبيعيين: الموجود المطلق الذى لا أول لوجوده، ولا آخر لبقائه، مصدر كل موجود، ومستقر كل قوة، ومستودع كل إبداع.

أشعر وأنا أكتب هذا بأن القارىء البعيد عن المسائل العلمية قد أخذ منه العجب كل مأخذ من إجماع رجال يعتبرون أبعد الناس عقولاً عن الأوهام على القول بوجود شىء خلقوه بخيالهم، ونحلوه كل الصفات التى يحتاجون إليها فى تعليلاتهم، وليس لهم على ذلك دليل ولا شبه دليل. ثم يتساءل ذلك القارىء بعد هذا: إذا كان هذا شأن علماء الطبيعة فى اللجوء إلى افتراض الخيالات، للوصول إلى تعليل وجود الكائنات، فلم يثورون على المتدينين فى اعتقادهم بوجود واجب الوجود المنزه عن المادة والماديات، الأول الذى لا موجود قبله، والآخر الذى لا موجود بعده؟

ما الذى بقى من الفروق بين الصفات التى يوصف بها الخالق عز وجل، وبين الصفات التى تمنح للأثير فى هذا العصر؟ الفرق أن المتدينين يعتقدون أن خالق الكون ومدبره حكيم مريد، ولكن العلماء الطبيعين لا ينحلون الأثير هاتين الصفتين. ولا أدرى كيف إذا جردوا الأثير من هاتين الصفتين يستطيعون أن يعللوا وجود المادة بعد أن لم تكن موجودة، وبلوغ الكائنات من الإبداع إلى هذه الدرجة التى لاغاية بعدها، وكيف يعللون وجود العقل البشرى وليس له ما يستمد وجوده منه فى الكون؟

كل هذه المعاضل لا يمكن أن يحلها افتراض وجود الأثير، إلا إذا افترضت له الصفات المطلقة التى أدركها العقل البشرى لواجب الوجود نفسه، وإذاً فما ضرورة تسمية الخالق جل وعز بالأثير، وما وجه هرب الماديين من الإيمان بالغيب وهم مؤمنون بهذا الأثير وخصائصه؟

لقد لحظ هذا التناقض أشدهم تعصباً للفلسفة الطبيعية، وعلى رأسهم الأستاذ الكبير هيكيل الألمانى Haekel المدرس بجامعة يينا، فكتب فى كتابه(وحدة الوجود) قوله:

«إن هذا الترقى فى إدراك الأثير يكسب فلسفة وحدة الوجود قوة عظيمة. ذلك أن الآراء الضالة التى كانت تقول بوجود الفراغ وبتأثير المواد بعضها على بعض من بعد، قد زالت الآن. وهذه اللانهائية الوجودية وإن كانت المادة لا تشغلها كلها فإنها برمتها مشغولة بالأثير». ثم قال:

«نعم إن نظرية الأثير إذا أخذت كقاعدة للإيمان يمكنها أن تعطينا شكلاً معقولاً للدين، ذلك إذا جعلنا إزاء هذه الكتلة الجامدة الثقيلة أى المادة، ذلك الأثير الشامل لجميع الأحياز الوجودية المتحرك، الذى هو الإله الخالق». ثم أيد الأستاذ هيكيل رأيه هذا برأى الأستاذ خليسنجر الألمانى الذى أبداه فى خطبة ألقاها فى التنبورغ من ألمانيا فذكر عنه أنه قال:

«إن أحقر مظهر من مظاهر الطبيعة غير الآلية، وأكبر مجلى من مجالى الحياة الآلية، يمكن أن يعلل وجودهما على السواء بفعل قوى طبيعية واحدة، ولما كانا من ناحية أخرى يشتركان فى الصدور من الأصل الأصيل المتوحد الذى يملأ الوجود اللانهائى، وهو الأثير، فيمكن اعتبار هذا الأثير (إلهاً عامًا) ويكون نتيجة ذلك هو الحكم بأن الاعتقاد بالخالق يتفق والعلوم الطبيعية».

إلى هذا الحد وصل الاعتداد بالأثير لدى العلماء المعاصرين لنا، فهم إن كانوا لم يجمعوا على ألوهيته، فقد أجمعوا على ضرورته، لفهم كل صغيرة وكبيرة فى الكون.

والذى يتبادر للعقل أن العلماء الذين قالوا بألوهية الأثير كان الأولى بهم أن يقبلوا العقيدة النظرية المنبثة فى النفوس الإنسانية من ضرورة وجود إله منزه عن الجسمانية قادر حكيم أوجد الوجود وأمده بكل القوى العاملة فيه، ولايزال يربيه ويرقيه ليبلغ إلى أرقى ما قدره له من كمال وجلال.

أما تخيل وجود سيّال سموه الأثير وتصوره لطيفاً غاية اللطف مالئاً للكون كله وليس فيه مسام ولا يقبل الضغط ولا وزن له إلخ من الصفات المتناقضة، ثم رفع هذا السيال إلى درجة الألوهية، فلعب بالألفاظ لا يصح صدوره من كبار الرجال.

معترك المذاهب الفلسفية[1]
ما هو الضمير الأدبي وهل هو غريزي أم لا ؟

الضمير الأدبى شعور باطنى فى الإنسان يشهد على ما يفعله هو أو يفعله غيره إن كان خيراً أو شراً، وهو الذى عُبر عنه فى القرآن الكريم بالقلب، والضمير والقلب لغة بمعنى واحد.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[2].

وقال: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[3].

أى تفسد بغلبة الأهواء عليها فيستوى عندها الحسن والقبيح، والخير والشر.

وبناءً على هذا فوظيفة الضمير هى ما يحسه كل إنسان فى نفسه عندما يشرع فى قول أو عمل من الحكم على ما هو شارع فيه، إن كان خيراً موافقاً للقانون الأدبى، والعرف الإنسانى، أم مخالفاً لهما. والمشاهد أن هذا الحكم لايتجاوز حد الشهادة، فليس فيه صفة الإلزام. فقد يشهد عليه ضميره بأن ما ينتوى عمله شر فيأتيه، وأن نقيضه خير فيمتنع عنه، مصرًا على الإساءة. فالضمير الأدبى والحالة هذه فى حاجة إلى قوة تنفيذ تكبح الإنسان عن عصيان ضميره، وهى لا توجد إلا فى النفوس العالية التى يقوم فيها مجرد الشعور

(١) مجلة الأزهر ـ السنة العاشرة ١٣٥٨هـ ، ص ٣٦٨.

(٢) ق: ٣٧.

(٣) الحج: ٤٦.

بخسة الإساءة مقام الوازع المادى، فلا يصدر عنها إلا ما يشهد بحسنه ضميرها الأدبى.

ما هو الضمير الأدبى وكيف نشأ فى الإنسان؟

انقسم علماء النفس فى كنهه، وفى كيفية نشوئه فى الإنسان إلى ثلاثة مذاهب:

(أولها) أنه شعور غريزى فى النفس البشرية، أى موهوب وليس مكتسب.

(ثانيها) أنه وجه من وجوه العقل.

(ثالثها) انه ثمرة التجربة والتمرس بشئون الحياة.

١ - مؤدى المذهب الأول أن الحكم الأدبى الذى يشعر به كل إنسان فى صميم نفسه، آمراً إياه بالمعروف، وناهياً له عن المنكر، ومشيراً عليه بما يجب أن يفعله، هو صوت حاسة غريزية فى النفس، نشأت ملازمة لها بالفطرة، مثلها كمثل ما منحناه من خاصة التفرقة بين الطعوم المختلفة، والتمييز بين الخير والشر. وكما تلازم حواسنا الجثمانية دوافع تدفعنا لإيثار الحلو النافع على المر الضار، كذلك تلازم الضمير الإنسانى عوامل تسوقنا لتفضيل الأفعال الطيبة على الأفعال السيئة.

بناء على هذا المذهب يكون حكم الإنسان على ما هو خير وما هو شر ليس متنزلاً عن تعقل سابق، أو عن تجربة متقدمة، بل عن شعور اضطرارى طبيعى موجود فى النوع البشرى من أول وجوده.

يعزى هذا الرأى إلى الفيلسوف الإنجليزى شيفتسبورى المتوفى سنة (١٧١٣).

٢ - مؤدى مذهب العقليين أن الضمير الإنسانى نفحة من نفحات العقل. فإن الإنسان متى عقل أن فعلاً من الأفعال سىء الأثر على فاعله وعلى مجتمعه، سقطت منزلته فى نفسه وكرهه؛ وأن فعلاً آخر حسن الأثر فى نفسه وفى جماعته التى ينتمى إليها، ارتفعت قيمته فى نظره وأحبه، فيتألف من مجموعة هذه المدركات شعور قوى فى نفسه يعبر عنه بالضمير الأدبى.

وبناءً على هذا فيكون الضمير الأدبى فى مجموع أحكام عقلية مستفادة من الشئون الحيوية.

٣ - أما مذهب الذين يقولون بأن الضمير الإنسانى ثمرة التجربة والتمرس بأمور الحياة، فإن له ثلاثة أشكال:

(أولها) أن الضمير الأدبى ثمرة التربية والعرف.

(ثانيها) إنه نتيجة تشارك الأفكار والتغود.

(ثالثها) أنه أثر من آثار ناموسى التطور والوراثة.

مؤدى الشكل الأول: أن الضمير الإنسانى يميز الخير من الشر على مقتضى ما لُقنه من أبويه، ومن المجتمع الذى يعيش فيه. ودليل القائلين بهذا الرأى من أمثال الفيلسوف الإنجليزى هوبز وهلفتيوس، أن الخيور والشرور كثيراً ما تختلف عند الأمم. فلو كانت صادرة عن غريزة طبيعية، أو عن حكم عقلى ثابت، لما اختلفت إلى هذا الحد.

ومؤدى الشكل الثانى: أن الضمير نتيجة تشارك الأفكار والتعود، والعامل الرئيسى فيه هى قيمة النفع العائد على الإنسان من أعماله، وتأثيرها فى تحسين أحواله.

وفد فسر القائلون بهذه النظرة، وعلى رأسهم الفيلسوف الإنجليزى ستوارميل، كيف ينشأ الضمير الأدبى فى الأفراد، فقالوا: لا يخلو أى مجتمع من قوة وازعة تسهر على الأمن العام، وعلى الفصل بين المتنازعين، وعلى الهيمنة على حفظ كيان الجماعة، فهى لا تنى فى النهى عن الرذائل، وعن الأمر بالفضائل، ولا تألوا جهداً فى معاقبة المجرمين ومكافأة المحسنين.

ولا تنس ما تصادفه الرذيلة من ذم الناس وتشنيعهم، والقدح فى أهلها وتحقيرهم، وما تجده الفضيلة من ثناء الناس وتقديرهم، ومدح أهلها وتبجيلهم. كل هذه المؤثرات ولدت فى قلوب الناس إكباراً للفضيلة واحتقاراً للرذيلة، أصبح بالتمرس به طبيعة ثانية فى النفوس البشرية يتوهمها الخياليون متنزلة من العالم العلوى، وماهى إلا ثمرة ما ذكرناه هنا من العوامل.

أما مؤدى الشكل الثالث: فهو أن الضمير ثمرة من ثمرات ناموسى التطور والوراثة، فعند هؤلاء العلماء وعلى رأسهم دارون وبوخنز وهلسكى أن العالم وما فيه من النواميس قائم على نظام آلى محض، وكل ما فيه خاضع لهذا النظام لا يشذ عنه، فجميع الكائنات البسيطة والمركبة، حتى الحياة والقوة العاقلة، من صنعها، وقد صدرت لا عن تدبير وقصد سابقين عليها، ولكن عن الاتفاق المحض، وإنما جاءت محكمة ومتناسبة، لأنها نشأت عن قوى منتظمة لا يتسرب إليها أقل اختلال، وما كانت كذلك فلا يعقل أن يصدر منه إلا كائنات منتظمة.

والضمير الأدبى لا يشذ عن هذه القاعدة، فليس هو بشىء قائم بنفسه، ولا بمتنزه من عالم أرفع من هذا العالم، ولكنه من متولداته كالروح والعقل وما نشأ منهما من العلم والحكمة العبقرية.

والضمير الأدبى فى نظرهم بدأ تولده فى الحيوان، فإن الحاجة الحيوية حتمت عليه القيام على نظام خاص فى معيشته، وأورث هذا النظام أخلافه، وكلما ترقوا فيه وصار فيهم صفات راسخة، أورثوه ذراريهم، حتى نشأ الإنسان فكان حاصلاً على ما ورثه من آبائه الحيوانيين. وبما أنه أوتى حظا من انتظام الجمجمة وتناسب الأعضاء، تابع طريقه فى الارتقاء تحت عوامل النواميس، فوصل إلى معقولات أولية، وأصول أدبية اضطرارية لا اختيارية، وأورثها أخلافه، وما زال يترقى ويورثهم صفاته المكتسبة، حتى تكون لهم ضمير أدبى ظنه الفلاسفة هبة سماوية، وهو فى الواقع من إملاء الحاجات عليه فى آماد لاتحصى، فنظروا إليه فى حالته الراقية، ولم ينظروا إليه أيام كان لايفترق عن ضمائر القردة وما دونهم من العجماوات.

تحليل هذه المذاهب والنظر فى أدلتها:

قبل أن تكتب كلمة واحدة فيما نحن بصدده يجب أن ندحض شبهات أصحاب نظرية التطور والآلية الوجودية، فإن هذا المذهب وإن خدع بسهولته

بعض العقول، فإنه قد تبين لأهل العلم فساده بأدلة لا تقبل النقض، ولزم أشياعه السكوت.

يسهل على الباحث السطحى أن يشبه العالم وما فيه من القوى بأداة مولدة للكائنات على سبيل الاتفاق والخبط، وتحليتها بكل ما هى فى حاجة إليه تحت تأثير الضرورة القاهرة، ولكنه يصعب بل يستحيل عليه أن يعقل ذلك أو يقيم عليه شبه دليل، لابتناء جميع عناصره على افتراضات.

لقد كفانا العلماء مؤنة دحض هذا المذهب، ونقلنا مقالات ضافية من بحوثهم فى أعداد سابقة من هذه المجلة. وقد ذكرنا فيها أن الاتجاه العلمى تحول إلى ناحية مذهب العلامة دوفريس الهولاندى، الذى أثبت عملياً فى العهد الحديث ظهور الأنواع الحية الجديدة، حاصلة على جميع مقوماتها وغرائزها، طفرة، فسقط بذلك قولهم بضرورة التطور فى الآماد الطويلة، وبنشوء الغرائز بالتعود، وتوريثها للأخلاف، وبزوال هذين الأصلين ماذا بقى من نظرية التطور التدريجى، ومن معنى الانتخاب الطبيعى، ومن رأيهم فى نشوء الغرائز، وفى وراثة الصفات المكتسبة؟

اللهم لم يبق شىء أصلاً.

وبثبوت حدوث الغرائز المحيرة للعقل للحيوانات الحقيرة، هبة دون كسب، يسهل تصور أن يمنح الإنسان ضميراً أدبيا هبة من مبدعه دون كسب، لأنه من ضرورياته فى درجة حواسه الخمس.

لا جرم[1] أنه يصعب جدا على الإنسان أن يعتقد بأن الصانع جل شأنه يلهم الحشرات الدنيا بوسائل يستحيل عليها تحصيلها لحفظ ذواتها وأنواعها، ولايودع فى قلب الإنسان غريزة أدبية يميز بها الحسن من القبيح، والخير من الشر؛ فالفلاسفة الذين قالوا بهذا الرأى هم فى نظرنا على حق؛ ولكن هل لدينا من دليل على ذلك نكافح به فى سبيل تثبيت هذه العقيدة فى النفس؟

(١) لا جرم: لابد ولامحالة أو حقاً، (ص ١٠٢، الوجيز).

نعم، وهو دليل محسوس لا يترك ريبة فى النفس. ولا طريق إليه إلا بعد إيراد المناقشات التى تثور عادة حول هذا الموضوع:

مناقشات فلسفية حول الضمير الأدبى للإنسان:

تنحصر شبهات الماديين على فطرة الضمير الأدبى للإنسان فى ثلاثة أمور:

(أولها) أن ليس للجماعات المنحطة ضمير أدبى على الإطلاق.

(ثانيها) أن الضمير الأدبى فى الجماعات التى اجتازت أدوار الاجتماع الأولى يوجد مناسباً لحالتها الأدبية، وهو يخالف فى كل منها ما عليه فى غيرها. فما تعده جماعة واجباً تعده الأخرى جرماً، وما تعده الأولى حسناً تعده الثانية قبيحاً. فهو يتطور فى كل منها على حسب تغير الزمان والمكان والاختبار.

(ثالثها) أن الضمير الأدبى متناقض عند الأمم المتمدنة.

ونحن نناقش كل شبهة من هذه الشبهات بغية الوصول إلى حقيقة ثابتة يثلج الصدر عليها فنقول:

١ - إن عدم وجود الضمير الأدبى عند الجماعات المنحطة التى لا تمتاز كثيراً عن الحيوانات العجم، لايدل على أنه ليس موجوداً فيها بالقوة، كما لايدل عدم وجود الفلسفة لديها أنها ليست موجودة لديها بالقوة. وإذا كان لايجرؤ على القول الأخير إنسان يعتد بعقله، فكان يجب أن لا يجرؤ أحد على القول الأول. وإلا فهل كان يريد أن يكون الرجل الذى لايفترق عن العجماوات إلا فى التلفظ ببضع عشرات من الكلمات الساذجة، ومضطر لأن ينقل عنها ما تصنعه من بيوتها التى تأوى إليها، ووسائلها التى تستخدمها للحصول على فرائسها الخ الخ، وهو مع ذلك مهدد فى كل آونة من وجوده بغارات الوحوش، وعاديات الطبيعة، هل كان يريد المعترض أن يكون لمثل هذا الرجل ضمير أدبى كالذى عند من أمن على نفسه وذويه، وبلغ غاية بعيدة من العلم والوسائل الحيوية، وماذا يفيده ذلك الضمير لو كان له وهو فى تلك الحالة المزعجة، والحياة المضطربة؟

ولكن قد يكون لهذه الشبهة وزن إن ثبت عن هذا الرجل أنه لبث على حاله الأول مجرداً من الضمير الأدبى بعد أن أمن شر العوادى عليه وعلى أهله ومجتمعه، وبعد أن وصل إلى حالة الرخاء والنظام الاجتماعى تسمح له بالانتفاع بما أودع فى جبلته من المواهب الأدبية، والصفات العلوية، وهذا لم يحدث قط.

٢ - أما ما يشاهد من الخلافات بين الأمم فى الضمير الأدبى لكل منها، على حسب تباينها فى البيئات، وتخالفها فى شئون الحياة، فهذا أمر طبيعى لا يمكن أن يحدث سواه. فمن الذى قال إن الإنسان خلق حاصلاً على جميع ماهو فى حاجة إليه من علم وأدب وصناعة وفن؟ أما رأيت أن كل هذه الشئون الضرورية لوجوده قد نشأت فيه نشوءا تدريجياً، واختلفت فى كل منها عما هى عليه فى غيرها على حسب اختلافات بيئاتها، وتباينات أحوالها؟ فهل يسوغ لمن يرى الشعوب على هذه الحالة من الخلافات العلمية والأدبية والصناعية والفنية أن يقول إنها مجردة من الأصول الجبلية التى تولدها؟

وهل عندما قال الاجتماعيون إن الإنسان مدنى بطبعه، أرادوا بذلك أن توجد الجماعات الساذجة على أرقى الأصول الاجتماعية، من درجة التى تشاهد لدى أرقى الأمم الأوروبية؟

وهل قدح فى هذا الأصل العلمى وجود جماعات أولية على مثل ما عليه الحيوانات العجم من الفرقة والتشتت، بحيث ظنهم كثير من العلماء من أنواع القردة المرتقية؟

٣ - أما ما يشاهد من الخلافات فى الضمير الأدبى لدى الأمم المتمدنة، فلا يقدح فى وجوده فطريا فى النفس البشرية، كما لايقدح اختلافها فى أصول الاجتماع، وأصول الحكم، واختلافها فى المذاهب الفلسفية، والمُثل العليا الفنية. فإذا كان لاتؤثر هذه الخلافات السياسية والاجتماعية والفلسفيةوالفنية فى أن الإنسان مفطور على الاجتماع، وعلى إقامة حكومة، وعلى النظر فى الكون،

وعلى العاطفة الفنية، فكذلك لا تؤثر خلافاتها فى الضمير الأدبى فى أن الإنسان مجبول عليه من أصل الخلقة.

على أن هذه الخلافات الضميرية بين الأمم لا تعدو الأمور العرضية، أما الأصول الرئيسية فلا يوجد عليها خلاف ألبتة. فلا خلاف فى وجوب إقامة العدل بين الناس قطعاً لذرائع الانتقامات بينهم، وفى إسعاف المرضى بالعلاج، وتدارك الطفولة بالتربية، واليتم بالكفالة، والعجز بالإيواء والملهوف بالإغاثة.

وإذا كان الضمير الأدبى وهماً من الأوهام، فلماذا افتخر الناس قديماً وحديثاً بأعمال البر، وتظاهر بها من ليس من أهلها، وتبارى فيها أولو الجاه والثروة حتى بلغ ما دفعه بعضهم زيادة عن مائة مليون من الجنيهات، كما يروى عن المثرين الأمريكيين كارنجى ورروكفلر وغيرهم؟

ولماذا لم تقض المدنية، والضلاعة فى العلوم والفلسفة، على الضمير الأدبى كما قضت على أوهام إنسانية كثيرة، بل زادتها تشبثاً بالنفوس، وتسلطاً على القلوب ؟

ولما قام فى العالم الإنسانى فى العهد الأخير غلاة من الاشتراكيين، ارتأوا أن أصحاب العاهات أسباب وهن فى المجتمعات، فيجب إبادتهم وإبادة من يجد منهم، حتى لا يكونوا عبئاً ثقيلاً عليه. هذا رأى من الوجهة العلمية البحتة صحيح، ولكنه من الوجهة الإنسانية التى يتحكم فيها الضمير الأدبى لا يمكن إساغته، ولذلك عدت الإنسانية هذا القول هراءً محضاً، وازرت بقائليه واعتبرتهم غير جديرين بالاحترام، فصمتوا فى وسط سخط العالم سخريته.

وإليك ما هو أعظم دلالة على سلطان الضمير الأدبى من هذا: ذلك أن من الأمراض ما هو عضال لا يرجى له شفاء، ويكون صاحبه عرضة لآلام مبرحة لا تحتمل، يضطر معها للتسكين بالمخدرات، فارتأى بعض الأطباء إراحة هؤلاء المرضى الميئوس منهم بالقضاء عليهم. فلم يرتح الضمير الإنسانى إلى هذا الحل وعارض فيه جمهور الأطباء، وإن كان الداعى إليه إراحة المرضى أنفسهم.

وقد ازداد الضمير الإنسانى سمواً حتى امتد على عالم الحيوانات، فأصبح الناس لا يطيقون أن يروا حوذياً يحمل عربته فوق ما تطيقه البهيمة التى تجرها، فوضعوا لذلك عقوبات رادعة، وعينوا رجالاً يراقبون الحيوانات العاملة حتى إذا رأوا فى دابة جرحاً، أو آنسوا فى مشيتها ظلعاً، أو فى جسمها نحولاً، قادوها إلى المستشفى الخاص بالحيوانات وعملوا على معالجتها.

ومما هو ذو دلالة عظيمة فى هذا الباب أن الأمم المتمدنة قررت منع تشريح الحيوانات وهى حية، لرؤية أعضائها الصدرية والبطنية وهى تعمل، إشباعاً للشهوة العلمية. وقد كان هذا التشريح سبباً للوقوف على معلومات تفصيلية فى الدورة الدموية والهضم وعمل العصارات المختلفة، ولكن الضمير البشرى رأى أن يستغنى عن هذه المعلومات التفصيلية؛ إذ لم يطق أن يسمح بحدوث مثل هذه القسوة، وحمل الحكومات على تحريم هذا النوع من البحث العلمى.

لو كانت اختصت بهذه الصفات النفسية العالية أمة دون أمة، لقلنا إنها من باب التأنق فى التظرف المدنى، ولكننا نراها عامة فى النوع البشرى، وإنما زادتها المدنية، والثقافة العلمية قوة.

ولعلنا نطرف القراء بما يسرهم إذا ذكرنا لهم أن الإسلام سبق العالم كله فى رفع مستوى الضمير الإنسانى، وإكبار شأنه، والعمل على إبلاغه السمو الذى هو أهل له.

فأما ما دعا إليه من العطف على الضعفاء، والرحمة بالمرضى، والحدب على اليتامى، والرفق بالأسرى، فلا سبيل إلى حصره، وقد تجلت آياته فى القرآن كله. ولكن الذى ننبه إليه أن الإسلام سبق المدنية الأوروبية فى تسرية مهمة الضمير البشرى على العالم الحيوانى أيضاً، بأكثر من ألف سنة. فقال ﷺ: «لو غفر لكم ما تأتون إلى البهائم لغفر لكم كثيراً»، وقال: «إن الله يرحم عبده المؤمن برحمته العصفور»، وقال: «لعن الله من مثل بالحيوان»، والمراد بالتمثيل به بتر أعضائه وقتله على هذه الصورة، واللعن من أشد العقوبات

الإلهية. وقال: «اركبوا هذه الدواب سالمة، أو تدعوها سالمة، ولاتتخذوها كراسى لأحاديثكم فى الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها» الحديث. وقال: «دخلت أمرأة النار فى هرة ربطتها، فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت».

وقد زاد الإسلام سمواً على كل ما رأيته من سمو الضمير الإنسانى فى العالم المتمدن، فنهى حتى عن لعن الحيوان، كما اعتاد الناس أن يفعلوه عند ما يستعصى عليهم، فقال النبى ﷺ: «لا تلعن إنساناً ولا دابة فترجع اللعنة إليك». وكان ﷺ على سفر فى بعض أصحابه، فلعن واحد منهم راحلته، فكره رسول الله ذلك ومنعه من ركوبها عقاباً له.

كلمة ختامية:

إذا كان شأن الضمير الأدبى من الحياة الإنسانية هو ما رأيت، فمن الذى يجرؤ أن يدعى أنه مادى بحت، وأنه لا صلة له بعالم أرفع من العالم الأرضى.

وكيف يمكن أن يدعى أنه لا أصل له غير الحاجة الحيوية، وأنت ترى أنه قد تعدى فى تطوره منطقة تلك الحاجات إلى مناطق أرفع منها، لا تدعو إليها حاجة الاجتماع، وأنه أصبح واحداً فى جميع فلسفات العلم المتمدن، حتى فلسفة الملاحدة؟

إذا لم يكن للإنسان وراء الشعور بحاجاته المادية، عاطفة أرقى منها لها حاجات من نوعها تتطلب توفيتها، فكيف يعقل أن يتعدى هذا الشعور المادى طوره، فيصل إلى آفاق أعلى مما لم يخلق له، آفاق يعدها الماديون الذين ينكرون الضمير الفطرى ضارة به، ومعطلة لتطوره، كإيثار الفقر على الغنى، والزهد فى متع الدنيا، والعزوف عن الشهرة وبعد الصيت، والعزلة لبلوغ الدرجات الروحية العالية؟

يعز على أصحاب الفلسفة المادية أن يعترفوا للإنسان بضمير فطرى هرباً من

عزوه إلى أصل روحانى فوق المادة، وهم لا يعترفون بوجود سواها، كأن الكون لايجور أن يكون فيه إلا ما تحس به حواسهم القاصرة . وقد أنكروا فى هذه السبيل القدرة المدبرة للكون، والروح الإنسانية، وكل ماسوى التراب والصخور، وإنى لا أشك فى أنهم يستطيعون أن يبنوا الكون بما فيه من العجائب، والعقلية البشرية بما احتوته من البدائع، ببضعة ألفاظ اخترعوها وسموها نواميس طبيعية. فهذه الفلسفة قد طعنت حتى لا تجد فيها مكاناً لطعن، ومزقت حتى لا تستطيع أن تصادف منها ما تمزقه، ومن العجيب أنها مع هذا المَحْق كله لاتزال تميس مختالةً فى بعض الرءوس!

فهرس الكتاب

الصفحة

مقدمة للدكتور محمد رجب البيومى. ———— ٧
كلمة الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد. ———— ١١
من تاريخ المؤلف للدكتور محمد رجب البيومى ———— ٢١
أ- القسم الأول
[فصول من السيرة المحمدية] ———— ٣١
أعمال النبى ﷺ وآثاره الخالدة. ———— ٣٣
الترابط القوى بين المسلمين. ———— ٣٩
تمهيد لدراسة الأصول القرآنية. ———— ٤٥
دحض العقائد الوثنية. ———— ٥٢
تقييم الشخصية الإسلامية. ———— ٦٠
آيات باهرة للإسلام. ———— ٦٦
سبق الإسلام. ———— ٧٢
الأصول القرآنية. ———— ٧٩
من الأصول القرآنية. ———— ٨٧
من الأصول القرآنية. ———— ٩٣
الحكمة الإسلامية. ———— ٩٩
ما قبل الحكمة الإسلامية. ———— ١٠٥
فلسفة أفلاطون وأرسطو مقارنة بالإسلام. ———— ١١١
الحكمة الإسلامية ماثلة فى صورة مذهب. ———— ١١٧

مذهب الحكمة الإسلامية فى الحياة والأخلاق ١٢٥
مذهب الحكمة الإسلامية فى روابط الاجتماع ١٣١
الحكمة الإسلامية وما وراء الطبيعة ١٣٧
نظرة على كل ما تقدم ١٤٣
توفية التعاليم الإسلامية بحاجات الناس ١٤٩
النبوة حاجة روحية لا معدى للإنسانية عنها ١٥٥

ب ـ القسم الثانى

[الروح الإسلامية ومدى تأثيرها فى النفس البشرية] ١٦٣

الروح الإسلامية ومدى تأثيرها فى النفس البشرية ١٦٥
مقابل هذه الروح من الشخصية الإنسانية ١٧١
المقومات الروحية للذات الإنسانية ١٧٦
المقومات النفسية للفرد والجماعة ١٨٣
مقومات النظر والتعقل والتفكير ١٩٠
مقومات علاقات الإنسان بالعالم الخارجى ١٩٦
مقومات العاطفة الاعتقادية فى الإسلام ٢٠٢
المقومات الخلقية ٢١٠
المقومات الجثمانية ٢١٥
المقومات الاجتماعية ٢٢٣
مقومات التكافل العالمى ٢٣٠
مقومات السياسة الدولية فى الإسلام ٢٣٧
المقومات الشرعية فى الإسلام ٢٤٥
مقومات التطور الأدبى والاجتماعى فى الإسلام ٢٥٢

جـ ـ القسم الثالث

[عناصر المدنية فى الديانة الإسلامية] ٢٥٩

عناصر المدنية فى الديانة الإسلامية(١) ٢٦١

عناصر المدنية فى الديانة الإسلامية(٢). ٢٦٦
عناصر المدنية فى الديانة الإسلامية (٣). ٢٧١
عناصر المدنية فى الديانة الإسلامية (٤). ٢٧٦
عناصر المدنية فى الديانة الإسلامية (٥). ٢٨١

د ـ القسم الرابع

[مباحث شتى] ٢٨٧
الحياة الدينية والحياة المدنية. ٢٨٩
ما يقوِّم المدنيات وما يفسدها. ٢٩٤
الإسلام حمى الإنسانية من الانهيار. ٣٠٢
الفتوحات الإسلامية حيّرت العلماء. ٣٠٧
الدين مطمأن النفس. ٣١١
هل فات زمن الأديان. ٣١٥
هل فى الإلحاد مادة للبقاء. ٣١٩
بين المتفائلين والمتشائمين. ٣٢٣
لماذا أنا متدين؟ ٣٢٨
الدين هو الكوة التى ينبع منها النور للإنسان. ٣٣٦
لـم كان الدين هو الكوة التى ينبع منها النور للإنسان؟ ٣٤١
الزهاوى والفلسفة المادية. ٣٤٦
ما هو الأثير؟ ٣٥٥
معترك المذاهب الأدبية(١) ما هو الضمير الأدبى؟ ٣٦٠
كلمة ختامية ٣٦٩